

من تراث المغرب

المعجب في فلدخيص أخبار المغرب

لعبد الواحد المراكشي

تقديم وتحقيق وتعليق

دكتور محمد زينهم محمد عزب

دار الفرماني
للنشر والتوزيع



المعجب
في تلخيص أخبار المغرب

من تراث المغرب

المعجب في تلخيص أخبار المغرب لعبد الواحد المراكشي

تقديم وتحقيق وتعليق

الدكتور / محمد زينهم محمد عزب

دار الفرماني للنشر والتوزيع

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

وبه نستعين

والصلاة والسلام على أفضل خلق الله محمد بن عبد الله الصادق الأمين ، وعلى آله وصحبه ومن تبع الهدى وبعد :

إن الدراسات التاريخية المغربية من الدراسات الإسلامية الهامة في حياة أمتنا العربية ، وهي صفحة هامة للباحثين والدارسين فلهذا أسرعت في تقديم كتاب « المعجب في تلخيص أخبار المغرب » ضمن سلسلة الدراسات المغربية ، حيث يُعتبر هذا الكتاب موسوعة أدبية من الطراز الأول ، وفي نفس الوقت طرازاً تاريخياً أو موسوعة تاريخية أيضاً ، فهذا الكتاب ألقى الضوء على ما يدور في منطقة الشرق والغرب الإسلامي حتى القرن السابع الهجري بشيء من الدقة والتفصيل .

فعبد الواحد المراكشي يمثل أديباً ومؤرخاً في آن واحد وله عدة آراء غريبة نذكر منها : أنه حد حدود بلاد المغرب فشملت جزيرة أيبيريا وجبال البرانس حتى المحيط الأطلسي أي ضمن دول ومدائن بلاد الأندلس ، كذلك المراكشي تعمق في دولة الموحدين على حساب الدويلات الأخرى .

وشخصية عبد الواحد المراكشي مجهولة من نواح عديدة سواء في مكان مولده أو تفقهه وعلمه وأين هم أساتذته ومشايخه . فالآراء مضطربة عنه فهناك رأى يقول إنه ولد في مدينة مراكش سنة ٥٨١ هـ في عهد أبي يوسف المنصور الموحدي ، وإنه ترك مراكش إلى فاس وهو يبلغ من العمر ٩ سنوات ، وقرأ القرآن والحديث ثم رجع إلى موطنه مراكش وظل يتردد بين فاس ومراكش من حين لآخر ، وأثناء وجوده في مدينة فاس التقى بالعالم أبي بكر بن زهر ، ولما بلغ من العمر ٢٢ سنة اتجه إلى مدينة الأندلس ، فاتصل بأبي إسحاق ابن أبي يوسف المنصور الموحدي وكان وقتذاك حاكماً لإشبيلية من قبيل أخيه محمد الناصر سلطان الموحدين ،

ثم تقابل في قرطبة مع أبى جعفر الحميرى يتعلم منه ويتأدب ، وكان المراكشى قد ذهب في رحلة لزيارة بلاد المشرق مثل مصر والشام والحجاز وبغداد حيث تقابل مع وزير السلطان الناصر لدين الله العباسى فأظهر عطفه وكرمه وجوده عليه .

صفوة القول : إن الكتاب يتحدث عن أدب وتاريخ بلاد المغرب والأندلس بشىء من الدقة والإمعان .

وقد اعتمدت في إظهار هذا الكتاب على تحقيق أستاذنا الجليل الأستاذ - محمد سعيد العريان مع وضع بعض الهوامش والتعليقات والخرائط والجداول .

د / محمد زينهم محمد عزب

القاهرة ١٤١٤ هـ / ١٩٩٤ م

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾

الحمد لله مَفْنَى الأُمَمِ ، وباعث الرمم ، وواهب الحكم ، ذى (١) البقاء والقدم ، الذى لا مطمع فى إدراكه لثواب الأذهان ونوافذ الهمم ؛ أحده على ما علم وألهم ، وسوّغ وأنعم ؛ وصلى الله على كاشف الظلم ، ورافع التُّهم ، ومُوضح الطريق الأُمَمِ (٢) المخصوصين بجوامع الكلم ، والمبتعث إلى جميع العرب والعجم ، وعلى آله وصحبه أهل الفضل والكرم ، وسلّم عليه وعليهم وشرّف وعظّم .

وبعد - أيها السيد الذى توالى على نعمه ، وأخذ بضبعى حضيضى الفقر والخرمول واعتناؤه وكرمه ، وقضى إحسانه إلىّ ومحبتة التى جُبِلْتُ عليها بأن ألتزم من بره وطاعته ما أنا ملتزمه - فإنك سألتنى - بوأك الله أعلى الرتب ، كما عمربك أندية الأدب ، ومنحك من سعادتى الدنيا والآخرة أوفر القسَم ، كما جمع لك فضيلتى التدبير والقلم - إملاء أوراق تشتمل على بعض أخبار المغرب وهيئته وحدود أقطاره ، وشيء من سير ملوكه ، وخصوصاً ملوك المصامدة بنى عبد المؤمن ، من لدن ابتداء دولتهم إلى وقتنا هذا - وهو سنة ٦٢١ م - وأن يضاف إلى ذلك نبذة من ذكر من لقيته أو لقيت من لقيه أو رويت عنه بوجه ما من وجوه الرواية ، من الشعراء والعلماء وأنواع أهل الفضل ؛ فلم أر بُدّاً من إسعافك والمسارة إلى ما فيه رضاك ؛ إذ هى الغاية التى أجرى إليها ، والبغية التى أثابر أبدأ عليها ؛ ولوجوب طاعتك علىّ من وجوه يكثر تعدادها ؛ فاستخرت الله عز وجل فيما ندبتنى إليه ، واستعنته واعتمدت فى ذلك عليه ؛ فهو الموئل والملجأ ، وهو حسبنا ونعم الوكيل .

هذا مع أنى أعتذر لمولانا - فسح الله فى مدته - من تقصير إن وقع بثلاثة أوجه من الأعذار :

(١) إضافة من عندنا للسياق مع المعنى .

(٢) بمعنى الطريق الواضح أو الظاهر .

فأولها : ضعف عبارة المملوك وغلبة العنى على طباعه ، فمهما وقع في هذا الإملاء من فتور لفظ ، أو إخلالٍ بسرد ، فهو خليق بذلك .

والوجه الثانى : أنه لم يصحبنى من كتب هذا الشأن شىء أعتمد عليه وأجعله مستنداً كما جرت عادة المصنفين ، وأما دولة المصامدة خصوصاً فلم يقع إلّ لأحد فيها تأليف أصلاً ، خلا أنى سمعت أن بعض أصحابنا جمع أخبارها واعتنى بسيرها ، وهذا المجموع لا أعرفه إلا سماعاً .

والوجه الثالث : أن محفوظاتى في هذا الوقت على غاية الاختلال والتشتت ؛ أوجبت ذلك هموم تزدحم على الخاطر ، وغموم تستغرق الفكر ، فرغبة المملوك الأصغر إجراء مولانا إياه على جميل عاداته وحميد خلقه من التسامح والتغاضى ، لا زال مجده العالى يرفع الهمم ، ويعقد الهمم ، ويوصل النعم ، ويعمر ربوع الفضل والكرم .

فصل

فص ذكر جزيرة الأندلس وحدودها

فأول ما يقع الابتداء به ذكر جزيرة الأندلس (١) وتحديدتها والتعريف بمدنها ونبذ من أخبارها وسير ملوكها ، من لدن فتحها إلى وقتنا هذا وهو سنة ٦٢١ ؛ إذ هي كانت معتمد المغرب الأقصى ، والمعتبر منه ، والمنظور إليها فيه ، وهي كانت كرسى المملكة ، ومقر التدبير ، وأم قري تلك البلاد ، لم يزل هذا معروفاً من أمرها إلى أن تغلب عليها يوسف بن تاشفين اللمتوني (٢) ، فصارت إذ ذاك تبعاً لمراكش من بلاد العُدوة (٣) ، ثم تغلب عليها المصامدة بعده (٤) فاستمر الأمر على ذلك إلى وقتنا هذا ، فأقول وبالله التوفيق :

أما حدود جزيرة الأندلس فإن حدها الجنوبي منتهى الخليج الرومي الخارج من بحر مانطس ، وهو البحر الرومي (٥) مما يقابل طنجة (٦) ، في موضع يعرف بالزقاق (٧) ، سعة البحر هنالك اثنا عشر ميلاً : وهذا الخليج هو ملتقى البحرين ، أعنى بحر مانطس وبحر

(١) يقال بضم الذال وفتحها وضم الدال ليس إلا ، وهي كلمة أعجمية لم تستعملها العرب في القديم وإنما عرفت العرب في الإسلام . فالأندلس جزيرة كبيرة فيها عامر وغامر طولها نحو الشهر في نيف وعشرين مرحلة .

الجزيرة : الأرض التي يدور بها الماء من جميع جهاتها ، وليست الأندلس كذلك ، فهي تتصل من الشرق بالأرض الكبيرة « فرنسا » ، وإنما سميت جزيرة على المجاز ، كما سميت جزيرة العرب في آسيا جزيرة وليست كذلك .

(٢) المقصود بها دولة المرابطين .

(٣) يقصد به الشاطئ الأندلسي وقد قيل شاطئ الإفريقي أو شاطئ المغرب الأقصى ، ولكن القول الأول أقرب إلى الصواب .

(٤) المقصود بها دولة الموحيدين .

(٥) يقصد بالبحر الأبيض المتوسط وكان قديماً عند الجغرافيين والفلكيين اسم للبحر الذي نطلق عليه الآن بحر آزوف الذي يخترق إلى البحر الأسود ثم إلى بحر مرمرة ثم إلى البحر الأبيض ، ولكن المؤلف أطلق عليه بحر مانطس أي بحر الروم وهذا بعيد كل البعد عن الحقيقة .

(٦) بالفتح ثم السكون والجيم وهاء بلد على ساحل بحر المغرب مقابل الجزيرة الخضراء وهو من البر الأعظم وبلاد البربر . وقد قيل : إن طنجة آخر حدود إفريقية .

(٧) بضم أوله وآخره مثل ثانيه وهو في الأصل طريق نافذ وغير نافذ ضيق دون السكة وهي مدينة بالمغرب على البر المتصل بالإسكندرية والجزيرة الخضراء وهي في جزيرة الأندلس .

أقيانس^(١)، وحداها الشمالى والمغربى البحر الأعظم ، وهو بحر أقيانس المعروف عندنا ببحر الظلمة ، وحدها المشرقى الجبل الذى فيه هيكل الزهرة الواصل ما بين البحرين : بحر الروم وهو مانطس ، والبحر الأعظم ، ومسافة ما بين البحرين من هذا الجبل قريب من ثلاث مراحل ، وهو الحد الأصغر من حدود الأندلس ، وحداها الأكران الجنوبى والشمالى مسافة كل واحد منهما نحو من ثلاثين مرحلة ، وهذا الجبل الذى ذكرنا فيه هيكل الزهرة الذى هو الحد المشرقى من الأندلس ، هو الحاجز ما بين بلاد الأندلس وبين بلاد إفرنسية من الأرض الكبيرة ، أرض الروم التى هى بلاد إفرنجة العظمى^(٢) .

والأندلس آخر المعمور فى المغرب ، لأنها - كما ذكرنا - متتية إلى بحر أقيانس الذى لا عمارة وراءه .

ومسافة ما بين طليطلة التى هى قريبة من وسط الأندلس ، ومدينة رومية قاعدة الأرض الكبيرة ، قريب من أربعين مرحلة ، ووسط الأندلس - كما ذكرنا - مدينة طليطلة العتيقة ، التى كانت قاعدة القوطا من قبائل الإفرنج ، ثم ملكها المسلمون زمان الفتح على ما سيأتى

(١) هو الأوقيانوس ، أو المحيط الأطلسى ، نسبة إلى سلسلة جبال أطلس التى تشرف عليه من المشرق ، وله فى كتب القدماء أسماء شتى ، فهو الأوقيانوس ، وبحر الظلمات ، أو بحر الظلمة ، والبحر الأخضر ، والمحيط ، وإليه بلغ عقبة بن نافع الفهري فى فتوحه فى القرن الأول للهجرة ، وعلى شاطئه وقف على صهوة جواده وقفته المأثرة وهو يقول : « اللهم رب محمد ، لولا أنى لا أعلم وراء هذا البحر يابسة لاقتحمت هذا الهول المائج لأنشر اسم مجدك العظيم فى أقصى حدود الدنيا . . . » أو كما قال . ترى ماذا كان يحدث لو أن عقبة كان يعلم يومئذ أن وراء ذلك الهول المائج بلاداً وناساً ودنيا تعدل فى الغنى والعمران سائر بلاد الدنيا القديمة !

ولكن أحفاد عقبة من عرب الأندلس قد علموا فيما بعد ، ووطئت أقدامهم أرض أمريكا قبل أن تطأها قدم كولبوس بسنين ، ولكنهم - وأسفا - قد ضيعوا الأمانة وأفلتوا الفرصة فنسب فضل اكتشاف أمريكا دونهم إلى نصارى الأسبان !

وقد يسمى هذا المحيط بالمحيط الأطلنطى ، نسبة إلى « أطلنطا » وهى الجزيرة الرملية التى خسف بها فى متاهات الصحراء الكبرى على ما جاء فى بعض الأساطير .

(٢) يقصد بها كل ما يقع فى شبه جزيرة الأندلس شرقاً وغرباً إلى القسطنطينية من أراضى يطلق عليها بلاد إفرنجة ومركزها رومية .

بيانه ، وعرضها تسع وثلاثون درجة وخمسون دقيقة ، وطولها ثمان وعشرون درجة بالتقريب ، فصارت بذلك قريباً من وسط الإقليم الخامس .

وأقل بلاد الأندلس عرضاً المدينة المعروفة بالجزيرة الخضراء ، على البحر الجنوبي منها^(١) ، وعرضها ست وثلاثون درجة ، وأكثر مدنها عرضاً بعض المدائن التى على ساحلها الشمالى ، وعرض ذلك الموضع ثلاث وأربعون درجة .

فتبين بما ذكرنا أن معظم الأندلس فى الإقليم الخامس أميلُ إلى الشمال ، فلذلك اشتد بردها وطالت مدة الشتاء فيها وعظمت جسوم أهل ذلك الميل وايضت ألوانهم وكانت أذهانهم إلى الغلظ ما هى ، فنبت عن كثير من الحكمة .

وطائفة من الأندلس فى الإقليم الرابع ، كإشبيلية ومالقة وقُرطبة وغرناطة والمرية ومُرسية ، فهذه البلاد التى ذكرنا فى الإقليم الرابع أعدل هواء وأطيب أرضاً وأعذب مياهاً من البلاد التى فى الإقليم الخامس ، وأهلها أحسن ألواناً وأجمل صوراً وأفصح لغة من أولئك ، إذ كان للميول والسُّموت فى اللغات تأثير بيّن لمن استقرأ ذلك وفهم علته .

وجملة مدن الأندلس التى هى أمهات قراها ومراكز أعمالها ومواضع مخاطبات أولى الأمر منها : أولاهما فى الحد الشمالى مدينة شلب ، ثم مدينة إشبيلية ، ثم قرطبة ، ثم جِيَّان ، ثم أغرناطة^(٢) ، ثم المرية ، ثم مُرسية ، ثم بلنسية ، ثم مالقة وهى على البحر الرومى .

فالذى على البحر الأعظم من هذه المدائن : شلب ، وإشبيلية ، وبينهما قريب من خمس مراحل .

والذى على البحر الرومى المدينة المعروفة بالجزيرة الخضراء ، وهى من أعمال إشبيلية ، ثم مالقة ، وهى مستقلة ، ثم المرية ، ثم دانية : هذه كلها على البحر الرومى ، ثم سائر ما ذكرنا من المدن ليست على ساحل .

(١) يطلق عليه قديماً بحر الروم .

(٢) ذكرت فى كثير من المصادر والمراجع غرناطة .

ولما استقر أمر المسلمين بالأندلس في غُرة المائة الثانية ، تخيروا مدينة قرطبة فجعلوها كرسى المملكة ومقر الإمارة ، فلم تزل على ذلك إلى أن انقرضت دولة بنى أمية بالأندلس ، فتغلب على كل جهة من الجزيرة متغلبٌ على ما سيأتى بيانه .

وهذه المدن التى ذكرتُ هى التى يملكها المسلمون اليوم ، وقد كانوا يملكون قبلها مدناً كثيرة لم أذكرها فى هذا الموضع ، إلا أن ذكرها سيرد فيما يأتى من تفصيل أخبار الأندلس ، تعرف ذلك بقولى : « أعادها الله للمسلمين » .

فهذه جملة من أخبار الأندلس وحدودها وبلادها الكائنة بأيدي المسلمين .

فتح الأندلس
وذكر لمحة عنها قبل الفتح

ثم نعود إلى افتتاحها فنقول والله الموفق :

افتتح المسلمون جزيرة الأندلس في شهر رمضان سنة ٩٢ من الهجرة ، وكان فتحها على يد طارق ، قيل ابن زياد ، وقيل ابن عمرو ، وكان والياً على طنجة ، مدينة من المدن المتصلة ببر القيروان في أقصى المغرب ، بينها وبين الأندلس الخليج المذكور المعروف بالزقاق ، وبالمجاز ، رثبه موسى بن نصير أمير القيروان ، وقيل : إن مروان بن موسى بن نصير خلف طارقاً هناك على العساكر وانصرف إلى أبيه لأمرٍ عَرَضَ له ، فركب طارق البحر إلى الأندلس من جهة مجاز الجزيرة الخضراء ، منتهزاً لفرصة أمكنته ، وذلك أن الذي كان يملك ساحل الجزيرة الخضراء وأعمالها من الروم^(١) خطب إلى الملك الأعظم ابنته ، فأغضب ذلك الملك ، ونال منه وتوَعَّده ، فلما بلغه ذلك جمع جمعاً عظيماً وخرج يقصد بلد الملك ، فبلغ طارقاً خلواً تلك الجهة ، فهذه الفرصة التي انتهزها . . .

وقيل : إن العليج كتب إليه بالعبور لسبب أنا ذاكره ، وهو أن لذريق ملك الجزيرة لعنه الله كان له رسمٌ : يوجه إليه أعيان قواده و (أمراء دولته)^(٢) ببناتهم ، فيربيهن عنده في قصوره ويؤدبهن بالآداب الملوكية حسبما كانوا يرونه . . . ؛ فإذا بلغت الجارية منهن وحسن أدبها زوجها في قصره لمن يرى أنه كفء أبيها ، فوجه إليه صاحب الجزيرة الخضراء وأعمالها بابتته على الرسم المذكور ، فكانت عنده إلى أن بلغت مبلغ النساء ، فرآها يوماً فأعجبته ،

(١) يذكر المراكشي فيما يلي سببين لدخول طارق الأندلس ، خلاصتهما أن الذي حُبب إليه ذلك هو حاكم الجزيرة الخضراء من قبل ملك القوط ، والذي عليه أكثر المؤرخين أنه كان حاكماً لسبته أو طنجة ، على الشاطئ المغربي ، ويصفه ابن القوطية بأنه كان تاجراً من تجار العجم ، يعنى الروم ، أو القوط ، لا أميراً من أمرائهم ولا حاكماً من حكامها ، واسمه يوليان ، « وكان يختلف من الأندلس إلى بلاد البربر - المغرب - ويجلب إلى لذريق عتاق الخيل والبزاة من ذلك الجانب ، فتوفيت زوجة ذلك التاجر وتركت له ابنة جميلة ، فأمره لذريق بالتوجه إلى العدو ، فاعتذر له بوفاة زوجته وأنه ليس له أحد يترك ابنته معه ، فأمر بإدخالها القصر ، ف وقعت عين لذريق عليها فاستحسنها فناها ، فأعلمت أباهاً بذلك عند قدومه فقصد طارق بن زياد فرغبه في الأندلس وذكر له شرفها وضعف أهلها وأنهم ليسوا أهل شجاعة . . . » .

(٢) إضافة من المطبوع .

فدعاها فأبت عليه ، وقالت : لا والله حتى تُحضر الملوك والقواد وأعيان البطارقة وتتزوجني ، هذا بعد مشورة أبي ! فغلبته نفسه واغتصبها على نفسها ، فكتبت إلى أبيها تُعلمه بذلك : فهذا كان السبب الذي بعثه على مكاتبة طارق والمسلمين فكان الفتح ، فالله أعلم أي ذلك كان ، فأول موضع نزل فيه يقال منها : المدينة المعروفة بالجزيرة الخضراء اليوم ، نزلها قبيل الفجر ، فصلى بها الصبح بموضع منها وعقد الرايات لأصحابه ، فبُني بعد ذلك هناك مسجد وعرف بمسجد الرايات ، وهو باق إلى وقتنا هذا ، أسأل الله إبقاءه إلى أن تقوم الساعة . . .

ثم دخل طارق هذه الأندلس وأمعن فيها واستظهر على العدو بها ، وكتب إلى موسى ابن نصير مُوليه بخبر الفتح وغلبته على ما غلب عليه من بلاد الأندلس وما حصل له من الغنائم ، فحسده موسى على الانفراد بذلك ، وكتب إلى الوليد بن عبد الملك بن مروان يعلمه بالفتح وينسبه إلى نفسه ، وكتب إلى طارق يتوعده ، إذ دخلها بغير إذنه ، ويأمره ألا يتجاوز مكانه الذي ينتهي إليه الكتاب فيه حتى يلحق به ، وخرج متوجهاً إلى الأندلس ، واستخلف على القيروان ابنه عبد الله ، وذلك في رجب سنة ٩٣ ، وخرج معه حبيب بن أبي عبيدة الفهري^(١) ووجوه العرب والموالي وعرفاء البربر في عسكر ضخم ، ووصل من جهة المجاز إلى الأندلس وقد استولى طارق على قرطبة دار المملكة وقتل لذريق الملك - لعنه الله - بالأندلس ، فتلقاه طارق وترضاه ، ورام أن يستل ما في نفسه من الحسد له ، وقال له : إنما أنا مولاك ومن قبلك ، وهذا الفتح لك وبسببك ، وحمل طارق إليه ما كان غنم من الأموال ، فلذلك نُسب الفتح إلى موسى بن نصير ، لأن طارقاً من قبله ، ولأنه أتم من الفتح ما كان بقي على موسى .

وأقام موسى بالأندلس مجاهداً وجامعاً للأموال ومرتباً للأمور بقية سنة ٩٣ وسنة ٩٤ وأشهرًا من سنة خمس ، وقبض على طارق ، ثم استخلف على الأندلس ابنه عبد العزيز

(١) انظر : نهاية الأرب للنويري ، وفجر الأندلس للدكتور حسين مؤنس .

ابن موسى ، وترك معه من العساكر ووجوه القبائل من يقوم بحماية البلاد وسد الثغور وجهاد العدو، ورجع إلى القيروان ، ثم سار منها بما حصل من الغنائم وأعدّه من الهدايا إلى الوليد ابن عبد الملك - وكان مما وجد بمدينة طليطلة حين فتحها ، مائدة سليمان بن داود عليها السلام ، فيقال إنها طوق ذهب وطوق فضة ، مكلفة باللؤلؤ والياقوت - ومعه - فيما يقال - طارق ، فمات الوليد وقد وصل موسى إلى طبرية في سنة ٩٦ ، فحمل ما كان معه إلى سليمان ابن عبد الملك ، ويقال : إنه وصل وأدرك الوليد حيًّا ، فالله أعلم .

وأقام عبد العزيز بن موسى بن نصير أميراً على الأندلس إلى أن ثار عليه من الجند جماعة ، فيهم حبيب ابن أبي عبيدة الفهرى ، وزباد ابن النابغة التميمي ، فقتله بعضهم ، وخرجوا برأسه إلى سليمان بن عبد الملك - وذلك في صدر سنة ٩٨ - (١) بعد أن أمروا على الأندلس أيوب ابن أخت موسى بن نصير (٢) ويقال : إنهم كتبوا إلى سليمان بما أنكروا من أمره ، فأمرهم بما فعلوه ، فالله أعلم .

ثم اختلف الأمر هنالك ، ومكث أهل الأندلس بعد ذلك زماناً لا يجمعهم وال ، ثم ولى عليها السمع بن مالك الخولاني قبل المائة (٣) ، واجتمع عليه الناس ، ثم ولى عليها الغمر بن عبد الرحمن بن عبد الله ، ثم وليها عنيسة بن سحيم الكلبي وعزل الغمر بن عبد الرحمن ، ثم وليها عبد الرحمن بن عبد الله العكي نحواً من العشر ومائة ، وكان رجلاً

(١) كان مقتله في المسجد وهو قائم لصلاة الصبح ، وكان قد اتخذ داراً في كنيسة تشرف على مرج إشبيلية ، ونكح امرأة لذريق القوطية وسماها أم عاصم ، وآواها إلى داره تلك ، وابتنى على باب الدار مسجداً هو الذي قتل فيه ، وقد بقى دمه في ذلك المسجد زماناً ! .

(٢) هو أيوب بن حبيب اللخمي .

(٣) كانت الأندلس يومئذ إلى والي إفريقية يولى عليها من يختار ، وكانت ولاية إفريقية بعد عزل موسى بن نصير إلى عبد الله بن يزيد مولى قيس ، فولى على الأندلس من قبله الحر بن عبد الرحمن الثقفي ، فلم يزل عليها حتى استخلف عمر بن عبد العزيز ، فجعل على إفريقية إسماعيل بن عبد الله مولى بني مخزوم ، وعلى الأندلس السمع بن مالك الخولاني .

صالحا ، ثم وليها عبد الملك بن قطن الفهرى ، ثم عقبة بن الحجاج ، فهلك عقبة بالأندلس ورُدَّ عبد الملك بن قطن ، ثم جاء بلج بن بشر فادعى ولايتها من قبل هشام بن عبد الملك ، وشهد له بعض من كان معه ، ووقعت فتن من أجل ذلك ، وافترق أهل الأندلس فيها على أربعة أمراء ، حتى أرسل إليهم واليا أبو الخطار حسام بن ضرار الكلبي ، فحسم مواد الفتن ، وجمعهم على الطاعة بعد الفرقة ، وفي تقديم بعض هؤلاء الأمراء على بعض اختلاف ، إلا أن هؤلاء المذكورين كانوا أمراء ها وولاة الحروب فيها أيام بنى أمية قبل ذهاب دولتهم في المشرق (١) .

(١) انظر : الحلة السيرة لابن الأبار تحقيق الدكتور حسين مؤنس طبعة دار المعارف - القاهرة .

ذكر من دخل الأندلس من التابعين

وأنا ذاكرها هنا من دخل الأندلس من التابعين للجهاد والرباط :

فمنهم : محمد بن أوس بن ثابت الأنصاري ، ويروى عن أبي هريرة .

ومنهم : حنش بن عبد الله الصنعاني ، ويروى عن علي بن أبي طالب وفضالة بن عبيد

ومنهم : عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي ، يروى عن عبد الله بن عمر بن الخطاب .

ومنهم : يزيد بن قاسط ، وقيل ابن قسيط ، السكسكي المصري ، يروى عن عبد الله

ابن عمرو بن العاص .

ومنهم : موسى بن نصير الذي يُنسب الفتح إليه ، يروى عن تميم الداري .

فضل بلاد المغرب

**ذكر خبر دخول عبد الرحمن
ابن معاوية الأندلس**

وفي هذه السنة دخل عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان الأندلس ، الملقب بالداخل : فقامت معه اليمانية ، وحارب يوسف بن عبد الرحمن ابن أبي عبدة^(١) بن عقبة بن نافع الفهري الوالي على الأندلس المذكور آنفاً ، فهزمه . واستولى عبد الرحمن على قرطبة دار الملك ، وكان دخوله إياها يوم الأضحى من السنة المذكورة ، فاتصلت ولايته إلى أن مات سنة ١٧٢ .

وكان مولده بالشام سنة ١١٣ ، أمه أم ولد اسمها « راح »^(٢) ويكنى أبا المطرف ، دخل الأندلس في ذي القعدة ، واستولى على قرطبة دار ملكها في التاريخ المذكور ، وذلك أنه هرب من الشام لما انتشرت دولة بني العباس ، فلم يزل مستتراً ينتقل في بلاد المغرب حتى دخل الأندلس ، ودخل حين دخلها طريداً وحيداً لا أهل له ولا مال ، فلم يزل يُصَرِّف حيله ويسمو بهمته والقدر مع ذلك يوافقه ، إلى أن احتوى على ملكها ومَلَكَ بعض بلاد العدو ، وكان أبو جعفر المنصور إذا ذكر عنده قال : « ذاك صقر قريش »^(٣) .

(١) انظر : الحلة السراء .

(٢) كانت أمه راح بربرية من بنى نفرة في طرابلس وكذلك كانت أم أبي جعفر المنصور بربرية .
(٣) روى ابن خلدون أن بنى أمية لما نزل بهم بالمشرق ما نزل وغلبهم بنو العباس على الخلافة وأزالوهم عن كرسيتها وتبعوا بنى أمية بالقتل - كان ممن أفلت منهم عبد الرحمن بن معاوية هذا ، وكان قومه يتحينون له ملكاً بالمغرب ويرون فيه علامات لذلك يُؤثرونها عن مسلمة بن عبد الملك (عم أبيه) . فكان يحدث نفسه بذلك ، فخلص إلى المغرب ونزل على أخواله بنى نفرة ، واستنصر بقوم من زناتة ، ثم انتقل إلى مكناسة فمليلة وبعث مولاة بدراناً إلى أشياخ بنى مروان في الأندلس يستنصرهم ، فاجتمعوا عليه وبشوا له في الأندلس دعوة ونشروا له ذكراً ، ووافق قدومه ما كان من الإحن بين اليمانية والمضرية ، فاجتمعت اليمانية على نصرته كيداً ليوسف بن عبد الرحمن الفهري ، وعبر عبد الرحمن المجاز والظروف مواتية ، ونشبت الحرب بينه وبين يوسف وهو ينتصر في موقعة إثر موقعة ، حتى غلب يوسف على أمره واحتز رأسه ودخل قرطبة حاضرة الملك . . .

وظل عبد الرحمن الداخل يدعو للمنصور على منابر الأندلس زماناً ثم قطع دعوته ، ولكنه اكتفى من ذلك بلقب الأمير تأدياً مع الخلافة ، وظل خلفاؤه من بعده مقتصرين على لقب الإمارة ، حتى كان من عقبه عبد الرحمن الناصر ، وهو الثامن من أمراء بنى أمية بالأندلس ، فتسمى بأمر المؤمنين ، كان ذلك حين ضعف أمر الخلافة العباسية في بغداد بعد المائة الثالثة ، وتوارث أبناؤه الإمارة من بعده إلى أن كانت آخره الدولة المروانية في الأندلس .

وكان عبد الرحمن بن معاوية من أهل العلم ، وعلى سيرة جميلة من العدل ، ومن قضاته معاوية بن صالح الحضرمي الحمصي ، وله أدب وشعر ، وما أنشده وقاله يتشوق إلى معاهدة بالشام (١) قوله :

أَيُّهَا الْـراَكِبُ الْمَيِّمُ أَرْضِي أَقْرَأُ مِنْ بَعْضِ السَّالَامِ لِبَعْضِي
إِنْ جَسَمِي كَمَا عَلِمْتَ بِأَرْضِ وَفَوَادِي وَمَالِكِيهِ بِأَرْضِ
قُدِّرَ الْبَيْنُ بَيْنَنَا فَاغْتَرَقْنَا وَطَوَى الْبَيْنُ عَنْ جَفَوْنِي غَمَضِي
قَدْ قَضَى اللَّهُ بِالْفِرَاقِ عَلَيْنَا فَعَسَى بِاجْتِمَاعِنَا سَوْفَ يَقْضِي !

وله شعر كثير أبرغ من هذا أورده المؤرخون في كتبهم (٢) ، وكانت مدة ولايته منذ استولى على قرطبة دار الملك إلى أن توفي ، اثنتين وثلاثين سنة .

(١) كتب بها إلى أخته بالشام .

(٢) روى أن بعض أهله استقل ما رتب له من العطاء ، فكتب إليه يذكره بحقه ويسأله زيادة عطائه ، وكأنها شعر عبد الرحمن بعض المن في كتاب قريبه هذا المرواني ، فكتب إليه مجيباً .

شَتَّانَ مِنْ قَامَ ذَا امْتِعَاضٍ مَنْتَضَى الشَّفِـرَتَيْنِ نَصْـلا
فَجَابَ قَفْـرًا ، وَشَقَّ بِحِـرًّا مُسَامِيـاً لَجَّةً وَمَحْلا
دَبَرَ مَلَكًا ، وَشَادَ عَزَا وَمَنْبَرًا لِلْخَطِّـابِ فَصْـلا
وَجَنَدَ الْجَنَدِ حِينَ أَوْدَى وَمَصْرَ الْمَصْرِ حِينَ أَجْلَى
ثُمَّ دَعَا أَهْلَهُ إِلَيْهِ حَيْثُ انْتَاوَا أَنْ هَلُمَّ أَهْلُـلا
فَجَاءَ هَذَا طَرِيدٌ جَوْعٍ شَدِيدٍ رَوْعٍ يَخَافُ قَتْـلا
فَنَالَ أَمْنًا وَنَالَ شَبْعًا وَنَالَ مَالًا ، وَنَالَ أَهْلًا
أَلَمْ يَكُنْ حَقَّقَ ذَا عَلَى ذَا أَعْظَمَ مِنْ مُنْعَمٍ وَمَسْـوْلَى !

ويروى هذا الشعر على وجه آخر لسبب آخر ، ذلك أن جماعة من القادمين عليه من قبل الشام كانوا يتحدثون في مجلسه عن شجاعة الغمر بن يزيد بن عبد الملك في مجلس عبد الله بن علي السفاح أيام المحنة ، حين جبهه بالمعارضة لم تردعه هيبة مجلسه ولا سيوف شيعته الخافين من حوله ، مستطيلًا بنسبه وآله والملوك من آبائه ، حتى أغص عبد الله بن علي بريقة ، لم يسكت حتى تناولته سيوف بني العباس تمزقه . . . فكان الأمير عبد الرحمن حين استمع إلى حديث أولئك القوم في التنويه بشجاعة الغمر بن يزيد قد استصغر ذلك منه ورأى نفسه فيما بلغ بهمته أعظم قدرًا منه ، فقال ذلك الشعر . . .

ولاية الأمير هشام بن عبد الرحمن

ثم وَلَّى بعد عبد الرحمن ابنه هشام ، يكنى أبا الوليد ، وسنه حينئذ [خمس و (١) ثلاثون سنة] ، واتصلت ولايته سبعة أعوام (٢) إلى أن مات في صفر سنة ١٨٠ وكان حسن السيرة ، متحريراً للعدل ، يعود المرضى ، ويشهد الجنائز ، ويتصدق بالصدقات الكثيرة ، وربما كان يخرج في الليالي المظلمة الشديدة المطر ومعه صُرر الدراهم يتحرى بها المساكين وذوى البيوتات من الضعفاء ، لم يزل هذا مشهوراً من أمره إلى أن مات في التاريخ المذكور ، أمه أم ولد اسمها حوراء .

(=) وبلغه وقد استقامت له الدولة أن بعض من أعانه يمن عليه بما بذل له من المعونة ويزعم أنه لولا جهده ما بلغ الداخل مبلغاً ، وأنه نال ما نال بسعده لا بتدبيره وعقله ، فحرك ذلك عبد الرحمن إلى شعر يروى له ، وهو :

« لولاي ما ملك الأنعام الداخل »
ومقدار بلغت وحال حائل
نجم يطالعنا ونجم أقل
أيروم تدبير البرية غافل ؟
خير السعادة ما حماها العاقل
بالغرب رغماً والسعدو قبائل
فالملك فيكم ثابت متواصل

تناءت بأرض الغرب عن بلد النخل
وطول اكتئابى عن بنى وعن أهلى
فمثلك فى الإقصاء والمنتأى مثلى
يصح ويستمرى المساكين بالوبلى

لا يلف ممتنّ علينا قائل :
سعدى وحزمى والمهند والقنا
إن الملوك مع الزمان كواكب
والحزم كل الحزم ألا يغفلوا
ويقول قوم سعدّه لا عقله
أبنى أمية قد جبرنا صدعكم
ما دام من نسلى إمام قائم

ومن شعره قد رأى نخلة فى رصافته بقرطبة :

تبدت لنا وسط الرصافة نخلة
فقلت شبيهى فى التغرب والنوى
نشأت بأرض أنت فيها غريبة
سقتك غوادرى المزن فى المنتأى الذى

(١) إضافة من نفح الطيب للمقرى .

(٢) قيل : قضى فى الحكم ثمان سنوات ولكن الثابت تاريخياً أنه مكث فى الحكم سبع سنوات وعدة شهور .

ولاية الحكم بن هشام الملقب بالربضى

ثم ولى بعده ابنه الحكم وله اثنتان وعشرون سنة ، يكنى أبا العاصى ، أمه أم ولد اسمها زُحرف ، وكان طاغياً مسرفاً ، وله آثار سوء قبيحة ، وهو الذى أوقع بأهل الربض الواقعة المشهورة^(١) ، فقتلهم وهدم ديارهم ومساجدهم ، وكان الربض محلة متصلة بقصره ، فاتهمهم فى بعض أمره ، ففعل بهم ذلك ، فسمى الحكم الربضى لذلك .

وفى أيامه أحدث الفقهاء إنشاد أشعار الزهد والحض على قيام الليل فى الصوامع ، أعنى صوامع المساجد ، وأمروا أن يخلطوا مع ذلك شيئاً من التعريض به ، مثل أن يقولوا : « يا أيها المسرف المتماذى فى طغيانه ، المصر على كبره ، المتهاون بأمر ربه ، أفق من سكرتك ، وتنبه من غفلتك . . . » وما نحا هذا النحو ، فكان هذا من جملة ما هاجه وأوغر صدره عليهم ، وكان أشد الناس عليه فى أمر هذه الفتنة الفقهاء ، هم الذين كانوا يحرضون العامة ويشجعونهم ، إلى أن كان من أمرهم ما كان .

وحكى أبو مروان ابن حيان أخبار الأندلس ، أنه لما تُشور عليه القصر وأحس بالشر ، قال لأخص غلماناه : اذهب إلى فلانة ، إحدى كرائمه ، وقل لها تعطيك قارورة الغالية^(١) ، فأبطأ الغلام وتلكأ ، فأعاد ذلك عليه ، فقال : يا مولاي ، هذا وقت الغالية ؟ فقال له : ويلك يا ابن الفاعلة ! بم يُعرف رأسى إذا قطع من رءوس العامة إن لم يكن مضمخا

(١) تفصيل هذه الواقعة أن الحكم الربضى هذا فى صدر ولايته قد انهمك فى لذاته ومبازله حتى اشتهر أمره وتعقبه الناس بالسنتهم ، وكان الفقهاء يومئذ هم قادة الرأى فى البلاد ، فاجتمع منهم بقرطبة جماعة من أهل الفقه والورع ، منهم يحيى بن يحيى الليثى ، وطالوت بن عبد الجبار المعافى ، ومن أصحاب مالك بن أنس ورواة الموطأ ، فثاروا به يريدون خلعه وإقامة أخيه المنذر بن هشام مكانه ، وكان اجتماعهم بالربض الغربى من قرطبة ، ثم زحفوا إلى قصره ، فقاتلهم الحكم فغلبهم ، وهدم دورهم ومساجدهم ، وفر من بقى منهم على وجهه ، فمنهم من لحق بفاس من أرض العدو ، ومنهم من لحق بالإسكندرية من أرض المشرق ، ثم لم يلبث هؤلاء الذين لحقوا بالإسكندرية أن ثاروا بها ثورة أخرى ، وكانت مصر يومئذ إلى عبد الله بن طاهر من قبل المأمون ، فزحف إليهم عبد الله بن طاهر وغلبهم ، ففروا من وجهه إلى إفريطش (كريت) فلم يزالوا بها إلى أن ملكها الإفرنج من أيديهم بعد مدة .

بالغالية ؟ ثم إنه ظهر بعد هذا عليهم ، وذلك أنهم كانوا يقاتلون القصر وعامة الحشم والجند يشغلونهم ، إلى أن دهمتهم الخيل من ورائهم ، فانهزموا وقتلوا قتلاً قبيحاً ، وأمر بديارهم ومساجدهم فهدمت وحُرقَت ، وأمر بنفى من بقى منهم عن البلاد ، فخرجوا حتى نزلوا جزيرة إقريطش من جزائر البحر الرومى المقابلة لبرقة أول المغرب ، فلم يزالوا هنالك سنين إلى أن تفرقوا ، فرجع بعضهم إلى الأندلس ، واختار بعضهم سكنى صقلية ، وانتقل بعضهم إلى الإسكندرية .

ومن أعجب ما حكى أبو مروان ابن حبان المؤرخ مما يتصل بخبر هذه الواقعة ، قال : كان من أشد الناس على الحكم هذا تحريضاً ، رجلٌ من الفقهاء اسمه طالوت (٢) كان جليل القدر في الفقهاء ، رحل إلى المدينة وسمع من مالك بن أنس وتفقه على أصحابه ، وكان قوياً في دينه ، فلما أوقع الحكم بأهل الرض - كما ذكرنا - وأمر بتغريب من بقى منهم ، كان ممن أمر بتغريبه طالوت الفقيه ، فعسر عليه الانتقال ومفارقة الوطن ، ورأى الاختفاء إلى أن تتغير الأحوال ، فاستخفى في دار رجل يهودى سنة كاملة ، واليهودى فى كل ذلك يكرمه أبلغ الكرامة ، ويعظمه أشد التعظيم ، فلما مضت السنة طال على الفقيه الاختفاء ، فاستدعى اليهودى وشكره على إحسانه إليه ، وقال له : قد عزمت غداً على الخروج وقصد دار فلان الكاتب (٣) ، لأنه قرأ على ولى عليه حق التعليم ، وقد بلغنى أن له جاهاً عند هذا الرجل ، فعسى هو يشفع لى عنده فيؤمّننى ويدعنى فى بلدى ! فقال له اليهودى : يا مولاي ، لا تفعل ، فما آمنهم عليك ! وجعل يحلف له بكل يمين يعتقده ، أنه لو أقام عنده بقية عمره ما أمّله ذلك ولا ثقل عليه ، فأبى إلا الخروج ، فخلى بينه وبين ذلك ، فخرج حتى أتى دار ذلك الكاتب بغلس ، فاستأذن عليه فأذن له ، فلما دخل عليه رحب به وأدنى مجلسه ،

(١) وهو العطر الجميل .

(٢) هو طالوت بن عبد الجبار المعافى .

(٣) جاء فى نفح الطيب للمقرئ هو أبو البسام الكاتب وزير الحكم بن هشام الربضى .

وسأله أين كان في هذه المدة ؟ فقص عليه قصته مع اليهودى ، ثم قال له : اشفع لى عند هذا الرجل حتى يؤمننى فى نفسى ويمنّ على بتركى فى بلدى ! فوعده بذلك ، وركب من فوره ودخل على الحكم ، فقال له كل ماسمع من طالوت ، ووشى به إليه : فأحضره الحكم إليه فعنّفه ووبخه ، فقال له طالوت : كيف يحل لى أن أخرج عليك ، وقد سمعتُ مالك بن أنس يقول : « سلطان جائرٌ مدةٌ خيرٌ من فتنة ساعة » ؟ قال الحكم : الله . تعال ! لقد سمعت هذا من مالك ؟ قال طالوت : اللهم إنى قد سمعته ، قال : فانصرف إلى منزلك وأنت آمن . ثم سأله أين استتر ، فقال : عند يهودى مدة عام ، ثم إنى قصدتُ هذا الوزير فغدر بى ! فغضب الحكم على أبى البسام وعزله عن وزارته ، وكتب عهداً ألا يخدمه أبداً : فرؤى أبو البسام الكاتب بعد ذلك فى فاقة وذل ، فقيل : استجيبت فيه دعوة الفقيه طالوت رحمه الله تعالى [(١)] .

(١) ورد فى نفح الطيب أن الحكم بن هشام تقلد الحكم سنة ١٨٠ هـ ومات سنة ٢٠٦ .
ثم ابنه عبد الرحمن بن الحكم ، وقد ولى الإمارة بعد أبيه ، وتوفى سنة ٢٣٨ وقد بلغ من العمر اثنتين وستين سنة .
ثم ابنه محمد بن عبد الرحمن ، وكانت وفاته سنة ٢٧٣ وقد بلغ من السن خمساً وستين سنة .
ثم ابنه المنذر بن محمد ، وكانت وفاته بغتة فى سنة ٢٧٥ وقد بلغ من السن ستاً وأربعين سنة .
ثم أخيه عبد الله بن محمد ، وكانت وفاته سنة ٣٠٠ وقد بلغ اثنتين وسبعين سنة .
ثم أخيه عبد الرحمن الناصر - وهو أول من نودى بلقب أمير المؤمنين من بنى أمية فى الأندلس - وكانت وفاته سنة ٣٥٠ وقد بلغ ثلاثاً وسبعين سنة قضى منها على العرش خمسين سنة ! وفى عهده وفد إلى الأندلس من المشرق أبو على القالى صاحب الأمالى .
ثم تولى ولده الحكم المستنصر بالله ، وكانت ولايته غداة موت أبيه الناصر فى رمضان سنة ٣٥٠ .
وفى سياق الحديث عن الحكم المستنصر هذا أورد المراكشى شعراً لأبى عمر يوسف الرمادى وصل الحرم إلى منتصفه ولم نوفق إلى بدايته ؛ وسيأتى مزيد تفصيل عنه فيما يلى من حديث المراكشى عن أحداث عصر المستنصر . . . وكذلك فى كتاب نفح الطيب .

... ..

فقال وقد مضى ليل وثمان
أجاري المؤنس ليلاً غناءً
فقالوا إنه في سجن عيسى (٢)
فنادى بالطويلة « وهى مما
ويمم جاره عيسى بن موسى
وقال : أحاجة عرضت فإنى
فقال : سجنى لى جارا يُسمى
بسجنى حيث وافقه اسمُ جارِ الـ
فأطلقهم لـه عيسى جميعاً
فإن أحببت قل لجوار جـار
فإن أبا حنيفة لم يؤب من

... ..

ولم يسمعه غنى : ليت شعرى (١)
لخير قطع ذلك أم لشر ؟
أتوه به بليل وهو يسرى
يكون برأسه لجليل أمر (٣)
فلأقاه بإكرام وبر
لقاضيهام ومتبعها بشكر !
بعمرو ! قال : يُطلق كل عمرو
فقاه ولو سجنتمو بوتر !
لجار لا يبيت بغير سكر !
وإن أحببت قل لطلاب أـجر
تطلبه تخلصه بـوزر

وتلخيص هذه الحكاية التى نظمها أبو عمر فى شعره ، أن أبا حنيفة رحمه الله كان
يجاوره رجل كىال ، فكان كل ليلة يأخذ سمكة ورغيفاً وشيئاً من النبيذ ، فإذا صلى العشاء
الآخرة أكل ثم شرب ، حتى إذا انتشى رفع عقيرته واندفع ينشد هذا البيت :

أضاعونى وأى فتى أضاعوا ليوم كـريهة وسدادٍ ثـغر

(١) أول الشعر مجهول ، وهو لأبى عمر الرمادى ، من شعراء عصر الحكم المستنصر كما سبقت الإشارة ،
ويتضح من السياق أن الشاعر ينظم حكاية معروفة يوردها المراكشى مثورة فيما بعد .
(٢) عيسى بن موسى صاحب الشرطة فى بغداد لعهد الرشيد .
(٣) الطويلة كلمة يفسرها الشاعر : لباس خاص للرأس .

فلا يزال يُعيدُه حتى يغلبه النوم ، وكان أبو حنيفة - على ما اشتهر عنه - يُحيي الليل كله صلاةً ، فلما كان في بعض الليالي فقد صوت ذلك الرجل ، فقال لبعض من عنده : ما فعل جارتنا هذا الذي كان يغنى كل ليلة ؟ أهو مريض أم غائب ؟ فقالوا له : إنه مسجون ! فقال : ومن سجنه ؟ فقالوا : خرج في الليل لبعض حاجته فلقية أصحاب عيسى بن موسى صاحب الشرطة فأتوا به فأمر بسجنه ، فلما أصبح أبو حنيفة لبس ثيابه وركب دابته وقصد عيسى بن موسى في بيته ، فلما أعلم عيسى بمكان أبي حنيفة خرج يتلقاه مسرعاً ، وبالغ في تكريمه وبره ، وسأله عن حاجته ، فقال : لي في سجنك جازٌ اسمه عمرو ، فقال عيسى : يُطلق كل من كان اسمه عمروً بسجنى من أجل جار الفقيه ! فأطلقه وخلقاً كثيراً معه ، فأتى الرجل أبا حنيفة يتشكر له ، فلما وقعت عينه عليه قال له : أضعناك ؟ قال الرجل : لا والله ، بل حفظت الجوار حفظك الله !

والبيت الذى نظمهُ أبو عمر وكان يتغنى به الرجل جازٌ أبو حنيفة ، هو للعرجي ، رجلٍ من ولد عثمان بن عفان ، سجنه المغيرة خال هشام بن عبد الملك وعامله على مكة ، فلم يزل بسجنه إلى أن مات وخرجت جنازته من السجن .

ولأبى عمر هذا شعر كثير جيد ، وهو من الطبقة الثالثة من طبقات الشعراء الأندلسي ، فمما على حفظي له أول قصيدة يمدح بها أبا على القالى المتقدم الذكر (١) وهى :

من حاكم بينى وبين عذولى
أقصر فما دين الهوى كفى ولا
عجباً لقوم لم يكن أذهانهم
دقت معانى الحب عن أفهامهم
فى أى جارية أصون مُعذِّبى
إن قلت فى عينى فثم مدامعى
[لكن جعلتُ له المسامح موضعاً

الشجْو شجوى والعويل عويل
أعتد لسومك لى من التنزيل
لهوى ولا أجسادهم لنُحول
فتأولوه أقبح التأويل
سلمت من التعذيب والتنكيل
أو قلت فى قلبى فثم غليل
وحجبتها عن عذل كل عذول] (٢)

(١) له ذكر فى عصر المستنصر .

(٢) إضافة من نفح الطيب .

هذا ما بقى في حفظي منها . وكان أبو عمر هذا من مُقدّمي شعراء الحكم المستنصر (١) وكان مختصاً بأبي الحسن المصحفي (٢) ، منضوياً إليه ، وهو الذي حمّله على هجو محمد بن أبي عامر (٣) ، فلما أفضى الأمر إلى محمد قبض على المصحفي واستصفى أمواله ووضعه في المطبق ، فلم يزل به حتى مات جوعاً وهزالاً ، وأما ما كان من أبي عمر الشاعر فإنه أوسعته عقوبة ونكالا ، وأمر بتغريبه (٤) ، فشُفّع له عنده في أن يتركه ببلده ، فأذن في ذلك ، غير أنه

(١) كان الحكم المستنصر محباً للعلوم مكرماً لأهلها ، جامعاً للكتب على اختلاف أنواعها ، اجتمع له منها ما لم يجتمع لأحد من الملوك قبله ، قال تليد الخصى - وكان على خزانة العلوم والكتب بدار بني مروان : إن عدد الفهارس التي فيها تسمية الكتب أربع وأربعون فهرسة ، في كل فهرسة عشرون ورقة ليس فيها إلا ذكر أسماء الدواوين . وقد أقام الحكم للعلم والعلماء سوقاً نافقة ، جُلبت إليها البضائع من كل قطر ، وكان يبعث في شراء الكتب إلى الأقطار رجالاً من التجار يزودهم بالمال الجهم لشرائها ، حتى جلب منها إلى الأندلس ما لم يعهد ، وبعث في كتاب الأغاني إلى مصنفه أبي الفرج الأصفهاني - وكان نسبه في بني أمية - بألف دينار من الذهب العين ثمناً لنسخة من كتابه ، فبعث إليه أبو الفرج بنسخة منه قبل أن يخرجها إلى العراق ، وكذلك فعل مع أبي بكر الأبهري المالكي في شرحه لمختصر ابن عبد الحكم . ولما وفد على أبيه أبو علي القالي من بغداد سنة ٣٣٠ أكرم مثواه وحسنت منزلته عنده واختص به ، واستفاد منه الحكم علماً . قال ابن بشكوال : « قلما يوجد كتاب من خزائنه إلا وله فيه قراءة أو نظر في أي شيء ، ويكتب نسب المؤلف ومولده ووفاته ، ويأتي من بعد ذلك بغرائب لا تكاد توجد إلا عنده ، لعنايته بهذا الشأن » . وله شعر جيد ، فيما ينسب إليه قوله :

إلى الله أشكو من شمائل مسرف	على ظلموم لا يـيـديـن بما دنتُ
نأت عنه دارى فاستزاد صدوده	وإني على وجدي القديم كما كنت
ولو كنت أدري أن شوقي بالغ	من الوجد ما بلغته لم أكن بنتُ

وقوله :

عجبتُ وقد ودعتها كيف لم أمت	وكيف انتنت بعد الوداع يدي معي
فيا مقلتي العيرى عليها اسكبي دماً	ويا كبدي الحرى عليها تقطعي !

(٢) وهو الحاجب أبو الحسن جعفر بن عثمان المصحفي للخليفة المستنصر .

(٣) وهو المنصور ابن أبي عامر وكان الحكم قد استوزره لولده هشام فترقى أمره حتى بلغ من الجاه والسلطان .

(٤) انظر : نفح الطيب ٢ / ١٠٠ - ٢٠٠ .

خرج الأمر من جهته ألا يكلمه أحد من العامة ولا من الخاصة : أمر مناديه أن ينادى [بذلك] فى جميع جهات قرطبة ، فأقام أبو عمر هذا كالميت إلى أن مات مودة الوفاة فى آخر أيام أبى عامر .

وكان الحكم المستنصر مواصلاً لغزو الروم ومن خالفه من المحاربين ، فاتصلت ولايته إلى أن مات فى صفر سنة ٣٦٦ فكانت مدة ولايته منذ بويغ له إلى أن مات ست عشرة سنة وأشهرًا ، وانقرض عقبه بعد موت ابنه هشام المؤيد ، لم يعيش له ولد غيره .

ولاية هشام المؤيد بن الحكم المستنصر [وتغلب المنصور ابن أبى عامر] (١)

ثم ولى بعده ابنه هشام بن الحكم ، يكنى أبا الوليد ، أمه أم ولد اسمها صبح ، وسنه إذ ولى عشرة أعوام وأشهر ، فلم يزل متغيباً لا يظهر ولا ينفذ له أمر ، وكان الذى تغلب على أمره أولاً وتولى حجابته وتنفيذ أموره وتدير مملكته ، أبو عامر محمد بن عبد الله ابن أبى عامر محمد بن الوليد بن يزيد بن عبد الملك بن عامر المعافى القحطاني (٢) .

وكان أصل ابن أبى عامر هذا من المدينة المعروفة بالجزيرة الخضراء ، من قرية من أعمالها تسمى طُرش ، على نهر يسمى وادى آرؤا ، إلا أنه كان شريف البيت قديم التعين ، ورد شاباً إلى قرطبة ، فطلب العلم والأدب وسمع الحديث وتميز فى ذلك ، وكانت له همة يحدث بها نفسه بإدراك معالى الأمور ، وتزيد فى ذلك حتى كان يحدث من يختص به بما يقع له من ذلك ، وله فى ذلك أخبار عجيبة ، قد أورد منها الشيخ الفقيه المحدث الضابط المتقن

(١) إضافة من الحلة السراء ونفح الطيب .

(٢) وهو المنصور الذى ذكر من قبل .

أبو عبد الله محمد ابن أبي نصر الحميدى (١) طرفاً في كتابه المترجم بـ « الأمانى الصادقة » ،
فمن جملتها قال الحميدى :

حدثنى أبو محمد على بن أحمد بن حزم قال : أخبرنى أبو عبد الله محمد بن إسحاق
التميمي قال :

كان محمد ابن أبي عامر نازلاً عندي في حجرة فوق بيتي ، فدخلت عليه في بعض
الليالي في آخر الليل ، فوجدته قاعداً على الحال التي تركته عليها أول الليل حين فصلت
عنه ، فقلت له : ما أراك نمت الليلة ! قال : لا ؛ قلت : فما أسهرك ؟ قال : فكرة عجيبة !
قلت : في ماذا كنت تفكر ؟ قال : فكرت : إذا أفضى إلى الأمر ومات محمد بن بشير
القاضي ، بمن أستبدله ، ومن الذي يقوم مقامه ؟ فجلتُ الأندلس كلها بخاطري فلم أجد
إلا رجلاً واحداً . . . قلت : لعله محمد بن السليم (٢) ، قال : هو والله هو ، لشدة ما اتفق
خاطري وخاطرك !

قال الحميدى : وأخبرنى الفقيه أبو محمد على بن أحمد قال : كان ابن أبي عامر يوماً
جالساً مع ثلاثة من أصحابه من طلبة العلم ، فقال لهم : ليختر كل واحد منكم خطة أوليه
إياها إذا أفضى إلى الأمر ! .

(١) كان الحميدى شاعراً مؤرخاً حافظاً راوية ، تتلمذ على الإمام الفيلسوف ابن حزم الظاهري ، وعنه يروى
أكثر علمه ، وكان مولده سنة ٤٢٠ ، ووفاته سنة ٤٨٨ ، وكانت له رحلة إلى المشرق ، ألف فيها كتاباً
في طبقات علماء الأندلس سماه « جذوة المقتبس » ، وعن كتابه هذا وكتابه الآخر المسمى بـ « الأمانى
الصادقة » نقل عبد الواحد كثيراً من أخباره عن الفترة الأولى من تاريخ المغرب والأندلس ، وتوجد من
كتاب « جذوة المقتبس » نسخة مخطوطة في أكسفورد .

(٢) هو أبو بكر محمد بن إسحاق الشهير بالسليم ، قاضى الجماعة بقرطبة ، ذكره المقرئ فيمن كانت لهم
رحلة إلى المشرق ، وله شعر كتب به إلى الحكم المستنصر ، هو قوله :

بشكر نعماك عندي ، قل شكرى لك
شيئاً وصلت به يا سيدي أجلك
فإنما أمل في أن تــــرى أملك !

لو أن أعضاء جسمي ألسن نطقت
أو كان ملكي الرحمن من أجلى
ومن تكن في الورى أماله كثرت

توفي سنة ٣٦٧ .

فقال أحدهم : تُولينى قضاء كورة ريّة ، وهى مالقة وأعمالها ، فإنه يعجبني هذا التين الذى يجيء منها ! .

وقال الآخر : توليني حِسبة السوق ، فإني أحب هذا الأسفنج !

وقال ثالث : إذا أفضى إليك الأمر فأمر أن يُطاف بى قرطبة كلها على حمار ووجهى إلى الذنب وأنا مطليّ بالعسل ليجتمع علىّ الذباب والنحل !
وافترقوا على هذا ، فلما أفضى إليه الأمر كما تمنى بلغ كل واحد منهم أمنيته على نحو ما طلب ! .

ولم تزل حاله تعلو منذ ورد قرطبة إلى أن تعلق بوكالة السيدة صبح أم هشام المؤيد ابن الحكم والنظر فى أموالها وضياعها ، فزاد أمره فى الترقى معها إلى أن مات الحكم المستنصر ، وكان هشام صغيراً كما ذكرنا ، وخيف الاضطراب ، فضمن لصبح سكون الحال وزوال الخوف واستقرار الملك لابنها ، وكان قوى النفس ، وساعدته المقادير ، وأمّدتته المرأة بالأموال ، فاستمال العساكر إليه ، وجرت أحوال علت قدمه فيها ، حتى صار صاحب التدبير والمتغلب على الأمور ، وحجب هشاماً المؤيد ، وتلقب هو بالمنصور ، فأقام الهيبة ، فدانت له أقطار الأندلس كلها وأمنت به ، ولم يضطرب عليه شىء منها أيام حياته لعظم هيئته وفرط سياسته .

واستوزر جماعة منهم الوزير أبو الحسن جعفر بن عثمان الملقب بالمصحفى ، ومنهم الوزير الكاتب أبو مروان عبد الملك بن إدريس الجزيرى ، ومنهم الوزير أبو بكر محمد بن الحسن الزبيدى الذى اختصر كتاب العين - وقد تقدم ذكره (١) - وكان قد ولاه شرطته ، وكان الزبيدى هذا من بطانة الحكم المستنصر ووجوه أصحابه .

واستوزر أبا العلاء صاعد بن الحسن الرّبعى اللغوى البغدادى ، وله معه أخبار مستطرفة ، ولعلّى سأورد طرفاً منها فيما بعد إن شاء الله تعالى .

(١) وهو أول كتاب فى اللغة وضعه الخليل بن أحمد .

وكان محباً للعلوم مؤثراً للأدب مفرطاً في إكرام من ينسب إلى شيء من ذلك (ويفد) (١)
عليه متوسلاً به ، بحسب حظه منه وطلبه ومشاركته فيه (٢) ورد عليه الأندلس في أيام إمارته
أبو العلاء صاعد بن الحسن الربيعي المذكور آنفاً ، فعظمت منزلته عنده ونال منه أموالاً
جمة ، وكان وروده عليه سنة ٣٨٠ ، أظن أصله من بلاد الموصل ، دخل بغداد فقراً بها ،
وكان عالماً باللغة والآداب والأخبار ، سريع الجواب ، حسن الشعر ، طيب المعاشرة ، فكة
المجالسة ممتعاً ، فأكرمه المنصور وأفرط في الإحسان إليه والإفضال عليه ، وكان مع ذلك
محسناً لظريف السؤال ، حاذقاً في استخراج الأموال ، طباً بلطائف الشكر .

أخبرني بعض مشايخ الأندلس بإسناد له ، أن أبا العلاء دخل على المنصور أبي عامر
يوماً في مجلس أنسه ، وقد كان تقدّم له أن أتخذ قميصاً من رقاع الخرائط التي كانت تصل إليه
فيها الأموال منه ، فلبسه تحت ثيابه ، فلما خلا المجلس ووجد فرصة لما أراد ، تجرّد وبقي في
القميص المتخذ من الخرائط ، فقال له : ما هذا يا أبا العلاء ؟ فقال : هذه الخرائط التي
وصلت إليّ فيها صلوات مولانا أتخذها شعاراً ! وبكى ، وأتبع ذلك من الشكر فصلاً كان
رواه ، فأعجب ذلك المنصور ، وقال له : لك عندي مزيد ! وكان كما قال .

وألف له أبو العلاء هذا كتباً ، فمنها كتاب سماه كتاب الفصوص ، على نحو كتاب
النوادر لأبي علي القالي ، واتفق لهذا الكتاب من عجائب الاتفاق أن أبا العلاء دفعه حين
كمل لغلام له يحمله بين يديه وعبر النهر ، نهر قرطبة ، فخانت الغلام رجله فسقط في النهر
هو والكتاب ، فقال في ذلك بعض الشعراء - وهو أبو عبد الله محمد ابن يحيى المعروف بابن
العريف - بيتاً مطبوعاً بحضرة المنصور ، وهو :

قد غاص في البحر كتاب الفصوص وهكذا كلُّ ثَقِيل يغوص !

(١) إضافة من نفح الطيب .

(٢) ورد ذكره في نفح الطيب [تفاصيل القصة] .

فضحك المنصور والحاضرون ، فلم يَرُغْ ذلك صاعداً ولا هاله ، وقال مرتجلاً مجيئاً
لابن العريف :

عاد إلى معدنه إنما توجد في قعر البحار الفصوص !

وكتاب آخر على نحو كتاب الخزرجي أبي السرى سهل بن أبي غالب ، سماه كتاب
الهجفجف بن غيدقان بن يشري مع الخنوت بنت مخزومة بن أنيف ، وكتاب آخر في معناه
سماه كتاب الجوّاس بن قَعطل المذحجي مع ابنة عمه عفراء ، وهو كتاب مليح جداً انخرم
أيام الفتن بالأندلس فنقصت منه أوراق لم توجد بعد ، وكان المنصور كثير الشغف بهذا
الكتاب ، أعنى الجوّاس ، حتى رتب له من يخرج به أمامه كل ليلة ، ويقال : إن أبا العلاء لم
يحضر بعد موت المنصور مجلس أنس لأحد ممن ولي الأمور بعده من ولده ، وادّعى وجعاً لحقه
في ساقه لم يزل يتوكأ منه على عصا ويعتذر به في التخلف عن الحضور والخدمة إلى أن ذهبت
دولتهم ، وفي ذلك يقول في قصيدته المشهورة في المظفر أبي مروان عبد الملك بن المنصور أبي
عامر محمد بن أبي عامر ، وهو الذي ولي بعد أبيه ، وأولها :

إليك حَدَوْتُ نَاجِيَةَ الرِّكَابِ محمّلة أمانى كالهضابِ
وبِعتُ ملوكَ أهل الشرق طُرّاً بواحدها وسيّدها اللُّبابِ

وفيه يقول :

إلى الله الشَّكِيَّةُ من شكاةٍ رَمَتْ ساقى فجّل بها مُصابى
وأقصتني عن الملكِ المُرجّى وكنت أرمُ حالي باقترابى

ومما استحسن له قوله :

حَسِبْتُ المنعمين على البرايا فألفيتُ اسمَهُ صَدْرَ الحسابِ
ومما قَدَّمْتُه إلا كَانِي أقدمُ تاليها أم الكتابِ

قال أبو عبد الله الحميدى (١) : أخبرنى أبو محمد على بن الوزير أبى عمر أحمد بن سعيد ابن حزم (٢) ، أنه سمع أبا العلاء ينشد هذه القصيدة بين يدى المظفر فى عيد الفطر سنة ٣٩٦ - قال أبو محمد : وهو أول يوم وصلت فيه إلى حضرة المظفر - ولما رآنى أبو العلاء أستحسنها وأصغى إليها كتبها لى بخطه وأنفذها إلى . انتهى كلام الحميدى .

وكان أبو العلاء كثيراً ما تُستغرب له الألفاظ ، ويُسأل عنها فيجيب بأسرع جواب ، على نحو ما يحكى عن أبى عمر الزاهد المطرّز غلام ثعلب ، ولولا أن أبا العلاء كان كثير المزح لحمل على التصديق فى كل ما يأتى به من ذلك وقد ظهر صدقه فى بعض ما قال ، فمما يحكى عنه فى هذا المعنى أنه دخل على المنصور يوماً وفى يد المنصور كتاب ورد عليه من عامل له فى بعض البلاد اسمه ميدمان بن يزيد ، يذكر فيه القلب والتزيب ، وهذه عندهم أسماء لمعانة الأرض قبل الزرع ، فقال له : أبا العلاء ! قال : لبيك مولانا ! قال : هل رأيت فيما وقع إليك من الكتب كتاب القوالب والزوابل (٣) لميدمان بن يزيد ؟ قال : إى والله يا مولانا ، رأيته ببغداد فى نسخة لأبى بكر بن دريد بخط كأكرع النمل فى جوانبها علامات الوضّاع هكذا هكذا . . . فقال له : أما تستحى أبا العلاء ؟ هذا كتاب عاملى ببلد كذا وكذا واسمه كذا يذكر فيه كذا [الذى تقدم ذكره] (٤) ، وإنما صنعت لك هذه الترجمة مولدة من هذه الألفاظ التى فى هذا الكتاب ونسبته إلى عاملى لأختبرك ! فجعل يحلف له أنه ما كذب وأنه أمرٌ وافق .

وقال له المنصور مرة أخرى وقد قدم طبقاً فيه تمر : يا أبا العلاء ، ما التمر كل فى كلام العرب ؟ قال : يقال تمر كل الرجل تمر كلاً إذا التف فى كسائه !

(١) انظر : تذكرة الحفاظ ٤ / ١٢١٨ ، شذرات الذهب ٣ / ٣٩٢ ، العبر ٣ / ٣٣٣ ، النجوم الزاهرة ٥ / ١٥٦ ، وفيات الأعيان ١ / ٤٨٥ .

(٢) انظر : بغية الملتبس ٤٠٣ ، تذكرة الحفاظ ٣ / ١١٤٦ ، جذوة المقتبس ٢٩٠ ، شذرات الذهب ٣ / ٢٩٩ ، الصلة ٢ / ٤١٥ ، العبر ٣ / ٢٣٩ ، وفيات الأعيان ١ / ٣٤٠ .

(٣) انظر : إنباء الرواة .

(٤) إضافة من نفع الطيب .

وله من هذا كثير ، ولكنه مع هذا كان عالماً .

قال أبو عبد الله الحميدى : حدثنى أبو محمد على بن أحمد قال : حدثنى الوزير أبو عبدة حسان بن مالك ابن أبي عبدة ، عن أبي عبد الله العاصمى النحوى قال :
لما قدم صاعد بن الحسن اللغوى على المنصور أبى عامر محمد بن أبى عامر ، جمعنا معه ، فسألناه عن مسائل من النحو غامضة فقصر فيها ، فلما رآه ابن أبى عامر كذلك قال : دعوه ، هو من طبقتى فى النحو ، وأنا أناظره . قال : ثم سألنا صاعداً فقال : ما معنى قول امرئ القيس :

كَأَنَّ دِمَاءَ الْهَادِيَّاتِ بِنَحْرِهِ .
عُصَارَةٌ حَنَاءٍ بِشَيْبِ مُرْجِلٍ ؟

فقلنا : هذا واضح ، وإنما وصف فرساً أشهب عُقرت عليه الوحش فتطاير دمها على صدره فجاء هكذا . فقال صاعد : سبحان الله ! أنسيتم قوله قبل هذا :

كُمَيْتٌ يَزِلُّ اللَّبْدُ عَنْ حَالٍ مَتْنِهِ
كَمَا زَلَّتِ الصَّفْوَاءُ بِالْمَتَنَزِّلِ .. ؟

قال : فبُهِتْنَا كَأَنَّا لَمْ نَقْرَأْ هَذَا الْبَيْتَ قَطْ ، واضطررنا إلى سؤاله عنه ، فقال : إنما عنى أحد وجهين : إما أنه تغشى صدره بالعرق ، وعرق الخيل أبيض ، فجاء مع الدم كالشيب ، وإما شىء كانت العرب تصنعه ، وهو أنها كانت تَسْمُ بِاللَّبَنِ الْحَارِّ فِي صَدُورِ الْخَيْلِ فَيَتَمَعَّطُ ذَلِكَ الشَّعْرُ وَيَنْبِتُ مَكَانَهُ شَعْرٌ أَبْيَضٌ ، فأياً عنى من أحد هذين الوجهين فالوصف مستقيم .

قال أبو عبد الله : وحدثنا أبو محمد على بن أحمد قال : حدثنى أبو الخيار مسعود بن سليمان بن مفلت الفقيه ، أن أبا العلاء صاعداً سأل جماعة من أهل الأدب فى مجلس المنصور أبى عامر عن قول الشماخ بن ضرار :

دار الفتاة التي كنا نقول لها ياظبية عطلاً حُسانة الجيد
تُدنى الحمامة منها وهي لاهية من يانع المردِ قنوان العناقيد

فقالوا : هي الحمامة ، تنزل على غصن الأراكمة أو الكرمة فتتنفضه فتتمكن الظبية منه
فترعاه . فأنكر ذلك عليهم صاعد وقال : إن الحمامة في هذا البيت هي المرأة ، وهي اسم من
أسمائها ، فأراد أن هذه الجارية المشبهة بالظبية إذا نظرت في المرأة أدنت المرأة منها في المنظر
شعرها الذي هو كقنوان العناقيد من يانع الكرم أو المرد ، فرأته .

ومن عجائب الدنيا التي لا يكاد يتفق مثلها ، أن صاعد بن الحسن اللغوى هذا أهدى
إلى المنصور أبي عامر أَيْلاً وكتب معه بهذه الأبيات :

يا حِرز كلِّ مُخَوِّفٍ ، وأمان كلِّ مُشَرِّدٍ ، ومُعَزِّز كلِّ مُذَلِّلٍ
جدواك إن تَخْصُصَ به فلاهله وتَعْمُ بِالْإِحْسَانِ كلَّ مُؤَمِّلٍ
كالغيث طَبَّقَ فاستوى في وبله شُعْتُ الْبِلَادِ مع المراد المقبل
الله عَوْنُكَ ما أَبْرَكَ بالهدى وأشدَّ وقعك بالضلال المُشْعَل
ما إن رأت عيني ، وعلمك شاهداً شَرَوَى عَمَلائِكَ في مُعَمِّ مُخَوِّلٍ
أندى بِمُقَرَّبَةٍ كسرحان الغضا ركضاً ، وأوغل في مَثَارِ الْقَصِطِلِ
مولاي ، مؤنس غُرْبَتِي ، مُتَخَفِي من ظفر أيامي ، مُمنع معقلي
عبدٌ نَشَلْتُ بِضَبْعِهِ وَغَرَسْتَهُ في نعمة أهدى إليك بَأْيَلٍ
سميته « غَرَسِيَّةً » وبعثته في حبله لِيُتَاحَ فِيهِ تَفَاوُلِي
فلئن قبلتَ فتلِكَ أَسْنَى نَعْمَةٍ أسدى بها ذو منحة وتطول
صحبتك غادية السرور وجللت أرجاء رَبْعِكَ بِالسحابِ الْمُخْضَلِ

فقضى الله في سابق علمه أن غرسية بن شانجة من ملوك الروم - (١) وكان أُمْنَع من النجم - أسر في ذلك اليوم بعينه الذي بعث فيه صاعد بالأيْل وسماه غرسية متفائلاً بأسره (٢) ، وهكذا فليكن الجَد للصاحب والمصحوب ، وكان أسر غرسية هذا في ربيع الآخر سنة ٣٨٥ .

خرج أبو العلاء صاعد هذا من الأندلس أيام الفتن ، وقصد صقلية فمات بها قريب من سنة ٤١٠ (٣) - فيما بلغنى - عن سن عالية .

ولم يزل المنصور أبو عامر محمد بن أبي عامر طول أيام مملكته مواصلاً لغزو الروم ، مفرطاً في ذلك لا يشغله عنه شيء ، وكان له مجلس في كل أسبوع يجتمع فيه أهل العلم للمناظرة بحضرته ما كان مقيماً بقرطبة ، وبلغ من إفراط حبه للغزو أنه ربما خرج للمصلى يوم العيد فحدث له نية في ذلك فلا يرجع إلى قصره ، بل يخرج بعد انصرافه من المصلى كما هو من فوره إلى الجهاد ، فتتبعه عساكره وتلحق به أولاً فأول ، فلا يصل إلى أوائل بلاد الروم إلا وقد لحقه كل من أراد من العساكر . غزا في أيام مملكته نيّفاً وخمسين غزوة ذكرها أبو مروان بن حيان كلها في كتابه الذي سماه بـ « المآثر العامرية » واستقصاها كلها بأوقاتها وذكر آثاره فيها ؛ وفتح فتوحاً كثيرة ، ووصل إلى معاقل قد كانت امتنعت على من كان قبله ، وملاً الأندلس غنائم وسبيّاً من بنات الروم وأولادهم ونسائهم ، وفي أيامه تغالى الناس بالأندلس فيما يجهزون به بناتهم من الثياب والحلى والدور ، وذلك لرخص أثمان بنات الروم ، فكان الناس يرغبون في بناتهم بما يجهزونهن به مما ذكرنا ، ولولا ذلك لم يتزوج أحد حرة ، بلغنى أنه نُودى على ابنة عظيم من عظماء الروم بقرطبة - وكانت ذات جمال رائع - فلم تساو أكثر من عشرين ديناراً

(١) وهو ملك البشكنس .

(٢) قال المقرئ [« وسبب أخذه أنه خرج يتصيد فلقيته خيل للمنصور من غير قصد فأسرته وجاءته به ، فكان هذا الاتفاق مما عظم به العجب »] .

(٣) اختلف المؤرخون في سنة وفاته وقد قيل : إنه مات سنة ٤١٧ هـ ، وقيل : سنة ٤١٩ هـ ، وهناك رأى آخر سنة ٤١٤ هـ .

عامرية ، وكان في أكثر زمانه لا يُجَلُّ بأن يغزو غزوتين في السنة ، وكان كلما انصرف من قتال العدو إلى سرادقه يأمر بأن ينفض غبار ثيابه التي حضر فيها معمعة القتال ، وأن يُجمع ويتحفظ به ، فلما حضرته المنية أمر بها اجتماع من ذلك أن ينثر على كفنه إذا وُضع في قبره (١) .

وكانت وفاته بأقصى ثغور المسلمين ، بموضع يعرف بمدينة سالم ، مبطوناً ، فصحت له الشهادة ، وتاريخ وفاته سنة ٣٩٣ (٢) فكانت مدة إمارته نحواً من سبع وعشرين سنة ، وكان معافى النسب ، وأمه تيمية اسمها فريهة بنت يحيى بن زكريا التميمي ، وكان يُعرف بابن برطل ، ولذلك قال فيه أبو عمر أحمد بن محمد بن دراج الشاعر المعروف بالقسطل من قصيدة له :

تَلاقت عليه من تميم وَيَعْرِبُ شَمُوس تَلالاً في العلا وَبَدُورُ
من الحَمِيرين الَّذِينَ أَكْفُهُم سَحَائِبُ تَهْمى بالندى وَبَحُورُ

وأبو عمر هذا من فحول شعراء الأندلس والمجيدين منهم ، وذكره أبو منصور الثعالبي في كتاب اليتيمة وقال فيه : القسطل عندهم كأبي الطيب بصقع الشام . هذا قول أبي منصور أو معناه (٣) ، وكنت أنا في أيام شببتي مولعاً بشعره كثير الدراسة له ، فلم يبق اليوم على خاطري منه شيء أصلاً ، خلا بيتين هما مما ارتجل في بعض مجالسه ، وهما :

أَجِدِ الْكَلَامَ إِذَا نَطَقْتَ فَإِنَّمَا عَقْلُ الْفَتَى فِي لَفْظِهِ الْمَسْمُوعِ
كَالْمَرَأِ يَخْتَبِرُ الْإِنَاءَ بِصَوْتِهِ فَيَرى الصَّحِيحَ بِهِ مِنَ الْمَصْدُوعِ

(١) هناك رواية ذكرت بأنه أمر بجمع ما بقى من تراب ليجعلها وسادة لرأسه في القبر .

(٢) والثابت تاريخياً ٣٩٣ .

(٣) ورد في يتيمة الدهر « أبو عمر : كان بصقع الأندلس كالمثني بصقع الشام » .

تقلد المظفر ابن أبى عامر الوزارة

ثم تقلد الوزارة والحجابه بعد ابن أبى عامر هذا ، ابنه أبو مروان عبد الملك بن أبى عامر وتلقب بالمظفر ، فجرى فى الغزو والسياسة عن هشام المؤيد على سنن أبيه ، وكانت أيامه أعياداً فى الخصب والأمان ، دامت سبع سنين ، إلى أن مات واثارت الفتن بعده .

تقلد الناصر ابن أبى عامر الوزارة

ثم تقلد ما كان يتقلده من بعده ، أخوه عبد الرحمن ، وتلقب بالناصر ، فخلط وتسمى ولى العهد ، ولم يزل مضطرب الأمور مدة أربعة أشهر ، إلى أن قام عليه محمد بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر ، لثمان عشرة ليلة خلت من جمادى الآخرة سنة ٣٩٩ ، فخلع هشاماً المؤيد ، وأسلمت الجيوش عبد الرحمن بن محمد بن أبى عامر ، فقتل وصُلب .

وكان محمد بن هشام بن عبد الجبار - المتقدم ذكره - لما قام تلقب بالمهدى ، وبقي الأمر كذلك إلى أن قُتل محمد بن هشام بن عبد الجبار ، ورد هشام المؤيد إلى الأمر ، وذلك يوم الأحد السابع من ذى الحجة سنة ٤٠٠ ، وبقي كذلك وجيوش البربر تحاصره مع سليمان بن الحكم بن سليمان ، واتصل ذلك إلى خمس خلون من شوال سنة ٤٠٣ ، فدخل البربر مع سليمان قُرطبة وأخلوها من أهلها حاشا المدينة وبعض الربض الشرقى ، وقُتل هشام المؤيد ابن الحكم المستنصر ، وكان - كما ذكرنا - فى طول دولته متغلباً عليه لا يُنفذ له أمر ، وغلب عليه فى هذا الحصار ، أعنى حصار البربر ، واحدٌ من العبيد بعد محمد بن أبى عامر المنصور وولديه عبد الملك الظافر وعبد الرحمن الناصر .

ولاية محمد بن هشام بن عبد الجبار المهدى

ثم قام محمد بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر ، على هشام بن الحكم فى

جمادى الآخرة - كما تقدم - فخلعه وتسمى بالمهدى ، وكان يُكنى أبا الوليد ، أمه أم ولد اسمها مُزنة ، وكان له ولد اسمه عبيد الله ، وكان مولد المهدى فى سنة ٣٦٦ ، وقُتل وله من العمر أربع وثلاثون سنة (١) ، ولم يزل والياً إلى أن قام عليه - يوم الخميس لخمس خلون من شوال سنة ٣٩٩ - هشام بن سليمان بن عبد الرحمن الناصر مع البربر ، فحاربه بقية يومه والليلة الآتية وصبيحة اليوم الثانى ، فقام عامة أهل قرطبة مع محمد المهدى ، فانهزم البربر وأسر هشام بن سليمان ، فأتى به إلى المهدى فضرب عنقه .

ظهور الفتنة

واجتمع البربر عند ذلك فقدموا على أنفسهم سليمان بن الحكم بن سليمان بن عبد الرحمن الناصر ، وهو ابن أخى هشام القائم المذكور ، فنهض بالبربر إلى الثغر ، واستجاش النصارى وأتى بهم إلى باب قرطبة ، فبرز إليه جماعة أهل قرطبة ، فلم تكن إلا ساعة حتى قُتل من أهل قرطبة نيفٌ وعشرون ألف رجل ، فى جبل هنالك يعرف بجبل « قنطش » ، وهى الوقعة المشهورة ، ذهب فيها من الخيار والفقهاء وأئمة المساجد والمؤذنين خلقٌ كثير . واستتر محمد بن هشام المهدى أياماً ، ثم لحق بطليطلة ، وكانت الثغور كلها من طرطوشة إلى الأشبونة باقية على طاعته ودعوته ، واستجاش بالإفرنج وأتى بهم إلى قرطبة ، فبرز إليه سليمان بن الحكم مع البربر ، إلى موضع بقرب قرطبة على نحو بضعة عشر ميلاً يدعى « دار البقر » فانهزم سليمان والبربر ، واستولى المهدى على قرطبة ، ثم خرج بعد أيام إلى قتال جمهور البربر ، وكانوا قد عاشوا بالجزيرة ، فالتقوا بموضع يعرف بوادى أره ، فكانت الهزيمة على محمد بن هشام المهدى ، وانصرف إلى قرطبة ، فوثب عليه العبيد مع واضح الصقلبي (٢) ، فقتلوه وردوا هشام المؤيد كما تقدم قبل .

(١) وردت فى الأصل ٣٧ سنة .

(٢) كان واضح الصقلبي من موالى بنى عامر ، وكان يسمى أيضاً واضحاً العامرى ، فقد أخذ بثأر مواليه إذن حين أعان على قتل المهدى ، كما مهدَّ الأمر لنفسه بذلك ، إذ تولى الحجابة لهشام المؤيد ا

فكانت مدة ولاية المهدي منذ قام إلى أن قُتل سبعة عشر شهراً^(١) ، من جملتها الستة الأشهر التي كان فيها سليمان بقرطبة وكان هو بالشغر ، وانقرض عقبه فلا عقب له .

ولاية سليمان بن الحكم بن سليمان بن عبد الرحمن الناصر

المتلقب بالمستعين بالله

قام سليمان بن الحكم يوم الجمعة لست خلون من شوال سنة ٣٩٩ ، وتلقب بالمستعين بالله ، ثم دخل قرطبة كما تقدم في ربيع الآخر سنة ٤٠٠ ، فتلقب حينئذ بالظافر بحول الله ، مضافاً إلى المستعين بالله ، ثم خرج عنها في شوال من السنة بعينها ، فلم يزل يجول بعساكر البربر معه في بلاد الأندلس ، يفسد وينهب ويُقفر المدائن والقرى بالسيف والغارة لا يُبقى البربر معه على صـغير ولا كبير ولا امرأة ، إلى أن دخل قرطبة في صدر شوال سنة ٤٠٣ .

[أولية بنى حمود]

وكان من جملة جنده رجالان من ولد الحسن بن علي بن أبي طالب ، يسميان القاسم وعلياً ابني حمود بن ميمون بن أحمد بن علي بن عبيد الله بن عمر بن إدريس [بن إدريس] ابن عبيد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب ، رضى الله عنهم ، فجعلهما قائدين على المغاربة ، ثم ولى أحدهما سبتة وطنجة وهو عليّ الأصغر منهما ، وولى القاسم الجزيرة الخضراء ، وبين الموضعين المجاز المعروف بالزُّقاق ، وسعة البحر هنالك اثنا عشر ميلاً ، وقد ذكر فيما قبل .

(١) والصحيح أنه قتل سنة ٤٠٠ هـ .

وافترق العبيد إذ دخل البربر مع سليمان قرطبة ، فملكوا مدناً عظيمة وتحصنوا فيها ، فراسلهم على بن حمود المذكور - وقد حدث له طمعٌ في ولاية الأندلس - فكتب إليهم يذكر لهم أن هشام بن الحكم إذ كان محاصراً بقرطبة كتب إليه يوليه عهده ، فاستجابوا له وبايعوه ، فزحف من سبتة إلى مالقة ، وفيها عامر بن فتوح الفائقى ، مولى فائق مولى الحكم المستنصر ، فاستجاب له وأدخله مالقة ، فتملكها على بن حمود وأخرج عنها عامر بن فتوح ، ثم زحف بمن معه من البربر وجمهور العبيد إلى قرطبة ، فخرج إليه محمد بن سليمان فى عساكر البربر ، فانهزم محمد بن سليمان ، ودخل قرطبة على بن حمود ، وقتل سليمان بن الحكم صبراً : ضرب عنقه بيده يوم الأحد لتسع بقين من المحرم سنة ٤٠٧ ، وقتل أبوه الحكم ابن سليمان بن الناصر أيضاً فى ذلك اليوم ، وهو شيخ كبير له اثنتان وسبعون سنة !

وكانت مدة ولاية سليمان - منذ دخل قرطبة إلى أن قُتل - ثلاثة أعوام وثلاثة أشهر وأياماً ، وكان قد ملكها قبل ذلك ستة أشهر على ما تقدم ، وكانت مدته - منذ قام مع البربر إلى أن قُتل - سبعة أعوام وثلاثة أشهر وأياماً .

وانقطعت دولة بنى أمية فى هذا الوقت وذكرهم على المنابر فى جميع أقطار الأندلس ، إلى أن عادت بعد ذلك فى الوقت الذى نذكره إن شاء الله تعالى .

وكانت أم سليمان هذا أم ولد اسمها ظبية ، ومولده سنة ٣٥٤ ، ترك من الولد ولّى عهده محمداً ، والوليد ، ومسلمة .

وكان سليمان أديباً شاعراً ، قال الحميدى : أنشدنى أبو محمد على بن أحمد قال : أنشدنى فتى من ولد إسماعيل بن إسحاق المنادى الشاعر كان يكتب لأبى جعفر أحمد بن سعيد بن الدب ، قال : أنشدنى أبو جعفر قال : أنشدنى أمير المؤمنين سليمان الظافر لنفسه ، قال أبو محمد : وأنشدنيها قاسم بن محمد المروانى قال : أنشدنيها وليد بن محمد الكاتب لسليمان الظافر أمير المؤمنين :

عجبا يهابُ الليثُ حَدَّ سِنَانِي
وأقارِع الأهلِوَال لا متهيباً
وتملكْتُ نفسى ثلاثَ كالِدُمى
ككواكبِ الظلماءِ لحنَ لناظِرِ
هذى الهلالُ وتلك بنتُ المشتري
حاكمتُ فيهن السُّلُو إلى الضنى
فأبَحْنَ من قلبى الحمى وثنينتى
لا تعذِّلوا ملكاً تذلل للهوى
ماضراً أنى عَبْدُهُنَّ صبابَةٌ
إن لم أطع فيهن سلطان الهوى
وإذا الكريمُ أحبَّ أَمَّنْ إلفه
وإذا تجارى فى الهوى أهْلُ الهوى

وأهاب لحظ فواترِ الأجفانِ
منها سوى الإعراض والهجرانِ
زُهرُ الوجوه نواعمُ الأبدانِ
من فوق أغصان على كُثبانِ
حُسناً ، وهذى أختُ عُصن البانِ
فقضى بسلطانٍ على سُلطانى
فى عزِّ ملكى كالأسير العانى
ذُلُّ الهوى عِزٌّ وملكٌ ثنانِ
وبنو الزمانِ وهن من سبدانى
كلفاً بهن فلستُ من مروانِ
خطب القلى وحوادث السلوانِ
عاش الهوى فى غبطة وأمانِ

وإنما قصد المستعين بهذه الأبيات معارضة الأبيات التى عَمِلها العباسُ بن الأحنف على
لسان هارون الرشيد فنُسبت إليه ، وهى :

ملك الثلاثُ الأنساتُ عِنانى
مالى تُطاوعنى البرية كلها
ما ذاك إلا أن سلطان الهوى

وحللن من قلبى بكلِّ مكانِ
وأطيعهن وهن فى عِصيانى
وبه قسوينَ أعزُّ من سلطانى

أبو محمد الذى يحدث عنه الحميدى : هو أبو محمد على بن أحمد بن سعيد بن حزم بن غالب بن صلح بن خلف بن معدان بن سفيان بن يزيد الفارسى ، مولى يزيد بن أبى سفيان ابن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف القرشى ، قرىء علىَّ نسبه هذا بخطه على ظهر كتاب من تصانيفه ، أصل آبائه الأذنين من قرية من إقليم لبلة من غرب الأندلس ، سكن هو وأبوه قرطبة ، وكان أبوه من وزراء المنصور محمد بن أبى عامر ، ووزراء ابنه المظفر بعده ، وكان هو المدبر لدولتيهما ، وكان ابنه أبو محمد الفقيه وزيراً لعبد الرحمن بن هشام بن عبد الجبار بن الناصر الملقب بالمستظهر بالله ، أخى المهدي المذكور آنفاً ، ثم إنه نبذ الوزارة وأطرحها اختياراً ، وأقبل على قراءة العلوم وتقييد الآثار والسنن ، فنال من ذلك ما لم ينله أحد من قبله بالأندلس ، وكان على مذهب الإمام أبى عبد الله الشافعى رحمه الله ، أقام على ذلك زماناً ، ثم انتقل إلى القول بالظاهر ، وأفرط في ذلك حتى أربى على أبى سليمان داود الظاهرى وغيره من أهل الظاهر ، وله مصنفات كثيرة جليلة القدر شريفة المقصد في أصول الفقه وفروعه على مهيعه الذى يسلكه ، ومذهبه الذى يتقلده ، وهو مذهب داود بن على بن خلف الأصبهانى الظاهرى ومن قال بقوله من أهل الظاهر وتفاة القياس والتعليل ، بلغنى من غير واحد من علماء الأندلس أن مبلغ تصانيفه في الفقه والحديث والأصول والنحل والملل وغير ذلك من التاريخ والنسب وكتب الأدب والرد على المخالفين له - نحو من أربعمائة مجلد ، تشتمل على قريب من ثمانين ألف ورقة ، وهذا شيء ما علمناه لأحد ممن كان في مدة الإسلام قبله إلا لأبى جعفر محمد بن جرير الطبرى ، فإنه أكثر أهل الإسلام تصنيفاً ، فقد ذكر أبو محمد عبد الله بن محمد بن جعفر الفرغانى في كتابه المعروف بالصلة ، وهو الذى وصل به تاريخ أبى جعفر الطبرى الكبير : أن قومًا من تلاميذ أبى جعفر لخصوا أيام حياته منذ بلغ الحلم إلى أن توفى في سنة ٣١٠ وهو ابن ست وثمانين سنة ، ثم قسموا عليها أوراق مصنفاته ، فصار لكل يوم أربع عشرة ورقة ، وهذا لا يتهيأ لمخلوق إلا بكريم عناية البارى تعالى وحسن تأييده له .

ولأبى محمد بن حزم بعد هذا نصيب وافر من علم النحو واللغة ، وقسم صالح من

قرض الشعر وصناعة الخطابة ، فمن شعره :

فجائعه تبقى ولذاته تفنى
تولت كمر الطرف واستخلفت حُزنا
نود لـديه أننا لم نكن كنا
وفات الذى كنا نقرُّ به عينا
وغم لما يُرجى ، فعيشك لا يهنا
إذا حققتـه النفس ، لفظ بلا معنى

هل الدهر إلا ما عرفنا وأدركنا
إذا أمكنت فيه مسرة ساعة
إلى تبعاتٍ فى المعاد وموقفٍ
حصلنا على همٍّ وإثم وحسرة
حنين لما ولى ، وشغل بما أتى
كان الذى كنا نُسرُّ بكونه

وله من قصيدة طويلة :

ولكن عيبى أن مطلعى الغربُ
لجذُّ على ماضع من ذكرى النهب
ولا غرو أن يستوحش الكلف الصَّبُ
فحينئذ يبدو التأسف والكرب
وأطلب ما عنه تجيء به الكتبُ !
وأن كساد العلم أفثته القُربُ !
له ، ودُنُوُّ المرء من دارهم ذنبُ
على أنه فسح مهامُّه سُهبُ
وإن زماناً لم أنل خصبةً جذب (١)

أننا الشمس فى جو العلوم منيرة
ولو أننى من جانب الشرق طالعُ
ولى نحو أكناف العراق صباية
فإن يُنزل الرحمن رحلى بينهم
فكم قائلٍ أغفلته وهو حاضر
هنالك يدري أن للبعد قصة
فيا عجباً من غاب عنهم تشوقوا
وإن مكاناً ضاق عنى لضيقُ
وإن رجلاً ضيعونى لضيعُ

(١) إضافة من نفع الطيب .

ومنها في الاعتذار عن مدحه لنفسه :

ولكن لي في يوسف خير أسوة
يقول - وقال الحق والصدق - إنني
وليس على من بالنبى ائتسى ذنب
حفيظٌ عليم ، ما على صادقٍ عتب

ومن المختار له قوله :

لا يشمتن حاسدى إن نكبة عرضت
ذو الفضل كالتبر طوراً تحت ميقعة
فالدهر ليس على حالٍ بمتركٍ
وتارة في ذرى تاج على ملك !

ومن ذلك قوله :

لئن أصبحت مرتحلاً بشخصى
ولكن للعريان لطيفٌ معنى
فروحي عندكم أبداً مقيمٌ
له سال المعاينة الكليم

ومن أجود ما أحفظ له بيتان قالهما في رجل نيام :

أثم من المرأة في كل مـادى
كان المنايـا والزمان تعلمـا
وأقطع بين الناس من قُضب الهند
تحيله في القطع بين ذوى الود !

وُجد بخطه أنه ولد يوم الأربعاء بعد صلاة الصبح وقبل طلوع الشمس آخر يوم من شهر
رمضان سنة ٣٨٤ توفى رحمه الله في سلخ شعبان سنة ٤٥٦ .

وإنما أوردت هذه النبذة من أخبار هذا الرجل وإن كانت قاطعة للنسق خارجة عن

بعض الغرض ، لأنه أشهر علماء الأندلس اليوم وأكثرهم ذكراً في مجالس الرؤساء وعلى السنة العلماء ، وذلك لمخالفته مذهب مالك بالمغرب واستبداده بعلم الظاهر ، ولم يشتهر به قبله عندنا أحد ممن علمت ، وقد كثر أهل مذهبه وأتباعه عندنا بالأندلس اليوم .

ولاية ابن حمود الناصر

ثم ولي على بن حمود على ما تقدم ، وتسمى بالخلافة ، وتلقب بالناصر ، ثم خالف عليه العبيد الذين كانوا بايعوه ، وقدموا عبد الرحمن بن محمد بن عبد الملك بن عبد الرحمن الناصر ، ولقبوه بالمرتضى ، وزحفوا به إلى غرناطة ، وهى من البلاد التى تغلب عليها البربر ، ثم ندموا على تقديمه لما رأوا من صرامته وحدة نفسه ، وخافوا من عواقب تمكنه وقدرته ، فانهزموا عنه وودسوا عليه من قتله غيلة وخفى أمره .

وبقى على بن حمود بقرطبة مستمراً الأمر عامين غير شهرين ، إلى أن قتله صقالبة له فى الحمام سنة ٤٠٨ ، وكان له من الولد : يحيى ، وإدريس .

ولاية القاسم بن حمود المأمون

ثم ولي بعده أخوه القاسم بن حمود ، وكان أسن منه بعشرة أعوام ، وكان وادعاً ، أمن الناس معه ، وكان يُذكر عنه أنه تشيع ، ولكنه لم يُظهر ذلك ولا غير على الناس عادةً ولا مذهباً ، وكذلك سائر من ولي منهم بالأندلس (١) .

(١) المقصود بنى حمود ويرجع أصلهم إلى الحسن بن على بن أبى طالب .

فبقى القاسم كذلك إلى شهر ربيع الأول سنة ٤١٢ ، فقام عليه ابن أخيه يحيى بن على ابن حمود بمالقة فهرب القاسم عن قرطبة بلا قتال وصار بإشبيلية ، وزحف ابن أخيه المذكور من مالقة بالعساكر ودخل قرطبة بلا قتال ، وتسمى بالخلافة ، وتلقب بالمعتلى ، فبقى كذلك إلى أن اجتمع للقاسم أمره واستمال البربر وزحف بهم إلى قرطبة ، فدخلها سنة ٤١٣ وهرب يحيى بن على إلى مالقة ، فبقى القاسم بقرطبة شهوراً واضطرب أمره .

وغلب ابن أخيه يحيى على المدينة المعروفة بالجزيرة الخضراء ، وهى كانت معقل القاسم ، وبها كانت امرأته وذخائره ، وغلب ابن أخيه الثانى إدريس بن على صاحب سببة على طنجة ، وهى كانت عدة القاسم ، يلجأ إليها إن رأى ما يخافه بالأندلس .

وقام عليه جماعة أهل قرطبة بالمدينة ، وغلقوا أبوابها دونه (١) ، وحاصروهم نيفاً وخمسين يوماً ، وأقام الجمعة فى مسجد خارج قرطبة ، يعرف بمسجد ابن أبى عثمان ، أثره باق إلى اليوم ، ثم إن أهل قرطبة زحفوا إلى البربر ، فانهزم البربر عن القاسم وخرجوا من الأرباض كلها فى شعبان سنة ٤١٤ ، ولحقت كل طائفة من البربر ببلد غلبت عليه .

وقصد القاسم إشبيلية ، وبها كان ابنه محمد والحسن ، فلما عرف أهل إشبيلية خروجه عن قرطبة ومجيئه إليهم ، طردوا ابنه ومن كان معها من البربر ، وضبطوا البلد ، وقدموا على أنفسهم ثلاثة من أكابر البلد ، أحدهم القاضى أبو القاسم محمد بن إسماعيل بن عباد اللخمى (٢) ، ومحمد بن يريم الألهانى ، ومحمد بن الحسن الزبيدى ، ومكثوا كذلك أياماً مشتركين فى سياسة البلد وتديره ، ثم استبد القاضى أبو القاسم محمد بن إسماعيل بن عباد بالأمر والتدبير ، وصار الآخرون من جملة الناس .

(١) هرب إلى ما وراء أسوار مدينة قرطبة بعد ثورة أهلها عليه .

(٢) وهو مؤسس بنى عباد أصحاب إشبيلية .

ولحق القاسم بشريش ، واجتمع البربر على تقديم ابن أخيه يحيى ، فزحفوا إلى القاسم فحاصروه حتى صار في قبضة ابن أخيه ، وانفرد ابن أخيه يحيى بولاية البربر .

وبقى القاسم أسيراً عنده وعند أخيه إدريس بعده إلى أن مات إدريس ، فقتل القاسم خنقا سنة ٤٣١ ، وحُمل إلى ابنه محمد بن القاسم بالجزيرة فدفن هناك .

فكانت ولاية القاسم منذ تسمّى بالخلافة بقرطبة إلى أن أسره ابن أخيه ستة أعوام ، ثم كان مقبوضاً عليه ست عشرة سنة عند ابن أخيه يحيى وإدريس ، إلى أن قُتل - كما ذكرنا - في أول سنة ٤٣١ ، ومات وله ثمانون سنة وله من الولد محمد والحسن ، أمهما أميرة بنت الحسن ابن قنون بن إبراهيم بن محمد بن القاسم بن إدريس بن إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب .

ولاية يحيى بن علي المعتلى

اختلف في كنيته ، ف قيل أبو القاسم ، وقيل أبو محمد ، وأمه لبونة بنت محمد بن الحسن ابن القاسم المعروف بقنون بن إبراهيم بن محمد بن القاسم بن إدريس بن إدريس بن عبد الله ابن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب ، وكان الحسن بن قنون من كبار ملوك الحسينين وشُجعانهم ومردتهم وطغاتهم المشهورين ، فتسمى يحيى بالخلافة بقرطبة سنة ٤١٣ كما ذكرنا ، ثم هرب عنهم إلى مالقة سنة ٤١٤ كما وصفنا ، ثم سعى قوم من المفسدين في رد دعوته إلى قرطبة في سنة ١٦ فتم لهم الأمر ، إلا أنه تأخر عن دخولها باختياره ، واستخلف عليها عبد الرحمن بن عطف اليفرنى (١) ، فبقى الأمر كذلك إلى سنة ١٧ ثم قطعت طاعته جماعة البربر ، (٢) وصرفوا عاملهم ، وبايعوا المعتلى الأموى أخا المرتضى (٣) ، وبقي المعتلى

(١) وهو منسوب إلى يفرن من قبائل البربر وقد وصل إلى درجة من الجاه والقوة في عهد عبيد الله ابن المهدي .

(٢) إضافة من نفح الطيب .

(٣) انظر : نفح الطيب ٤٩ - ٥٠ .

هذا يردد لحصارهم العساكر ، إلى أن اتفقت كلمة البربر على الاستسلام لأبى القاسم وسلموا إليه الحصون والقلاع والمدن ، وعظم أمره بقرمونة ، فصار محاصراً لإشبيلية ، طامعاً في أخذها فخرج يوماً وهو سكران إلى خيل ظهرت من إشبيلية بقرب قرمونة ، فلقبها وقد كمنوا له ، فلم يكن بأسرع من أن قتلوه (١) ، وذلك يوم الأحد لسبع خلون من المحرم سنة ٤٢٧ ، وكان له من الولد : الحسن ، وإدريس ، ولأُمى ولد .

[رد الأمر إلى بنى أمية]

ولاية عبد الرحمن بن هشام المستظهر

ولما انهزم البربر عن قرطبة مع أبى القاسم كما ذكرنا ، اتفق رأى أهل قرطبة على رد الأمر إلى بنى أمية ، فاختاروا منهم ثلاثة وهم : عبد الرحمن بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر ، أخو المهدي المذكور آنفاً (٢) ، وسليمان ابن المرتضى المذكور آنفاً ، ومحمد بن عبد الرحمن بن هشام بن سليمان القائم على المهدي ابن الناصر (٣) .

ثم استقر الأمر لعبد الرحمن بن هشام بن عبد الجبار ، فبويع بالخلافة لثلاث عشرة ليلة خلت لرمضان سنة ٤١٤ ، وله اثنتان وعشرون سنة ، وتلقب بالمستظهر ، وكان مولده سنة ٣٩٢ في ذى القعدة ، يكنى أبا المطرف ، وأمه أم ولد اسمها غاية .

ثم قام عليه أبو عبد الرحمن محمد بن عبد الرحمن بن عبيد الله بن عبد الرحمن الناصر ، مع طائفة من أراذل العوام ، فقتل عبد الرحمن بن هشام ، وذلك لثلاث بقين من ذى القعدة سنة ٤١٤ المؤرخة ، ولا عقب له (٤) .

(١) كان هذا بإيعاز من ملك إشبيلية ، ابن عباد .

(٢) انظر التفاصيل في نفح الطيب ٤١ / ١ .

(٣) انظر : المعجب ٤٢ / ٤١ .

(٤) جلس في الحكم ٧٥ يوماً .

وكان في غاية الأدب والبلاغة والفهم ورقة النفس ، كذا قال أبو محمد علي بن أحمد ،
وكان خبيراً به ؛ لأنه وزر له ، وقال الوزير أبو عامر أحمد بن عبد الملك بن شهيد : كان
المستظهر شاعراً ويستعمل الصناعة فيجيد ، وهو القائل في ابنة عمه :

حمامة بيت العيشمين (١) رفرفت	فطرت إليها من سراتهم صقرا
تَقِلُّ الثريا أن تكون لها يدا	ويرجو الصباح أن يكون لها نحرا
وإنى لطعان إذا الخيل أقبلت	جوانبها حتى ترى جُونها شقرا
ومُكرّم ضيفي حين ينزل ساحتى	وجاعل وفري عند سائله وفرا

وهي طويلة ، قالها أيام خطبته لابنة عمه أم الحكم بنت سليمان المستعين .
قال أبو عامر : « وكان متهما في أشعاره ورسائله ، حتى كتب أبياتاً ليعلى بن أبي زيد
حين وفد عليه ارتجالاً ، فعجب أهل التمييز منه ، وأما أنا فقد كنت بلوته ، وكان ورود يعلى
فجأة ولم يبرح من مجلسه حتى ارتجل الأبيات وأنا والله أخاف أن يزل ، فأجاد وزاد »
هذا آخر كلام أبي عامر .

ولاية محمد بن عبد الرحمن المستكفي بالله

ولى محمد بن عبد الرحمن المذكور وله ثمان وأربعون سنة وأشهر ؛ لأن مولده في سنة
٣٦٦ ، وكنيته أبو عبد الرحمن ، أمه أم ولد اسمها حوراء ، وكان أبوه قد قتله ابن أبي عامر
في أول دولة هشام المؤيد ، لسعيه في القيام وطلبه للأمر .

(١) وهم من بطن بنى عبد شمس .

وكان محمد بن عبد الرحمن هذا يلقب بالمستكفى بالله ، وكانت ولايته ستة أشهر وأياماً ، وكان في غاية السخف وركاكة العقل وسوء التدبير ، وَزَرَ له رجل حائك يعرف بأحمد بن خالد ، هو كان المدبر لأمره والمدير لدولته ، فقل في دولة يُديرها حائك . . . !

ولم يزل كذلك إلى أن خلع وقُتل وزيره المذكور في داره : دخل عليه عوام أهل قرطبة نهاراً فتولوه بالحديد إلى أن برد ، وخلعوا المستكفى بالله وأخرجوه عن قرطبة ، بعد أن أقام ثلاثة أيام مسجوناً لا يصل إليه طعام ولا شراب ، ثم نفوه - كما ذكرنا - فلحق بالثغور ، ورجع الأمر إلى يحيى بن علي الفاطمي (١) .

وانتهى المستكفى المذكور من الثغر إلى قرية تعرف بـ « شمنت (٢) » بالقرب من مدينة سالم ، ومعه أحد قواده ، وهو عبد الرحمن بن محمد ابن السليم ، من ولد سعيد بن المنذر القائد المشهور أيام عبد الرحمن الناصر ، فكره هذا القائد التهادي معه ، فاستدعى المستكفى غداءه ، فعمد القائد إلى دجاجة فدهنها له بعُصارة نبت يقال له البيش (٣) - وهو كثير ببلاد الأندلس وخصوصاً بتلك الجهة - فلما أكلها المستكفى مات مكانه ، فغسَّله وكفنه وصلى عليه ودفنه ، فقبْره هناك ، ولا عقب له (٤) .

ثم أقام يحيى بن علي الفاطمي في الولاية نافذ الأمر ، إلا أنه لم يدخل قرطبة ، وإنما كان مقيماً بقرمونة كما قد قدمنا إلى أن قُتل في التاريخ الذي تقدم ذكره .

ولاية هشام المعتد بالله

(١) وهو المعتلى ابن حمود .

(٢) وجاءت عبارة أخرى عند المقرئ « وفرَّ المستكفى إلى ناحية الثغر ومات بفرّة » .

(٣) وهو صاحب ابن زيدون الشاعر المعروف .

(٤) انظر : الحلة السراء ١ / ١١٠ .

ولما انقطعت دعوة يحيى بن على الفاطمي عن قرطبة في التاريخ الذي ذكرناه ، أجمع رأى أهل قرطبة على رد الأمر إلى بنى أمية ، وكان عميدهم في ذلك والذي تولى معظمه وسعى في تمامه ، الوزير أبا الحزم جهور بن محمد بن جهور بن عبيد الله بن محمد بن الغمر بن يحيى بن عبد الغافر ابن أبى عبدة ، وقد كان ذهب كل من ينافس في الرياسة ويخب في الفتنة بقرطبة ، فراسل جهور من كان معه على رأيه من أهل الثغور والمتغلبين هنالك على الأمور ، وداخلهم في هذا الأمر ، فاتفقوا بعد مدة طويلة على تقديم أبى بكر هشام بن محمد بن عبد الملك بن عبد الرحمن الناصر ، وهو أخو المرتضى المذكور آنفا .

وكان هشام هذا مقيماً بحصن يدعى « البُنت » ، من الثغور ، عند أبى عبد الله محمد بن عبد الله بن قاسم القائد المتغلب بها ، فبايعوه في شهر ربيع الأول سنة ٤١٨ ، وتلقب بالمعتد بالله .

وكان مولده في سنة ٣٦٤ ، وكان أسن من أخيه المرتضى بأربعة أعوام ، وسنه يوم بُويع له أربع وخمسون سنة ، أمه أم ولد اسمها « عاتب » .

فبقى ينتقل في الثغور ثلاثة أعوام لا يستقر بموضع ، ودارت هنالك فتن عظيمة بين الرؤساء المتغلبين واضطراب شديد ، إلى أن اتفق أمرهم واجتمع رأيهم على أن يسير إلى قرطبة قصبة الملك ، فسار إليها ودخلها في الثامن من ذى الحجة سنة ٤٢٠ ، فلم يُقم بها إلا يسيراً حتى قامت عليه طائفة من الجند ، فخلع ، وجرت أمور يطول شرحها ، من جعلتها إخراج المعتد بالله هذا من قصره هو وحشمه ، والنساء حاسرات عن وجوههن ، حافية أقدامهن ، إلى أن أدخلوا الجامع الأعظم على هيئة السبايا ، فأقاموا هنالك أياماً يُتَعَطَّفُ عليهم بالطعام والشراب ، إلى أن أخرجوا عن قرطبة .

ولحق هشام ومن معه بالثغور بعد اعتقال بقرطبة ، فلم يزل يجول في الثغور إلى أن لحق بابن هود المتغلب على مدينة لاردة وسرقسطة وأفراغة وطُروطشة وما والى تلك الجهات ، فأقام عنده هشام إلى أن مات سنة ٤٢٧ ، ولا عقب له ، فهشام هذا آخر ملوك بنى أمية بالأندلس .

نَسَبُهُ : هو هشام بن محمد بن عبد الملك بن عبد الرحمن الناصري بن محمد بن عبد الله
ابن محمد بن عبد الرحمن بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل بن معاوية بن هشام بن
عبد الملك بن مروان بن الحكم .

وبخلعه انقطعت الدعوة لبني أمية وذكرهم على المنابر بجميع أقطار الأندلس والعُدوة
إلى الآن .

فهذا آخر ما انتهى إلينا من أخبار بني أمية بالأندلس على شرط التلخيص .

ذكر أخبار الأندلس بعد انتقال
الدعوة الأموية عنها
وعن ملكها من الملوك
إلى وقتنا هذا ، وهو سنة ٦٢١

ولما انقطعت دعوة بنى أمية كما ذكرنا بالأندلس ولم يبق من عقبهم من يصلح للإمارة ولا من تليق به الرياسة ، استولى على تدبير مُلك قرطبة جهور بن محمد بن جهور ، ويكنى أبا الحزم ، وقد تقدم ذكر نسبه في ترجمة هشام المعتد .

وأبو الحزم هذا قديم الرياسة شريف البيت ، كان آباؤه وزراء الدولة الحكيمة والعامرية ، وهو موصوف بالدهاء وبُعد الغور وحصافة العقل وحسن التدبير ، ولم يدخل من دهائه في الفتن الكائنة قبل ذلك ، كان يتصاؤنُ عنها ويظهر النزاهة والتدين والعفاف ، فلما خلا له الجو وأصفر الفناء وأقفر النادى من الرؤساء وأمكنته الفرصة ، وثب عليها فتولى أمرها واصطنع بحمايتها .

ولم ينتقل إلى رتبة الإمارة ظاهراً ، جرياً على ما قدمنا من إظهار سُنن العفاف ، بل دبرها تدبيراً لم يُسبق إليه ، وذلك أنه جعل نفسه مُمسكاً للموضع إلى أن يجيء من يتفق الناس على إمارته فيسلم إليه ذلك ، ورتّب البوابين والحشم على تلك القصور على ما كانت عليه أيام الدولة ، ولم يتحول عن داره إليها ، وجعل ما يرتفع من الأموال السلطانية بأيدي رجال رتبهم لذلك وهو المشرف عليهم ، وصير أهل الأسواق جنداً له ، وجعل أرزاقهم رءوس أموال تكون بأيديهم مخصصة عليهم يأخذون ربحها ورءوس الأموال باقية محفوظة ، يُؤخذون بها ويراعون في كل وقت كيف حفظهم لها ، وفرق السلاح عليهم وأمرهم بتفرقته في الدكاكين والبيوت ، حتى إذا بهمهم أمرٌ في ليلٍ أو نهار كان سلاح كل واحد معه حيث كان في بيته أو دكانه .

وكان أبو الحزم هذا يشهد الجنائز ويعود المرضى ، جاريّاً على طريقة الصالحين ، وهو مع ذلك يدبر الأموال تدبير الملوك المتغلبين ، وكان آمناً وادعاً وقرطبة في أيامه حرماً يأمن فيه كل خائف .

واستمر أمره على ذلك إلى أن مات في غرة صفر سنة ٤٣٥ فكانت مدة تدبيره منذ استولى إلى أن مات أربع عشرة سنة وأشهرًا .

ثم ولى ما كان يتولى من أمر قرطبة بعده ابنه أبو الوليد محمد بن جهور ، فجرى فى السياسة وحسن التدبير على سنن أبيه ، غير خُل بشيء من ذلك ، إلى أن مات أبو الوليد المذكور فى سلخ شوال من سنة ٤٤٣ .

فغلب عليه بعد أمور جرت ، الأمير الملقب بالمأمون ابن ذى النون صاحب طليطلة ، فدبرها مدة يسيرة إلى أن مات .

وخلف فيها بعده من البربر رجلاً يُعرف بابن عكاشة ، أظن اسمه موسى ، فكان بها إلى أن غلبه عليها وأخرجه منها الأمير الظافر بحول الله أبو القاسم محمد بن عباد على ما يأتى بيانه إن شاء الله تعالى .

فهذا آخر أخبار قرطبة وكونها داراً للملك .

وبعد غلبة المعتمد عليها صارت تبعاً لإشبيلية .

فصل

عن بنى حمود وطمع بنى عباد

فى قرطبة

وأما أحوال الحسينين ، فإنه لما قُتل يحيى بن على - كما ذكرنا - لسبع خلون من المحرم سنة ٤٢٧ - رجع أبو جعفر أحمد بن موسى المعروف بابن بقنة ، ونجا الخادم الصقلبى ، وهما مدبراً دولة الحسينين ، فأتيا مالقة وهى دار مملكتهم ، فخاطبا أخاه إدريس بن على ، وكان بسبته ، وكان يملك معها طنجة ، واستدعياه ، فأتى مالقة وبايعاه بالخلافة على أن يجعل حسن بن يحيى المقتول مكانه بسبته ، ولم يبايعا واحداً من ابنى يحيى ، وهما إدريس وحسن ، لصغرهما ، فأجابهما إلى ذلك ، ونهض نجا مع حسن هذا إلى سبته وطنجة ، وكان حسن أصغر ابنى يحيى ولكنه أسدُّهما رأيا .

وتلقب إدريس بالمتأيد ، فبقى كذلك إلى سنة ٣٠ أو ٣١ ، فتحركت فتنة ، وحدث للقاضى أبى القاسم محمد بن إسماعيل بن عباد صاحب إشبيلية أمل فى التغلب على تلك البلاد ، فأخرج ابنه إسماعيل فى عسكر مع من أجابه من قبائل البربر ، ونهض إلى قرمونة فحاصرها ، ثم نهض إلى حصن يدعى أشونة ، وحصن آخر يدعى أستجة فأخذهما ، وكانا بيد محمد بن عبد الله ، رجلٍ من قواد البربر من بنى برزال ، فاستصرخ محمد بن عبد الله إدريس بن على الحسنى وقبائل صنهاجة ، فأمدته صاحب صنهاجة بنفسه ، وأمدته إدريس بعسكر يقوده ابن بقنة أحمد بن موسى مدبر دولته ، فاجتمعوا مع محمد بن عبد الله ، ثم غلبت عليهم هيبة إسماعيل بن محمد بن إسماعيل بن عباد ، قائد عسكر أبيه القاضى أبى القاسم ، فافترقوا ، وانصرف كل واحد منهم إلى بلده ، فبلغ ذلك إسماعيل بن محمد ، فقَوَّى أمله ، ونهض بعسكره قاصداً طريق صاحب صنهاجة ، وقدر صاحب صنهاجة أنه سيلحقه ، فوجه إلى ابن بقنة يسترجعه ، وإنما كان فارقه قبل ذلك بساعة ، فرجع إليه

والتقت العساكر فما كان إلا أن تراءى الجمعان ، فولىّ عسكر ابن عباد منهزمًا ، وأسلموا إسماعيل ، فكان أول مقتول ، وحُمل رأسه إلى إدريس بن علي الحسنى .

وقد كان إدريس استشعر بالهلاك ، فنزل على مالقة إلى جبل بياشتر ، وهو الذى قام فيه ابن حفصون المتقدم الذكر^(١) ، فتحصن به وهو مريض مُدنف ، فلم يعيش إلا يومين ومات ، وترك من الولد يحيى ، قُتل بعده ، ومحمدًا الملقب بالمهدى ، وحسنًا الملقب بالسامى ، وكان له ابن هو أكبر بنيه اسمه على ، مات فى حياة أبيه ، وترك ابنا اسمه عبد الله ، أخرجته عمه^(٢) ونفاه لما ولى .

وقد كان يحيى بن علي المذكور قبلُ قد اعتقل ابنى عمه محمدًا والحسن ابنى القاسم بن حمود بالجزيرة ، وكان الموكل بهما رجلاً من المغاربة يعرف بأبى الحجاج ، فحين وصل إليه خبر قتل يحيى ، جمع من كان فى الجزيرة من المغاربة والسودان ، وأخرج محمدًا والحسن ، وقال : هذان سيداكم ! فسارع أجمعهم إلى الطاعة لهما ، لشدة ميل أبيهما إلى السودان قديماً وإيثاره لهم ، وانفرد محمد بالأمر دون الحسن ، وملك الجزيرة ، إلا أنه لم يتسم بالخلافة ، وبقي معه أخوه الحسن مدة ، إلى أن حدث له رأى فى التنسك ، فلبس الصوف وتبرأ عن الدنيا ، وخرج إلى الحج مع أخته فاطمة بنت القاسم ، زوجة يحيى بن علي المعتلى^(٣) .

فلما مات إدريس كما تقدم ، رام ابن بقنة أحمد بن موسى ضبط الأمر لولده يحيى بن إدريس المعروف بحيون ، ثم لم يجسر على ذلك الجسر التام ، وتحير وتردد .

ولما وصل خبر قتل إسماعيل بن عباد وموت إدريس بن علي إلى نجا الخادم الصقلبى ،

(١) لا يوجد أى أخبار عن ابن حفصون .

(٢) المقصود به يحيى بن علي بن حمود .

(٣) وردت فى نفح الطيب رواية المقرئ : « وكان محمد بن القاسم بن حمود لما اعتقل أبوه القاسم بمالقة سنة

٤١٤ ، وفر من الاعتقال ولحق بالجزيرة الخضراء وملكها وتلقب بالمعتصم ، إلى أن هلك سنة ٤٤٠ ،

ثم ملكها بعده ابنه القاسم الواثق إلى أن هلك سنة ٤٥٠ »

ولم يذكر المقرئ شيئاً عن تنسك محمد بن القاسم ولبسه الصوف .

وكان بسبته ، استخلف عليها من وثق به من الصقالبة ، وركب البحر هو وحسن بن يحيى إلى مالقة ، ليرتب الأمر له ، فلما وصلا إلى مرسى مالقة ، خارت قوى ابن بقنة وهرب إلى حصن كمارش ، على ثمانية عشر ميلاً من مالقة .

ودخل حسن ونجا مالقة ، واجتمع إليهما من بها من البربر ، فبايعوا حسن بن يحيى بالخلافة ، وتسمى المستعلى ، ثم خاطب ابن بقنة وأمنه ، فلما رجع إليه قبض عليه وقتله ، وقتل ابن عمه يحيى بن إدريس .

ورجع نجا إلى سبته وطنجة ، وترك مع الحسن رجلاً كان من التجار يعرف بالسطيفى ، كان نجا كثير الثقة به ، فبقى الأمر كذلك نحواً من عامين .

وكان الحسن بن يحيى متزوجاً بابنة عمه إدريس ، ف قيل : إنها سمتة أسفاً على أخيها ، فلما مات احتاط السطيفى على الأمر ، واعتقل إدريس بن يحيى وكتب إلى نجا بالخبر .

وكان للحسن ابن صغير عند نجا ، ف قيل إنه اغتاله أيضاً فقتله ، فالله أعلم ولم يُعقب حسن بن يحيى ، فاستخلف نجا على سبته وطنجة من وثق به من الصقالبة عند وصول الخبر إليه ، وركب البحر إلى مالقة ، فلما وصل إليها زاد فى الاحتياط على إدريس بن يحيى ، وأكد اعتقاله ، وعزم على محو أمر الحسينين جملة ، وأن يضبط تلك البلاد لنفسه ، فدعا البربر الذين كانوا جند البلد ، وكشف الأمر إليهم علانية ، ووعدهم بالإحسان ، فلم يجدوا لمساعدته بدءاً ، فوافقوه فى الظاهر ، وعظم ذلك فى أنفسهم باطناً ، ثم جمع عسكره ونهض إلى الجزيرة ليستأصل محمد بن القاسم ، فحاربه أياماً ، ثم أحس بفتور نيات الذين معه ، فرأى أن يرجع إلى مالقة ، فإذا حصل فيها نفى من يخاف غائلته منهم واستصلح سائرهم ، واستدعى الصقالبة من حيثما أمكنه ليقوى بهم على غيرهم ، وأحس البربر بهذا منه ، فاغتالوه فى الطريق من قبل أن يصل إلى مالقة ، فقتل وهو على دابته فى مضيق صار فيه ، وقد تقدمه إليه الذى أراد الفتك به ، وفر من كان معه من الصقالبة

بأنفسهم ، ثم تقدم فارسان من الذين غدروا به يركضان حتى وردا مالقة ، فدخلوا وهما يقولان : البشرى البشرى ، فلما وصلا إلى السطيفى ، وضعوا سيفيهما عليه فقتلاه .

ثم وافى العسكر فاستخرجوا إدريس بن يحيى من حبسه ، فقدموه وباعوه بالخلافة ، وتسمى بالعالى ، فظهرت منه أمور متناقضة ، منها أنه كان أرحم الناس قلباً ، كثير الصدقات : يتصدق كل يوم بخمسمائة ، ورد كل مطرود عن وطنه إليه ، ورد عليهم ضياعهم وأملاكهم ، ولم يسمع بغياً فى أحد من الرعية ، وكان أديب اللقاء ، حسن المجلس ، يقول من الشعر الأبيات الحسان^(١) ، ومع هذا فكان لا يصحب ولا يؤثر إلا كل ساقط رذل ، ولا يحجب حُرمة عنهم ، وكل من طلب منه حصناً من حصون بلاده ممن يجاوره من صنهاجة أو بنى يفرن أعطاه إياه ، وكتب إليه أمير صنهاجة أن يسلم إليه وزيره ومدير أمره وصاحب أبيه وجده : موسى بن عفان السبتي ، فلما أخبره أن الصنهاجى كتب إليه يطلبه منه وأنه لابد من تسليمه إليه ، قال له موسى بن عفان : افعل ما تؤمر ، ستجدنى إن شاء الله من الصابرين ! فبعث به إلى الصنهاجى فقتله .

وكان قد اعتقل ابنى عمه محمداً وحسناً ابنى إدريس بن على فى حصن إيرش ، فلما رأى ثقته الذى فى الحصن اضطراب آرائه ، خالف عليه وقدم ابن عمه محمد بن إدريس ، فلما بلغ ذلك السودان المرتبين فى قصبة مالقة ، نادوا بدعوة ابن عمه محمد بن إدريس ، وراسلوه بالمجىء إليهم وامتنعوا بالقصبة .

واجتمع العامة إلى إدريس بن يحيى ، واستأذنوه فى حرب القصبة والدفاع عنه ، ولو أذن لهم ما ثبت السودان فُواق ناقة^(٢) ، فأبى فقال لهم : الزموا منازلكم ودعونى ، ففرقوا عنه .

(١) من شعراء الذخيرة .

(٢) تعبيراً عن السرعة .

وجاء ابن عمه ، فُسْلَم عليه ، وبويع بالخلافة ، وتسمى بالمهدى ، وولى أخاه عهده ،
وسماه السامى ، واعتقل ابن عمه إدريس بن يحيى فى الحصن الذى كان معتقلا فيه (١) .

وظهرت من محمد بن إدريس هذا شهامة وجرأة شديدة هابه بها جميع البربر وأشفقوا منه
وأرسلوا المرتب فى الحصن الذى فيه إدريس بن يحيى هذا واستمالوه ، فأجابهم وقام
بدعوة إدريس .

وقد كان إدريس أول ولايته بعد قتل نجا - كما تقدم - قد ولى سبتة وطنجة رجلين من
برغواطة ، قبيلة من قبائل البربر ، من عبيد أبيه ، اسم أحدهما رزق الله ، والآخر سكات ،
فلما خلع إدريس ، كما تقدم ، بقيا خافطين لمكانيهما .

فلما قام - كما ذكرنا - بدعوة صاحب حصن إيرش ، لم يُظهر محمد مبالاة بذلك ، بل
ثبت ثباتاً شديداً ، وكانت والدته تشجعه وتقوى متنه وتُشرف على الحرب بنفسها فتُحسن إلى
من أبلى ، فلما رأى البربر شدة عزمه وثباته ، فتَّ ذلك فى أعضادهم وتخلوا عن إدريس
ابن يحيى ، ورأوا أن يبعثوا به إلى سبتة وطنجة ، إلى البرغواطيين اللذين ذكرنا ، وقد كان
إدريس جعل ابنه عندهما فى حضانتها ، فلما وصل إليهما أظهرتا تعظيمه ومخاطبته بالخلافة ،
إلا أنهما حجباها حجاباً شديداً ولم يدعا أحداً من الناس يصل إليه ، فتلطف قوم من أكابر
البربر حتى وصلوا إليه ، وقالوا له : إن هذين العبدین قد غلبا عليك ، وحالا بينك وبين
أمرك ، فأذن لنا نكفكهما ؛ فأبى ، ثم أخبرهما بذلك ، فنفا أولئك القوم ، وأخرجوا إدريس
بن يحيى وبعثوا به إلى الأندلس ، وتمسكا بولده لصغره ، إلا أنهما فى كل ذلك يخطبان لإدريس
بالخلافة .

ثم إن محمد بن إدريس أنكر من أخيه الملقب بالسامى أمراً ، فنفاه إلى العُدوة ، فصار
فى جبال غمارة ، وهى بلاد تنقاد لهؤلاء الحسينيين ، وأهلها يعظمونهم تعظيماً مفرطاً .

(١) خرج من الحكم سنة ٤٣٨ هـ ومات سنة ٤٤٧ هـ .

ثم إن البرابرة خاطبوا محمد بن القاسم^(١) الكائن بالجزيرة الخضراء ، واجتمعوا إليه ووعدوه بالنصر ، فاستفزه الطمع وخرج إليهم ، فبايعوه بالخلافة ، وتسمى بالمهدى ، وصار الأمر في غاية الأخلوقة^(٢) والفضيحة : أربعة كلهم يتسمى بأمير المؤمنين ، في رقعة من الأرض مقدارها ثلاثون فرسخاً في مثلها .

فأقاموا معه أياماً ثم افترقوا عنه إلى بلادهم ، ورجع محمد^(٣) خاسئاً إلى الجزيرة ومات لأيام ، فقيل : إنه مات غماً ، وترك نحواً من ثمانية ذكور .

فتولى أمر الجزيرة بعده ابنه القاسم بن محمد بن القاسم ، إلا أنه لم يتسم بالخلافة .

وبقى محمد بن إدريس [المهدى] بالقة إلى أن مات سنة ٤٤٥ هـ (٤) .

وكان إدريس بن يحيى المعروف بالعالى^(٥) عند بنى يفرن بتاكرونة ، فلما توفي محمد بن إدريس بن يحيى [المهدى] ردت ، العامة إدريس العالى إلى مالقة واستولى عليها ، وهو آخر من ملكها من الحسينيين^(٦) .

فلما مات^(٧) أجمع البربر على رأيهم في نفى الحسينيين عن الأندلس إلى العدو والاستبداد بضبط ما كانوا يملكونه من البلاد ، ففعلوا ذلك وتم لهم وما أراد وما منه .

كانت الجزيرة الخضراء وما والاها من القرى إلى تاكرونة ، ومالقة وما والاها أيضاً إلى

(١) أبوه القاسم بن حمود الذى ولى الخلافة قبل ابن أخيه يحيى المعتلى وتلقب بالمأمون ، وكان محمد هذا مقيماً بالجزيرة منذ خروجه من إشبيلية ودورة الدائرة على أبيه . انظر ص ٥٠ - ٥٢ .

(٢) كذا بالأصل ، ويظن دوزى أنها محرفة عن « الأضحوكة » ولا داعى لهذا الظن .

(٣) يعنى محمد بن القاسم .

(٤) في نفح الطيب أن وفاته كانت سنة ٤٤٤ هـ .

(٥) هو ممدوح أبى زيد الأشبونى السابق ذكره .

(٦) يروى المقرئ أن إدريس بن يحيى العالى لم يكن آخر أمرائهم ، فقد بويع من بعده ولده محمد بن إدريس

ولقب بالمستعلى ، ثم سار إليه باديس بن حيوس سنة ٤٤٩ هـ فتغلب على مالقة وسار محمد المستعلى هذا

إلى ألمرية مخلوعاً ، ثم استدعاه أهل المغرب إلى مليلة وبايعوه سنة ٤٥٦ هـ فظل إلى أن مات سنة ٤٦٠ هـ . .

(٧) كانت وفاته سنة ٤٤٧ هـ .

حصن منكب وغرناطة وأعمالها ، فى ملك البربر ، وملكوا مع ذلك بعض أعمال إشبيلية ، كحصن أشونة ، وقرمونة ، وشلبر : ولم يزالوا كذلك إلى أن أخرج من أيديهم ما كانوا يملكونه من أعمال إشبيلية المتعضد بالله أبو عمرو عباد بن محمد بن إسماعيل بن عباد اللخمى ، ثم أتم ابنه أبو القاسم المعتمد على الله ما ابتدأه أبوه من ذلك .

وهذا آخر أخبار الحسين وما يتعلق بهما ، حسبما أورده أبو عبد الله محمد بن أبى نصر الحميدى ، عليه عوّلت فى أكثر ذلك ، ومن كتابه نقلت ، خلا مواضع تبينت غلطه فيها أصلحتها جهد ما أقدر .

وعلى الله قصد السبيل ، وهو المسئول فى الهداية قولاً وعملاً .

فصل

يتضمن ذكر أحوال الأندلس بعد انقطاع الدولة الأموية عنها على الإجمال لا على التفصيل

وأما حال سائر الأندلس بعد اختلال دعوة بنى أمية ، فإن أهلها تفرقوا فرقاً ، وتغلب على كل جهة منها متغلب ، وضبط كل متغلب منهم ما تغلب عليه ، وتقسموا ألقاب الخلافة ، فمنهم من تسمى بالمعتضد ، وبعضهم تسمى بالمأمون ، وآخر تسمى بالمستعين ، والمقتدر ، والمعتصم ، والمعتمد ، والموفق ، والمتوكل ، إلى غير ذلك من الألقاب الخلافية ، وفي ذلك يقول أبو على الحسن بن رشيق .

مما يزهدنى في أرض أندلس سماع مُقْتَدِرٍ فيها ومعتضدِ
ألقابُ مملكةٍ في غير موضعها كالهـر يحكى انتفاخاً صولة الأسد !

وأنا ذاكر - إن شاء الله - في هذا الفصل أسماء هم والجهات التي تغلبوا عليها ، على نحو ما شرطتُ من الإجمال ، إذ لكل منهم أخبار وسير ووقائع لو بسطت القول فيها خرج هذا التصنيف عن حد التلخيص إلى حيز الإسهاب ، وأيضاً فالذى منعى من استيفاء أخبارهم أو أخبار أكثرهم ، قلة ما صحبنى من الكتب ، واختلال معظم محفوظاتى .

[ملوك الطوائف]

فأولهم في الربع الشرقى^(١) ، رجل اسمه سليمان بن هود ، تلقب بالمؤتمن ، وتلقب ابنه بالمقتدر ، وتلقب ابنه بالمستعين^(٢) .

كان بنو هود هؤلاء يملكون من مدن هذه الجهة الشرقية^(٣) : طرطوشة^(٤) وأعمالها ، وسرقسطة^(٥) وأعمالها ، وأفراغة ، ولاردة ، وقلعة أيوب^(٦) .

-
- (١) تقع البلاد الآتى ذكرها في الشرق الشمالى لا في الجنوب .
- (٢) كذا بالأصل ، وفي غيره من المراجع أن سليمان بن هود هذا تلقب بالمستعين ، وابنه بالمقتدر ، وابنه بالمؤتمن ، وهو أبو أيوب سليمان بن محمد بن هود بن عبد الله بن موسى ، مولى أبي حذيفة الجذامى ، وجدهم هود هو الداخلى إلى الأندلس .
- (٣) في الأصل : الجنوبية .
- (٤) مدينة جلييلة على نهر أبرة ، اسمها الرومانى درتوزه (Dertosa) استولى عليها العرب في بداية الفتح ، ثم عاد الأسبان فملكوها ، فاسترجعها عبد الرحمن بن الحكم في عهد أبيه الحكم بن هشام الرضى ، ولوجودها في طرف بلاد المسلمين كان الخلفاء يجعلونها منفى لمن يرون إبعاده من أهل الفتنة ، ولما انحلت وحدة الدولة ونجم ملوك الطوائف ، صارت طرطوشة إمارة مستقلة يحكمها مولى من موالى بنى عامر اسمه نبيل الصقلبى ، ويحكم معها بلنسية ، وفي سنة ٤٥٢ ثارت طرطوشة بأمرها هذا الصقلبى ، فلجأ إلى المقتدر ابن هود صاحب سرقسطة ، ودخلت طرطوشة منذ ذلك اليوم في طاعة بنى هود .
- ثم كان استيلاء النصارى عليها في منتصف شعبان سنة ٥٤٣ ، وكان الذى استولى عليها هو ريموند بيرانجة صاحب برشلونة ، بمساعدة فرسان الهيكل الصليبيين وأساطيل بيزة وجنوة ، كما استولى في السنة نفسها على أفراغة ولاردة ، وتقع أفراغة ولاردة مما يلي بطرطوشة نحو الشمال على ساحل بحر الروم .
- (٥) مدينة كبيرة على نهر أبرة ، ترتفع عن البحر نحو ١٨٤ مترًا ، تحديق بها البساتين ، فتحها العرب سنة ٩٤ واتخذوها قاعدة من قواعدهم في الأندلس ، وكان صاحب الأمر فيها لعهد بنى مروان أمير من بنى قصى ، وهى أسرة إسبانية دانت بالإسلام وكان منها أمراء وقواد في جيش الدولة .
- ثم توارثها بعد محمد بن لب آخر أمراء بنى قصى الإسبانى الأصل ، أمراء من بنى تميم ، وبنو تميم : أسرة عربية كانت تقيم بسرقسطة منذ أول الفتح .
- فلما كانت أيام الفتنة ، وثب أبو أيوب سليمان بن محمد بن هود عامل لاردة على سرقسطة ، فاستخلصها لنفسه من بنى تميم ، وجعلها حاضرة ملكه ، وتسمى أبو أيوب هذا بالمستعين ، وهذا مبدأ دولة بنى هود ، وتوفى المستعين في سنة ٤٣٨ ، فخلفه ابنه أحمد المقتدر سيف الدولة إلى سنة ٤٧٤ ، وتسلسل الملك في بنى هود إلى أن استولى النصارى على سرقسطة سنة ٥١٢ .
- (٦) مدينة من أعمال سرقسطة ، بالقرب من مدينة لبلة ، بنى قلعتها أيوب بن حبيب اللخمى ابن أخت موسى بن نصير الفاتح ، وإليه تنسب ، وكان سقوطها في يد الإسبان أوائل القرن السادس .

هذا اليوم كلها بأيدي الفرنجة ، يملكها صاحب برشلونة ، لعنه الله ، وهى البلاد التى تسمى أرغن ، حد هذا الاسم آخر مملكة البرشنونى مما يلى بلاد إفرنسة

[ويجاور بنى هود هؤلاء رجل آخر اسمه عبد الملك بن عبد العزيز يكنى أبا مروان ، قديم الرياسة ، هو أحق ملوك الأندلس بالتقدم لشرف بيته ولا أعلم له لقبا ، كان يملك بلنسية وأعمالها^(١)] .

وكان يلى الثغر رجل آخر يقال له : أبو مروان بن رزين ، كان يملك إلى أول أعمال طليطلة .

وكان الذى يملك طليطلة وأعمالها : الأمير أبو الحسن يحيى بن إسماعيل بن عبد الرحمن ابن إسماعيل بن عامر بن مطرف بن موسى بن ذى النون .
وأبو الحسن هذا أقدم ملوك الأندلس رياسة وأشرفهم بيتاً وأحقهم بالتقدم ، تلقب بالمأمون ، كان أبوه إسماعيل هو الذى تغلب على طليطلة من قبل واستبد بملكها أول الفتنة ولم يزل أبو الحسن هذا يملك طليطلة وأعمالها كما ذكرنا ، إلى أن أخرجه عنها الأذفنش لعنه الله^(٢) ، استولى عليها النصارى فى شهر سنة ٤٧٨^(٣) ، فهى قاعدة ملك النصارى إلى وقتنا هذا .

(١) إضافة من البيان فى أخبار الأندلس والمغرب لابن عذارى .

(٢) وهو ملك ألفونس السادس صاحب قشتالة .

(٣) وردت فى الأصل سنة ٣٧٦ .

وكان يملك قرطبة وأعمالها إلى أول الثغر : جَهَّور بن محمد بن جهور المتقدم ذكره ونسبه^(١) إلى أن غلبه عليها صاحب طليطلة إسماعيل بن ذى النون والد أبى الحسن المذكور آنفا .

وكان يملك إشبيلية وأعمالها القاضي أبو القاسم محمد بن إسماعيل بن عباد اللخمى^(٢) ، تغلب عليها بعد أن أخرج عنها القاسم بن حمود وابنيه محمداً والحسن على ما سيأتى الإيلاء إليه - إن شاء الله عز وجل .

كان يملك مالقة والجزيرة وغرناطة وما إلى ذلك : البربر بنو برزال الصنهاجيون على ما قدمناه .

وتغلب على ألمرية وأعمالها زهير العامرى الخادم ، ثم ملكها بعده خيران العامرى أيضا الخادم ، ثم تغلب عليها بعدهما أبو يحيى محمد بن معن بن صبادح المتلقب بالمعتصم ، فلم يزل فيها إلى أن أخرجه عنها يوسف بن تاشفين اللمتونى فى شهر سنة ٤٨٤ .

وكان يملك دانية وأعمالها مجاهد العامرى ، أصله رومى مولى لأبى عامر محمد بن أبى عامر ، ثم ملكها بعده ابنه على بن مجاهد وتلقب بالموفق ، لا أعلم فى المتغلبين على جهات الأندلس أصون منه نفساً ولا أظهر عرضاً ولا أنقى ساحة ، كان لا يشرب الخمر ولا يقرب من يشربها ، وكان مؤثراً للعلوم الشرعية مكرماً لأهلها ، توفى قبل فتنة المرابطين بيسير ، لا أتحقق [من] تاريخ وفاته^(٣) .

(١) انظر : البيان ٥٧ .

(٢) انظر : البيان ٥١ .

(٣) ظل على بن مجاهد إلى أمر دانية حتى غلبه عليها المقتدر صاحب سرقسطة ٤٦٨ هـ .

وكان يملك الثغر الذى من الجهة المغربية^(١) من الأندلس وبعض المدن المجاورة للبحر الأعظم : ابن الأفطس المتلقب بالمظفر ، ذهب عنى اسمه^(٢) ، ثم كان له ابن اسمه عمر ، يكنى أبا محمد ، تلقب بالمتوكل على الله ، كان يملك بطليوس وأعمالها ، ويابرة ، وشنترين ، والأشبونة .

كان المظفر هذا أحرص الناس على جمع علوم الأدب خاصة من النحو والشعر ونوادير الأخبار وعيون التاريخ ، انتخب مما اجتمع له من ذلك كتاباً كبيراً ترجمه باسمه ، على نحو الاختيارات للروحي ، وعيون الأخبار لأبى محمد ابن قتيبة ، جاء هذا الكتاب فى نحو من عشرة أجزاء ضخمة وقفت على أكثره ، ترجمه « المظفرى » .

وكان لابنه المتوكل قدم راسخة فى صناعة النظم والنثر ، مع شجاعة مفرطة وفروسية تامة ، وكان لا يُغيب الغزو ولا يشغله عنه شىء ، واتصلت مملكته إلى أن قتله المرابطون أصحاب يوسف بن تاشفين ، وقتلوا ولديه الفضل والعباس صبراً : ضربوا أعناقهم فى غرة سنة ٤٨٥ .

وكانت أيام بنى المظفر بمغرب الأندلس أعياداً ومواسم ، وكانوا ملجأ لأهل الآداب ، خلدت فيهم ولهم قصائد شادت مآثرهم وأبقت على غابر الدهر حميد ذكرهم ، وفيهم يقول الوزير الكاتب الأبرع ذو الوزارتين أبو محمد عبد المجيد بن عبدون ، من أهل مدينة يابرة ، قصيدته الغراء ، لا بل عقيلته العذراء ، التى أزرت على الشعر ، وزادت على السحر ، وفعلت فى الألباب فعل الخمر ، فجلّت عن أن تسامى ، وأنفت من أن تضاهى ، فقلّ لها النظر ، وكثر إليها المشير ، وتساوى فى تفضيلها وتقديرها باقل وجريير ، فله هى من عقيلة خدر قربت بسهولتها حتى أطمعت ، وبُعِدت حتى عزّت فامتنعت ، أوردتها فى هذا المصنف وإن كان فيها طول مخرج عن الحد الذى رسمته ، مُخِل بالتلخيص الذى شرطته : لصحة مبانيها ، ورشاقة ألفاظها وجودة معانيها ، سلك فيها أبو محمد - رحمه الله - طريقة لم يُسبق إليها ، وورد شرعاً لم يُزاحم عليها ، فذلك قلّ مثلها لا بل عُدِم ، وعز نظيرها فما تُؤهّم ولا عُلم ، وهى :

(١) وردت فى المطبوع الشمالية .

الدهر يفجع بعد العين بالآثر
 أنهاك أنهاك لا ألوّك موعظة
 فالدهر حربٌ وإن أبدى مسأمة
 ولا هُوادة بين الرأس تأخذه
 فلا تُغرنك من دنياك نومتها
 ما لليالي — أقال الله عثرتنا
 في كل حين لها في كل جارحة
 تُسر بالشئ لكن كي تُغرّ به
 كم دولةٍ وليت بالنصر خدمتها
 هوت بداراً وفلت غرب قاتله
 واسترجعت من بنى ساسان ما وهبت

فما البكاء على الأشباح والصور
 عن نومةٍ بين ناب الليث والظفر
 والبيضُ والسودُ مثل البيضِ والسُمر
 يدُ الضرابِ وبين الصارمِ الذُكر
 فما صناعةٌ عينيها سوى السهرِ
 من الليالي وخانتها يد الغبر
 منا جراحٌ وإن زاغت عن النظر
 كالإيم ثار إلى الجاني من الزهر
 لم تُبق منها — وسل ذكراك — من خبر (١)
 وكان غضباً على الأملاك ذا أثر (٢)
 ولم تدع لبنى يونان من أثر (٣)

-
- (١) الضمير هنا أيضاً يعود على الليالي . والمعنى : كم دولة هيأت لها الليالي أسباب النصر والتأييد ، ثم كُرت عليها فسلبتها كل ما منحت ولم تُبق لها خبراً .
- (٢) دارا : ملك من ملوك الفرس ، قالوا : إنه لبث في الملك ثلاثين سنة ، ثم قتله الإسكندر ، والفل : الكسر ، والغرب : الحُد ، والعضب : السيف ، والأملاك : جمع ملك ، والأثر ضم الهمزة ، والثاء : فرند السيف ، والمعنى : أن الليالي سقطت بدارا عن عرشه ، وكان على أعدائه من الملوك سيفاً قاطعاً ، ثم لم تبق على قاتله فحطمت سيفه وجرعته منيته . وقد تغلب الإسكندر على سائر ملوك عهده ، وبسط سلطانه على أكثر المعمور ، ومات وله من العمر بضع وثلاثون سنة !
- (٢) بنو ساسان : الأكاسرة من ملوك فارس ، حكموها بعد ملوك الطوائف إلى عهد الفتح العربي ، وكانت مدة حكمهم أربعة قرون ونصف قرن .

والحقت أختها طسماً ، وعاد على
وما أقالت ذوى الهيئات من يمن
ومزقت سباً في كل قاصية
وأنفذت في كليب حكمها ورمت
ولم تُردَّ على الضليل صحتة
ودوّخت آل ذبيان وإخوانهم
والحقت بعدي بالعراق على
وأهلك إبـرويزاً بابنه ورمت
وبلغت يزد جرد الصين واختزلت
ولم ترد مواضى رستم وقنا

عاد وجـرهم منها ناقض المر (١)
ولا أجارت ذوى الغايات من مضر (٢)
فما التقى رائح منهم بمبتكر
مُهلـلاً بين سمع الأرض والبصر
ولا ثنت أسداً عن ربها حُجـر
عبساً ، وغصت بنى بدر على النهر
يد ابنه أحمر العينين والشعر
بيزد جرد إلى مرو فلم يحر
عنه سوى الفرس جمع الترك والخزر
ذى حاجب عنه سعداً في ابنة الغير

(١) طسم ، وأختها جدیس : من قبائل العرب البائدة ، كان موطنهما باليـمامة ، ولهما خبر مشهور في تاريخ الجاهلية ، فقد كان ملك القبيلتين رجلاً من طسم اسمه عملوق ، وكان غشوماً ظالماً منقاداً لشهواته ، مجترأً على حرمان الناس ، وكانت جدیس تلقى من شره مالا طاقة لأحد به ، فأجمعت أمرها - بتدبير امرأة منها اسمها عفيرة - على الفتك به ، فكان من ذلك إسيادة طسم وجديس . و « عاد » التي ورد ذكرها في البيت : هي التي عناها الله سبحانه بقوله : ﴿ وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية ﴾ .

« وأما جرهم » فقبيلة من بنى يعرب بن قحطان ، هاجرت من اليمن إلى الحجاز انتجاعاً للرزق ، وأصهر إليهم إسماعيل بن إبراهيم ، عليهما السلام ، وقد كثر عديدهم في الحجاز حتي صاروا ذوى قوة وسلطان ، ثم بغوا وضلوا فأبادهم الله وأذهب ريحهم . والمرر بكسر الميم : جمع مرة ، وهي القوة وشدة الخلق ، وناقض المرر : هو الدهر ، لأنه لا يدع ذا قوة على قوته !

(٢) كانت الرياسة والملك وترف الحضارة في اليمن ، وكان المضرئون من أهل الشمال أصحاب مثل وغايات وأهداف بعيدة ، ولأمر ما كان محمد بن عبد الله - صلوات الله عليه - مضرباً ، ولكن الليالى لم تبق على أحد من هؤلاء ولا من أولئك !

يوم القليب بنو بدر فنوا وسعى
ومزقت جعفرأ بالبيض واختلست
وأشرفت بخبيب فوق قارعة
وخضبت شيب عثمان دماً وخطت
ولا رعت لأبى اليقظان صحبتته
وأجزرت سيف أشقامها أبا حسن
وليتها إذ فدت عمراً بخارجة
وفي ابن هند وفي ابن المصطفى حسن
فبعضنا قائل ما اغتاله أحد
وأردت ابن زياد بالحسين فلم
وعمت بالطبي فودى أبى أنس
وأنزلت مُصعباً من رأس شاهقة
ولم تراقب مكان ابن الزبير ولا
وأعملت في لطيم الجن حيلتها
ولم تدع لأبى الذبّان قاضيه
وأحرقت شلو زيد بعد ما احترقت
وأظفرت بالوليد بن اليزيد ولم
حبابة حب رمان أتيح لها
ولم تعد قضب السفاح نائية

قليب بدر بمن فيه إلى سقر
من غيلة حمزة الظلام للجزر
وأصقت طلحة الفياض بالعفر
إلى الزبير ولم تستحي من عمر
ولم تزوده إلا الضيح في الفجر
وأمكنك من حسين راحتى شمر
سمر قدت عليا بمن شاءت من البشر
أنت بمعضلة الألباب والفكر
وبعضنا ساكت لم يؤت من حصر
يبؤ بشنع له قد طاح أو ظفر
ولم ترد الردى عنه قناز فر
كانت بها مهجة المختار في وزر
راعت عيادته بالسبيت والحجر
واستوسقت لأبى الذبّان ذى البحر
ليس اللطيم لها عمرو يمنتصر
عليه وجداً قلوب الآى والسور
تبقى الخلافة بين الكأس والسوتر
وأحمر قطرته نفحة القطر
عن رأس مروان أو أشياعه الفجر

وَأَسْبَلَتْ دَمْعَةَ السُّرُوحِ الْأَمِينِ عَلَى
وَأَشْرَقَتْ جَعْفَرًا وَالْفَضْلَ يَنْظُرُهُ
وَأَخْفَرَتْ فِي الْأَمِينِ الْعَهْدَ ، وَانْتَدَبَتْ
وَمَا وَفَتْ بَعْهُنَّ وَودِ الْمُسْتَعِينِ وَلَا
وَأَوْثَقَتْ فِي عُرَاهَا كُلِّ مُعْتَمِدٍ
وَرَوَّعَتْ كُلِّ مَأْمُونٍ وَمَوْثَمٍ
وَأَعَثَّرَتْ آلَ عِبَادٍ لِعِبَاءٍ لَهُمْ

بَنَى الْمُظْفَرَ وَالْأَيَّامَ — لَا تُزِلْتُ —
سُحْقًا لِيَوْمِكُمْ يَوْمًا وَلَا حَمَلَتْ
مِنَ الْأَسْرَةِ أَوْ لِلْأَعْنَةِ ، أَوْ
مِنَ اللَّطَبِ وَعَوَالِي الْخَطِّ قَدْ عُقِدَتْ
وَطَوَّقَتْ بِالْمُنَايَا السُّودَ بِيضُهُمْ
مِنَ الْبِرَاعَةِ أَوْ مِّنَ الْبِرَاعَةِ أَوْ
أَوْ دَفَعَ كَارِثَةً أَوْ رَدَعَ آزِفَةً
وَيْبَ السَّمَاحِ وَوَيْبَ الْبَاسِ لَوْ سَلِمَا
سَقَتْ ثَرَى الْفَضْلِ وَالْعَبَّاسِ هَامِيَةً
ثَلَاثَةً مَا رَأَى السَّعْدَانِ مِثْلَهُمْ
ثَلَاثَةً مَا ارْتَقَى النُّسْرَانِ حَيْثُ رَقُّوا

دَمَ بَفِخٍ لِّالِ الْمِصْطَفَى هَـ____دِر
وَالشَّيْخُ يَحْيَى بِرَيْقِ الصَّارِمِ الذِّكْرِ
لِجَعْفَرِ بَابْنِهِ وَالْأَعْبُدِ وَالْقُدْرِ
بِمَا تَأْكُدُ لِلْمَعْتَزِ مِنْ مَرَرٍ
وَأَشْرَقَتْ بِقِذَاهَا كُلِّ مُقْتَدِرٍ
وَأَسْلَمَتْ كُلِّ مَنْصُورٍ وَمُنْتَصِرٍ
بِذِيلِ [زَبَّاءٍ] وَلَمْ تَنْفِرْ مِنَ الذُّعْرِ

مَرَاحِلَ ، وَالسُّورَى مِنْهَا عَلَى سَفَرٍ
بِمِثْلِهِ لَيْلَةٌ فِي غَابِرِ الْعُمَرِ
مِنَ الْأَسْنَةِ يُهْدِيهَا إِلَى الثُّغْرِ
أَطْرَافَ أَسْنَتِهَا بِالْعَى وَالْحَصْرِ
فَاعْجَبْ لِذَاكَ وَمَا مِنْهَا سِوَى الذِّكْرِ
مِنَ السَّمَاحَةِ أَوْ لِلنَّفْعِ وَالضَّرْرِ
أَوْ قَمَعَ حَادِثَةٍ تَعْيَا عَلَى الْقُدْرِ
وَحَسْرَةُ الدِّينِ وَالْدُنْيَا عَلَى عُمَرِ
تُعْزِي إِلَيْهِمْ سَمَاحًا لَا إِلَى الْمَطَرِ
وَأَخْبِرْ وَلَوْ عَزَزَا فِي الْحَوْتِ بِالْقَمَرِ
وَكُلِّ مَا طَارَ مِنْ نَسْرِ وَلَمْ يَطُرْ

ثلاثة كذوات الدهر منذ ناوا
ومر من كل شيء فيه أطيبه
أين الجلال الذى غضت مهابته
أين الإباء الذى أرسوا قواعده
أين الوفاء الذى أصفوا شرائعه
كانوا رواسى أرض الله ، منذ مضوا
كانوا مصابيحها فمذ خبوا عثرت
كانوا شجى الدهر فاستهوتهم خُذع
ويلمه من طلوب الثأر مدركه
من لى ولا من بهم إن أظلمت نُوب
من لى ولا من بهم إن عطلت سنن
من لى ولا من بهم إن أطبقت محن
على الفضائل إلا الصبر بعدهم
يرجو عسى وله فى أختها أمل
قرطت آذان من فيها بفاضة
سيارة فى أقاصى الأرض قاطعة
مطاعة الأمر فى الأبواب قاضية

عنى ، مضى الدهر لم يربع ولم يُحر
حتى التمتع بالأصال والبكر
قلوبنا وغُيون الأنجم الزهر
على دعائم من عز ومن ظفر
فلم يرد أحدٌ منها على كدر
عنها استطارت بمن فيها ولم تَقِر
هذى الخليفة يالله فى سدر
منه بأحلام عاد فى خطى الحضر
منهم بأسد سراة فى الوغى وضُبر
ولم يكن ليُلها يُفضى إلى سحر
وأخفيت ألسن الآثار والسير
ولم يكن وردها يدعو إلى صدر
سلامٌ مرتقبٌ للأجر منتظر
والدهر ذو عُقبٍ شتى وذو غير
على الخسان حصى الياقوت والدرر
شَقاشِقاً هدرت فى البدو والحضر
من المسامع ما لم يُقضى من وطر

وكان أبو محمد هذا^(١) يكتب للمتوكل على الله ، ونمت حاله معه ، وهو أحد كُتّاب المغرب ، ومن جمع منهم فضيلتي الكتابة والشعر ، على أنه مُقل من النظم ، ولم يثبت له منه إلا يسير بالنسبة إلى غزارة آدابه ونباهة قدره ، وسيمر من مختار رسائله في موضعه من هذا الكتاب ما يدل على ما وصفناه به .

حكى عن نفسه - رحمه الله - أنه كان بين يدي مؤدبه ، وسنه إذ ذاك ثلاث عشرة سنة ،
فعن للمؤدب أن قال :

*** الشعرُ خُطَّةٌ خَسَفَ ***

وجعل يردد هذا القول . قال الوزير أبو محمد - رحمه الله : فكتبت في لوحى مجيزاً له :

*** لكل طالب عُرْف ***

ثم خطر لي بيت ثان وهو :

للشيخ عبيد الله عيب والفتي ظرف ظرف

قال : فنظر إلى المؤدب وقال : يا عبد المجيد ، ما الذى تكتب ؟ فأرسته اللوح فلما رآه
لطمنى وعرك أذنى وقال : لا تشتغل بهذا ! وكتب البيتين عنده .

ومن غزارة حفظه - رحمه الله - ما حدث الوزير الأجلُّ أبو بكر محمد ابن الوزير أبي مروان عبد الملك بن أبي العلاء زهر بن عبد الملك بن زهر - وكان أبو بكر هذا قد مات عن سن عالية ، نيف على الثمانين - قال :

« بينا أنا قاعد فى دهليز دارنا وعندى رجل ناسخ أمرته أن يكتب لى كتاب الأغانى ، فجاء الناسخ بالكراريس التى كتبها ، فقلت له : أين الأصل الذى كتبت منه لأقابل معك

(۱) المقصود به ابن عبدون .

به قال : ما أتيت به معى ، فبينما أنا معه فى ذلك إذ دخل الدهليز علينا رجل بذُ الهِيئة ، عليه ثياب غليظة أكثرها صوف ، وعلى رأسه عمامة قد لاثها من غير إتقان لها ، فحسبته لما رأيته من بعض أهل البادية ، فسلم وقعد وقال لى : يا بنى ، استأذن لى على الوزير أبى مروان ، فقلت له : هو نائم ، هذا بعد أن تكلفت جوابه غاية التكلف ، حملنى على ذلك نزوة الصبا وما رأيته من خشونة هيئة الرجل ، ثم سكت عنى ساعة ، وقال : ما هذا الكتاب الذى بأيديكما ؟ فقلت له : ما سؤالك عنه ؟ فقال : أحب أن أعرف اسمه ، فإنى كنت أعرف أسماء الكتب ! فقلت : هو كتاب الأغانى ، فقال : إلى أين بلغ الكاتب منه ؟ قلت : بلغ موضع كذا . وجعلت أتحدث معه على طريق السخرية به والضحك على قلبه ، فقال : وما لكاتبك لا يكتب ، قلت : طلبت منه الأصل الذى يكتب منه لأعارض به هذه الأوراق ، فقال : لم أجىء به معى ، فقال : يا بنى ، خُذ كرارىسك وعارض ، قلت : بماذا ؟ وأين الأصل ؟ قال : كنت أحفظ هذا الكتاب فى مدة صباى ، قال : فتبسمت من قوله ، فلما رأى تبسمى قال : يا بنى أمسك علىّ ، قال : فأمسكت عليه وجعل يقرأ ، فوالله إن أخطأ واواً ولا فاء ، قرأ هكذا نحواً من كراستين ، ثم أخذت له فى وسط السفر وآخره ، فرأيت حفظه فى ذلك كله سواء .

« فاشتد عجبى ، وقمت مسرعاً حتى دخلت على أبى فأخبرته بالخبر ووصفت له الرجل ، فقام كما هو من فوره ، وكان ملتفا برداء ليس عليه قميص ، وخرج حاسر الرأس حافى القدمين لا يرفق على نفسه ، وأنا بين يديه ، وهو يوسعنى لوماً ، حتى ترامى على الرجل وعانقه ، وجعل يقبل رأسه ويديه ويقول يامولاي اعذرنى ، فوالله ما أعلمنى هذا الجلف إلا الساعة ، وجعل يسبنى والرجل يُخفض عليه ويقول : ما عرفنى ، وأبى يقول : هبه ما عرفك فما عذره فى حُسن الأدب .

« ثم أدخله الدار وأكرم مجلسه وخلّا به فتحدثا طويلاً ، ثم خرج الرجل وأبى بين يديه حافيا حتى بلغ الباب ، وأمر بدابته التى يركبها فأسرجت ، وحلف عليه ليركبها ثم لا ترجع إليه أبداً .

« فلما انفصل قلت لأبى : من هذا الرجل الذى عظمته هذا التعظيم ؟ قال لى : اسكت ويحك ! هذا أديب الأندلس وإمامها وسيدها فى علم الآداب ، هذا أبو محمد عبد المجيد ابن عبدون ، أيسر محفوظاته كتاب الأغانى ، وما حفظه فى ذكاء خاطره وجودة قريحته ؟ »

سمعت هذه الحكاية من أبى بكر بن زهر - رحمه الله - حين دخلت عليه وقد وفد على مراكش لتجديد بيعة أمير المؤمنين أبى عبد الله محمد بن أبى يوسف فى شهر سنة ٥٩٥ .

وأنشدنى الوزير أبو بكر المذكور فى هذا التاريخ لنفسه - بعد أن سألنى عن اسمى وعن نسبى فتسميت وانتسبت ، وتسمى لى هو - رحمه الله - وانتسب من غير استدعاء ، تواضعاً منه وشرف نفس وتهذيب خلق ، قدس الله روحه وسامحه :

لاح المشيبُ على رأسى فقلت له : الشيب والعيب لا والله ما اجتماعا
ياساقى الكأس لا تعدل إلى بها فقد هجرت الحمى والحميم معا !

وأنشدنى - رحمه الله - وقال احفظ عنى :

إنى نظـرتُ إلى المرأة إذ جُلِيت فأنكرت مُقلتاى كل ما رأتا
رأيت فيها شيخاً لست أعرفه وكنت أعرف فيها قبل ذاك فتى (١)

هذا ما أنشدنى لنفسه بلفظه ، رحمه الله ، وله شعر كثير أجاد فى أكثره ، وأما الموشحات خاصة فهو الإمام المقدم فيها ، وطريقته هى الغاية القصوى التى يجرى كل من بعده إليها ، هو آخر المجيدين فى صناعتها ، ولولا أن العادة لم تجر بإيراد الموشحات فى الكتب المجلدة المخلدة لأوردت له بعض ما بقى على خاطرى من ذلك .

(١) ورد البيتان فى نفح الطيب .

[رجع القول إلى ملوك الطوائف]

ثم رجع بنا القول إلى ذكر أحوال الأندلس ، فهؤلاء الرؤساء الذين ذكرنا أسماءهم الذين ملكوا الأندلس بعد الفتنة وضبطوا نواحيها ، استبد كل رئيس منهم بتدبير ما تغلب عليه من الجهات ، وانقطعت الدعوة للخلافة وذكر اسمها على المنابر ، فلم يُذكر خليفة أموى ولا هاشمى بقطر من أقطار الأندلس ، خلا أيام يسيرة دُعى فيها لهشام المؤيد بن الحكم المستنصر بمدينة إشبيلية وأعمالها ، حسبما اقتضته الحيلة واضطر إليه التدبير ، ثم انقطع ذلك حسبما يأتى بيانه إن شاء الله تعالى فأشبهت حال ملوك الأندلس بعد الفتنة حال ملوك الطوائف من الفرس بعد قتل دارا بن دارا .

ولم يزالوا كذلك وأحوال الأندلس تضعف وتغورها تحتل ، ومجاوروها من الروم تشتد أطماعهم ويقوى تشؤفهم ، إلى أن جمع الله الكلمة ، ورأب الصدع ، ونظم الشمل ، وحسم الخلاف ، وأعز الدين ، وأعلى كلمة الإسلام ، وقطع طمع العدو ، بيمن نقيبة أمير المسلمين وناصر الدين أبى يعقوب يوسف بن تاشفين اللمتونى ، رحمه الله ، ثم استمر على ذلك ابنه على ، وأعاد إلى الأندلس معهود أمنها وسالف نضارة عيشها ، فكانت الأندلس فى أيامها حرماً آمناً ، وأول دعاء دُعى للخلافة العباسية - أبقاها الله - على منابر الأندلس فى أيامها ، ولم تزل الدعوة العباسية وذكر خلفائها على منابر الأندلس والمغرب ، إلى أن انقطعت بقيام ابن تومرت مع المصامدة فى بلاد السوس ، على ما يأتى بيانه إن شاء الله عز وجل .

ملوك بنى عباد بإشبيلية

وإذا ذكرنا أحوال ملوك الأندلس المتغلبين عليها بعد الفتنة على ما شرطنا من الإجمال ، فلنرجع إلى ذكر مملكة إشبيلية خصوصاً من جزيرة الأندلس وذكر من ملكها ، فبذلك يتصل

نسق الأخبار عما نريده ، ويتطرق لنا القول فيما نقصده ، لأن ملك إشبيلية هو كان السبب في دخول يوسف بن تاشفين مع المرابطين الأندلس ، على ما سيذكر إن شاء الله تعالى ، فنقول :

أما أحوال إشبيلية فإنها كانت في طاعة الفاطميين ، أعنى : على بن حمود ، والقاسم بن حمود ، ويحيى بن على بن حمود : أيام كان الأمر دائراً بينهم على ما تقدم ذكره ، فلما زحف يحيى بن على بالبرابر إلى قرطبة ، وهرب القاسم بن حمود منها وقصد إشبيلية - وقد كان ابنه محمد والحسن مقيمين^(١) بها - اجتمع أمر أهل إشبيلية واتفق رأيهم على إخراج محمد والحسن عنها قبل وصول القاسم أبيهما ، فأخرجوهما ، وجاء القاسم فمنعوه دخول البلد أيضاً ، واتفقوا على تقديم رجل منهم يرجع إليه أمرهم وتجتمع به كلمتهم ، فتوارد اختيارهم بعد مخض الرأى وتنقيح التدبير ، على القاضي أبى القاسم محمد بن إسماعيل بن عباد اللخمى^(٢) ، لما كانوا يعلمونه من حصافة عقله ، وسعة صدره ، وعلو همته ، وحسن تدبيره ، فعرضوا عليه ما رأوه من ذلك ، فتهيب الاستبداد ، وخاف عاقبة الانفراد أولاً ، وأبى ذلك إلا على أن يختاروا له من أنفسهم رجالاً ساهم ، لكى يكونوا له أعواناً ووزراء وشركاء ، لا يقطع أمراً دونهم ، ولا يحدث حدثاً إلا بمشورتهم - وهؤلاء المسمون هم : الوزير أبو بكر محمد بن الحسن الزبيدى ، ومحمد بن يريم الألهانى ، وأبو الأصبغ عيسى بن حجاج الحضرمى ، وأبو محمد عبد الله بن على الهوزنى ، فى رجال آخرين ذهب عنى أسماؤهم إلا أنى أعرف قبائلهم وبيوتهم - ففعلوا ذلك وأجابوه إلى ما أراد ، ولم يزل يدبر أمر إشبيلية وهؤلاء المذكورون وزراؤه .

(١) يعنى : ابنى القاسم .

(٢) كان قاضياً لمدينة إشبيلية ، أصله من لحم ، من ولد النعمان بن المنذر آخر ملوك الحيرة ، وفد جده السابع ، واسمه نعيم ، إلى الأندلس ، وكان قبل ذلك مصرياً من أهل العريش ، فأقام بقرية بقرب تومين من إقليم طشانة من أرض إشبيلية . ومحمد بن إسماعيل هذا أول من نبغ من ولده ، فلما ولى قضاء إشبيلية أحسن السياسة مع الرعية والملاطفة بهم ، فرمقته القلوب ، فلما كانت الفتنة وانقضى أمر يحيى بن على المستعلى ، ولاه أهل إشبيلية أمرهم .

وكان له من الولد إسماعيل ، وهو الأكبر ، يكنى أبا الوليد ، وعباد ، يكنى أبا عمرو ، فأما إسماعيل فخرج إلى لقاء البربر بعد أن حدث لأبيه أمل في التغلب على ما كان البربر يملكونه من الحصون القريبة من إشبيلية ، بعسكر من جند إشبيلية ، فالتقى هو وصاحب صنهاجة ، فأسلمت إسماعيل عساكره وكان أول قتيل ، وقطع رأسه وسير به إلى مالقة ، إلى إدريس بن علي الفاطمي كما تقدم (١).

وبقى الأمر كذلك ، والقاضي أبو القاسم يدبر الأمور أحسن تدبير ، وكان صالحاً مصلحاً ، إلى أن مات في شهور سنة ٤٣٩ .

ولاية المعتضد بالله العبادي

ثم ولي ما كان يليه بعده من أمور إشبيلية وأعمالها ، ابنه أبو عمرو عباد بن محمد بن إسماعيل بن عباد ، فجرى على سنن أبيه في إثارة الإصلاح وحسن التدبير وبسط العدل ، مدة يسيرة ، ثم بدا له أن يستبد بالأمور وحده ، وكان شهياً صارماً حديد القلب شجاع النفس بعيد الهمة ذا دهاء ، وواتته مع هذا المقادير ، فلم يزل يعمل في قطع هؤلاء الوزراء واحداً واحداً ، فمنهم من قتله صبراً ، ومنهم من نفاه من البلاد ، ومنهم من أماته خولاً وفقراً ، إلى أن تم له ما أراد من الاستبداد بالأمر ، وتلقب بالمعتضد بالله .

وقيل إنه ادعى أنه وقع إليه هشام المؤيد بالله ، ابن الحكم المستنصر بالله وكان الذي حمله على تدبير هذه الحيلة مارآه من اضطراب أهل إشبيلية ، وخاف قيام العامة عليه ، لأنهم سمعوا بظهور من ظهر من أمراء بني أمية بقرطبة كالمستظهر ، والمستكفي ، والمعتد ، فاستقبحوا بقاءهم بغير خليفة ، وبلغه أنهم يطلبون من أولاد بني أمية من يقيمونه ، فادعى ما ادعاه من ذلك ، وذكر أن هشاماً عنده بقصره ، وشهد له خواص من حشمه ، وأنه في

(١) انظر : البيان المغرب ٦٣ .

صورة الحاجب المنفذ لأمره ، وأمر بالدعاء له على المنابر ، فاستمر ذلك من أمره سنين ، إلى أن أظهر موته ونعاه إلى رعيته في سنة ٤٥٥ ، واستظهر بعهد عهده له هشام المذكور فيما زعم وأنه الأمير بعده على جميع جزيرة الأندلس .

ولم يزل المعتضد هذا يدوخ الممالك وتدين له الملوك من جميع أقطار الأندلس ، وكان قد اتخذ حُشْبًا في ساحة قصره جليلها برءوس الملوك والرؤساء عوضًا عن الأشجار التي تكون في القصور ، وكان يقول : في مثل هذا البستان فليتنزه .

وجملة أمر هذا الرجل أنه كان أوحده عصره شهامة وصرامة وشجاعة قلب وحدة نفس ، كانوا يشبهونه بأبي جعفر المنصور من ملوك بني العباس ، كان قد استوى في مخافته ومهابته القريب والبعيد ، لاسيما منذ قتل ابنه وأكبر ولده المرشح لولاية عهده صبراً ، كان سبب ذلك أن ولده المذكور - كان اسمه إسماعيل - كان يبلغه عنه أخبار مضمونها استطالة حياته وتمنى وفاته ، فيتغاضى المعتضد ويتغافل تغافل الوالد ، إلى أن أدى ذلك التغافل إلى أن سكر إسماعيل المذكور ليلة وتسور سور القصر الذي فيه أبوه ، في عُبدانٍ وأراذل معه ، ورام الفتك بأبيه ، فانتبه البوابون والحرس ، فهرب أصحاب إسماعيل ، وأخذ بعضهم فأقر وأخبر بالكائنة على وجهها ، وقيل : إن إسماعيل لم يكن معهم وإنما بعثهم على ذلك وجعل لمن قتل أباه المعتضد جُعلاً سنوياً ، فאלله أعلم ، فقبض المعتضد على ابنه إسماعيل هذا واستصفى أمواله وضرب عنقه ، فلم يبق أحد من خاصته إلا هابه من حيثئذ .

وبلغنى أنه قتل رجلاً أعمى بمكة كان يدعو عليه بها : كان هذا الرجل من بادية إشبيلية ، كان المعتضد قد وضع يده على بعض مالٍ لهذا الرجل الأعمى ، وذهب باقى ماله حتى افتقر ، ورحل إلى مكة ، فلم يزل يدعو على المعتضد بها إلى أن بلغه عنه ذلك ، فاستدعى بعض من يريد الحج وناولهُ حقاً فيه دنانير مطلية بالسّم ، وقال : لا تفتح هذا حتى تدفعه إلى فلان الأعمى بمكة ، وسَلِمَ عليه عَنَّا ! فاتفق أن سلم الرجل ومعه الحُقُّ ، فحين وصل مكة لقي الأعمى ودفع إليه الحُق ، وقال : هذا من عند المعتضد ، فأنكر ذلك

الأعمى ، وقال : كيف يظلمنى بإشبيلية ويتصدق علىّ بالحجاز ؟ فلم يزل الرجل يخفضه إلى أن سكن وأخذ الحق ، فكان أول شيء فعله أن فتح الحق وعمد إلى دينار من تلك الدنانير فوضعه فى فمه ، وجعل يقلب سائرها بيده ، إلى أن تمكن منه السم ، فما جاء الليل حتى مات ، فأعجب الرجل بقاصمة المغرب يعتنى بقتل رجل بالحجاز .

وقتل على هذه الصورة رجلاً من المؤذنين من أهل إشبيلية ، فرّ منه إلى طليطلة ، فكان يدعو عليه بها فى الأسفار ، مقدراً أنه قد أمن غائلته إذا صار مملكة غيره^(١) ، فلم يزل يعمل فيه الحيلة إلى أن بعث من قتله فجاءه برأسه .

وكان أكبر من يناويه من المتغلبين المجاورين له وأشدّهم عليه ، البربر : صنهاجة وبنو برزال الذين بقرمونة وأعمالها من نواحي إشبيلية ، فلم يزل يصرف الحيلة تارة ويجهز الجيوش أخرى إلى أن استنزاهم ، ففرّق كلمتهم وشتت منتظم أمرهم ونفاهم عن جميع تلك البلاد وصفت له أموره .

كان له عين بقرمونة يكتب له بأخبار البربر ، بلغ من لطف حيلة المعتضد وقد أراد أن يكتب إلى ذلك الرجل الذى جعله عيناً له بقرمونة كتاباً فى بعض أمره ، أن استدعى رجلاً من بادية إشبيلية شديد البله كثير الغفلة ، وقال له اخلع ثيابك ، وألبسه حبة جعل فى جيبها كتاباً وخاط عليه ، وقال له : إخرج إلى قرمونة ، فإذا وصلت بقربها فاجمع حزمة حطب وادخل بها البلد وقف حيث يقف أصحاب الحطب ، ولا تبعها إلا لمن يشتريها منك بخمسة دراهم ، وكان قد قرر هذا كله مع صاحبه الذى بقرمونة ، فخرج البدوى كما أمره المعتضد ، فلما قرب من قرمونة جمع حزمة من الحطب ، ولم يكن قبل هذا يعانى جمعه ، فجمع حزمة صغيرة ودخل بها البلد ، ووقف فى موقف الخطابين ، فجعل الناس يمرون عليه ويسومون منه حزمته ، فإذا قال : لا أبيعها إلا بخمسة دراهم ، ضحك من يسمع هذا القول منه ومر عنه ، فلم يزل كذلك إلى أن أجنه الليل والناس يسخرون منه ، فبعضهم

(١) كان يحكم طليطلة فى ذلك الوقت بنو ذى النون .

يقول : هذا آبنوس ! ويقول الآخر : لا بل هو عودٌ هندي ! وما أشبه هذا ، حتى مر به صاحب المعتضد ، فقال له : بكم تبيع حزمك هذه ؟ فقال : بخمسة دراهم ! فقال : قد اشتريتها فاحملها إلى البيت ، فقام يحملها والرجل بين يديه حتى بلغ بيته ، فوضع الحزمة ودفع إليه الخمسة الدراهم ، فلما أخذها وهم بالانصراف قال له : أين تريد في هذا الوقت وقد علمت خوف الطريق ؟ فبت الليلة عندي ، فإذا أصبحت رجعت إلى منزلك ، فأجابه ، فأدخله إلى بيت وقدم له طعامًا ، وسأله كأنه لا يعرفه : من أين أنت ؟ فقال : أنا من بادية إشبيلية ، قال : يا أخى ، ما الذى جاء بك إلى هذا الموضع وقد علمت نكد البربر وشؤمهم وهوان الدماء عليهم ؟ فقال : حملتنى على هذا الحاجة ! ولم يُظهر له أن المعتضد أرسله ، فلم يزل الرجل يحادثه إلى أن أخذه النوم ، فلما رأى غلبة النوم عليه قال له : تجرّد من ثوبك هذا فهو أهنا لنومك وأرواح لجسمك ! فتجرد الرجل ونام ، وأخذ صاحب المعتضد الجبة ففتق جيبها ، واستخرج الكتاب فقرأه وكتب جوابه ، وجعله في جيب الجبة وخاط عليه كما كان ، فلما أصبح الرجل لبس جبته ، ورجع إلى إشبيلية وقصد باب دار الإمارة واستأذن ، فأدخل على المعتضد ، فقال له : اخلع تلك الجبة ، وكساه ثيابًا حسنًا فرح بها البدوى ، وخرج من عنده فرحًا يرى أنه قد خلع عليه ، ولم يعلم فيم ذهب ولا بم جاء ! وأخذ المعتضد الكتاب من جيب الجبة وتمم ما أراد من أمره .

وله في تدبير ملكه وإحكام أمره حيل وآراء عجيبة لم يُسبق إلى أكثرها يطول تعدادها ويخرج عن حد التلخيص بسطها .

ولما قتل ابنه إسماعيل - كما تقدم - وكان قد لقبه المؤيد ، عهد بعده ابنه أبو القاسم محمد ابن عباد بن محمد بن إسماعيل بن عباد ، ولقبه بالمعتمد على الله ، فحسنت سيرة أبى القاسم هذا في حياة أبيه وبعد وفاته .

[أولية المرابطين في مراكش]

وفي إمارة المعتضد بالله هذا نزل لمتونة ومسوفة - قبيلتان عظيمتان البربر - رحبة مراكش ، فتخيروها دار ملكهم لتوسطها البلاد ، وكانت نزلوها غيضة لا عمران بها ، وإنما سُميت بعبد أسود كان يستوطنها بجانب الطريق اسمه مراكش (١) ، فاستوطنها البربر كما ذكرنا ، وقدّموا عليهم رجلاً كان اسمه تاشفين بن يوسف .

وكان المعتضد في كل وقت يستطلع أخبار العدو : هل نزل البربر رحبة مراكش ؟ وذلك لما كان يراه في ملحمة كانت عنده أن هؤلاء القوم خالعوه أو خالعو ولده وتخرجوه من ملكه ، فلما بلغه نزولهم جمع ولده وجعل ينفر إليهم مصعداً ومصوباً ويقول : ياليت شعري مَنْ تناله معرة هؤلاء القوم أنا أو أنتم ؟ فقال له أبو القاسم من بينهم : جعلني الله فداك وأنزل بي كل مكروه يريد أن يُنزله بك ! فكانت دعوة وافقت المقدار .

وكان نزول لمتونة ومسوفة قبيلتي المرابطين رحبة مراكش ، في صدر سنة ٤٦٣ ، وانفصلوا عنها جملة واحدة في وسط سنة ٥٤٠ ؛ فكانت مدة إقامتهم في الملك منذ نزلوا رحبة مراكش إلى أن انفصلوا عنها وأخرجهم عنها المصامدة ، نحواً من ست وسبعين سنة ثم توفي المعتضد بالله في شهر رجب من سنة ٤٦٤ ، واختلف في سبب وفاته ، فقيل : إن ملك الروم سمّه في ثياب أرسل بها إليه ، وقيل : إنه مات حتف أنفه ، فالله أعلم .

ولاية أبي القاسم ابن عباد المعتمد على الله

ثم قام بالأمر من بعده ، ابنه أبو القاسم محمد بن عباد بن محمد بن إسماعيل بن عباد ، وزاد إلى المعتمد على الله : الظافر بحول الله ، وكان المعتمد هذا يشبه بهارون الواثق بالله من

(١) ويروى ابن خلكان أن « مراكش » معناها « امشش مسرعاً » بلغة المصامدة ، موضعها مأوى للصمص ، وكان المارون فيه يقولون لرفقائهم هذه الكلمة ، فعرف الموضع .

ملوك بنى العباس ، ذكاء نفس وغزارة أدب ، وكان شعره كأنه الحلل المنشرة ، واجتمع له من الشعراء وأهل الأدب ما لم يجتمع لملك قبله من ملوك الأندلس ، وكان مقتصرًا من العلوم على علم الأدب وما يتعلق به وينضم إليه ، وكان فيه مع هذا من الفضائل الذاتية ما لا يحصى ، كالشجاعة والسخاء والحياء والنزاهة ، إلى ما يناسب هذه الأخلاق الشريفة ، وفي الجملة فلا أعلم خصلة يُحمد في رجل إلا وقد وهبه الله منها أوفر قسم ، وضرب له فيها بأوفى سهم ، وإذا عُدتّ حسنات الأندلس من لدن فتحها إلى هذا الوقت فالمعتمد هذا أحدها ، بل أكبرها .

ولى أمر إشبيلية بعد أبيه ، وله سبع وثلاثون سنة ، واتفقت له الخلافة الكبرى بخلعه وإخراجه عن ملكه في شهر رجب الكائن في سنة ٤٨٤ فكانت مدة ولايته إلى أن خلع وأُسر : عشرين سنة ، كانت له في إضافتها مآثر أعيا على غيره جمعها في مائة سنة أو أكثر منها ، كانت له رحمه الله في تخليد الثناء وإبقاء الحمد .

[عبد الجليل بن وهبون الشاعر]

كان من جملة شعرائه رجل من أهل مدينة مُرسية اسمه عبد الجليل وهبون ، كان حسن الشعر لطيف المأخذ حسن التوصل إلى دقيق المعانى وأنشد يومًا بين يدي المعتمد رحمه الله بعض الحاضرين بيتين لعبد الجليل بن وهبون هذا قالهما قديماً قبل وصوله إلى المعتمد وهما :

قُلُّ الوفاء فما تلقاه في أحدٍ	ولا يمرُّ لمخلوقٍ على باله
وصار عندهم عنقاء مُغربةٌ	أو مثل ما حدَّثوا عن ألفٍ مثقاله

فاعجب المعتمد بهما وقال : لمن هذان البيتان ؟ فقالوا : هما لعبد الجليل وهبون أحد خدم مولانا ! فقال المعتمد عند ذلك : هذا والله اللؤم البحت رجلٌ من خُدامنا والمنقطعين إلينا يقول : « أومثل ما حدّثوا عن ألف مثقاله ، وهل يتحدث أحد عنا بأسوأ من هذه الأحدثه ؟ وأمر له بألف مثقال ، فلما دخل عليه يتشكر له قال له : يا أبا محمد ، هل عاد الخبرُ عياناً ؟ قال : إى والله يا مولاي ، ودعا له بطول البقاء ، فلما همّ بالانصراف قال له : يا عبد الجليل الآن حدّث بها لا عنها ، يعنى الألف مثقال (١) .

وله رحمه الله شعر كثير (٢) برّز في أكثره وأجاد ما أراد ، وسيمر منه في أضعاف أخباره ما يشهد له بالتبريز ، عند ذوى التمييز ، فمما اختاره من شعره قوله :

عَلَّ فَوَادَكَ قَدْ أَبْلَ عَيْلٌ	وَاعْنَمَ حَيَاتَكَ فَاَلْبِقَاءُ قَلِيلٌ
لَوْ أَنَّ عَمْرَكَ أَلْفُ عَامٍ كَامِلٍ	مَا كَانَ حَقًّا أَنْ يَقَالَ طَوِيلٌ
أَكْذَا يَقُودُ بِكَ الْأَسَى نَحْوَ الرَدَى	وَالْعُودُ عَوْدٌ وَالشُّمُولُ شُمُولٌ
لَا يَسْتَبِيكَ الْهَمُّ نَفْسَكَ عَنْوَةٌ	وَالكَاسُ سَيْفٌ فِي يَدَيْكَ صَقِيلٌ
بِالْعَقْلِ تَزْدَحُمُ الْهَمُومُ عَلَى الْحَشَا	فَالْعَقْلُ عِنْدِي أَنْ تَزُولَ عُقُولُ !

ومن شعره السيار ، لا بل الطيار ، قوله في مملوك له صغير كان يتصرف بين يديه ، أهداه له صاحب طليطلة ، اسم المملوك سيف :

(١) ربحا سنة ٢٧ .

(٢) كان ابن وهبون صديقاً لابن عمار ، فلعله هو الذى أنشد المعتمد من شعره ووصل به حبله حتى صار من جلسائه . وقد حكى المقرئ أن ابن وهبون كان يوماً في مجلس المعتمد وهو ينشد قول المتنبي في سيف الدولة مُسْتَحْسَنًا :

إذا ظفرت منك العيون بنظرة أثاب بها معي المطى ورازمة

هَذَا لِقَتْلِي مَسْلُوكٌ وَهَذَانِ	سَمَّوْهُ سَيْفًا وَفِي عَيْنَيْهِ سَيْفَانِ
حَتَّى أَتِيحَ مِنَ الْأَجْفَانِ ثَنَّتَانِ	أَمَّا كَفْتُ قَتْلَةً بِالسَّيْفِ وَاحِدَةٌ
أَسِيرُهُ ، فَكَلَانَا أَسْرٌ عَانِي	أَسْرَتُهُ وَثَنَانِي غُنْجٌ مُقْلَتُهُ
لَا يَبْتَغِي مِنْكَ تَسْرِيحًا بِإِحْسَانِ !	يَاسَيْفُ أَمْسِكْ بِمَعْرُوفِ أَسِيرِ هَوَى

ومن شعره الرشيقي المليح الخفيف الروح ، الذي حكى الماء سلاسة والصخر ملاسة ، قوله في هذا المملوك وقد عذر :

وَاقْتَرَنَ اللَّيْلُ بِالنَّهَارِ	تَمَ لَهُ الْحَسَنُ بِالْعَذَارِ
ذَلِكَ أَسَى وَذَا بَهَارِ	أَخْضَرَ فِي أَبْيَضٍ تَبِيْدِي
إِنْ كَانَ مِنْ رِيْقِهِ عُقَارِي	فَقَدْ حَوَى مَجْلِسِي تَمَامَا

وبينما هو يومًا في قُبّة له يكتب شيئاً ، أُوْيطالع ، وعنده بعض كرائمه ، فدخلت عليه الشمس من بعض الكُوى الكائنة فيها ، فقامت دونه تستره من الشمس ، فقال رحمه الله بديهاً :

عَنْ نَاطِرِي ، حُجِبْتُ عَنْ نَاطِرِ الْغَيْرِ	قَامَتْ لِتَحْجِبَ ضَوْءَ الشَّمْسِ قَامَتُهَا
هَلْ تَكْشِفُ الشَّمْسُ إِلَّا صُورَةَ الْقَمَرِ !	عَلِمًا لِعَمْرِكَ مِنْهَا أَنَّهَا قَمَرٌ

(=) فقال ابن وهبون مرتجلاً :

تُجِيدُ الْعَطَايَا ، وَاللَّهَافُ تَفْتَحُ اللَّهَافَا	لِئِنْ جَادَ شَعْرُ ابْنِ الْحَسَنِ فَإِنَّمَا
بَأَنَّكَ تَرَوِي شَعْرَهُ لَتَأَلَّهَا !	تَنْبَأً عَجَبًا بِالْقَرِيضِ ، وَلَوْ دَرَى

وبينا جارية من كرائمه قائمة على رأسه تسقيه والكأس في يدها ، إذ لمع البرق
فارتاعت ، فقال رحمه الله بديهاً :

ريعت من البرق وفي كفها —————
عجبت منها وهي شمس الضحا —————
برق من القه —————
كيف من الأنوار ترقع !

وله مع هذا مقاطع حسان يرتجلها في مجالس أنسه ولا استدعاء خاصة جلسائه ، منعنى
من استيفائها قلة ما على خاطرى منها .

وسيمر من شعره الذى قاله في أيام محتته ما يفجر الصم ، ويزعزع الشم ، وكان
لا يستوزر وزيراً إلا أن يكون أديباً شاعراً حسن الأدوات ، فاجتمع له من الوزراء الشعراء ما لم
يجتمع لأحد قبله .

[أبو الوليد ابن زيدون]

فمن جملة وزرائه الوزير الأجل ذو الرياستين أبو الوليد أحمد بن عبد الله بن أحمد بن
زيدون ، ذو الأدب البارع والشعر الرائع ، أحد شعراء الأندلس المجيدين وفحولها
المبرزين كان إذا نسب أنساك كثيراً ، وإذا مدح أزرى بزهير ، وإذا فخر أناف على امرئ
القيس ، فمن جملة مقاطعه التى تشهد له بجودة الطبع وإتقان الصنعة قوله :

بينى وبينك مالىو شئت لم يضع —————
يابائعا حظه منى ولو بذلت —————
سير إذا ذاعت الأسرار لم يذع —————
لى الحياء بحظى منه لم أبع —————
يكفيك أنك إن حملت قلبى ما —————
لاستطيع قلوب الناس يستطع —————
ته أحتمل واستطل أصبر ، وعز أهـ —————
وول أقبل ، وقـل أسمع ، ومـر أطع !

وهو القائل - رحمه الله - يخاطب بنى جهور ، وكان قد وزر لهم قبل وزارته للمعتمد ، لأن أصله من مدينة قرطبة ، فنالته منهم محنة ، فخرج عن قرطبة إلى إشبيلية وافداً على المعتمد ، فعلت رتبته عنده ، فكان يبلغه عن بنى جهور مايسوءه في نفسه وقرابته بقرطبة ، فقال يخاطبهم :

بنى جهورٍ أحرقتُمو بجفائكم فؤادى ، فما بال المدائح تعبُّ
تعدُّوننى كالعنبرِ الورد إنما تفوح لكم أنفاسُه حين يُحرقُ

ومن نسيبه الذى يختلط بالروح رقة ويمتزج بأجزاء الهواء لطافة ، قصيدته التى قالها يتشوق ابنه المهدي « ولادة »^(١) ، وهى بقرطبة وهو بإشبيلية .

[أضحى التنائى بديلاً من تدانينا
بنتم وبننا فما ابتلت جوانحنا
نكاد حين تناجيكم ضمائرنا
حالت لفقدكم أيامنا فغدت
إذ جانب العيش طلق من تالفنا
وإذا هصرنا غصون الأنس دانية
ليسق عهدكم عهد السرور فما
من مبلغ ملبسينا بانتزاحهم
إن الزمان الذى مازال يضحكنا
وناب عن طيب لقيانا تجافينا]
شوقاً إليكم ولا جفت مآقينا
يقضى علينا الأسى لولا تأسينا
سوداً وكانت بكم بيضاً ليالينا
وموردُ اللهو صافٍ من تصافينا
قطوفها فجنينا منه ما شينا
كنتم لأرواحنا إلا رياحيننا
حزننا مع الدهر لا يبلى ويبلينا :
أنساً بقربهم قد عاد يُبكيانا !

(١) وردت على هامش المخطوطة .

غيظ العدى من تساقينا الهوى فدعوا
فانحل ماكان معقوداً بأنفسنا
وقد نكون ومايُخشى تفرقنا
[ماحقنا أن تُقروا عين ذى حسد
ياليت شعري ولم نُعتب أعاديكم
لم نعتقد بعدكم إلا الوفاء لكم
كنا نرى اليأس تُسلينا عوارضه
ياسارى البرق غاد القصر فأسقى به
[واسأل هنالك هل عينى تُذكرنى
ويانسيم الصبأ بلغ تحيتنا
[من لا يرى الدهر يقضينا مساعفة

[وبيت ملك كان الله أنشاه
أو صاغه ورقاً محضاً وتوجه
إذا تاود أدته رفاهية
كأنما نبتت فى صحن وجنته
ماضر أن لم نكن أكفاءه شرفاً

بأن نغص فقال الدهر آمينا
وانبت ماكان مؤصلاً بأيدينا
فالיום نحن ومايرجى تلاقينا
بنا ، ولا أن تسروا كاشحاً فينا
هل نال حظاً من العُتبى أعادينا
رأياً ولم نتقلد غيره ديننا
وقد يئسنا فما لليأس يُغرينا [
من كان صرف الهوى والود يسقينا
إلها تذكره أمسى يُعنيننا [
من لو على البعد حيا كان يحيينا
فيه وإن لم يكن عنا يقاضينا [

مسكا وقد أنشأ الله الورى طينا [
من ناصع الثبر إبداعاً وتحسينا
تدمى العقول وأدمته البرى لنا
زهر الكواكب تعويذاً وتزيينا
وفى المودة كافٍ من تكافينا

لا تحسبوا نأيكم عنا يُغيرنا
والله ما طلبت أهواؤنا بدلاً
[ولا استفدنا خليلاً عنك يشغلنا
يا روضة طال ما أجننت لواحظنا
ويا حياة تملؤنا بزهرتها
[ويا نعيمًا حضرنا من غضارته
لسنا نُسَمِّيك إجلالاً وتكرمةً
إذ انفردت فما شُوركت في صفةٍ
ياجنة الخلد أبدلنا بسلسلها
كأننا لم نبت والوصل ثالثنا
سرَّان في خاطر الظلماء يكتُمنا
[لاغرو في أن ذكرنا الحزن حين نهت
إننا قرأنا الأسى يوم النوى سُورًا
[إن كان قد عز في الدنيا اللقاء ففي
أما هواك فلم نعدل بمنهله
لم يخف أفقُ جمالٍ أنت كوكبُه
ولا اختياراً تجنَّبناكِ عن كثبٍ
نأسى عليك إذا حثت مشعشعة
لا أكؤس الراح تُبدى من شمائلنا
دُومى على العهد ، مادُّمنا مُحافِظةً
فما ابتغينا خليلاً منك يحبسنا
ولو صبا نحونا من علو مطلعته
أولى وفاء وإن لم تبذل صلّةً
وفي الجواب قناعٌ لو شفعت به
عليك منى سلام الله ما بقيت

إذ طال ما غير النأي المحبيننا
منكم ولا انصرفت عنكم أمانينا
ولا اتخذنا بديلاً منك يُسلينا]
ورداً جناه الصبا غضا ونسرينا
مُنَى ضروباً ولذاتِ أمانينا
في وشي نُعمى سحبنا ذيلها حيننا]
فقدرُك المعتلي عن ذاك يُغنيننا
فحسبك الوصف إيضاحاً وتبييننا
والكوثر العذب زُقوماً وغسلينا
والسعد قد غص من أجفان واشينا
حتى يكاد لسانُ الصبح يُفشيننا
عنه النهى ، وتركنا الصبر ناسينا]
مكتوبةً وأخذنا الصبر تلقينا
مواقف الحشر نلقاكم ، ويكفيننا
شرباً وإن كان يُروينا فيظميننا
سالين عنه ، ولم نهجره قالينا
لكن عدتنا على كُره عوادينا
فيها الشمول وغنائنا مغنيننا
سيما ارتياح ولا الأوتار تُلهينا
فالحر من دأنٍ إنصافاً كما دينا
ولا استفدنا حبيباً عنك يُغنيننا
بدرُ الدجا لم يكن حاشاك يُصبيننا
فالذكر يُقنعنا والطيفُ يكفيننا
بيض الأيادي التي مازالت تولينا
صبا به منك تخفيها فتخفيننا]

أوردتها على الاختيار لا على النسق ، ولعل في كثير مما تركت منها أحسن مما أوردت ،
وإنما منعى من استيفائها الوفاء بشرط التلخيص ، ومن شعره رحمه الله ، مما قاله في
مدة صباه :

أُخِذْتُ ثُلُثَ الْهَوَى غَصْباً وَلِي ثُلُثُ	وَالْمَحِبِّينَ فِيمَا بَيْنَهُمْ ثُلُثُ
تَالله لو حلف العشاقُ أنهمو	موتى من الوجد يوم البين ما حنثوا
قوم إذا هُجروا من بعد ما وُصلوا	ماتوا ، فإن عاد من يهوونه بُعثوا
ترى المحبين صرعى في عراصهم	كفتية الكهف ما يدرون ما لبثوا

ومما قال رحمه الله يتشوق ابنه المهدي المذكور ومعا هذه بقرطبة ، وضمنها بيت أبي
الطيب في أول قصيدته الكافورية :

« بِمِ التعلل لا أهل ولا وطن ولانـديـم ولا كاس ولا سكن » !

قصيدة أولها :

هل تذكرون غريباً عادةً شجن	من ذكركم وجفا أجفانه الوسن
يُخْفَى لو اعجه والشوق يفضحه	فقد تساوى لديه السر والعلن
يا ويلتاه ! أيبقى في جوانحه	قواده وهو بالأطلال مرتهن
وأرق العين والظلماء عاكفة	ورقاء قد شفها ، أو شفنى ، حزن
فَبِتُّ أشكو وتشكو فوق أيكثها	وبات يهفو ارتياحاً بيننا الغصن
يا هل أجالس أقواماً أحبهم	كنا وكانوا على عهدٍ فقد ضغنوا
أو تحفظون عهداً لا أضيعها	إن الكرام بحفظ العهد تمتحن

ومنها :

إن كان عادكم عيْدٌ قَرُبَ فتى بالشوق قد عاد من ذكركم حزنُ
وأفردته الليالي من أحبته فبات ينشدها مما جنى الزمنُ :
« بيم التعلُّ لا أهل ولا وطن ولانـــــــديم ولا كائس ولا سكنُ »

[أبو بكر بن عمار]

ومنهم الوزير أبو بكر محمد بن عمار ، ذو النفس العصامية ، والآداب الأهتمية ، كان أحد الشعراء المجيدين على طريقة أبي القاسم محمد بن هانيء الأندلسي (١) ، وربما كان أحلى منزعا منه في كثير من شعره ، ولشعره ديوان يدور بين أيدي أهل الأندلس ، ولم ألف أحدٌ ممن أدركته سنى من أهل الآداب الذين أخذت عنهم إلا رأيته مقدما له مؤثرا لشعره ، وربما تغالى بعضهم فشبهه بأبي الطيب ، وهيها !

(١) هو أبو الحسن محمد بن هانيء الأزدي ، من ولد المهلب ابن أبي صفرة ، كان أبوه يقيم في المهديّة بالمغرب ، ثم نرح إلى الأندلس في أيام الحكم المستنصر والمنصور ابن أبي عامر ، فولد له محمد هذا في إشبيلية ، وحصل له حظ وافر من الأدب ، ومهر في الشعر ، وكانوا يعدونه في المغرب كالمتنبى في المشرق ، وكانا متعاصرين . . .

وكان ابن هانيء غاليا في مدائحه ، فاثمهم بالكفر وساء فيه رأى الناس ، حتى اضطر إلى الهجرة ، واتصل بالمعز لدين الله العبيدي ، ومات في ظروف غامضة سنة ٣٦٢ ولم يزل شابا في عنفوانه ! .

فمن قصائده المشهورة التى أجاد فيها ما أراد : قصيدته التى كتب بها من سرقسطة حين
فرق المعتضد بالله بينه وبين المعتمد - لأنه شغله عن كثير من أمره فنفاه - وهى :

على ، وإلا ما بكاء الغمام	وفى ، وإلا ما نياح الحمام
وعنى أثار الرعد صرخة طالب	لثأر وهز الرق صفحة صارم
ومالبست زهر النجوم حدادها	لغيرى ولا قامت له فى ماتم

وفى هذه القصيدة يقول يمدح المعتضد بالله :

[إذا ركبوا فانظروا أول طاعن	وإن نزلوا فارصده آخر طاعم]
أبى أن يراه الله إلا مقلدا	حميلة سيف أو حمالة غارم

ومن جيد نسيبه قوله فى قصيدة يمدح بها المعتضد بالله :

جاء الهوى - فاستشعروه - عاره	ونعيمه - فاستعذبوه - أواره !
لا تطلبوا فى الحب عزا إنما	عبدائه فى حكمه أحراره
قالوا أضر بك الهوى فأجبتهم	يا حبذاه وحبذا إضراره
قلبي هو اختار السقام لجسمه	زيئا ، فخلوه وما يختاره
عيرتمونى بالنحول وإنما	شرف المهند أن ترق شفاره
وشتمتم لفراق من ألفتهم	ولربما حجب الهلال سراره
أحسبتم السلوان هب نسيمه	أو أن ذاك النوم عاد غراره

إن كان أعيا القلبُ من حرب الجوى
من قدَّ قلبى إذ تثنى قـدده
أم من طوى الصبح المنير نقابـه
غُصنٌ ولكن النفوس رياضـه
سخرت ببدْرِ التـم غـرثـه كما
ما زال ليل الوصل من فتكاته
ويجود روض الحسن من وجناته
حتى سقانى الدهر كأس فراقـه
ووقفت فى مثل المحصب موقفا
حيران أعمى الطرف وهو سماؤه
ولئن يُذِبه وهو مثواه فكم
إن يهنـه أنى أضعت لحبـه
فليهن قلبى أن شكاه وشاخـه
فوحسبـه لقد انتدبت لوصفه
بلد رمتنى بالمئـنى أغصائـه

خذلتـه من دمعى إذن أنصاره
وأقام عُذرى إذ أطل عذاره
وأحاط بالليل البهيم خماره
رشأ ولكن القلوب عرارـه
أزرت على آفاقـه أزراره
تسرى إلى بعرفـه أسحاره
دمعى فيندى رنـده وبهاره
فسكرت سُكـراً لا يُفـيق خـماره
للبن من حب القلوب جماره
وأذاب فيه القلب وهو قراره
قد أحـرقت عُود العفارة نارـه
قلـبى وذاعت عنـده أسرارـه
لسواره فاقتص منه سواره !
بالبخل لولا أن حمصاً داره
وتفجرت لى بالندى أنهاره

ولابن عمار هذا مع المعتمد أخبار عجيبة عني بجمعها أهل الأندلس ، وأنا إن شاء الله
مُورد منها ما لا يخل بالشرط الذى التزمته ، ولا يخرج عن الحد الذى رسمته ، حسبما بقى على
خاطرى من ذلك ، لأننى كنت فى حداثة سنى قد صرفت عنايتى إلى أخبار ابن عمار هذا مع
المعتمد ، لما تضمنته من الآداب ، وقد فتشت خزانة حفظى فلم أَلِف فيها إلا نبذة يسيرة ،
وأنا مُوردها إن شاء الله عز وجل .

فابن عمار هذا هو محمد بن عمار ، يكنى أبا بكر ، أصله من شلب ، من قرية من أعمالها يقال لها شنبوس ، مولده ومولد آبائه بها ، كان خامل البيت ليس له ولا لأسلافه في الرياسة في قديم الدهر ولا حديثه حظ ولا ذكر فيهم بها أحد ، وردّ مدينة شلب طفلاً فنشأ بها ، وتعلم علم الأدب على جماعة ، منهم أبو الحجاج يوسف بن عيسى الأعلم ، ثم رحل إلى قرطبة فتأدب بها ، ومهر في صناعة الشعر ، فكان قصاراه التكسب به ، فلم يزل يحول في الأندلس مسترفداً لا يخلص بمدحه الملوك دون غيرهم ، بل لا يبالى ممن أخذ ولا ممن استعطف من ملكٍ أو سُوقة ، وله في ذلك خبر ظريف :

وذلك أنه ورد في بعض سفراته شلب ، لا يملك إلا دابة لا يجد علفها ، فكتب بشعر إلى رجل من وجوه أهل السوق ، فكان قدره عند ذلك الرجل أن ملأ له المخلاة شعيراً ووجه بها إليه ، فرآها ابن عمار من أجَلّ الصلات وأسنى الجوائز ، ثم اتفق أن علت حال ابن عمار وساعده الجد ونهض به البخت ، وانتهى أمره أن ولاه المعتمد على الله مدينة شلب وأعمالها أول ما أفضى الأمر إليه ، فدخلها ابن عمار في موكب ضخم وجملة عبيد وحشم وأظهر نخوة لم يُظهرها المعتمد على الله حين وليها أيام أبيه المعتضد بالله ، فكان أول شيء سأل عنه ، الرجل صاحبه صاحب الشعير ، فقال : ماصنع فلان ، أهو حيّ ؟ قالوا : نعم ، فأرسل إليه بمخلاته بعينها بعد أن ملأها دراهم ، وقال لرسوله : قل له : لو ملأتها بُراً ملأناها تبرا .

ولم يزل ابن عمار على الحال التي ذكرناها ، من التقلب في بلاد الأندلس للاستجداء والاستعطاف ، إلى أن ورد على المعتضد بالله أبي عمرو ، فامتدحه بقصيدته المشهورة التي أولها :

أدرِ الزجاجةَ فالنسيمُ قد انبرى	والنجمُ قد صرف العنان عن السرى
والصبحُ قد أهدى لنا كافوره	لما استرد الليل منا العنبرا

وفيها يقول يمدح المعتضد :

عِيَادُ الْمُخْضِرِ نَائِلُ كَفِّهِ وَالْجَوْ قَدْ لَبَسَ الرِّدَاءَ الْأَغْبَرَا
قِدَاحُ زَنْدِ الْمَجْدِ لَا يَنْفُكُ مِنْ نَارِ الْوُغَى إِلَّا إِلَى نَارِ الْقِرَى
يَخْتَارُ أَنْ يَهْبِ الْخَرِيدَةَ كَاعْبَا وَالطَّرْفَ أَجْرَدَ وَالْحَسَامَ مُجَوَّهَرَا

وفي هذه القصيدة يقول في وصف وقعة أوقعها المعتضد بالبربر :

شَقِيتُ بِسَيْفِكَ أُمَّةً لَمْ تَعْتَقِدْ إِلَّا الْيَهُودَ وَإِنْ تَسْمُوا بِرَبْرَا
أَثْمَرْتَ رُمَحَكَ مِنْ رَعْوَسِ كَمَاتِهِمْ لَمَّا رَأَيْتَ الْغَصْنَ يُعَشِّقُ مُثْمَرَا
وَحَضَبْتَ سَيْفَكَ مِنْ دِمَاءِ نَحُورِهِمْ لَمَّا عَهِدْتَ الْحَسْنَ يُلْبِسُ أَحْمَرَا

ومن أبيات هذه القصيدة بيت لم أسمع لم تقدم ولا متأخر بمثله ، وهو قوله :

السيف أفصح من زياد خطبة في الحرب إن كانت يمينك منبرا

ولما أنشد المعتضد هذه القصيدة استحسناها وأمر له بهال وثياب ومركب ، وأمر أن يكتب في ديوان الشعراء ، فكان كذلك ، ثم تعلق بالمعتمد على الله وهو إذ ذاك شاب ، فلم تزل حاله معه تتزايد ، وموات خدمته له تقوى وتتأكد ، إلى أن صار ابنُ عمار ألزق بالمعتمد من شعرات قصه ، وأدنى إليه من حبل وريده ، كان المعتمد لا يستغنى عنه ساعة من ليل ولانهار .

ثم اتفق أن ولي المعتمد على الله « شلب » من قبل أبيه ، فاستوزر ابن عمار هذا في تلك الولاية ، وسلم إليه جميع أموره ، فغلب عليه ابن عمار غلبة شديدة ، وساءت السمعة عنهما

... فاقترضى نظر المعتضد التفريق بينهما ، ونفى ابن عمار عن بلاده حسبما تقدم الإيحاء إليه : فلم يزل ابن عمار مغترباً في أقاصى بلاد الأندلس ، إلى أن توفى المعتضد بالله ، فاستدعاه المعتمد ، وقربه أشد تقريب ، حتى كان يشاركه فيما لا يشترك فيه الرجل أخاه ولا أباه .

وله معه أيام كسونهما بشلب خبر عجيب ، وذلك أن المعتمد استدعاه ليلة إلى مجلس أنسه ، على ما كانت العادة جارية به ، إلا أنه في تلك الليلة زاد في التحفى به والبر له على المعتاد ، فلما جاء وقت النوم أقسم المعتمد عليه ، لتضعن رأسك معى على وسادة واحدة ! فكان ذلك .

قال ابن عمار : فهتف بى هاتف في النوم يقول : « لاتغتر أيها المسكين ، إنه سيقنتك ولو بعد حين ! » قال : فانتبهت من نومى فزعا ، وتعوذت ، ثم عدت ، فهتف بى الهاتف على حاله الأولى ، فانتبهت من نومى فزعا وتعوذت ، ثم عدت ، فهتف الهاتف على الحال الأولى ، فانتبهت ، ثم عدت فسمعتة ثالثة فانتبهت فتجدت من أثوابى والتفتت في بعض الحضر ، وقصدت دهليز القصر مستخفياً به ، وقد أزمعت على أنى إذا أصبحت خرجت مستخفياً حتى آتى البحر فأركبه وأقصد بلاد العدو فأكون في بعض جبال البربر حتى أموت ، فانتبه المعتمد فاقتدنى ولم يجدنى ، فأمر بطلبى ، فطلبت له في نواحي القصر ، وخرج هو بنفسه يتوكأ على سيفه والشمعة تحمل بين يديه ، فكان هو الذى وقع على ، وذلك أنه آتى دهليز القصر يفتقد الباب هل فُتح ، فوقف بإزاء الحصير الذى كنت فيه ، فكانت منى حركة فأحس بى ، وقال : ما هذا الذى يتحرك في هذا الحصير ؟ ثم أمر به فنفض فخرجت عريانا ما على إلا السراويل ! فلما رأتى فاضت عيناه دموعا وقال : يا أبا بكر ، ما الذى حملك على هذا ؟ فلم أر بُداً من أن صدقته ، فقصصت عليه قصتى من أولها إلى آخرها ، فضحك وقال : يا أبا بكر ، أضغاث أحلام ، هذه آثار الخمر ، ثم قال لى : وكيف أقتلك ؟ رأيت أحداً يقتل نفسه ؟ وهل أنت عندى إلا كنفسى ؟ فتشكر له ابن عمار ودعا له

بطول البقاء ، وتناسى الأمر فنسيه ، ومرت على ذلك الأيام والليالي ، إلى أن كان من أمره ماسياتى الإيحاء إليه ، فصدقت رؤيا ابن عمار ، وقتل المعتمد نفسه كما قال ! .

ولما أفضى الأمر إلى المعتمد كما ذكرنا ، سأله ابن عمار ولاية شلب ، وهى كانت بلدة ومنشأة كما تقدم ، فأجابه المعتمد إلى ذلك وولاه إياها أنبه ولاته جعل إليه جميع أمورها ، خارجها وداخلها ، فاستمرت ولاية ابن عمار عليها إلى أن اشتد شوق المعتمد إليه ، وضعف عن احتمال الصبر عنه ، فاستدعاه وعزله عنها واستوزره ، فكانت حاله معه شبيهة بحال جعفر بن يحيى مع الرشيد .

ولم يزل المعتمد يُعده لكل أمر جليل ، ويؤهله لكل رتبة عالية ، وكان ابن عمار مع هذا لا يُنَاط به أمرٌ إلا اضطلع به وكان فيه كالسكة المحمأة ، واشتهر أمره ببلاد الأندلس حتى كان ملك الروم الأذفنش إذا ذكر عنده ابن عمار قال : هو رجل الجزيرة ! وكان ابن عمار هو الذى ردّه عن قصد إشبيلية وقرطبة وأعمالها ، وذلك أنه خرج فى جيوش ضخمة يقصد بلاد المعتمد طامعا فيها ، فخافه الناس ، وامتلات صدور أهل تلك الجهات رعباً منه ، وتيقنوا ضعفهم عن دفاعه ، فتولى ابن عمار ردّه بالطف حيلة وأيسر تدبير ، وذلك أنه أقام سُفرة شطرنج فى غاية الإتقان والإبداع ، ولم يكن عند ملك مثلها ، جعل صورها من الآبنوس والعود الرطب والصندل ، وحلاها بالذهب ، وجعل أرضها فى غاية الإتقان ، فخرج من عند المعتمد رسولا إلى الأذفنش ، فلقيه فى أول بلاد المسلمين ، فأعظم الأذفنش قدومه وبالع فى إكرامه ، وأمر وجوه دولته بالتردد إلى خبائه والمسارة فى حوائجه ، فأظهر ابن عمار تلك السفرة ، فرآها بعض خواص الأذفنش ، فنقل خبرها إليه ، وكان العليج - أعنى الأذفنش - مولعاً بالشطرنج ، فلما لقي ابن عمار سأله : كيف أنت فى الشطرنج ؟ وكان ابن عمار فيه طبقة عالية ، فأخبره بمكانه منه ، فقال له : بلغنى أن عندك سفرة فى غاية الإتقان ! قال ابن عمار : نعم ، فقال : كيف السبيل إلى رؤيتها ؟ فقال ابن عمار لترجمانه : قل له أنا آتية بها على أن ألعب معك عليها ، فإن غلبتنى فهى لك وإن غلبتك فلى حُكمى ! فقال له الأذفنش : هلمها لننظر إليها ، فأمر ابن عمار من جاء بها ، فلما وُضعت بين يدى العليج

صلب وقال : ما ظننت أن إتقان الشطرنج يبلغ إلى هذا الحد ! ثم قال لابن عمار : كيف قلت ؟ فأعاد عليه الكلام الأول ، فقال له الأدفنش : لا أَلعب معك على حكم مجهول لا أدري ما هو ، ولعله شيء لا يمكنني ! فقال ابن عمار : لا أَلعب إلا على هذا الوجه ! وأمر بالسفرة فطويت ، وكشف ابن عمار سر ما أراده لرجالٍ وثق بهم من وجوه دولة الأدفنش ، وجعل لهم أموالاً عظيمة على أن يؤازروه على أمره ، ففعلوا فتعلقت نفس العليج بالسفرة ، وشاور خاصته فيما رسمه ابن عمار ، فهوتوا عليه وقالوا له : إن غلبته كانت عندك سفرة ليس عند ملك مثلها ، وإن غلبك فما عساه أن يحتكم ؟ وقبحوا عنده إظهار الملك العجز عن شيء يُطلب منه ، وقالوا له : إن طلب ابن عمار مالا يمكن فنحن لك برءه عن ذلك ، ولم يزلوا به حتى أجاب ، وأرسل إلى ابن عمار فجاء ومعه السفرة ، فقال له : قد قبلت ما رسمته ! فقال له ابن عمار : فاجعل بيني وبينك شهوداً أسأهم له ، فأمر الأدفنش بهم فحضروا ، وافتتحا يلعبان ، وكان ابن عمار - كما ذكرنا - طبقة بالأندلس ، لا يقوم له أحد فيها ، فغلب الأدفنش غلبة ظاهرة لجميع الحاضرين ، لم يكن للعليج فيها مطعن ، فلما حقت الغلبة قال له ابن عمار : هل صح أن لي حكمي ؟ قال : نعم ، فما هو ؟ قال : أن ترجع من هنا إلى بلادك ! فاسود وجه العليج وقام وقعد ، وقال لخواصه : قد كنت أخاف من هذا حتى هوتتموه على في أمثال لهذا القول ، وهم بالنكت والتماذى لوجهه ، فقبحوا ذلك عليه ، وقالوا له : كيف يُحمل بك الغدر وأنت ملكُ ملوكِ النصارى في وقتك ! فلم يزلوا به حتى سكن ، وقال : لا أرجع حتى آخذ إتاوة عامين خلاف هذه السنة ! فقال ابن عمار : هذا كله لك ! وجاءه بما أراد ، فرجع وكف الله بأسه ، ودفعه بحوله وحُسن دفاعه عن المسلمين ، ورجع ابن عمار إلى إشبيلية وقد امتلأت نفس المعتمد سروراً به .

ثم إن المعتمد حدث له أمل في التغلب على مُرسية وأعمالها ، وهي التي تعرف بتُدْمير^(١) ، وكانت بيد أبي عبد الرحمن محمد بن طاهر ، كان هو المتغلب عليها والمدير

(١) تدمير : كورة في شرق الأندلس قاعدتها مرسية ، وكان يحكمها قبل الفتح العربي أمير قوطى من قرابة لذريق اسمه ثيودمير (THIODMIR) وكان له مع العرب إبان الفتح قصة من أطرف قصص =

لأمرها ، فجهز المعتمد جيوشاً عظيمة ، وتكفل له ابن عمار بأخذها وإخراج ابن طاهر عنها ، فولاه ماتولى من ذلك ، وخرج ابن عمار حتى نزل على مرسية ، فأخذها وأخرج ابن طاهر عنها (١) ، فلاحق ابن طاهر حين خرج من مرسية ببني عبد العزيز ببلنسية (٢) ، فكان بها إلى أن مات رحمه الله .

ولما تغلب ابن عمار على مرسية دار ملك بني طاهر كما ذكرنا ، حدثته نفسه وسول له سوء رأيه أن يستبد بأمره ، وأن يضبط تلك البلاد لنفسه ، فلم يزل يصرف الحيلة في ذلك إلى

(=) المقاومة ، وباسم هذا الأمير سمي العرب هذه الكورة ، وقيل بل سموها تدمير تشبيهاً لها بتدمير من بلاد الشام .

أما مرسية فمدينة مستحدثة بعد الفتح العربى ، بناها العرب في زمن عبد الرحمن بن الحكم سنة ٢٠٩ للهجرة ، ثم ازدادت عمراناً وأصبحت من حواضر الأندلس في زمن عبد الرحمن الناصر وابنه المستنصر (سنة ٣٠٠ إلى ٣٦٦) . ولما نشبت الفتنة وتمزقت وحدة الأندلس ، استقل بمرسية فتى من موالى المنصور ابن أبى عامر اسمه خيران الصقلبي ، وخلفه عليها بعد موته زهير الصقلبي العامري أيضاً ، فظل يحكمها بضع سنين ، ثم نشبت معركة بينه وبين باديس بن حبوس صاحب غرناطة ، حقت فيها الهزيمة على زهير ، ففر من وجه خصمه إلى حيث لا يعلم أحد ! وقام في الأمر من بعده في مرسية جماعة من أبناء البيوتات بها ، منهم الشيخ أبو بكر أحمد بن إسحاق ، وأبو بكر أحمد بن طاهر ، وغيرهما ، ثم صارت إمرتها لأحمد بن طاهر ، ثم من بعده لولده أبى عبد الرحمن محمد بن طاهر ، وفي عهده بدا للمعتمد بن عباد صاحب إشبيلية أن يستولى عليها ويضمها إلى ملكه ، وكان شاعره ابن عمار على رأس الحملة ، ويقود جنده الأمير عبد الله بن رشيق ، فتغلب ابن عمار على المدينة ، وخلع أميرها ابن طاهر ، ثم بدا له أن يستولى عليها لنفسه ، وكان ابن عمار على ولاء مع الأدفونش السادس ملك قشتالة ، ولعله كان ينتظر منه معونة على ذلك ، ولكن . . ولكن الأمور سارت على غير ما أراد .

(١) يذكر بعض المؤرخين أن ابن عمار اعتقله في قلعة مونت قوط ، ثم عاد فقتله ، ولكن الفتح بن خاقان يذكر في القلائد أنه شهد وفاته سنة ٥٠٧ في بلنسية وقد جاوز التسعين ، ويذكر إلى ذلك ما يفيد أنه كان في وقت ما معتقلاً في مونت قوط .

(٢) بلنسية : حاضرة من حواضر الأندلس الكبرى ، متصلة بالبحر والجبل ، وكانت قاعدة الحكم في شرق الأندلس أيام بني أمية ، فلما كانت الفتنة استقل بها صقليان من موالى المنصور ابن أبى عامر ، هما : مبارك ومظفر ، فتقاسما سلطنتها ، مات أولهما ، وثار الأهالي بالآخر فطردوه ، وبايعوا صقلبياً آخر من العامريين اسمه لييب ، ثم آل أمر بلنسية إلى عبد العزيز بن عبد الرحمن ، من أحفاد المنصور ابن أبى عامر ، فطالت مدته بها ، (انظر ص ٧٢) ثم خلفه المظفر بن عبد العزيز ، وهو الذى لجأ إليه ابن طاهر حين أخرجه ابن عمار عن بلنسية .

أن تم له بعضه ودانت له مرسية وأعمالها ، وطمع في ملك بلنسية ، إلى أن قام عليه رجل من أهل مرسية يقال له ابن رشيق ، كان أبوه من عُرفاء الجند بها ، وكان ابن عمار قد خرج لبعض أمره ، فدعا ابن رشيق هذا إلى نفسه ، وقامت معه العامة وبعض الجند ، فسمع ابن عمار بذلك ، فجاء يركض حتى أتى المدينة وقد غلقت أبوابها دونه ، فحاصرها بمن معه أياماً ، فامتنعت عليه ولم يقدر على دخولها ، فبقى حائراً لا يدرى ما يصنع ولا أين يتوجه ، وقد كان بلغ المعتمد قيامه وخلع يده من طاعته ، فلم ير إلا الهروب ملجأ ، فهرب حتى لحق ببني هود بسرقسطة (١) ، فأقام عندهم حتى ثقل عليهم وخافوا غائلته ، وبغضه في عيونهم مافعل مع صاحبه وولى نعمته ، فأخرجوه عن بلادهم .

ولم تزل البلاد تتقاذفه ، وملوكها تشنؤه ، إلى أن وقع في حصن من حصون الأندلس في غاية المنعة يدعى شقورة (٢) ، كان المتغلب عليه رجلاً يقال له ابن مبارك ، فأكرم وفادته وأحسن نزله ، ثم بدا له بعد أيام . . فقبض عليه وقيده وجعله في سجنه ، فلما رأى ابن عمار ذلك منه قال له : لا عليك أن تكتب إلى ملوك الأندلس بكوني عندك وتعرضني عليهم ، فها منكم إلا من يرغب في ، فمن كان أشدهم رغبة جعل لك مالا ووجهت بي إليه ! ففعل ابن مبارك ذلك ، فما عرضه على أحد من ملوك الأندلس إلا رغب فيه ، وكتب فيمن كتب إلى المعتمد . . .

وفي ذلك يقول ابن عمار :

أصبحت في السوق يُنادى على	رأسى بأنسـواغٍ من المال
والله ما جازَ على ماله	من ضمنى بالثمن الغالى !

(١) كان حاكمها في ذلك الوقت المؤمن .

(٢) شقورة : حصن كالمدينة ، عامر بأهله ، شمالي مرسية ، وهو رأس جبل عظيم متصل منبع الجهة ، ويخرج من أسفله نهران ، أحدهما النهر الكبير الذي يمر بقرطبة ، والثاني هو النهر الأبيض الذي يمر ببلنسية ، قال ياقوت : وكان بها دار إمارة همشك .

وفى هذا السجن يقول ابن عمار وقد استرعى نورة يستنظف بها فتعذرت عليه ،
فاستدعى موسى فأتى بها ، فقال فى ذلك :

بُـؤْسَى شَقُورَة عُنْدِي أَرَبَى عَلَى كُلِّ بُـؤْسَى
فَقَدْتُ « هَارُونَ » فِيهَا فَظَلْتُ أَطْلُبُ « مُـؤْسَى » !

وبعث المعتمد على الله من رجاله من تسلم ابن عمار من يد ابن مبارك ، بعد أن بعث إليه بهال وخيل ، وأمر المعتمد الذين تسلموا ابن عمار أن يزيدوا فى الاحتياط عليه وتقييده ، فخرجوا به حتى وافوا قرطبة ، ووافق ذلك كون المعتمد بها ، فدخلها ابن عمار أشنع دخول وأسوأه ، على بغل بين عدلى تبين ، وقيوده ظاهرة للناس ، وقد كان المعتمد أمر بإخراج الناس خاصة وعامة حتى ينظروا إليه على تلك الحال ، وقد كان قبل هذا إذا دخل قرطبة اهتزت له وخرج إليه وجوه أهلها وأعيانهم ورؤساؤهم ، فالسعيد منهم من يصل إلى تقبيل يده أو يرد عليه ابن عمار السلام ، وغيرهم لا يصل إلا إلى تقبيل ركابه أو طرف ثوبه ، ومنهم من ينظر إليه على بُعْدٍ لا يستطيع الوصول إليه ، فسبحان تحيل الأحوال ومُدِيل الدول !
فدخل ابن عمار قرطبة كما ذكرنا ، بعد العزّة القعساء والمُلك الشامخ ، والرياسة الفارعة ، ذليلاً خائفاً فقيراً لا يملك إلا ثوبه الذى عليه ، فسبحان من سلبه ما وهبه ، ومنعه ما كان به أمتعته .

وأخبر بعض الموكلين به ما اتفق لهم معه من فرط ذكائه وسرعة فطنته ، قال : لما قرُبنا من قرطبة بحيث يرانا الناس ، خرج فارسٌ من البلد يركض يقصدنا ، فلما رآه ابن عمار - وكان معتماً - أزال العمامة عن رأسه ، فجاء الفارس حتى وصل إلينا ، فنظر إلى ابن عمار ودخل معنا فى الصف فمشى ، فسألناه فيم جاء ؟ فقال : الذى جئتُ فيه صنعه هذا الرجل قبل أن أصل إليه ! فعلمنا أنه أرسل ليزيل عمامته .

فأدخل على المعتمد على الله على الحالة التى ذكرت ، يرسف فى قيوده ، فجعل المعتمد يعدد عليه أياديه ونعمه ، وابن عمار فى ذلك كله مطرقٌ لا ينبس ، إلى أن انقضى كلام

المعتمد ، فكان من جواب ابن عمار أن قال : ما أنكر شيئاً مما يذكره مولانا أبقاه الله ، ولو أنكرته لشهدت علىّ به الجهادات فضلاً عما ينطق ، ولكنى عثرتُ فأقل ، وزللت فاصفح ! فقال المعتمد : هيهات ، إنها عشرة لا تقال ! وأمر به فأحدر في النهر إلى إشبيلية ، فدُخل به إشبيلية على الحال التي دخل عليها قرطبة ، وجُعل في غرفة على باب قصر المعتمد المعروف بالقصر المبارك - وهو باق إلى وقتنا هذا - فطال سجنه هناك .

كتبت عنه في هذا السجن قصائد لو توصل بها إلى الدهر لنزع عن جوره ، أو إلى الفلك لكف عن دوره ، فكانت رُقى لم تنجع ، ودعوات لم تُسمع ، وتماائم لم تنفع ، فمنها قوله :

وعذرك إن عاقبت أجلى وأوضح
فأنت إلى الأدنى من الله تجنح
عداى ولو أثنوا عليك وأفصحوا
يخوض عدوى اليوم فيه ويمرح
يكران في ليل الخطايا فيصبح
أما تفسد الأعمال ثمت تصلح
له نحو روح الله باب مفتح
بهبة رحمى منك تمحو وتُمصح
فكل إناء بالذى فيه يرشح
بزور بنى عبد العزيز موشح
إذا ثُبت لا أنفك أسو وأجرح
وأشاروا تجاهى بالشمات وصرحوا
فقلت وقد يعفو فلان ويصفح !
ولكن حلماً للمؤيد يرجح
سوى أن ذنبى واضح متصح
صفاء يزل الذنب عنها فيسفح
إلى فيدنو أو على فينزع
أموت ولى شوقٍ إليه مبرح
ستنفع لى أن الحمام يجلح

سجايك إن عافيت أندى وأسجح
وإن كان بين الخطتين مزية
حنانيك في أخذى برأيك ، لا تطع
فإن رجائي أن عندك غير ما
ولم لا وقد أسلفت ودأ وخدمة
وهبنى وقد أعقت أعمال مُفسد
أقلنى بما بينى وبينك من رضى
وعف على آثار جُرم سلكتها
ولا تلتفت قول الوشاة ورأيهم
سيأتيك في أمري حديث وقد أتى
وما ذاك إلا ما علمت فإننى
كأنى بهم لا در للـه درهم
وقالوا سيجزيه فلان بفعله
ألا إن بطشاً للمؤيد يرتى
وماذا عسى الواشون أن يتزيدوا
نعم لى ذنبٌ غير أن لحلمه
عليه سلامٌ كيف دار به الهوى
ويهنيه - إن مُت السلو فإننى
وبين ضلوعى من هواه تميمه

ولما بلغت المعتمد هذه القصيدة وأنشدت بين يديه ، كان بحضرته رجل من البغداديين ، فجعل يُزري على هذا البيت « وبين ضلوعى . . . » ويقول : ما أراد بهذا المعنى ؟ فكان من جواب المعتمد - رحمه الله - أن قال : أما لئن سلبه الله المروءة والوفاء ، لما أغدمه الفطنة والذكاء ، إنما نظر إلى بيت الهذلى من طرف خفى ، وهو :

وإذا المنية أنشبت أظفارها ألفيت كل تميمة لا تنفع !

ولم يزل ابن عمار هذا بسجن المعتمد ، إلى أن قتله صبراً فى شهر سنة ٤٧٩ .
وتلخيص خبر قتله ، أنه لما طال سجنه كتب إليه بالقصيدة التى تقدم إنشادها ، فأدركت المعتمد بعض الرقة ، فوجه إليه ليلاً وهو فى بعض مجالس أنسه ، فأتى به يوسف فى قيوده فجعل المعتمد يعدد مننه عليه وأياديه قبله ، فلم يكن لابن عمار جواب ولا عذر ، غير أنه أخذ فى البكاء ، وجعل يترفق للمعتمد عطفيه ويستجلب من الألفاظ كل ما يقدر أنه يزرع له الرأفة فى قلب المعتمد ، فتم له بعض ما أراد من ذلك ، وعطف المعتمد عليه سابقته وقديم حرمة ، فقال له قولاً يتضمن العفو عنه تعريضاً لا تصريحاً ، وأمر برده إلى محبته ، فكتب ابن عمار من فوره بما دار له مع المعتمد إلى ابنه الراضى بالله ، فوافاه الكتاب وبحضرته قومٌ كانت بينهم وبين ابن عمار إحناً قديمة ، فلما قرأ الراضى الكتاب قال لهم : ما أرى ابن عمار إلا سيتخلص ، فقالوا له : ومن أين علم مولانا ذلك ؟ فقال : هذا كتاب ابن عمار يُخبرنى فيه أن مولانا المعتمد قد وعده بالخلاص ، فأظهر القوم الفرح وهم يبطنون غيره ، فلما قاموا من مجلس الراضى نشروا حديث ابن عمار أقبح نشر ، وزادوا فيه زيادات قبيحة صُنّت هذا الكتاب عن ذكرها ، فبلغ المعتمد ذلك ، فأرسل إلى ابن عمار وقال له :

هل أخبرت أحداً بها كان بينى وبينك البارحة ؟ فأنكر ابن عمار كل الإنكار ، فقال المعتمد للرسول : قل له : الورقتان اللتان استدعيتهما ، كتبت في إحداهما القصيدة ، فما فعلت بالأخرى (١) ؟ فادعى أنه بيض فيها القصيدة ، فقال المعتمد : هلم المسودة ! فلم يجد جواباً ، فخرج المعتمد حنقاً ويده الطبرزين حتى صعد الغرفة التى فيها ابن عمار ، فلما رآه علم أنه قاتله ، فجعل ابن عمار يزحف وقيوده تُثقله ، حتى انكبَّ على قدمي المعتمد يقبلهما ، والمعتمد لا يثنيه شيء ، فعلاه بالطبرزين الذى فى يده ، ولم يزل يضربه به حتى برد .

ورجع المعتمد فأمر بغسله وتكفينه ، وصلى عليه ودفنه بالقصر المبارك ، فهذا ما انتهى إلينا من خبر ابن عمار ملخصاً حسبما بقى على خاطرى .

رجع الحديث عن بنى عباد

ولم يزل المعتمد هذا فى جميع مدة ولايته والأيام تساعده ، والدهر على ما يريد يؤازره ويعاضده ، إلى أن انتظم له فى ملكه من بلاد الأندلس مالم ينتظم لملك قبله ، أعنى من المتغلين ، ودخل فى طاعته مدن من مدائنهم وأعجزتهم ، وامتدت مملكته إلى أن بلغت مدينة مرسية ، وهى التى تعرف بتدمير ، بينها وبين إشبيلية نحو من اثنتى عشرة مرحلة ، وفى خلال ذلك مدن متسعة وقرى ضخمة .

(١) يلاحظ أن السجناء فى ذلك الوقت كان يؤذن لهم فى الكتابة وتهايم أسباياها ، فهل بحث مثل هذا اليوم فى بلاد كثيرة !

وقد ذكر ابن خاقان فى القلائد ، أن صاحب شقورة لما كان ابن عمار معتقلاً عنده ، كان يأذن له فى الكتابة إلى أصحابه ويأذن لهم فى زيارته ومسامرته ، وأثبت لنا من هذا الباب قصيدة ممتعة كتب بها ابن عمار إلى صديقه أبى الفضل ابن حسداى الشاعر ، يستزيره فى معتقله من حصن شقورة ويصف له بعض ما هو فيه !

وكان تغلبه على قرطبة وإخراجه ابن عكاشة منها يوم الثلاثاء لسبع بقين من صفر سنة ٤٧١ (١) ، ثم رجع إلى إشبيلية واستخلف عليها (٢) ولده عباداً ولقبه بالمأمون ، وهو أكبر ولد له في حياة أبيه المعتضد ، وسماه عباداً ، فكان المعتضد يضمه إليه ويقول : يا عباد ، ياليت شعري من المقتول بقرطبة ، أنا أو أنت ؟ فكان المقتول بها عباداً هذا في حياة أبيه المعتمد وفي السنة التي زال عنهم الملك فيها .

أول أمر المرابطين بالأندلس

ولما كانت سنة ٤٧٩ جاز المعتمد على الله البحر قاصداً مدينة مراكش إلى يوسف بن تاشفين ، مستنصراً به على الروم (٣) ، فلقيه يوسف المذكور أحسن لقاء ، وأنزله أكرم نزل ،

(١) كانت قرطبة بعد زوال الخلافة عنها لبني جهور ، فطمع المأمون ابن ذى النون صاحب طليطلة في استخلاصها لنفسه ، فسير إليها جيشه ، ولم يكن ذلك بعيداً من تدبير ابن عباد ، فلما رأى عبد الملك بن جهور تهديد ملكه ، طلب إلى المعتمد بن عباد أن يعينه ، فوافى جيشه قرطبة ، ونزل بربضها الشرقى . ولم يتم للمأمون ما أراد ، فتزح عن قرطبة ، وخلا الجو بذلك لابن عباد ، فأحرق جيشه بقصر ابن جهور ، وقبض عليه وعلى إخوته ، وأخرجوه عن قرطبة ، ودخلت حاضرة الأندلس منذ ذلك اليوم في ملك ابن عباد ، وصارت تابعة لإشبيلية ، وتولى أمرها الظافر ابن المعتمد ، ولكن إمارتها لم تخلص له طويلاً ، فقد كان أهلها مستمسكين بدعوة الخلفاء ، يأملون أن تعود مدينتهم حاضرة لخليفة من بني مروان ، فلم تلبث أن ثارت على الظافر ، وكان ابن عكاشة على رأس الثائرين ، فبرز له الظافر ليلاً ، منفرداً عن جنده ، فلم يزل يدافع الثائرين ويدافعونه ، حتى سقط صريعاً ، وظل جسده ملقياً على الأرض حيث سقط حتى مر بجثته قبيل الصبح أحد الأئمة المغلسين ، فخلع رداءه عن منكبيه وستره به ، وأذاع نبأ مصرعه . . .

وبلغ النبأ المعتمد في إشبيلية فأوجعه ، ولكن فجيعة في ولده لم تلته عن التدبير لملكه ، فلم يزل يسعى حتى استأصل دعة الفتنة ، وأخرج ابن عائشة عن قرطبة ، وجعل ولايتها إلى ولده المأمون خلفاً للظافر فلم يزل والياً عليها حتى قتله المرابطون يوم دخولهم قرطبة ! .

(٢) يعنى على قرطبة .

(٣) كان سبب ذلك أنه لما استولى الأذنفش سنة ٤٧٨ على طليطلة من يد القادر ابن ذى النون ، قوى سلطانه وعظم أمله في الاستيلاء على إشبيلية وقرطبة وغيرهما من قواعد الأندلس فأجمع ملوك الطوائف - وكبيرهم ابن عباد - أن يستعينوا بيوسف بن تاشفين ملك الغرب ، فدعوه لنصرتهم ، على ما يراود نفوسهم من خوفه وما يتوقعونه من طمعه في الاستئثار بملك الأندلس دونهم ، وقد كان ماتوقعوا وتوقع ابن عباد معهم ، وكانت نكبة المعتمد على يدي نصيرة الذي استجار به ، يوسف بن تاشفين .

وكنا فعل ابن عباد ببني جهور حين استعانوه لدفع المأمون ابن ذى النون عن قرطبة فنكبتها واستخلصها لنفسه ، فعل يوسف بن تاشفين ببني عباد .

وسأله عن حاجته ، فذكر أنه يريد غزو الروم وأنه يريد إمداد أمير المسلمين إياه بخيلٍ ورجلٍ
ليستعين بهم في حربه فأسرع أمير المسلمين المذكور إجابته إلى ما دعاه ، وقال له : أنا أول
متدب لنصرة هذا الدين ، ولا يتولى هذا الأمر أحدٌ إلا أنا بنفسى !

فرجع المعتمد إلى الأندلس مسروراً بإسعاف أمير المسلمين إياه في طلبه ، ولم يَدْر أن
تدميره في تدبيره ، وسَلَّ سيفاً يحسبه له ولم يدِر أنه عليه ، فكان .

قال أبو فراس :

إذا كان غير الله للمرء عُدةً أتته الرزايا من وجوه الفوائد
كما جرت الحنفاء حَتَفَ حُذيفةً وكان يراها عُدةً للشدائد !

فأخذ أمير المسلمين يوسف بن تاشفين في أهبة العبور إلى جزيرة الأندلس ، وذلك في
شهر جمادى الأولى من السنة المذكورة ، فاستنفر من قدر على استنفاره من القواد وأعيان
الجند ووجوه قبائل البربر ، فاجتمع له نحو من سبعة آلاف فارس في عدد كثير من الرّجل ،
فعبّر البحر بعسكر ضخم ، وكان عبوره من مدينة سَبْتة ، فنزل المدينة المعروفة بالجزيرة
الخضراء ، وتلقاه المعتمد في وجوه أهل دولته ، وأظهر من بره وإكرامه فوق ما كان يظنه أمير
المسلمين ، وقدم إليه من الهدايا والتحف والذخائر المملوكية ما لم يظنه يوسف عند ملك ،
فكان هذا أول ما أوقع في نفس يوسف التشوفَ إلى مملكة جزيرة الأندلس .

ثم إنه فصل عن الخضراء بجيوشه قاصداً شرقى الأندلس ، وسأله المعتمد دخول
إشبيلية دار ملكه ليستريح فيها أياماً حتى تزول عنه وعشاء السفر ثم يقصد قصده ، فأبى
عليه وقال : إنما جئت ناوياً جهاد العدو ، فحيثما كان العدو توجهت وجهه .

وكان الأذفنش - لعنه الله - محاصراً لحصن من حصون المسلمين يعرف بحصن الليط ،
فلما بلغه عبور البربر أقلع عن الحصن راجعاً إلى بلاده مستنفرأ عساكره ليلقى بهم البربر .

وتوجه يوسف المذكور إلى شرقى الأندلس يقصد ذلك الحصن المحاصر ، والإصلاح بين المعتمد على الله وبين رجل كان تغلب على مرسية يقال له ابن رشيق ، قد تقدم ذكره في أخبار ابن عمار ، فأصلح بينهما يوسف أمير المسلمين ، على أن يخرج له ابن رشيق عن مرسية ، ويعوضه المعتمد عن ذلك مالاً جعله له ، ويوليه في جهة إشبيلية ولاية ، فأجابه ابن رشيق إلى ذلك وتسلم المعتمد مرسية وأعمالها .

ولقى يوسف أمير المسلمين ملوك الأندلس الذين كان عليهم طريقه ، كصاحب غرناطة ، والمعتصم بن صمادح صاحب ألمرية ، وابن عبد العزيز أبو بكر صاحب بلنسية .

وقعة الزلّاقة

ثم إن يوسف المذكور استعرض جنده على حصن الرقة ، فرأى منهم ما يسره ، فقال للمعتمد على الله : هلم ما جئنا له من الجهاد وقصد العدو ، وجعل يُظهر التأفف من الإقامة بجزيرة الأندلس ، ويتشوق إلى مراکش ، ويصغر قدر الأندلس ، ويقول في أكثر أوقاته : « كان أمر هذه الجزيرة عندنا عظيماً قبل أن نراها ، فلما رأيناها وقعت دون الوصف ! » وهو في ذلك كله « يُسر حسواً في ارتغاء » فخرج المعتمد بين يديه قاصداً مدينة طليطلة ، واجتمع للمعتمد أيضاً جيش ضخم من أقطار الأندلس .

وانتدب الناس للجهاد من سائر الجهات ، وأمد ملوك الجزيرة يوسف والمعتمد بما قدروا عليه من خيل ورجال وسلاح ، فتكامل عدد المسلمين من المتطوعة والمرتزة زهاء عشرين ألفاً ، والتقوا هم والعدو بأول بلاد الروم .

وكان الأدفنش — لعنه الله — قد استنفر الصغير والكبير، ولم يدع في أقاصى مملكته من يقدر على النهوض إلا استنهضه ، وجاء يجر الشوك والشجر ، وإنما كان مقصوده الأعظم قطع تشوف البرابرة عن جزيرة الأندلس والتهيب عليهم ، فأما ملوك الأندلس فلم يكن منهم أحد إلا يؤدي إليه الإتاوة ، وهم كانوا أحقر في عينه وأقل من أن يحتفل لهم !

ولما تراءى الجمعان من المسلمين والنصارى ، رأى يوسف وأصحابه أمراً عظيماً هالهم ،
من كثرة عددٍ ، وجودة سلاح وخيلٍ ، وظهور قوة ، فقال المعتمد : ما كنت أظن هذا
الخنزير - لعنه الله - يبلغ هذا الحد !

وجمع يوسف أصحابه وندب لهم من يعظهم ويُذكرهم ، فظهر منهم من صدق النية
والحرص على الجهاد واستسهال الشهادة ما سُر به يوسف والمسلمون .

وكان ترائيهم يوم الخميس ، وهو الثانى عشر من شهر رمضان ، فاختلقت الرسل
بينهم فى تقرير يوم الزحف ليستعد الفريقان ، فكان من قول الأدفنش - لعنه الله - : الجمعة
لكم ، والسبت لليهود وهم وزرأؤنا وكُتابنا وأكثر خدم العسكر منهم فلا غنى بنا عنهم ،
والأحد لنا ، فإذا كان يوم الاثنين كان ما نريده من الزحف . وقصد - لعنه الله - مخادعة
المسلمين واغتيالهم ، فلم يتم له ما قصد . . .

فلما كان يوم الجمعة تأهب المسلمون لصلاة الجمعة ولا أمارة عندهم للقتال ، وبنى
يوسف بن تاشفين الأمر على أن الملك لا تغدر ، فخرج هو وأصحابه فى ثياب الزينة
للصلاة ، فأما المعتمد فإنه أخذ بالحزم ، فركب هو وأصحابه شاكى السلاح ، وقال لأمير
المسلمين : صَلِّ فى أصحابك ، فهذا يومٌ ماتطيب نفسى فيه ، وها أنا من ورائكم ، وما
أظن هذا الخنزير إلا قد أضمر الفتك بالمسلمين .

فأخذ يوسف وأصحابه فى الصلاة ، فلما عقدوا الركعة الأولى ثارت فى وجوههم الخيل
من جهة النصارى ، وحمل الأدفنش - لعنه الله - فى أصحابه ، يظن أنه قد انتهز الفرصة ،
وإذا المعتمد وأصحابه من وراء الناس ، فأغنى ذلك اليوم غناء لم يُشهد لأحد من قبله ،
وأخذ المرابطون سلاحهم فاستووا على متون الخيل ، واختلط الفريقان ، فأظهر يوسف بن
تاشفين وأصحابه من الصبر وحسن البلاء والثبات ما لم يكن يحسبه المعتمد ، وهزم الله
العدو ، واتبعهم المسلمون يقتلونهم فى كل وجه ، ونجا الأدفنش - لعنه الله - فى تسعة من

أصحابه^(١) ، فكان هذا أحد الفتوح المشهورة بالأندلس ، أعز الله فيه دينه وأعلى كلمته ، وقطع طمع الأذفنش - لعنه الله - عن الجزيرة ، بعد أن كان يقدر أنها في ملكه ، وأن رءوسها خدم له ، وذلك كله بحسن نية أمير المسلمين .

وتسمى هذه الوقعة عندهم وقعة الزلاقة ، وكان لقاء المسلمين عدوهم - كما ذكرنا - في يوم الجمعة الثالث عشر من شهر رمضان الكائن في سنة ٤٨٠ (٢) ورجع يوسف بن تاشفين وأصحابه عن ذلك المشهد منصورين مفتوحاً لهم وبهم ، فسر بهم أهل الأندلس ، وأظهروا التيمن بأمير المسلمين والتبرك به ، وكثر الدعاء له في المساجد وعلى المنابر ، وانتشر له من الثناء بجزيرة الأندلس ما زاده طمعاً فيها ، وذلك أن الأندلس كانت قبله بصدد التآلف ، من استيلاء النصارى عليها وأخذهم الإتاوة من ملوكها قاطبة ، فلما قهر الله العدو وهزمه على يد أمير المسلمين ، أظهر الناس إعظامه ونشأ له الود في الصدور .

ثم إنه أحب أن يجول في الأندلس على طريق التفرج والتنزه ، وهو يريد غير ذلك ، فجال فيها ونال من ذلك ما أحب ، وفي خلال ذلك كله يُظهر إعظام المعتمد وإجلاله ، ويقول مصرّحاً : إنما نحن في ضيافة هذا الرجل وتحت أمره وواقفون عند ما يحده .

[بين المعتصم ابن صمادح والمعتمد ابن عباد]

وكان ممن اختص بأمير المسلمين من ملوك الجزيرة وحظى عنده واشتد تقريب أمير

(١) لم يتفق مؤرخو هذه الوقعة في تحديد عدد الناجين مع الأذفنش من عسكره ، وإن كانوا مجمعين على أن جيشه قد باد كله ، قادة وجنوداً ، إلا قلة لا يكاد يخطئها الإحصاء ، وأصيب الأذفنش نفسه في إحدى ركبتيه إصابة لزمه أثرها ما بقى من حياته ! .

(٢) الثابت تاريخياً أن وقعة الزلاقة كانت وقعت سنة ٤٧٩ هـ .

المسلمين له : أبو يحيى محمد بن معن بن صناديح المعتصم صاحب ألمرية (١) ، وكان المعتصم هذا قديم الحسد للمعتمد ، كثير النفاسة عليه ، لم يكن في ملوك الجزيرة من يناوئته غيره ، وربما كانت بينهما في بعض الأوقات مراسلات قبيحة ، وكان المعتصم يعيبه في مجالسه وينال منه ، ويمنع المعتمد من فعل مثل ذلك مروءته ونزاهة نفسه وطهارة سريرته وشدة ملوكيته ، وقد كان المعتمد قبل عبور أمير المسلمين بيسير ، توجه إلى شرقى الأندلس يتطوف على مملكته ويطالع أحوال عماله ورعيته ، فلما دانى أول بلاد المعتصم ، خرج إليه في وجوه أصحابه ، وتلقاه لقاء نبيلاً ، وعزم عليه ليدخلن بلاده ، فأبى المعتمد ذلك ، ثم اتفقا بعد طول مراودة على أن يجتمعا في أول حدود بلاد المعتصم وآخر حدود بلاد المعتمد ، فكان ذلك واصطلاحاً في الظاهر ، واحتفل المعتصم في إكرامه ، وأظهر من الآلات السلطانية والذخائر المملوكية المعدة لمجالس الأئمة ما ظنه مكماً للمعتمد مثيراً لغمه ، وقد أعاد الله المعتمد من ذلك وصان خلقه الكريم عنه وعصمه بفضل له منه ، ثم افترقا بعد أن أقام المعتمد عنده في ضيافته ثلاثة أسابيع ، ورجع المعتمد إلى بلاده ، وبإثر ذلك عبر إلى مراکش ، ولم يزل ما بينه وبين المعتصم معموراً إلى أن عبر أمير المسلمين كما ذكرنا ، فلقى المعتصم بهدايا فاخرة وتُحف جليلة ، وتلطف في خدمته حتى قربه أمير المسلمين أشد تقريب ، وكان يقول لأصحابه : هذان رجلاً هذه الجزيرة ! يعنى المعتصم والمعتمد ، وكان أكبر أسباب تقريب أمير المسلمين إياه ، ثناء المعتمد عليه عند أمير المسلمين ، ووصفه إياه عنده بكل فضل ، ولم يكن المعتصم بعيداً من أكثر ما وصفه به .

ولما اشتد تمكن المعتصم من أمير المسلمين ، بدا له أن يسعى في تغيير قلبه على المعتمد وإفساد ما بينهما - حسن له ذلك سوء رأيه ودنس سريرته وضعف بصره بعواقب الأمور ،

(١) ألمرية : مدينة على ساحل البحر الرومى ، كانت قاعدة الأسطول الإسلامى ، وكان بها خيران العامرى من ملوك الطوائف ، ثم زهير من بعده ، فلما هلك زهير آلت إلى عبد العزيز ابن أبى عامر صاحب بلنسية ، وغلبه عليها غدراً صهره ووزيره معن بن صناديح والد المعتصم المذكور ، فاستتب له الأمر بها وأورثها خلفه المعتصم . . .

وليقضى الله أمراً كان مفعولاً ، وليبلغ القدر ميقاته ، وإذا أراد الله تمام أمره ياله أسباباً -
فشرع المعتصم فيما أراده من ذلك ، ولم يدر أنه ساقط في البئر الذي حَفَرَ ، وقتيل بالسلاح
الذي شَهَرَ ، فكان من جملة ما ألقى إلى أمير المسلمين ، أن جعل يقرر عنده عُجْب المعتمد
بنفسه ، وفرط كِبَره ، وأنه لا يرى أحداً كفوّاً له ، وزعم أنه قال له في بعض الأيام - وقد قال له
المعتصم : طالت إقامة هذا الرجل بالجزيرة ، يعنى أمير المسلمين - : « لو عوجت له
إصبعى ما أقام بها ليلة واحدة هو ولا أصحابه : وكأنك تخاف غائلته ، وأى شىء هذا
المسكين وأصحابه ؟ وإنما هم قوم كانوا في بلادهم في جهد من العيش ، وغلاء من السعر ،
جئنا بهم إلى هذه البلاد نُطعمهم حسبة وائتجاراً فإذا شبعوا أخرجناهم عنها إلى بلادهم ! »
إلى أمثال هذا القول من تحقير أمرهم ، وأعانه على ذلك قومٌ من وجوه الأندلس ، إلى أن بلغوا
ما أرادوه من تغيير قلب يوسف أمير المسلمين على المعتمد .

وقد كان أمير المسلمين ضرب لنفسه ولأصحابه أجلاً وحد له ولهم مدة يقيمونها في
الجزيرة لا يزيدون عليها ، وإنما فعل ذلك تطييباً لقلب المعتمد وتسكيناً لحاظره ، فلما
انقضت تلك المدة أو قاربت ، عبر أمير المسلمين إلى العدو وقد وِغَرَ صدره وتغيرت نفسه .

وما النفس إلا نطفة في قرارة إذا لم تكدر كان صفواً غديرها

هذا مع ما ذكرنا من طمعه في الجزيرة وتشوفه إلى مملكته ، وظهرت للمعتمد قبل عبوره
أشياء عرف بها أنه غير عليه !

نكبة بنى عباد

ورجع أمير المسلمين إلى مراکش وفي نفسه من أمر الجزيرة المقيم المقعد ، فبلغنى أنه قال
لبعض ثقاته من وجوه أصحابه : كنت أظن أنى قد ملكت شيئاً ، فلما رأيت تلك البلاد ،
صغرت في عيني مملكتى ، فكيف الحيلة في تحصيلها ؟ فاتفق رأيه ورأى أصحابه على أن

يراسلوا المعتمد يستأذنونه في رجال من صلحاء أصحابهم رغبوا في الرباط بالأندلس ومجاهدة العدو والكون ببعض الحصون المصاوبة للروم إلى أن يموتوا ، ففعلوا ، وكتبوا إلى المعتمد بذلك ، فأذن لهم ، بعد أن وافقه على ذلك ابن الأفطس المتوكل صاحب الثغور ، وإنما أراد يوسف وأصحابه بذلك أن يكون قوم من شيعتهم مبثوثين بالجزيرة في بلادها ، فإذا كان أمر من قيام بدعوتهم أو إظهار لملكهم وجدوا في كل بلد لهم أعواناً .

وقد كانت قلوب أهل الأندلس - كما ذكرنا - قد أشربت حب يوسف وأصحابه ، فجهز يوسف من خيار أصحابه رجالاً انتخبهم ، وأمر عليهم رجلاً من قرابته يسمى بلجيين وأسر إليه ما أراده ، فجاز بلجيين المذكور ، وقصد المعتمد من ملوك الجزيرة فقال له : أين تأمرني بالكون ؟ فوجه معه المعتمد من أصحابه من ينزله ببعض الحصون التي اختارها لهم ، فنزل حيث أنزلوه هو وأصحابه ، وأقاموا هناك إلى أن ثارت الفتنة على المعتمد ، وكان مبدؤها في شوال من سنة ٤٨٣ بأخذ جزيرة طريف المقابلة لطنجة من العدو ، دون مقدمة ظاهرة توجب ذلك ، فتشعبت جموعه وأهواؤها ملتزمة ، وانتشرت ببلاده وقلوب أهلها على محبته منتظمة .

ولما أخذ المرابطون جزيرة طريف ونادوا فيها بدعوة أمير المسلمين ، انتشر ذلك في الأندلس ، وزحف القوم الذي قدمنا ذكرهم ، الكائنون في الحصون ، إلى قرطبة ، فحاصروها وفيها عباد بن المعتمد الملقب بالمأمون ، وقد تقدم ذكره ، وهو من أكبر ولده ، فدخلوا البلد ، وقتل عباد هذا بعد أن أبلى عذراً ، وأظهر في الدفاع عن نفسه جلاً وصبراً ، وذلك في مستهل صفر الكائن في سنة ٤٨٤ ، فزادت الإحنة والمحنة ، واستمرت في غلوائها الفتنة .

وأجمعت على الثورة بحضرة إشبيلية طائفة ، فأعلم المعتمد بما اعتقدته الطائفة المذكورة ، وكشف له عن مرادها ، وأثبت عنده سوء اعتقادها ، وأغرى بتمزيق أديمها وسفك دمها ، وحض على هتك حريمها وكشف حرمها ، فأبى له ذلك مجده الأثيل ،

ورأيه الأصيل ، ومذهبه الجميل ، وما حباه الله به من حسن اليقين ، وصحة العقل والدين ، إلى أن أمكنتهم الغرة يوم الثلاثاء منتصف رجب من السنة المذكورة ، فقاموا بجيش غير مستنصر ، واستنسروا بُغاثًا غير مستنسر ، فبرز هو من قصره ، سيفه بيده ، وغلاله ترفُّ على جسده ، لا درقة له ولا درع عليه ، فلقى على باب من أبواب المدينة يسمى باب الفرج ، فارساً من الداخلين مشهور النجدة شاكى السلاح ، فرماه الفارس برمح قصير أنابيب القناة ، طويل شفرة السنان ، فالتوى الرمح بغلالته وخرج تحت إبطه ، وعصمه الله عنه ، ودفعه بفضلته منه ، وصب هو سيفه على عاتق الفارس فشقه إلى أضلاعه فخر صريعاً ، وانهمزت تلك الجموع ، ونزل المتسمنون للأسوار عنها ، وظن أهل إشبيلية أن الخناق قد تنفس .

فلما كان عصر ذلك اليوم ، عاودهم القوم ، فظُهر على البلد من واديه ، ويئس من سُكنى نادية ، وبلغ فيه الأمل حاسده وشانيه ، وشبت النار في شوانيه ، فانقطع عندها الأمل والقول ، وذهبت القوة من أيدي أهلها والحول ، وكان الذى ظهر عليها من جهة البر ، رجلٌ من أصحاب يوسف أمير المسلمين يُعرف بحدير بن واسئو ، ومن الوادى رجلٌ يعرف بالقائد أبى حمامة مولى بنى سجدوت ، والتوت الحال أياماً يسيرة ، إلى أن ورد الأمير سيرُّ بن أبى بكر بن تاشفين - وهو ابن أخى أمير المسلمين - بعساكر متظاهرة ، وحشود من الرعية وافرة ، والناس فى خلال هذه الأيام قد خامرهم الجزع ، وخالط قلوبهم الهلع ، يقطعون السبل سياحة ، ويعبرون النهر سباحة ، ويتولجون مجارى الأقدار ، ويترامون من شرفات الأسوار ، حرصاً على الحياة ، والموفون بالعهد ، المقيمون على صريح الود ، ثابتون ، إلى أن كان يوم الأحد لإحدى وعشرين ليلة خلت من رجب من السنة المذكورة ، وهذا يوم الكائنة العظمى ، والطامة الكبرى ، فيه حُمَّ الأمر الواقع ، واتسع الخرق على الراقع ، ودُخل البلد من واديه ، وأصيب حاضره وباده ، بعد أن جد الفريقان فى القتال ، واجتهدت الفئتان فى النزال ، وظهر من دفاع المعتمد رحمه الله وبأسه ، وتراميه على الموت

بنفسه ، مالا مزيد عليه ، ولا تنأى لخلق إليه ، وفى ذلك يقول المعتمد بعد ما نزل بالعدوة
أسيراً حسيراً :

وتنهكه القلب الصديغ	لما تماسكت الدموع
فليبدد منك لهم خضوع	قالوا الخضوع سياسة
ع على فمى السم النقيع	وألذ من طعم الخضوع
ملكى وتسلمنى الجموع	إن تستلب عنى الدنا
لم تسلم القلب الضلوع	فالقلب بين ضلوعه
ع أيسلب الشرف الرفيع	لم أستلب شرف الطبعا
ألا تحصنى الدروع	قد رمت يوم نزالهم
ص عن الحشا شىء دفوع	وبرزت ليس سوى القميـ
ل إذا يسيل بها النجيع	وبذلت نفسى كى تسيـ
بهواى ذلى والخشوع	أجلى تأخر لم يكن
ل وكان من أمل الرجوع	ما سرت قط إلى القتا
والأصل تتبغى الفروع !	شيم الألى أنا منهمو

فشنت الغارة فى البلد ، ولم يترك البربر لأحد من أهلها سبداً ولا لبدأ ، وانتهبت قصور
المعتمد نهباً قبيحاً ، وأخذ هو قبضاً باليد وجبر على مخاطبة ابنه : المعتد بالله ، والراضى
بالله ، وكانا بمعقلين من معاقل الأندلس المشهورة ، لو شاء أن يمتنعا بهما لم يصل أحد
إليهما ، أحد الحصنين يسمى رندة ، والآخر مارثلة ، فكتب [إليهما] (١) رحمه الله ، وكتبت

(١) إضافة من المطبوع .

السيدة الكبرى أمهما ، مستعطفين مسترحمين ، مُعلمين أن دم الكل منهم مُسترهن بثبوتها ،
فأنفا من الذل ، وأبيا وضع أيديهما في يد أحد من الناس بعد أبيهما ، ثم عطفتها عواطف
الرحمة ، ونظرا في حقوق أبويهما المقترنة بحق الله عز وجل ، فتمسك كل منهما بدينه ونبت
دنياه ، ونزلا عن الحصنين بعد عهود مبرمة ، ومواثيق محكمة ، فأما المعتد بالله فإن القائد
الواصل إليه قبض عند نزوله على كل ما كان يملكه ، وأما الراضى بالله فعند خروجه من
قصره قُتل غيلة وأُخفى جسده .

ورُحل بالمعتمد وآله ، بعد استئصال جميع أحواله ، ولم يصحب من ذلك كله بُلغة
زاد ، فركب السفين ، وحل بالعدوة محل الدفين ، فكان نزوله من العدو بطنجة ، فأقام بها
أيامًا ، ولقيه بها الحصرى الشاعر ، فجرى معه على سوء عاداته من قُبْح الكُدية وإفراط
الإلحاف ، فرفع إليه أشعاراً قديمة قد كان مدحه بها ، وأضاف إلى ذلك قصيدة استجدها
عند وصوله إليه .

ولم يكن عند المعتمد في ذلك اليوم مما زود به فيما بلغنى أكثر من ستة وثلاثين مثقالا ،
فطبع عليها وكتب معها بقطعة شعر يعتذر من قتلها - سقطت من حفظي - ووجه بها إليه ،
فلم يجاوبه عن القطعة ، على سهولة الشعر على خاطره وخفته عليه . كان هذا الرجل -
أعنى الحصرى الأعمى - أسرع الناس في الشعر خاطراً ، إلا أنه كان قليل الجيد منه ، فحركة
المعتمد على الله على الجواب بقطعة أولها :

قُلْ لِمَنْ قـــــــد جمع العلم	وما أحصى صوابه
كان في الصرة شعر	فتنظّرنا جوابه
قد أثبتاك فهلاً	جلب الشعر ثوابه ؟

ولما اتصل بزعانفة الشعراء ومُلاحفي أهل الكدية ما صنع المعتمد رحمه الله مع
الحصرى ، تعرضوا له بكل طريق ، وقصدوه من كل فج عميق ، فقال في ذلك رحمه الله :

ذهبوا من الإغراب أبعد مذهب
بسؤالهم لأحق فاعجب واعجب
طى الحشا ساواهم فى المطلب
نادى الصريخ ببابه اركب يركب

شعراء طنجة كلهم والمغرب
سألوا العسير من الأسير وإنه
لولا الحياء وعزة لخميه
قد كان إن سئل الندى تجزل وإن

وله فى هذا المعنى رحمه الله :

كلما أعطى نفيساً نزعاً
أن ينادى كل من يهوى لَعاً !
أخجلته كفه فأنقطعاً
عصفت ريح به فانتشعاً
نطق العافون همساً سمعاً
قد أزال اليأس ذاك الطمعاً
جبر الله العُفَاة الضيُّعاً

قُبِح الدهرُ فماذا صنعاً
قد هوى ظلماً بمن عادته
من إذا الغيث همى منهمراً
من غمام الجود من راحته
من إذا قيل الخنْصم وإن
قل لمن يطمع فى نائله
راح لا يملك إلا دعوة :

وأقام المعتمد بطنجة- رحمه الله - أياماً على الحال التى تقدم ذكرها ، ثم انتقل إلى مدينة
مكناسة (١) ، فأقام بها أشهراً ، إلى أن نفذ الأمر بتسييرهم إلى مدينة أغمات ، فأقاموا بها إلى أن
توفى المعتمد ، رحمه الله ، ودفن بها فقبره معروف هناك (٢) وكانت وفاته فى شهر سنة ٨٧

(١) مدينة عظيمة بالمغرب الأقصى ، تقع إلى الغرب من فارس ، وبينهما نحو ٣٥ ميلاً :
(٢) أغمات : مدينة وراء مراكش ، بينها مسافة يوم ، ولم يزل قبر المعتمد معروفاً بها حتى القرن
الحادى عشر الهجرى ، وقد زاره المقرئ صاحب نفح الطيب سنة ١٠١٠ من الهجرة ، قال : فرأيت فى
ربوة حسبا وصفه ابن الخطيب ، يعنى لسان الدين ، وقد كان زاره قبل ذلك بقرنين وثلاث قرن ، =

وقيل سنة ٨٨ فالله أعلم . . . وسنه يوم توفي إحدى وخمسون سنة (١) .

فمن أحسن مامر بي مما رثي به المعتمد على الله مقطوعة من شعر ابن اللبانة (٢) وأولها :

لـك شـيء مـن الأـشـيـاء مـيـقات	وللمنى من منايها غايات
والدهر في صبغة الحرباء منغمس	ألوان حالاته فيها استحيالات
ونحن من لعب الشطرنج في يده	وربما قُمرت بالبيدق الشاة
فانقض يدك من الدنيا وساكنها	فالأرض قد أقفرت والناس قد ماتوا

(=) ووصفه فقال : وهو بمقبرة أغمات ، في نشز من الأرض ، وقد حفت به سدره ، وإلى جنبه قبر اعتماد حظيته مولاة رميك ، وعليها هيئة التغرب ، ومعاناة الخمول من بعد الملك ، فلا تملك العين دمعها عند رؤيتهما .

قال ابن الطيب فأنشدت في الحال :

قـد زرت قـبرك عـن طـوع بـأغـمات	رأيت ذلـك مـن أولي المـهـمات
لـم لا أزورك يـا أنـدى المـلـوك يـداً	ويـا سـراج الـليـلى الـمدلـهـمات
وأنت مـن لـو تـخـطى الدـهـر مـصرعـه	إلى حـياتي لـجـادت فـيـه أـبـياتي

إلخ

(١) كذا يروى المراكشي ، وأهل التاريخ مختلفون في تحديد سنة وفاته ، بين الحادية والخمسين والخامسة والخمسين . وقد ذكر المؤلف (ص ١٠٢) أن المعتمد تولى العرش وعمره ٣٧ سنة ، وأنه بقى على العرش عشرين سنة ، وكانت وفاته بعد خلعه بأربع سنوات ، فعلى هذا يبلغ عمره عند وفاته إحدى وستين سنة !

(٢) هو أبو بكر الداني محمد بن عيسى بن محمد اللخمي ، من مشاهير شعراء الأندلس في المائة الخامسة ، وكان منقطعاً إلى بني عباد ، وفيهم أجود مدائحه ومراثيه ، ولهم أبدع ما نظم من شعر في مختلف الفنون ، وقد ألف كتابين في أخبار بني عباد ، أحدهما « السلوك في وعظ الملوك » وقد ضمنه عدة مقطوعات وقصائد في البكاء على أيامهم وما انتثر من نظامهم ، والآخر « الاعتماد في أخبار بني عباد » فصل فيه تاريخهم منذ كانوا حتى مضوا . . . وله غير هذين كتاب « سقيط الدرر ولقيط الزهر » . توفي بميورقة سنة ٥٠٧ .

وقال عنه ابن الأبار في التكملة : « وابن اللبانة هذا هو الذي قال أحسن قصائده في المعتمد ابن عباد صاحب إشيلية ، وكتب عن آل عباد من النثر ما حفظه الناس حفظ النثر لنفاسته .

وَقُلْ لِعَالَمِهَا الْأَرْضَى قَدْ كَتَمَتْ
طُوتَ مَظْلَتَهَا ، لَا بَلْ مَظْلَتَهَا
مَنْ كَانَ بَيْنَ النَّدَى وَالْبَاسِ ، أَنْصَلَهُ
أَنْكَرَتْ إِلَّا التَّوَاءَ لِلْقِيُودِ بِهِ
وَقُلْتُ هُنَّ ذَوَابَاتٌ فَلَمْ عُكْسَتْ
رَأَوْهُ لَيْثًا فَخَافُوا مِنْهُ عَادِيَةً

سَرِيرَةُ الْعَالَمِ الْغُلُوبَى أَغْمَاتُ
مَنْ لَمْ تَزَلْ فَوْقَهُ لِلْعِزِّ رَايَاتُ
هَنْدِيَّةٌ وَعَطَايَاهُ هُنَيْدَاتُ
وَكَيْفَ تُنْكَرُ فِي الرُّوضَاتِ حَيَاتُ
مَنْ رَأْسُهُ نَحْوَ رَجْلِيهِ الذُّوَابَاتِ
عَذْرَتُهُمْ فَلِغُدْوَى اللَّيْلِ عَادَاتُ (١)

وله قصيدة يرثيهم بها ، وهي كثيرة الجيد أولها :

تَبْكِي السَّمَاءُ بِدَمْعٍ رَائِحٍ غَادِي
عَلَى الْجِبَالِ الَّتِي هُدَّتْ قَوَاعِدُهَا
وَالرَّابِيَاتِ عَلَيْهَا الْيَانِعَاتُ ذَوَاتُ
عَرِيْسَةٍ دَخَلَتْهَا النَّائِبَاتُ عَلَى
وَكَعْبَةٍ كَانَتْ الْأَمَالُ تَعْمُرُهَا
تِلْكَ الرِّمَاحُ رِمَاحُ الْخَطِّ ثَقَّفَهَا
وَالْبَيْضُ بَيْضُ الظُّبَا فُلْتُ مَضَارِبَهَا
لَمَّا دَنَا الْوَقْتُ لَمْ تَخْلَفْ لَهُ عِدَّةُ
كَمْ مِنْ دَرَارِي سَعْدٍ قَدْ هَوَتْ وَوَهَتْ

عَلَى الْبِهَالِيلِ مِنْ أَبْنَاءِ عِبَادِ
وَكَانَتْ الْأَرْضُ مِنْهُمْ ذَاتُ أَوْتَادِ
أَنْوَارُهَا فَغَدَتْ فِي خَفْضِ أَوْهَادِ
أَسَاوِدٍ لَهُمْ فِيهَا وَأَسَادِ
فَالْيَوْمُ لَا عَاكِفٌ فِيهَا وَلَا بَادِ
خَطْبُ الزَّمَانِ ثِقَافاً غَيْرَ مُعْتَادِ
أَيْدِي الرَّدَى وَثْنَتْهَا دُونَ إِغْمَادِ
وَكُلُّ شَيْءٍ لِمِيقَاتٍ وَمِيعَادِ
هُنَاكَ مِنْ دُرِّ الْمَجْدِ أَفْرَادِ

(١) وردت هذه الأبيات في كتاب : قلائد العقبان .

نُورٌ ونورٌ فهذا بعد نعمته
ياضيف أقفر بيتَ المكرماتِ فخذ
ويامؤمل واديهم ليسكنه
ضلتُ سبيلُ الندى بابنِ السبيلِ فسر

ذوى وذاك خبا من بعد إيقاد
فى ضم رحلك واجمع فضلة الزاد
خفَّ القطينُ وجفَّ الزرع بالوادي
لغير قصدي فما يهديك من هادي

وفيه يقول :

نسيْتُ إلا غداةَ النهرِ كـونهم
والناسُ قد ملأوا العبرين واعتبروا
حُط القنـاع فلم تُشتر مُخـدرة
تفرقوا جيرةً من بعد مانـشئوا
حان الوداعُ فضجت كل صارخة
سارت سفائنُهم والنوحُ يتبعُها
كم سال فى الماء من دمعٍ وكم حملت
من لى بكم يابنى ماءِ السماءِ إذا

فى المنشآتِ كامـواتٍ بالحاد
من لؤلؤ طافياتٍ فوق أزباد
وبُرِّقت أوجُهُ تمزيقٍ أبراد
أهـلاً بأهلٍ وأولاداً بأولادٍ
وصارخٍ من مُفـداةٍ ومن فـادى
كأنها إبلٌ يحدو بها الحادى
تلك القطائعُ من قطعـاتٍ أكباد
ماءُ السماءِ أبى سُقيا حشا الصادى

وهى طويلة جداً^(١) ، هذا ما اخترت له منها .

(١) قيل عنه : إن نسبه يرجع للنعمان بن المنذر ابن ماء السماء .

أبو بكر الدانى

وابن اللبانة هذا هو أبو بكر محمد بن عيسى (١) ، من أهل مدينة دانية ، وهى على ساحل البحر الرومى ، كان يملكها مجاهد العامرى وابنه على الموفق على ما تقدم .

ولابن اللبانة هذا أخ اسمه عبد العزيز ، وكانا شاعرين ، إلا أن عبد العزيز منهما لم يرخص الشعر صناعة ولا اتخذ مكسباً ، وإنما كان من جملة التجار ، وأما أبو بكر فرضيه بضاعةً وتخيره مكسباً وأكثر منه وقصد به الملوك فأخذ جوائزهم ونال أسنى الرتب عندهم ، وشعره نبيل المأخذ ، وهو فيه حسن المهيح ، جمع بين سهولة الألفاظ ورشاقته ، وجودة المعانى ولطافتها ، كان منقطعاً إلى المعتمد ، معدوداً فى جملة شعرائه ، لم يفد عليه إلا آخر مدته ، فلهذا قل شعره الذى يمدحه به .

وكان - رحمه الله - مع سهولة الشعر عليه وإكثاره منه ، قليل المعرفة بعلمه ، لم يجِد الخوض فى علومه ، وإنما كان يعتمد فى أكثره على جودة طبعه وقوة قريحته ، يدل على ذلك قوله فى قصيدة له سيرد ما أختاره منها فى موضعه :

من كان يُنفق من سواد كتابه فأنا الذى من نور قلبى أنفق

ولما خلع المعتمد على الله وأُخرج من إشبيلية ، لم يزل أبوبكر هذا يتقلب فى البلاد ، إلى أن لحق بجزيرة ميورقة (٢) ، وبها مبشر العامرى المتلقب بالناصر ، فحظى عنده وعلت حاله

(١) انظر : نفح الطيب ١٤٧ .

(٢) ميورقة ، ومنورقة ، ويابسة : هى أكبر جزائر الأندلس فى بحر الروم ، على ساحلها الشرقى ، مصابة لقطلونيا وبلنسية ، ويسمى الجغرافيون المحدثون : جزائر البليار .

وكان مقدم ابن اللبانة إلى ميورقة فى آخر شعبان سنة ٤٨٩ - بعد بضعة أشهر ، أو بضعة عشر شهراً من موت المعتمد ابن عباد بأغمت - وكان عليها مبشر بن سليمان العامرى ، من موالى المنصور ابن أبى عامر ، فمدحه ابن اللبانة بقصيدته التى مطلعها :

مَلِكٌ يَسْرُوعُكَ فى حلى ريعانِه راقت برونقه صفات زمانِه !

معه ، وله فيه قصائد أجاد فيها ماشاء ، فمنها قصيدة ركب فيها طريقة لم أسمع بها لم تقدم ولا متأخر ، وذلك أنه جعلها ، من أولها إلى آخرها ، صدر البيت غزل وعجزه مدح ، وهذا لم أسمع به لأحد ، وأول القصيدة :

وضحت وقد فضحت ضياء النير	فكأنما التحففت ببشر مبشر
وتبسمت عن جوهر فحسبته	ماقلدته محامدى من جوهر
وتكلمت فكان طيب حديثها	متعت منه بطيب مسك أذفر
هزت بنغمة لفظها نفسى كما	هزرت بذكره أعالي المنبر
أذنبت واستغفرت لها فجرت على	عاداته فى المذنب المستغفر
جادت على بوصلها فكانه	جدوى يديه على المقل المقتدر
ولثمت فاهها فاعتقدت باننى	من كفه سُوغت لثم الخنصر
سمحت بتعنيقى فقلت صنيعه	سمحت غلاه بها فلم تتعذر
نهد كقسوة قلبه فى معرك	وحشاً كلين طباعه فى محضر
ومعاطف تحت الذوائب خلثها	تحت الخوافى ماله من سمهرى
حسنت أمامى من خمار مثل ما	حسن الكمى أمامه فى مغفر
وتوشحت فكانه فى جوشن	قد قام عنبره مقام العثير
غمزت ببعض قسيه من حاجب	ورنت ببعض سهامه من محجر
أومت بمصقول اللحاظ فخلته	يُومى بمصقول الصفيحة مُشهر
وضعت حشاياها فوق أرائك	وضع السروج على الجياد الضمر
من رامية أو رومية ، لا علم لى	أنت عن النعمان أم عن قيصر

بنتُ الملوك فقل لكسرى فارس
عادتُ فيها غرقومي فاغتدوا
وكذلك الدنيا عهدنا أهلها
طاقت على بجمرة من خمرة
فكان أنملها سيوف مبشر
ملك أزره بمرده ضمت على

تُعزى وإلا قل لتبع حمير
لأرضهم أرضى ولا هم معشرى
يتعافرون على الثريد الأعفر
فرايت مريخاً براحة مشترى
وقد اكتست علق النجيع الأحمر
بأس الوصى وعزيمة الإسكندر

هذا ما اخترت له منه .

ومن نسيبه المليح الخفيف الروح قوله يتغزل ويمدح مبشراً هذا :

هلاً ثنـاك على قلبٍ مُشفق
قد صرتُ كالرمقِ الذى لا يُرتجى
وغرقتُ فى دمعى عليك وغمنى
هل خدعةً بتحيةٍ مخفية
أنت المنيّة والمُنَى ، فيك استوى
لك قد ذابلية الوشيح ولونها
ويقال إنك أيكّة حتى إذا
يا من رشقتُ إلى السلو فردنى
لو فى يدي سحرٌ وعندي أخذة
لتذوق ما قد ذقتُ من ألم الجوى

فترى فراشاً فى فراشٍ يُحرقُ
ورجعتُ كالنفسِ الذى لا يلحقُ
طرفى فهل سببٌ به أتعلق
فى جنب موعده الذى لا يصدقُ
ظل الغمامة والهجير المحرق
لكن سنـانك أكحلّ لا أزرق
غنيت قيل هو الحمام الأورق
سبقت جفونك كل سهم يُرشقُ
لجعلت قلبك بعض حينٍ يعشقُ
وترقى لى مما تراه وتُشفق

جسدى من الأعداء فيك لأنه
لم يدر طيفك موضعي من مضجعي
جفت عليك منابتي ومنابعي
وكان أعلام الأمير مبشر

لا يستبين لطرف طيف يرمق
فعدتْه في أنه لا يطرُق
فالدمع ينشغ والصبابة توزق
نشرت على قلبي فأصبح يخفق

وفيهما يقول ، يصف لعب الأسطول في يوم المهرجان :

بُشرى بيوم المهرجان فإنه
طارت بنات الماء فيه وريشها
وعلى الخليج كتيبة جرارة
وبنو الحروب على الجوارى التي
ملا الكماة ظهورها وبطونها
خاضت غدير الماء سباحة به
عجبالها ! ماخلت قبل عيائها
هزرت مجاديفاً إليك كأنها
وكانها أعلام كاتب دولة

يوم عليه من احتفائك رونق
ريش الغراب وغير ذلك شوذق
مثل الخليج كلاهما يتدفق
تجري كما تجري الجياد السبق
فأتت كما يأتي السحاب المغدق
فكانما هي في سراي أينق
أن يحمل الأسد الضواري زورق
أهداب عين للرقيب تُحدق
في عرض قرطاس تخط وتمشق

وله فيها إحسان كثير ، وله من قصيدة يتغزل :

فؤادى معنى بالحسان مُعنت
ولى نفس يخفى ويخفت رقاة

وكل موقى في التصابي مُوقت
ولكن جسمى منه أخفى وأخفت

غرامى به حى وصبرى ميت
فياحرّ ما يصلى به حين يُصلت
وأسكن بالشكوى له وهو يسكت
لريحان ريعان الشبيبة منبت

وبى ميت الأعضاء حى دلالة
جعلت فؤادى جفن صارم جفنه
أذل له فى هجره وهو ينتمى
وما انبت حبل منه إذ كان فى يدى

ومن جيد ما له من قصيدة يمدح بها مبشراً ناصر الدولة أولها :

فانظر نضارة أرضه وسمائه
يحكى مُشعشعها مُصعد مائه
خد الحبيب عليه صبغ حيائه
لا يستحيل عليك عهد وفائه
والطير ليس غناؤها كغنائها
حركات معطفه وحسن روائه
رياء من تلقائه بلقائه
من فرط خفته وفرط خفائه

راق الربيع ورق طبع هوائه
واجعل قرين الورد فيه سلافه
لولا ذبول الورد قلت بأنه
هيهات أين الورد من خد الذى
الورد ليس صفاته كصفاته
يتنفس الإصباح والريحان من
ويجول فى الأرواح روح ماسرت
صرف الهوى جسمى شبيه خياله

ومن أحسن ما على خاطرى له بيتان يصف بها خالاً ، وهما :

فزادنى شغفاً فيه إلى شغف
طارت فقال لها : فى الخد منه قفى !

بدا على خده خال يُزينه
كأن حبة قلبى عند رؤيته

ولابن اللبانة هذا إحسان كثير ، منعنى من استقصائه خوف الإطالة ، وأيضاً فلأن هذا الكتاب ليس موضوعاً لهذا الباب ، وإنما يأتى منه فيه ما تدعو إليه ضرورة سياق الحديث .

رجع الحديث إلى أخبار المعتمد

ثم رجع بنا القول إلى أخبار المعتمد على الله .

وبلغنى أن رجلاً رأى فى منامه قبل الكائنة العظمى على بنى عباد بأشهر يسيرة وهو بمدينة قرطبة ، كأن رجلاً أتى حتى صعد المنبر واستقبل الناس بوجهه ينشداهم رافعاً صوته :

ربّ ركبٍ قد أناخوا عيسهم فى ذرى مجدهم حين بسق
سكت الدهرُ زماناً عنهم ثم أبكاهم دماً حين نطق !

فما كان إلا أشهر يسيرة حتى وقع بهم وأبكاهم الدهر كما قال .

وبلغ من حال المعتمد على الله بأغماط ، أن أثر حظياته وأكرم بناته أُلحِثت إلى أن تستدعى غزلاً من الناس تسد بأجرته بعض حالها ، وتصلح به ما ظهر من اختلالها ، فأدخل عليها فيما أدخل غزلاً لبنت عريف شرطة أبيها ، كان بين يديه يزغ الناس يوم بروزه ، لم يكن يراه إلا ذلك اليوم ، واتفق أن السيدة الكبرى أم بنيه ^(١) ، وكان الوزير أبو العلاء زهر ابن عبد الملك بن زهر بمراكش ، قد استدعاه أمير المسلمين لعلاج ^(٢) ، فكتب إليه المعتمد

(١) هي السيدة اعتماد الرميكية ، مولاة رميك .

(٢) هو جد أبى بكر بن زهر السابق ذكره ، وذكر أبيه ، وقد كان أبو العلاء هذا - كما يقول ابن دحية فى كتابه المطرب من أشعار أهل المغرب - وزير ذلك الدهر وعظيمه ، وفيلسوف ذلك العصر وحكيمه . وقد توفى بقرطبة سنة ٥٢٥ .

راغباً في علاج السيدة ومطالعة أحوالها بنفسه ، فكتب إليه الوزير مؤدياً حقه ومجيباً له عن رسالته ومُسعفاً له في طلبه ، واتفق أن دعا له في أثناء الرسالة بطول البقاء ، فقال المعتمد في ذلك :

دعالي بالبقاء وكيف يهوى	أسير أن يطول به البقاء
أليس الموت أروح من حياة	يطول على الشقي بها الشقاء
فمن يك من هـواه لقاء حب	فإن هـواي من حتفي اللقاء
أرغب أن أعيش أرى بناتي	عوارى قد أضر بها الحفاء
خوادم بنت من قد كان أعلى	مراتبه إذا أبدو النداء
وطرد الناس بين يدي ممرى	وكفهم—و إذا غص الفناء
وركض عن يمين أو شمال	لنظم الجيش إن رفع اللواء
يُعينه إمام أو رواء	إذا اختل الأمام أو الـوراء
ولكن الدعاء إذا دعاه	ضمير خالص نفع الدعاء
جُزيت أبا العلاء جزاء بر	نوى برا وصاحبك العلاء
سُئِلَ النفس عما فـات علمي	بأن الكل يُدركه الفناء

وورد عليه أغمات أبو بكر ابن اللبانة المتقدم الذكر ، ملتزماً عهد الوفاء قاضياً ما يجب عليه من شكر النعمى ، فسُر المعتمد بوروده ، فلما أزمع ابن اللبانة على السفر ، استنفذ المعتمد وسعه ووجه إليه بعشرين مثقالاً وثوبين وكتب إليه معها :

إليك النـزر من كف الأسير	فإن تقبل تكن عين الشكـور
تقبل ما يذوب له حياء	وإن عذرتـه حالات الفقير !

ولا تعجب لخطبِ غَضٍ مِنْـه
ورج لجبره عُقبى نــــداه
وكم أعلت عُـلاه من حضيض
وكم من مَنبرٍ حنت إليــــه
زَمان تـزاحفت عن جانبيه
فقد نظرت إليه عيونُ نحسٍ
نحسوسٍ كن في عُقبى شعـودٍ
وكم أحظى رضاه من حظي
زَمان تنافست في الحظ منه
بحيث يطير بالأبطالِ دُعرٌ

أليس الخسف مُلتزم البـدور ؟
فكم جبرت يــــداه من كسير
وكم حطت ظُـبـاه من أمير
أعـالى مُـرتقاه ومن سريـر
جـيـاد الخيل بـالموت المـبـير
مضت منـه بمعـدوم النظير
كـذاك تدور أقدار القـدير
وكم شهـرت عُـلاه من شهر
مُـلوك قد تجـور على الـدهـور !
ويلفى ثم أرجح من ثـير

فامتنع ابن اللبابة من قبول ذلك عليه ، وصرفه بجملة إليه ، وكتب مجيباً له عن
شعره :

سقطت من الوفاء على خير
تركْتُ هـواكَ وهـو شقيق ديني
ولا كنت الطليق من الرزايا
أسيرٌ ولا أصيرُ إلى اغتنـامٍ
إذا ما الشكرُ كان وإن تنـاهى

فـذرني والـذى لك في ضميري
لئن شُقت بُـرودى عن غـدور
لئن أصبحت أجحف بـالأسير
معـاذ الله من سوء المصير
على نـعمى فما فضل الشـكـور ؟

جذيمة أنت والأيام خانت
أنا أدري بفضلك منك إنى
غنى النفس أنت وإن ألحت
تصرف فى الندى حيل المعالى
أحدث منك عن نبع غريب
وأعجب منك أنك فى ظلام
رويدك سوف توسعنى سروراً
وسوف تحلنى رتب المعالى
تزيد على ابن مروان عطاء
تأهب أن تعود إلى طلوع

وما أنا من يقصر عن قصير (١)
لبست الظل منه فى الحرور
على كفيك حـالات الفقير
فتسبح من قليل بالكثير
تفتح عن جنى زهر نصير
وترفع للغداة منار نور
إذا عاد ارتقاؤك للسريـر
غداة تحل فى تلك القصور
بها وأنيق ثم على جرير (٢)
فليس الخسف ملتزم البـدور

فراجع المعتمد بهذه الأبيات :

رد بـرى بغياً على وبراء
وجفا فاستحق لوماً وشكراً !

(١) جذيمة : هو جذيمة بن الأبرش ملك العراق ، وهو لخمى موصول النسب بالمعتمد ، وقصير : هو قصير بن سعد اللخمى الذى يضرب به المثل فيقال : « لأمر ما جدع قصير أنفه ! » .
ولجذيمة وقصير قصة مفصلة فى كتب الأمثال ، خلاصتها أن الزباء ملكة الجزيرة قتلت جذيمة هذا ثأراً لأبيها ، فجدع قصير أنفه وذهب إليها فى دار ملكها يوهمها أن قومه جدعوا أنفه لأن إليها ولاءه ، فصدقته الزباء ومنحته ثقتها ، فاحتال عليها حتى أمكن قومه منها فقتلوها ثأراً لجذيمة ، فكان عمله هذا مثلاً من أمثلة الوفاء للمليكة المنكوب ، وإلى هذه الصورة من صور الوفاء يشير ابن اللبانة فى هذا البيت ، وابن اللبانة ينتسب إلى لخم كذلك !
(٢) يعنى عبد الملك بن مروان ، وجريراً الشاعر .

حاط نزرى إذ خاف تأكيد ضرى
فإذا ما طويت في البعض حمداً
يا أبا بكر الغريب وفاء
أى نفع يجدى احتياط شفيق

فأجابه ابن اللبانة رحمه الله :

أيها الماجد السميع غذراً
حاش لله أن أجيح كريماً
لا أزيد الجفاء فيه شقوقاً
ليت لي قوة أو آوى لركن
أنت علمتني السيادة حتى
ربحت صفقة أزيل بروداً
وكفاني كلامك الرطب نيلاً
لم تمت إنما المكارم ماتت

فاستحق الجفاء إذ حاط نزراً
عاد لومي في البعض سرا وجهراً
لا عذمتك في المغارب ذخراً
مُت ضرا فكيف أرهبُ ضراً ؟

صرفي البر إنما كان بـ
يتشكى فقراً وكم سد فقراً
غدر الدهر بي لئن رمت غدراً
فترى للوفاء منى سرا
ناهضت همتي الكواكب قدراً
عن أديمي بها وألبس فخراً
كيف ألقى دُرّاً وأطلب تبراً !
لا سقى الله بعبدك الأرض قطراً

ومما قاله المعتمد من الشعر عند موته وأمر أن يكتب على قبره :

قبر الغريب سقاك الرائح الغادى
بالحلم بالعلم بالنعمى إذا اتصلت
بالطاعن الضارب الرامى إذا اقتتلوا

حقاً ظفرت بأشلاء ابن عباد
بالخصب إن أجذبوا بالرى للصادى
بالموت أحمر بالضرغامه العادى

بالبدر في ظلم بالصدر في النادى
من السماء فوافانى لميعاد
أن الجبال تهادى فوق أعواد
رواك كل قطوب البرق رعّاد
تحت الصفيح بدمع رائج غادى
من أعين الزهر لم تبخل بإسعاد
على دفينك لا تُحصى بتعداد !

بالدهر في نغم بالبحر في نغم
نعم هو الحق حابانى به قدر
ولم أكن قبل ذاك النعش أعلمه
كفاك فارفق بما استودعت من كرم
يبكى أخاه الذى غيبت وابله
حتى يجودك دمع الطل منهمرا
ولا تزل صلوات الله دائمة

وكان للمعتمد على الله هذا ولد يلقب بفخر الدولة ، رشحه للملك من بعده ، وجعله
ولى عهده ، ولقبه بالمؤيد بنصر الله ، فعاقته الفتنة عن مراده ، وحالت الأقدار بينه وبين
إصداره وإيراده ، فما برح بفخر الدولة هذا تغير الأيام بعد الفتنة إلى أن أسلم نفسه فى
السوق ، وتعلم من الصنائع صناعة الصواغ ، فمر به محمد بن اللبانة المتقدم الذكر شاعر
أبيه ، فقال فى ذلك :

خطب وجدناك فيه يُشبه العدم
وعقد عُروتنا الوثقى قد انفصما
والرزء يعظم فيمن قدره عظما
ضاقت عليك ، وكم طوقتنا نعما !
من بعد ما كنت فى قصر حكى إرما
لم تدبر إلا الندى والسيف والقلم
فتستقل الثريا أن تكون فما

أذكى القلوب أسى أبكى العيون دما
أفراد عقد المنى منا قد انتثرت
شكائنا فيك يا فخر الهدى عظمت
طوقت من نائبات الدهر مخنقة
وعاد كونك فى دكان قارعة
صرفت فى آلة الصواغ أنملة
يدّ عهدك للتقبيل تبسطها

يا صائغاً كانت العليا تُصاغ له
للنفخ في الصور هولٌ ما حكاه سوى
وددت إذ نظرت عيني إليك به
ما حطك الدهر لما حُطَّ من شرفٍ
لُج في العلا كوكباً إن لم تُلح قمراً
واصبر قريباً أحمدت عاقبةً
والله لو أنصفتك الشهب لا نكسفت
يحكى حديثك حتى الدر حين غدا
وروضة الحُسن من أزهارها عريت
بعد النعيم ذوى الريحان حين رأى
لم يرحم الدهر فضلاً أنت حامله
شقيقك الصبح إن أضحى بشارقة

حلياً وكان عليه الحل مُنتظماً
هولٍ رأيناك فيه تنفخ الفحما
لو أن عيني تشكو قبل ذاك عمى
ولا تحيف من أخلاقك الكرمما
وقم بها ربوة إن لم تقم علما
من يلزم الصبر يحمد غب ما لزما
ولو وفي لك دمع المزن لانسجما
يحكيك رهطاً وألفاظاً ومبتسما
حُزنناً عليك لأن أشبهتها شيما
ريحانك الغض يذوى بعد ما نعما
من ليس يرحم ذاك الفضل لا رحما
وأنت في ظلمة فالصبح قد ظلما

فصل

رجع الحديث عن دولة المرابطين بالأندلس

وإنما أوردنا هذه النبذة اليسيرة من أخبار المعتمد على الله ، مع ما تعلق بها ، وإن كانت مُخرجة عن الغرض ، لندل بها على ما قدمنا من ذكر فضله وغزارة أدبه وإيثاره لذلك ، وأيضا فليتصل نسق الأخبار عن المملكة ، أعني مملكة الأندلس إلى المرابطين أصحاب يوسف بن تاشفين ، ولوجه ثالث : وهو أن ما آلت إليه حال المعتمد هذا من الخمول بعد النباهة ، والضعفة بعد الرفعة ، والقبض بعد البسط ، من جملة العبر التي أرتناها الأيام ، والمواعظ التي تصغر الدنيا في عيون أولى الأفهام .

ثم إن يوسف بن تاشفين استوثق له أمر الأندلس بعد القبض على المعتمد ، إذ كان هو كبش كتيبته ، وعين أعيانها ، وواسطة نظمها ، فلم يزل أصحاب يوسف بن تاشفين يطوون تلك الممالك مملكة مملكة إلى أن دانت لهم الجزيرة بأجمعها ، فأظهروا في أول إمرتهم من النكاية في العدو ، والدفاع عن المسلمين ، وحماية الثغور ، ما صدق بهم الظنون ، وأثلج الصدور ، وأقر العيون ، فزاد حب أهل الأندلس لهم ، واشتد خوف ملوك الروم منهم ، ويوسف بن تاشفين في ذلك كله يمد لهم كل ساعة بالجيوش بعد الجيوش ، والخيال إثر الخيل ، ويقول في كل مجلس من مجالسه : « إنما كان غرضنا في ملك هذه الجزيرة أن نستنقذها من أيدي الروم ، لما رأينا استيلاءهم على أكثرها ، وغفلة ملوكهم وإهمالهم للغزو وتواكلهم وتخاذلهم وإيثارهم الراحة ، وإنما همة أحدهم كأس يشربها ، وقينة تُسمعه ، وهو يقطع به أيامه ، ولئن عشت لأعيدن جميع البلاد التي ملكها الروم في طول هذه الفتنة إلى المسلمين ، ولأملأنها عليهم - يعني الروم - خيلاً ورجالا لا عهد لهم بالدعة ، ولا علم عندهم برخاء العيش ، إنما هم أحدهم فرس يروضه ويستفريه ، أو سلاح يستجيده ،

أو صريخ يلبى دعوته » في أمثال لهذا القول ، فبلغ ذلك ملوك النصارى ، فيزداد فرقهم ، ويقوى - مما بأيدي المسلمين ، بل مما بأيديهم - بأسهم .

وحين ملك يوسف أمير المسلمين جزيرة الأندلس وأطاعته بأسرها ولم يختلف عليه شيء منها ، عُذَّ من يومئذ في جملة الملوك ، واستحق اسم السلطنة ، وتسمى هو وأصحابه بالمرابطين ، وصار هو وابنه معدودين في أكابر الملوك ، لأن جزيرة الأندلس هي حاضرة المغرب الأقصى ، وأم قراه ، ومعدن الفضائل منه ، فعامة الفضلاء من أهل كل شأن منسوبون إليها ، ومعدودون منها ، فهي مطلع شمس العلوم وأقمارها ، ومركز الفضائل وقطب مدارها ، أعدل الأقاليم هواء ، وأصفها جوا ، وأعذبها ماء ، وأعطرها نباتا ، وأنداها ظلالا ، وأطيبها بكرة مستعذبة وآصالا .

أرض يطير قوادي من قرارته شوقاً لها ولمن فيها من الناس
قوم جنيت جنى ورد بذكرهم فهل بلقياسهم أجنى جنى أس ؟

فانقطع إلى أمير المسلمين من الجزيرة من أهل كل علم فحولته ، حتى أشبهت حضرته حضرة بنى العباس في صدر دولتهم .

أعيان الكتاب في دولة المرابطين

واجتمع له ولابنه من أعيان الكتاب وفرسان البلاغة ما لم يتفق اجتماعه في عصر من الأعصار ، فممن كتب لأمر المسلمين يوسف : كاتب المعتمد على الله أبو بكر المعروف بابن القصيرة ، أحد رجال الفصاحة ، والحائز قصب السبق في البلاغة ، كان على طريقة قدماء الكتاب ، من إثارة جزل الألفاظ وصحيح المعاني من غير التفات إلى الأسجاع التي

أحدثها متأخرو الكتاب ، اللهم إلا ما جاء في رسائله من ذلك عفواً من غير استدعاء ،
رأيت له عن المعتمد رسائل تدل على ما وصفته به ، ليس على خاطري منها شيء .

[وزارة ابن عبدون]

ثم كتب له أو لابنه ، بعد أبي بكر هذا - الوزير الأجل أبو محمد عبد المجيد بن
عبدون ، قد تقدم من نعتة ما أغنانا عن تكراره هنا ، وكان يكتب قبل من كتب له منها ،
للأمير سير ابن أبي بكر بن تاشفين ، وهو الذى دخل على المعتمد على الله إشبيلية ، فلم
يزل يكتب له إلى أن اتصل بأمير المسلمين ، باستدعاء منه له .

فمن رسائله عنه إلى أمير المسلمين ، رسالة يخبر فيها بفتح مدينة شنترين^(١) أعادها
الله ، وكان سير هذا هو الذى تولى فتحها ، فكتب عنه أبو محمد كتاباً « أدام الله أمر أمير
المسلمين ، وناصر الدين ، أبى الحسن على بن يوسف بن تاشفين ، خافقاً بنصرة الدين
أعلامه ، نافذة فى السبعة الأقاليم أقلامه ، من داخل مدينة شنترين ، وقد فتحها الله تعالى
بحسن سيرتك ، ويؤمن نقيبتك على المسلمين » .

« والحمد لله رب العالمين ، حمداً يستغرق الألفاظ الشارحة معناه ، ويسبق الألفاظ
الطامحة أدناه ، لا يرد وجهه نكوص ، ولا يجد كنهه تخصيص ، ولا يحزره بقبض ولا ببسط
مثال ولا تخمين ، ولا تحصره بخط ولا بعقد شمال ولا يمين ، ولا يسعه أمد يحويه ، ولا
يقطعه أبد يستوفيه ، ولا يجمعه عدد يحصيه ، إذا سبقت هواديه ، ولحقت تواليه » .

« وعلى محمد عبده وأمين وحيه ، الصادع بأمره ونهيه ، نظام الأمة ، وإمام الأئمة ، سر
آدم من بنييه ، وفخر العالم ومن فيه - صلاة تامة نقضيها ، وتحية عامة نؤديها ، ترفض
ارفضاض الزهر من كمامه ، وتنفض انفضاض المسك من ختامه ، فلقد صدع بتوحيده ،

(١) تقع هذه المدينة فى الشمال الشرقى من مدينة أشبونة .

وجمع على وعده ووعيده ، وأوضح الحق وجلاله ، ونصح الخلق وهداه ، إلا من حقت عليه كلمة العذاب ، وسبقت له الشقوة في أم الكتاب .

« وأظهر العزيز عزت أسماؤه ، وجلت كبرياؤه - دينه على جميع الأديان ، وعلى رغم من الصليبان ، ووقم من الأوثان ، وأنجز لنا تعالى وعده ، ونصرنا معه صلى الله عليه وسلم وبعده ، وجمع في هذه الجزيرة شمل الإسلام بعد انصرامه وانباته ، وقطع غيل الإشراف بعد انتصابه وثباته ، وأنزل الذين كفروا من أهل الكتاب بأيدينا من صياصيتهم ، نأخذ بأقدامهم ونواصيتهم » .

« وكانت قلعة شنترين - أدام الله أمر أمير المسلمين - من أحصن المعاقل للمشركين ، وأثبت المعاقل على المسلمين ، فلم نزل بسعيك الذي اقتفيناه ، وهديك الذي اكتفيناه ، نخضد شوكتها ، وننحت أثلتها ، ونتناول عللاً بعد نهل ، ونطاوها عجللاً في مهل ، نخرف الحين بعد الحين سراة رجالها ، ونطرف المرة بعد المرة حمة أبطالها ، ونخوض غمار كفاحهم ، وبحار صفاحهم ، إلى بسط أشباحهم ، وقبض أرواحهم ، ونهدى للقنا وصدورها رءوسهم ، وإلى لظى وسعيرها نفوسهم ، وننقلهم من الشفار اليمانية ، إلى النار الحامية ، ونرفع بالجد والتشمير حجاب كيدهم الغامض ، ونضعضع باستخارة القديم القدير هضاب أيديهم الهائض ، ولما رأينا هذه القلعة الشريفة المناسب في القلاع ، المنيفة المناصب على البقاع ، قد استشرى داؤها ، وأعيا دواؤها ، استخرنا الله تعالى على صمدها ، وضرعنا إليه في تسهيل قصدها ، وسألناه ألا يكلنا إلى نفوسنا ، وإن كانت في صيانة ديانتها مبدولة ، وعلى المكروه والمحجوب في ذاته محمولة ، فقصدنا إليها ، وهجمنا هجوم الردى عليها ، في وقت انسدت فيه أبواب السبل ، وأعيت أهلها بحول الله وجوه الحيل ، والدهر قد كثر عن أنيابه الغُصْل ، وقام من الوحول والسيول على أثبت رجل ، فنزلنا بساحة القوم ، فساء صباحهم ذلك اليوم ، فلم نزل نصولهم مصاولة المحتسب المؤتجر ، ونطاوهم مطاوله المرتقب لأمر الله المنتظر ، ونشن الغارات ، على جميع الجهات ، فترد جيوشنا عليهم خفافاً وتصدر إلينا ثقلاً ، فتملاً صدور الأعداء أوجالاً ، وأيدي الأولياء أموالاً ، وأمرنا بإقامة

سوق سبيهم وأموالهم ، على مرأى ومسمع من نساءهم ورجالهم ، فازدادت ريحهم بذلك ركوداً ، وناهم خموداً .

« ولما ضمهم لضيق ولاجه الحصار ، وغشيتهم بتفريق أمواجه البوار ، وأحاط بهم البلاء واستشاط عليهم بغضب الجبار القضاء ، ولم يكن لليل بأسائهم سحر يُأمل ، ولا لوزد ضرائهم صدر يؤمل ، اختاروا الدنية على المنية ، ورضوا بالاستسلام للعبودية ، وإسلام الأهل والذرية ، والسلامة من مدارج الكفن ، ومعالج الجن ، ولو بجريعة الذقن ، وكان القتل - كما قدمنا - قد أتى على صيد أعيانهم ، وصناديد فرسانهم ، فلم تبق إلا شزيمة قليلة ، وعُصبة ذليلة ، لا تضر حياتهم موحداً ، ولا تسر نجاتهم مُلحداً ، نقلناهم من يمين المنون ، إلى شمال الهون ، ومن أليم الحصار ، إلى لئيم الإِسار ، وكانوا سألونا الإبقاء عليهم فأجبناهم ، بعد أن قدموا من الخضوع صدقة بين يدي نجواهم ، ووهبنا أولاهم لأخراهم ، وجعلنا العفو عنهم تطريقاً لسواهم ، ممن يتقيل صنيعهم إذا نحن غداً بإذن الله حاصرناهم .

« وهذه القلعة التي انتهينا إلى قرارها ، واستولينا على أقطارها ، أرحب المدن أمداً للعيون ، وأخصبها بلداً في السنين ، لا يريمها الخصب ولا يتخطاها ، ولا يرؤمها الجذب ولا يتعاطاها ، فروعها فوق الثريا شاخحة ، عروقتها تحت الثرى راسخة ، تُباهى بأزهارها نجوم السماء ، وتُناجى بأسرارها أذن الجوزاء ، مواقع القطار في سواها مُغبرة مُربدة ، وهي زاهرة ترف أندائها ، ومطالع الأنوار في حشاها مقشعة مسودة ، وهي ناضرة تشف أضواؤها ، وكانت في الزمن الغابر ، أعيت على عظيم القياصر ، فنازلها بأكثر من القطر عدداً ، وحاولها بأوفر من البحر مدداً ، فأبت على طاعته كل الإبا ، واستعصت على استطاعته أشد الاستعصا ، ومردت مرود ماردٍ على الزبا ، فأمكننا الله - تعالى - من ذروتها ، وأنزل رُكائبها لنا عن صهوتها » .

ومن رسائله الإخوانيات رسالة كتب بها إلى أبي عبد الله محمد ابن أبي الخصال يخطب مودته ، ويستدعى من إخوانه جدته :

« أنا مع عمادى الأعظم - أدام الله علوه - كعزيب طواه الجهد ، وآواه من تهامة وهد ،
وماله بريحتها العقيم ولا بحرهما المقعد المقيم عهد ، فرفضت به من سراها المغرق وشرابها
المحرق فى حمام ، فأشرف من ذلك الجحيم وضرمه ، لولا تنفيس الرحيم عنه بكرمه ، فوأل
إلى ربوة من ربابها ، وسأل جبال فاران عن مهب صباها ، ليلتقط من أنفاسها بواسطة
نجد ، برداً يهديه إلى حرّ الوجد ، فحيته بلبيل من نسيمها العليل ، فأحيته بعد التعليل . »

« وأنا ما قصدت فيما خطبت به إليك لأخذ عليك بفضل الابتداء ، وإنما سلكت سبيل
الاقتداء ، واتبعت دليل الاهتداء ، وأردت أن أستنير بأضوائك ، وأستشير من سمائك ،
نجوماً تهدينى فى غسق الظلام ، أو رجوماً تعدينى على مُسْتَرَق سمع الكلام ، فإن سمح
عمادى بالجواب ورجعه ، غالبت - بما حصل منه لدى ووصل إلى - الحمام فى سجعه ،
والأنصار فى حسانها ، والإعصار فى نيسانها ، وطيثاً فى وليدها وحبيبها ، وسعداً فى خالدها
وشبيبها ، وخرقت - بما أعار من مراح وأثار من ارتياح - جيب مخارق طرباً ، ولم أدع لأبى
العتاهية فى المغرب وخفيفه المطرب أرباً ، وطويت كشحاً عن أغاريد عبيد ، وأضربت
صفحة عن أناشيد لبيد ، وطالبت بُلغاء العصر ، بالمثل المضروب فى جمل مصر ، وقلت هذه
القارة فراموها وأنصفوا ، وهذه الغاية فروموها أو نصفوا ، وإن كانت تؤمه البواهر ما أنحلت
فى درجى ، ونجومه الزواهر ما حلت فى برجى ، وإن كفى من جنى ثماره لصفى ، وإن طرفى
من سنا أقمارها لقفر ، وإنى بضنه على بدرة من بحره ، أو نفثة من سحره ، لبين ظنين ، لم
أحصل من تحقيقهما على أثر ولا عين : أحدهما قلت : إنه أجرى اسمى على خلوده ، فلم
يجدنى فى أنداده ولا بلده ، فقال : وما أنا وفلان ، وهل هو إلا من الغرب ، وإن كان بزعمه
فى الصميم من العرب ، وهل الغرب فى الأقطار ، إلا كاللحق بين الأسطار ، والآخر ربما
يقول ، ما لا تقبله العقول : إنى لأنظر من فلان بأحد من نظر الزرقاء ، وإلى أجل من خطر
العنقاء ، وينشد قول أبى العلاء ابن سليمان ، شاعر معرة النعمان :

*** أرى العنقاء تكبر أن تُصادا ***

« وأنا أقسم بالربيع الممطر واثتلاف أوانه ، والبقيع المزهر واختلاف ألوانه ، والشباب ودولته ، والمضراب وصولته ، والمثاني إذا نسقت ، والقناني وما وسقت ، وإن أقسمت من بعضها بيمين ، لا أتلقى رايتها بشمال ولا يمين - أن اسمي في البلغاء والفُهْمَا ، كاسم العنقاء في الأسما : اسم ما وقع على مسمى ، ولفظ ما دل على معنى فأين أقع مما تريد ، وكتابي بين يدي حمدي أو عتابي بريد ، ينفض تهائم ظنوني ، أو ينفض تائم جنوني ، وله الرأي العالي في الجواب ، على خطأ كنت من ظنٍّ أو صواب ، إن شاء الله عز وجل » .

« ومن سلامي ، على عمادي الأعظم وإمامي ، أحفله وأحفده ، وأجزله وأوفده ، والسلام الأتم الأعم عليه ورحمة الله وبركاته » .

فراجعه الوزير أبو عبد الله برسالة لم يُكتب مثلها في بابها ، أبدع فيها غاية الإبداع ، وإن كان فيها بعض تكلف ، تسمى هذه الرسالة « الحولية » منعني من إيرادها في هذا المرسوم ما فيها من الطول .

ولأبي محمد عبد المجيد المذكور إحسانٌ قد اشتهر عندنا بتلك الأقطار شهرة الأمثال ، وسار ذكره فيها سير الجنوب والشمال .

واتصلت حال أمير المسلمين يوسف - كما ذكرنا - في إيثار الغزو ، وقمع ملك الروم والحرص على ما يعود بالمصلحة على جزيرة الأندلس ، إلى أن توفي في شهر سنة ٤٩٣هـ (١) .

ولاية أبي الحسن علي بن يوسف بن تاشفين

وقام بأمره من بعده ابنه علي بن يوسف بن تاشفين ، وتلقب بلقب أبيه أمير المسلمين ، وسمى أصحابه « المرابطين » ، فجرى على سنن أبيه في إيثار الجهاد ، وإخافة العدو ، وحماية البلاد ، وكان حسن السيرة ، جيد الطوية ، نزيه النفس ، بعيداً عن الظلم ، كان إلى أن

(١) أجمع المؤرخون على أن موته سنة ٥٠٠ هـ .

يُعد في الزهاد والمتبتلين أقرب منه إلى أن يُعدَّ في الملوك والمتغلبين ، واشتد إشاره لأهل الفقه والدين ، وكان لا يقطع أمراً في جميع مملكته دون مشاورة الفقهاء ، فكان إذا ولى أحداً من قضاته كان فيما يعهد إليه ألا يقطع أمراً ولا يبتّ حكومة في صغيرٍ من الأمور ولا كبير إلا بمحضر أربعة من الفقهاء ، فبلغ الفقهاء في أيامه مبلغاً عظيماً لم يبلغوا مثله في الصدر الأول من فتح الأندلس .

ولم يزل الفقهاء على ذلك ، وأمور المسلمين راجعة إليهم ، وأحكامهم صغيرها وكبيرها موقوفة عليهم ، طول مدته ، فعظم أمر الفقهاء ، كما ذكرنا ، وانصرفت وجوه الناس إليهم ، فكثرت لذلك أموالهم ، واتسعت مكاسبهم ، وفي ذلك يقول أبو جعفر أحمد بن محمد المعروف بابن البنى ، من أهل مدينة جيان من جزيرة الأندلس (١) .

أهل الرياء لبستمو ناموسكم	كالذئب أدلج في الظلام العاتم
فملكتمو الدنيا بمذهب مالك	وقسمتمو الأموال بابن القاسم (٢)
وركبتمو شهب الدواب بأشهب	وبأصبغ صبغت لكم في العالم

وإنما عرض أبو جعفر هذا في هذه الأبيات بالقاضى أبى عبد الله محمد بن حمدين قاضى قرطبة ، وهو كان المقصود بهذه الأبيات ، ثم هجاه بعد هذا صريحاً بأبيات أولها :

أَدَجَّـالٌ هـَذَا أَوَانُ الْخُرُوجِ	وَيَاشْمَسُ لَوْحِي مِنَ الْمَغْرِبِ
يُرِيدُ ابْنُ حَمْدِينَ أَنْ يَعْتَفَى	وَجَدَّوَاهُ أَنْأَى مِنَ الْكَوْكَبِ
إِذَا سُئِلَ الْعَرْفُ حَكَ اسْتَه	لِيُثَبِّتَ دَعْوَاهُ فِي تَغْلِبِ

(١) ذكره الفتح ابن خاقان في القلائد والمطمح .

(٢) من مشاهير علماء المالكية .

في أمثال هذه الأبيات ، وكان القاضى أبو عبد الله ابن حمدين يتسبب إلى تغلب ابنه وائل .

ولم يكن يقرب من أمير المسلمين ويحظى عنده إلا من علم علم الفروع ، أعنى فروع مذهب مالك ، فنفقت في ذلك الزمان كُتب المذهب وعُمل بمقتضاها ونُبد ما سواها ، وكثر ذلك حتى نُسى النظر في كتاب الله وحديث رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، فلم يكن أحدٌ من مشاهير أهل ذلك الزمان يعتنى بهما كل الاعتناء ، ودان أهل ذلك الزمان بتكفير كل من ظهر منه الخوض في شىء من علوم الكلام ، وقرر الفقهاء عند أمير المسلمين تقبيح علم الكلام وكراهة السلف له وهجرهم من ظهر عليه شىء منه ، وأنه بدعة في الدين وربما أدى أكثره إلى اختلال في العقائد ، في أشباه هذه الأقوال ، حتى استحكم في نفسه بُغْضُ علم الكلام وأهله ، فكان يكتب عنه في كل وقت إلى البلاد بالتحديد في نبذ الخوض في شىء منه وتوعد من وجد عنده شىء من كتبه ، ولما دخلت كتب أبى حامد الغزالي - رحمه الله - المغرب ، أمر أمير المسلمين بإحراقها ، وتقدم بالوعيد الشديد ، من سفك الدم واستئصال المال ، إلى من وجد عنده شىء منها ، واشتد الأمر في ذلك .

أعيان الكُتَاب في عهد أبى الحسن (١)

ولم يزل أمير المسلمين من أول إمارته يستدعى أعيان الكتاب من جزيرة الأندلس ، وصرف عنايته إلى ذلك ، حتى اجتمع له منهم ما لم يجتمع للملك ، كأبى القاسم ابن الجد المعروف بالأحدب ، أحد رجال البلاغة ، وأبى بكر محمد بن محمد المعروف بابن القبطرنة ، وأبى عبد الله ابن أبى الخصال ، وأخيه أبى مروان ، وأبى محمد عبد المجيد بن عبدون المذكور آنفا ، في جماعة يكثر ذكرهم .

(١) العنوان من عندنا .

وكان من أنبههم عنده ، وأكبرهم مكانة لديه ، أبو عبد الله محمد ابن أبي الخصال ،
وحُق له ذلك ، إذ هو آخر الكتاب ، وأحد من انتهى إليه علم الآداب ، وله - مع ذلك - في
علم القرآن والحديث والأثر وما يتعلق بهذه العلوم الباعُ الأرحب ، واليد الطولى .

فما أختار له ، رحمه الله ، فصولاً من رسالة كتب بها مُراجعاً لبعض إخوانه ، عن
رسالة وردت عليه منه يستدعى فيها منه شيئاً من كلامه ، وهذا الرجل صاحبُ
الرسالة هو أبو الحسن علي بن بسام صاحب كتاب الذخيرة :

« وصل من السيد المسترق ، والمالك المستحق - وصل الله إنعامه لديه ، كما قصر
الفضل عليه - كتابه البليغ ، واستدراجه المريغ ، فلولا أن يصلد زند اقتداحه ، ويرقد طرف
افتتاحه ، وتنبض يد انبساطه ، وتغبن صفقة اغتباطه - للزمت معه مركز قدرى ، ووصلتُ
سريرة صدرى ، لكنه بنفثات سحره يُسمع الصم ، ويستنزل العُصم ، ويقتاد الصعب
فيُصحب ويستدر الصخور فتُحلب .

« ولما فجأنى ابتداؤه ، وقرع سمعى نداؤه ، فرغت إلى الفكر ، وخفق القلب بين الأمن
والحذر ، فطاردت من الفقر أوابد قفر ، وشوارد عفر ، وتغير في وجه سائقها ، ولا يتوجه
للحاق لوجيها ولاحقها ، فعلمت أنها الإهابة والمهابة ، والإصابة والاسترابة ، حتى
أيأستنى الخواطر ، وأخلفتنى المواطر ، إلا زبرجاً يعقب جواداً ، وبهرجاً لا يحتمل انتقاداً ،
وأنى لمثلى والقريجة مرجاة ، والبضاعة مزجاة - ببراعة الخطاب ، وبزاعة الكتاب ، ولولا
دروس معالم البيان ، واستيلاء العفاء على هذا الشان ، لما فاز لمثلى فيه قدح ، ولا تحصل لى
فى سوقه ربح ، ولكنه جو خال ، ومضمار جُهل ، وهى حكمة الله فى الخلق ، وقسمته
للرزق ، وأنا - أعزك بالله - أربأ بقدر الذخيرة ، عن هذه التنف الأخيرة ، وأرى أنها قد بلغت
مداها ، واستوفت حلاها ، وأنا أخشى القدح فى اختيارك ، والإخلال بمختارك ، وعلى
ذلك فوالله ما من عادتى أن أثبت ما أكتب فى رسم ينقل ، ولا فى وضع المراتب عندنا
مخاطب يُتحفز له ويُحتفل ، وإنما هو عفو فكر ، ويسير ذكر » .

« وعذراً - أعزك الله - فإننى خططته ما خطط والنوم مُغازل ، والقرُ منازل ، والريح تلعب بالسراج ، وتصول عليه صولة الحجاج ، فطوراً تسدده سنائاً ، وتارة تحركه لساناً ، وآونة تطويه حُبابة ، وأخرى تنشره ذؤابة ، وتقيمه إبرة لُهب ، وتعطفه برة ذهب ، أو حمة عقرب ، وثُقوسه حاجب فتاة ، ذات غمزات ، وتُسَلطه على سليطة ، وتزيله عن خليطه ، وتخلعه نجماً ، وتمده رجماً ، وتسل روحه من ذباله ، وتعيده إلى حاله ، وربما نعبته أذن جواد ومسخته حديق جراد ، ومشقته حروفاً برق ، بكف ودق ، ولثمت بسناه قنديله ، وألقت على أعطافه منديله ، فلا حظ منه للعين ، ولا هداية في الطرس لليدين ، والليل زنجى الأديم ، تبرى النجوم ، قد جللنا ساجه ، وأغرقنا أمواجه ، فلا مجال للحظ ، ولا تعارف إلا بلفظ ، لو نظرت فيه الزرقاء لاكتحلت ، أو خضبت به الشيبة لما نصلت ، والكلب قد صافح خيشومه ذنبه ، وأنكر البيت وطُنبه ، والتوى التواء الحُباب ، واستدار استدارة الحباب ، وجلده الجليد ، وصعد أنفاسه الصعيد ، فحماه مُباح ، ولا هريس ولا نباح ، والنار كالرحيق ، أو كالصديق ، كلاهما عنقاء مُغرب ، أو نجم مُغرب . استوى الفصل ، ولك في الإغضاء الفضل والسلام . »

ولأبى عبد الله هذا ديوان رسائل يدور بأيدي أدباء أهل الأندلس ، قد جعلوه مثالاً يحتذونه ، ونصبوه إماماً يقتفونه ، منعنى من إيراد ما أختار له من ذلك ، خوف الخروج إلى التطويل الممل ، والإكثار المخل .

فلم يزل أبو عبد الله هذا وأخوه كاتبين لأمر المسلمين ، إلى أن أخرج أمير المسلمين أبا مروان عن الكتابة ، لموجدة كانت منه عليه ، سببها أنه أمره وأخاه أبا عبد الله أن يكتباه عنه إلى جند بلنسية ، حين تخاذلوا وتواكلوا حتى هزمهم ابن رذمير - لعنه الله - هزيمة قبيحة ، وقتل منهم مقتلة عظيمة ، فكتب أبو عبد الله رسالته المشهورة في ذلك ، وهى رسالة كاد أهل الأندلس قاطبة أن يحفظوها ، أحسن فيها ما شاء ، منعنى من إيرادها ما فيها من الطول ، وكتب أبو مروان رسالة في ذلك الغرض ، أفحش فيها على المرابطين وأغلظ لهم في القول أكثر من الحاجة ، فمن فصولها قوله :

« أى بنى اللئيمة ، وأعيار الهزيمة ، إلام يزيحكم الناقد ، ويردكم الفارس الواحد ؟
فليت لكم بارتباط الخيول ضائناً لها حالب قاعد ، لقد آن أن تُوسعكم عقاباً ، وألا تلوثوا على
وجه نقابا ، وأن نُعيدكم إلى صحرائكم ، ونُظهر الجزيرة من رحضائكم . . . » .
فى أمثال لهذا القول ، فأحنق ذلك أمير المسلمين وأخره عن كتابته ، وقال لأبى عبد الله
أخيه : كنا فى شك من بغض أبى مروان المرباطين ، والآن قد صح عندنا : فلما رأى ذلك
أبو عبد الله استعفاه فأعفاه ، ورجع إلى قرطبة بعد ما مات أخوه أبو مروان بمراكش ، وأقام
هو بقرطبة إلى أن استشهد فى داره - رحمه الله - أول الفتنة الكائنة على المرباطين .

اختلال أحوال المرباطين

واختلت حال أمير المسلمين - رحمه الله - بعد الخمسة^(١) اختلالاً شديداً ، فظهرت
فى بلاده مناكر كثيرة ، وذلك لاستيلاء أكابر المرباطين على البلاد ، ودعواهم الاستبداد ،
وانتهوا فى ذلك إلى التصريح ، فصار كل منهم يصرح بأنه خير من على أمير المسلمين ،
وأحق بالأمر منه ! .

واستولى النساء على الأحوال ، وأسندت إليهن الأمور ، وصارت كل امرأة من أكابر
لمتونة ومسوفة مشتملة على كل مفسد وشرير وقاطع سبيل وصاحب خمر ومماخور ، وأمير
المسلمين فى ذلك كله يتزايد تغافله ، ويقوى ضعفه ، وقنع باسم إمرة المسلمين ، وبما يرفع
إليه من الخراج ، وعكف على العبادة والتبتل ، فكان يقوم الليل ويصوم النهار ، مشتهراً
عنه ذلك ، وأهمل أمور الرعية غاية الإهمال ، فاختل لذلك عليه كثير من بلاد الأندلس ،
وكادت تعود إلى حالها الأول ، لاسيما منذ قامت دعوة ابن تومرت بالسوس .

(١) وردت فى الأصل عام ٤٩٠ هـ .

ذكر قيام محمد بن تومرت المتسمى بالمهدى وبدء أمر الموحدين بالمغرب والأندلس

ولما كانت سنة ٥١٥هـ (١) قام بسوس محمد بن عبد الله بن تومرت في صورة أميرٍ بالمعروف
ناهٍ عن المنكر .

ومحمد هذا رجل من أهل سوس (٢) ، مولده بها بضیعة منها تعرف بإيجلى أن وارغن ،
وهو من قبيلة تسمى هرغة ، من قوم يعرفون بإيسر غينن ، وهم الشرفاء بلسان المصامدة ،
ولمحمد بن تومرت نسبة متصلة بالحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب وجدت
بخطه (٣) ، وكان قد رحل إلى المشرق في شهور سنة ٥٠١هـ (٤) في طلب العلم ، وانتهى إلى
بغداد ، ولقى أبا بكر الشاشى فأخذ عليه شيئاً من أصول الفقه وأصول الدين (٥) ، وسمع
الحديث على المبارك بن عبد الجبار ونظرائه من المحدثين ، وقيل : إنه لقى أبا حامد الغزالي
بالشام أيام تزهده ، فالله أعلم (٦) .

وحكى أنه ذكر للغزالي ما فعل أمير المسلمين بكتبه التى وصلت إلى المغرب ، من
إحراقها وإفسادها ، وابن تومرت حاضر ذلك المجلس ، فقال الغزالي حين بلغه ذلك :
« ليذهبن عن قليل ملكه ، وليقتلن ولده ، وما أحسب المتولى لذلك إلا حاضراً مجلسنا ! »

-
- (١) قيل : إن ظهور دعوته بدأت من عام ٥١٤ هـ .
(٢) ويقع في أقصى المغرب (جبل السوس) .
(٣) ورد في وفيات الأعيان .
(٤) كان يبلغ من العمر سبع عشرة سنة .
(٥) المقصود به علم الكلام .
(٦) تفقه على أبى بكر الطرطوشى والكىا الهراسى والغزالي .

وكان ابن تومرت يحدث نفسه بالقيام عليهم ، فقوى طمعه .

وكر راجعاً إلى الإسكندرية ، فأقام بها يختلف إلى مجلس أبي بكر الطرطوشي الفقيه ، وجرت له بها وقائع في معنى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، أفضت إلى أن نفاه متولى الإسكندرية عن البلاد ، فركب البحر ، فبلغنى أنه استمر على عادته في السفينة من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، إلى أن ألقاه أهل السفينة في البحر ، فأقام أكثر من نصف يوم يجرى في ماء السفينة لم يصبه شيء ، فلما رأوا ذلك من أمره أنزلوا إليه من أخذه من البحر ، وعظم في صدورهم ، ولم يزالوا مكرمين له إلى أن نزل من بلاد المغرب بجاية (١) فأظهر بها تدريس العلم والوعظ ، واجتمع عليه الناس ، ومالت إليه القلوب ، فأمره صاحب بجاية بالخروج عنها حين خاف عاديته ، فخرج منها متوجهاً إلى المغرب ، فنزل بضیعة يقال لها ملالة ، على فرسخ من بجاية ، وبها لقيه عبد المؤمن بن علي ، وهو إذ ذاك متوجهٌ إلى المشرق في طلب العلم ، فلما رآه محمد بن تومرت ، عرفه بالعلامات التي كانت عنده ، وكان ابن تومرت هذا أوحده عصره في علم خط الرمل ، مع أنه وقع بالمشرق على ملاحم من عمل المنجمين وحُفُورٍ من بعض خزائن خلفاء بنى العباس ، أوصله إلى ذلك كله فرط اعتناؤه بهذا الشأن وما كان يحدث به نفسه (٢) .

(١) بالكسر وتخفيف الجيم وألف وياء وهاء مدينة على ساحل البحر بين إفريقية والمغرب . كان أول من اختطها الناصر ابن علناس بن حماد بن بلكين في حدود سنة ٤٥٧ هـ ، بينها وبين جزيرة بنى مرغناى أربعة أيام .

(٢) روى ابن خلكان أن محمد بن تومرت كان قد اطلع على كتاب يسمى الجفر من علوم أهل البيت ، وأنه رأى فيه صفة رجل يظهر بالمغرب الأقصى ، بمكان يسمى السوس ، وهو من ذرية رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو إلى الله ، ويكون مقامه ومدفنه بموضع من المغرب ، هجاء اسمه ت ي ن م ل ل ورأى فيه أيضاً أن استقامة ذلك الأمر واستيلاءه وتمكنه ، يكون على يد رجل من أصحابه هجاء اسمه ب د م و م ن ، ويجاوز وقته المائة الخامسة للهجرة ، فأوقع الله - سبحانه وتعالى - في نفسه أنه القائم بأول الأمر ، وأن أوانه قد أوف ، فما كان ابن تومرت يمر بموضع إلا ويسأل عنه ، ولا يرى أحداً إلا أخذ اسمه وتفقد حليته - وكانت حلية عبد المؤمن معه - فبينما هو في الطريق رأى شاباً قد بلغ أشده ، على الصفة التي معه ، فقال له وقد تجاوزه : ما اسمك يا شاب ؟ فقال : عبد المؤمن ، فرجع إليه وقال له : الله أكبر ! أنت بغيتي . ونظر في حليته فوافقت ما عنده (=)

وبلغنى من طرق صحاح أنه لما نزل ملالة - الضيعة التى تقدم ذكرها - سُمع وهو يقول : ملالة ! ملالة ! يكررها على لسانه يتأمل أحرفها ، وذلك لما كان يراه أن أمره يقوم من موضع فى اسمه ميم ولامان ، فكان - كما ذكرنا - إذا كررها يقول : ليست هى !

وأقام بهذه الضيعة أشهرًا ، وبها مسجد يعرف به ، وهو باقى إلى اليوم ، لا أدرى أبنى على عهده أو بعده .

... فاستدعى عبد المؤمن وخلا به ، وسأله عن اسمه واسم أبيه ونسبه ، فتسمى له وانتسب (١) ، وسأله عن مقصده فأخبره أنه راحل فى طلب العلم إلى المشرق ، فقال له ابن تومرت : أو خير من ذلك ؟ قال : وما هو ؟ قال : شرف الدنيا والآخرة ، تصحبنى وتعيننى على ما أنا بصدده ، من إماتة المنكر وإحياء العلم وإخماد البدع . فأجابه عبد المؤمن إلى ما أراد .

وأقام ابن تومرت بملالة أشهرًا ، ثم رحل عنها ، وصحبه من أهلها رجل اسمه عبد الواحد ، يعرفه المصامدة بعبد الواحد الشرقى (٢) ، وهو أول من صحبه بعد عبد المؤمن ، وخرج متوجهًا إلى المغرب .

(=) والجفر فى اللغة : جلد يتخذ من الماعز ، وكانوا يكتبون عليه ، فزعم الروافض أن الإمام جعفرًا الصادق قد كتب لهم فى جفر من جلد الماعز كل ما يحتاجون إليه وكل ما هو كائن أو سيكون إلى يوم القيامة ...

وحديث الجفور طويل فى بعض كتب الشيعة ومن يعارضهم من أهل الجماعة .

(١) رواية ابن الأثير أن ابن تومرت سأله عن اسمه وقبيلته ، فأخبره أنه من قيس عيلان ، ثم من بنى سليم ، فقال ابن تومرت : هذا الذى بشر به النبى صلى الله عليه وسلم حين قال : « إن الله ينصر هذا الدين فى آخر الزمان برجل من قيس ، فقيل : من أى قيس ؟ فقال : من بنى سليم » .

(٢) نظنه يعنى أبا عبد الله الونشريسى ، كما ذكر ابن الأثير ، أو أبا عبد الله التومرتى كما يسميه ابن كثير ، ويذكره ابن خلكان باسم عبد الله الونشريسى بلا كنية ، أولئك جميعًا - فيما نرى - شخص واحد ، اسمه عبد الواحد ، وكنيته أبو عبد الله ، وينتسب إلى « ونشريس » بليدة بإفريقية من أعمال بجاية بين باجة وقسطنطينية المغرب ، إلى الشرق من جبل المصامدة ، فهو الشرقى ، والونشريسى ، والتومرتى ، من أجل ذلك جميعًا .

وقيل : إنه (١) إنما لقي عبد المؤمن بموضع يعرف بفنزارة من بلاد متيجة ، وعبد المؤمن يعلم صبيان القرية المذكورة ، فسأله ابن تومرت صُحبته والقراءة عليه وإعانتته ، بعد أن عرفه بالعلامات ، كما قد تقدم .

وبهذه القرية له حكاية طريفة ، وذلك أنه (٢) رأى - وهو بها فى المنام كأنه يأكل مع أمير المسلمين على بن يوسف فى صحيفة واحدة ، قال : ثم زاد أكلى على أكله وأحسست من نفسى شرهاً إلى الطعام ، ولم يزل ذلك بى إلى أن اختطفت الصحيفة من بين يديه وانفردت بها ! فلما انتبه قصَّ الرؤيا على رجل كان يقرأ عليه ، اسمه عبد المنعم بن عشير ، يكنى أبا محمد ، كان يقرأ عليه ، فلما أتى على آخرها ، قال (٣) : يا بنى ، يا عبد المؤمن ، هذه الرؤيا لا ينبغى أن تكون لك ، إنما هى لرجل ثائر ، يشور على أمير المسلمين فيشاركه فى بعض بلاده ثم يغلبه بعد ذلك عليها كلها وينفرد بمملكته !

واتفق له فيها أيضاً من العجائب التى ثبتت فى باب الكلم الموافقة للقدر ، أن رجلاً من وجوه أصحاب الملك العزيز ابن المنصور الصنهاجى صاحب بجاية والقلعة ، وجد عليه الملك العزيز ، فاشتد خوفه ، فهرب منه إلى هذه الضيعة التى كان فيها عبد المؤمن ، فكان معه بها يعلم الصبيان ، وانتهت حال ذلك الرجل إلى غاية الإقلال ، ثم اتفق أن صاحبه رضى عنه ، فبلغه ذلك فسار إلى بجاية ، فدخل عليه فسأله : أين كنت فى هذه الأيام ؟ فأخبره بقصته وكيف كان الصبيان يحونه بالكسر ! فضحك وقال : الضيعة لك وما والها ! وأمر له بهال ومركب وثياب ، فخرج الرجل إلى الضيعة فى خيل ورجال معه ، وخرج إليه أهلها يتلقونه ، فأتى الصبيان عبد المؤمن وهو قاعد بفناء المسجد ، فقالوا له : أتعرف من هذا الذى اهتزت له هذه الأرض ؟ قال : لا ! قالوا : هو فلان صاحبك الذى كان يعلمنا

(١) المقصود به ابن تومرت .

(٢) المقصود به عبد المؤمن .

(٣) المقصود به ابن عشير .

معك ! فقال : إن كانت حال فلان انتهت إلى هذا ، فلا بد أن أكون أنا غداً أمير المؤمنين !
فكان الأمر كما قال ، ووافقت كلمته القدر .

وخرج ابن تومرت - كما ذكرنا - متوجهاً إلى المغرب ، حتى أتى مدينة تلمسان ، فأقام
بمسجد بظاهرها يعرف بالعباد ، جارياً على عادته ، وكان قد وضع له في النفوس هيبة وفي
الصدور عظمة ، فلا يراه أحد إلا هابه ، وعظم أمره ، وكان شديد الصمت كثير
الانقباض ، إذا انفصل عن مجلس العلم لا يكاد يتكلم بكلمة . . .

أخبرني بعض أشياخ تلمسان عن رجل من الصالحين كان معتكفاً معه بمسجد
العباد ، أنه خرج عليهم ذات ليلة بعد ما صلى العتمة ، فنظر إليهم وقال : أين فلان ؟
لرجل كان يصحبهم ، فأخبروه أنه مسجون ، فقام من وقته ودعا برجل منهم يمشى بين
يديه ، حتى أتى باب المدينة ، فدق على البواب دقاً عنيفاً ، واستفتح ، فأجابه البواب إلى
الفتح بسرعة من غير تلكؤ ولا إبطاء ، ولو استفتح أمير البلد لتعذر ذلك عليه ، ودخل
حتى أتى السجن ، فابتدر إليه السجانون والحرس يتمسحون به ، ونادى : يا فلان ! باسم
صاحبهم ، فأجابه ، فقال : اخرج ! والسجانون ينظرون إليه كأنها أفرغ عليهم الماء الحار ،
وخرج بصاحبه حتى أتى المسجد ، وكانت هذه عادته في كل ما يريد ، لا يتعذر عليه
مراد ، ولا يمتنع عليه مطلوب ، وقد سُخرت له الرعاية ، وذُللت له الجبابة .

ولم يزل مقيماً بتلمسان وكل من بها يعظمه من أمير ومأمور ، إلى أن فصل عنها بعد أن
استمال وجوه أهلها وملك قلوبها ، فخرج قاصداً مدينة فاس ، فلما وصل إليها أظهر ما كان
يظهره ، وتحدث فيما كان يتحدث فيه من العلم ، وكان جل ما يدعو إليه علم الاعتقاد على
طريق الأشعرية ، وكان أهل المغرب - على ما ذكرنا (١) - ينافرون هذه العلوم ، ويعادون من
ظهرت عليه ، شديداً أمرهم في ذلك ، فجمع إلى المدينة الفقهاء وأحضره معهم ، فجرت له

(١) انظر : الحلة السراء ١ / ١٥٠ - ١٥٤ .

مناظرة كان له الشفوف فيها والظهور ، لأنه وجد جواً خالياً ، وألفى قوماً صياماً عن جميع العلوم النظرية خلا علم الفروع ، فلما سمع الفقهاء كلامه أشاروا إلى وإلى البلاد بإخراجه لئلا يفسد عقول العوام ، فأمره وإلى البلد بالخروج ، فخرج متوجهاً إلى مراکش .

ابن تومرت في حضرة ابن تاشفين

وكتب بخبره إلى أمير المسلمين على بن يوسف ، فلما دخلها أحضر بين يديه ، وجمع له الفقهاء للمناظرة^(١) ، فلم يكن فيهم من يعرف ما يقول ، حاشا رجل من أهل الأندلس اسمه مالك بن وهيب كان قد شارك في جميع العلوم ، إلا أنه كان لا يظهر إلا ما ينفق في ذلك الزمان ، وكانت لديه فنون من العلم ، رأيت له كتاباً سماه « قراضة الذهب » ، في ذكر لثام العرب « ضمنه لثام العرب في الجاهلية والإسلام » ، وضم إلى ذلك ما يتعلق به من الآداب ، فجاء الكتاب لا نظير له في فنه ، رأيت في خزانة بنى عبد المؤمن .

ولمالك بن وهيب هذا تحقق بكثير من أجزاء الفلسفة ، رأيت بخطه كتاب « الثمرة » لبطليموس في الأحكام ، وكتاب « المجسطى » في علم الهيئة ، وعليه حواش بتقييده أيام قراءته إياه على رجل من أهل قرطبة اسمه حمد الذهبي .

ولما سمع مالك هذا كلام محمد بن تومرت ، استشعر حدة نفسه وذكاء خاطره واتسع عبارته ، فأشار على أمير المسلمين بقتله ، وقال : هذا رجل مُفسد لا تؤمن غائلته ولا يسمع كلامه أحد إلا مال إليه ، وإن وقع هذا في بلاد المصامدة ثار علينا منه شر كثير ! فتوقف أمير المسلمين في قتله ، وأبى ذلك عليه دينه ، وكان رجلاً صالحاً مجاب الدعوة ، يُعد في قوَّام الليل وُصوَّام النهار ، إلا أنه كان ضعيفاً مستضعفاً ، ظهرت في آخر زمانه مناكر كثيرة وفواحش شنيعة ، من استيلاء النساء على الأحوال واستبدادهن بالأمور ، وكان كل شرير من

(١) ذكر ابن خلكان في كتابه وفيات الأعيان رواية مختلفة .

لص أو قاطع طريق ينتسب إلى امرأة قد جعلها ملجأ له ووزراً على ماتقدم . . .

. . . فلما يئس مالك مما أراده من قتل ابن تومرت ، أشار عليه بسجنه حتى يموت ،

فقال أمير المسلمين : علام نأخذ رجلاً من المسلمين نسجنه ولم يتعين لنا عليه حق ؟ وهل

السجن إلا أخو القتل ؟ ولكن نأمره أن يخرج عنا من البلد وليتوجه حيث شاء !

فخرج هو وأصحابه متوجهاً إلى سوس ، فنزل بموضع منها يعرف بتينمل .

بدء دعوة الموحدين

من هذا الموضع قامت دعوته ، وبه قبره ، ولما نزل اجتمع إليه وجوه المصامدة ، فشرع في تدريس العلم والدعاء إلى الخير ، من غير أن يظهر إمرة ولا طلبه مُلك ، وألف لهم عقيدة بلسانهم ، وكان أفصح أهل زمانه في ذلك اللسان ، فلما فهموا معانى تلك العقيدة زاد تعظيمهم له ، وأشربت قلوبهم محبته ، وأجسامهم طاعته ، فلما استوثق منهم دعاهم إلى القيام معه أولاً على صورة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا غير ، ونهاهم عن سفك الدماء ولم يأذن لهم فيها ، وأقاموا على ذلك مدة ، وأمر رجلاً منهم ممن استصلح عقولهم بنصب الدعوة واستمالة رؤساء القبائل ، وجعل يذكر المهدي ويشوق إليه ، وجمع الأحاديث التي جاءت فيه من المصنفات ، فلما قرر في نفوسهم فضيلة المهدي ونسبه ونعته ، ادعى ذلك لنفسه ، وقال أنا محمد بن عبد الله . . . ورفع نسبه إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، وصرح بدعوى العصمة لنفسه ، وأنه المهدي المعصوم ، وروى في ذلك أحاديث كثيرة ، حتى استقرّ عندهم أنه المهدي ، وبسط يده فبايعوه على ذلك ، وقال : أبايعكم على ما بايع عليه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم عليه رسول الله .

ثم صنف لهم تصانيف في العلم ، منها كتاب سماه « أعزُّ ما يُطلبُ » ، وعقائد في

أصول الدين ، وكان على مذهب أبى الحسن الأشعري^(١) فى أكثر المسائل ، إلا فى إثبات الصفات ، فإنه وافق المعتزلة فى نفيها وفى مسائل قليلة غيرها ، وكان يبطن شيئاً من التشيع ، غير أنه لم يُظهر منه إلى العامة شيئاً .

طبقات الموحدين

وصنف أصحابه طبقات ، فجعل منهم العشرة ، وهم المهاجرون الأولون الذين أسرعوا إلى إجابته ، وهم المسمون بالجماعة ، وجعل منهم الخمسين ، وهم الطبقة الثانية ، وهذه الطبقات لا تجمعها قبيلة واحدة ، بل هم من قبائل شتى ، وكان يسميهم المؤمنين ، ويقول لهم : ما على وجه الأرض من يؤمن بإيمانكم ، وأنتم العصاة المعنيون بقوله عليه الصلاة والسلام : « لاتزال طائفة بالمغرب ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم حتى يأتى أمر الله » . « وأنتم الذين يفتح الله بكم فارس والروم ، ويقتل الدجال ، ومنكم الأمير الذى يصلى بعيسى ابن مريم ، ولا يزال الأمر فيكم إلى قيام الساعة ، هذا مع جزئيات كان يخبرهم بها وقع أكثرها ، وكان يقول : لو شئت أن أعد خلفاءكم خليفة . . .

فزادت فتنة القوم به ، وأظهروا له شدة الطاعة .

وقد نظم هذا الذى وصفناه من قول ابن تومرت فى تخليد هذا الأمر ، رجلٌ من أهل الجزائر ، مدينة من أعمال بجاية ، وفد على أمير المؤمنين أبى يعقوب^(٢) وهو بتينمل ، فقام على قبر ابن تومرت بمحضرٍ من الموحدين وأنشد قصيدة أولها :

سلالة خير العالمين محمد

سلام على قبر الإمام المجد

وفى اسم أبيه والقضاء المسدد

ومشبهه فى خلقه ثم فى اسمه

(١) انظر : الفهرست لابن النديم .

(٢) وهو أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن .

ومحیی علوم الدین بعد مماتها
أقتنا به البشرى بأن يملأ الدنيا
ويفتح الأمصار شرقاً ومغرباً
فمن وصفه : أقنى وأجلى وأنه
زمان ، واسم ، والمكان ونسبة
ويلبث سبعاً أو فتسعا يعيشها
فقد عاش تسعاً مثل قول نبينا
وتتبعه للنصر طائفة الهدى
هى الثلثة المذكور فى الذكر أمرها
ويقدمها المنصور والناصر الذى
هو المنتقى من قيس عيلان مفخراً
خليفة مهدى الإله وسيفه
بهم يقمع الله الجبابرة الأولى
ويقطع أيام الجبابرة التى
فيغزون أعراب الجزيرة عنوة
ويفتتحون الروم فتح غنيمية
ويغدون للدجال يغزونه ضحى
ويقتله فى باب لُد وتنجلي
وينزل عيسى فيهم وأميرهم

ومظهر أسرار الكتاب المسدد
بقسط وعدل فى الأنعام مخلد
ويملك عرباً من مغير ومنجد
علاماته خمس تبين لمهتدى :
وفعل له فى عصمة وتأيد
كذا جاء فى نص من النقل مُسند
فذلكم المهدي بالله يهتدى
فأكرم بهم إخوان ذى الصدق أحمد
وطائفة المهدي بالحق تهتدى
له النصر حزب إذ يروح ويغتدى
ومن مرة أهل الجلال الموطد
ومن قد غدا بالعلم والحلم مُرتدى
يصدون عن حكم من الحق مُرشد
أبادت من الإسلام كل مشيد
ويعرون منها فارساً وكان قد
ويقتسمون المال بالترس عن يد
ويذيقونه حد الحسام المهني
شكوك أمالت قلب من لم يوحد
إمام فيدعوهم لمحراب مسجد

يصلى بهم ذاك الأمير صلاتهم
فيمسح بالكفين منه وجوههم
وما إن يزال الأمر فيه وفيهم
فأبلغ أمير المؤمنين تحيةً
عليه سلام الله ما ذر شارق
وما صدر الوراد عن ورد مورد

وقد قيل : إن منشىء هذه القصيدة لم يحضر ذلك المشهد ولم ينشدها بنفسه ، منعته
عن ذلك الكبر وبعد الشقة ، وإنما أرسل بها فأنشدت على قبر الإمام ، وكان عمله إياها
وعبد المؤمن حى ، فالله أعلم ، وهى طويلة ، هذا ما اخترت له منها ، ولم أوردتها فى هذا
الموضع لأنها من مختار الشعر ، ولكن لموافقتها الفصل الذى قبلها .

ولم تزل طاعة المصامدة لابن تومرت تكثر ، وفتنتهم به تشتد ، وتعظيمهم له يتأكد ، إلى
أن بلغوا فى ذلك إلى حد لو أمر أحدهم بقتل أبيه أو أخيه أو ابنه لبادر إلى ذلك من غير
إبطاء ، وأعانهم على ذلك وهونته عليهم ما فى طباعهم من خفة سفك الدماء عليهم ، وهذا
أمر جبلت عليه فطرهم واقتضاه ميل إقليمتهم .

حكى أبو عبيد البكرى الأندلسى ثم القرطبى فى كتابه الموسوم بـ « المسالك والممالك »
عن رجال ، قال : أهديت إلى الإسكندر فرسٌ ببعض بلاد الغرب لم تلد الخيل أسبق منها ،
ولم يكن فيها عيبٌ إلا أنها لم يسمع لها صهيل قط ، فلما حل الإسكندر فى تطوافه بجبال
درن ، وهى بلاد المصامدة ، وشربت تلك الفرس من مياهها ، سهلت سهلةً اصطكت
منها الجبال ، فكتب الإسكندر إلى الحكيم يخبره بذلك ، فكتب إليه : إنها بلاد شر وقسوة ،
فعجل الخروج منها !

فهذه حال بلاد القوم ، وأما خفة سفك الدماء عليهم فقد شهدت أنا منه أيام كونى
بسوس ما قضيت منه العجب .

الحرب بين المرابطين والموحدين

ولما كانت سنة ٥١٧ هـ جهز جيشاً عظيماً من المصامدة جلهم من أهل تينمل ، مع من انضاف إليهم من أهل سوس ، وقال لهم : اقصدوا هؤلاء المارقين المبدلين الذين تسموا بالمرابطين ، فادعوهم إلى إماتة المنكر ، وإحياء المعروف ، وإزالة البدع ، والإقرار بالإمام المهدي المعصوم ، فإن أجابوكم فهم إخوانكم لكم ما لهم وعليهم ما عليكم ، وإن لم يفعلوا فقاتلوهم ، فقد أباحت لكم السنة قتالهم .

وأمر على الجيش عبد المؤمن بن علي ، وقال : أنتم المؤمنون وهذا أميركم فاستحق عبد المؤمن من يومئذ اسم إمرة المؤمنين .

وخرجوا قاصدين مدينة مراکش (١) ، فلقبهم المرابطون قريباً منها بموضع يدعى البحيرة ، بجيش ضخم من سراة لمتونة ، أميرهم الزبير بن علي بن يوسف بن تاشفين ، فلما تراءى الجمعان أرسل إليهم المصامدة يدعونهم إلى ما أمرهم به ابن تومرت ، فردوا عليهم أسوأ رد ، وكتب عبد المؤمن إلى أمير المسلمين علي بن يوسف بما عهد إليه محمد بن تومرت ، فرد عليه أمير المسلمين يحذره عاقبة مفارقة الجماعة ، ويذكره الله في سفك الدماء وإثارة الفتنة ، فلم يردع ذلك عبد المؤمن ، بل زاده طمعاً في المرابطين وحقق عنده ضعفهم ، فالتقت الفئتان ، فانهزم المصامدة وقتل منهم خلق كثير ، ونجا عبد المؤمن في نفر من أصحابه ، فلما جاء الخبر لابن تومرت قال : أليس قد نجا عبد المؤمن ؟ قالوا : نعم ، قال : لم يُفقد أحد !

ولما رجع القوم إلى ابن تومرت ، جعل يُهون عليهم أمر الهزيمة ، ويُقرر عندهم أن قتلاهم شهداء ؛ لأنهم ذابوّن عن دين الله ، مُظهرون للسنّة ، فزادهم ذلك بصيرة في

(١) قامت هذه المعركة أواخر سنة ٥٢٤ هـ ، وقد قمت قبلها بأكثر من معركة .

أمرهم ، وحرصاً على لقاء عدوهم ، ومن حينئذ جعل المصامدة يشنون الغارات على نواحي
مراكش ، ويقطعون عنها مواد المعيش وموصول المرافق ، ويقتلون ويسبون ، ولا يبقون على
أحد ممن قدروا عليه ، وكثر الداخلون في طاعتهم والمنحاشون إليهم ، وابن تومرت في ذلك
كله يكثر التزهّد والتقليل ، ويظهر التشبه بالصالحين ، والتشدد في إقامة الحدود ، جاريًا في
ذلك على السنة الأولى .

أخبرني من رآه - ممن أثق إليه - يضرب الناس على الخمر بالأكمام والنعال وعسب
النخل ، متشبهًا في ذلك بالصحابه .

ولقد أخبرني بعض من شهدته وقد أتى برجل سكران ، فأمر بحده ، فقال رجل من
وجوه أصحابه يسمى يوسف بن سليمان : لو شددنا عليه حتى نخبرنا من أين شربها لنحسم
هذه العلة من أصلها . . . ! فأعرض عنه ، ثم عاد عليه الحديث ، فأعرض عنه ، فلما كان
في الثالثة قال له : رأيت لو قال لنا : شربنا في دار يوسف بن سليمان ، مانحن صانعون ؟
فاستحيا الرجل وسكت ، ثم كشف على الأمر ، فإذا عبيد ذلك الرجل سقوه ، فكان هذا
من جملة ما زادهم به فتنة وتعظيما ، إلى أشياء كان يخبر بها فتقع كما يُخبر .

ولم يزل كذلك وأحواله صالحة ، وأصحابه ظاهرون ، وأحوال المرابطين المذكورين
تختل ، وانتقاض دولتهم يتزايد ، إلى أن توفي ابن تومرت المذكور في شهر سنة ٥٢٤ بعد أن
أسس الأمور وأحكم التدبير ورسم لهم ما هم فاعلوه .

ذكر ولاية عبد المؤمن

ثم قام بالأمر من بعده عبد المؤمن بن علي ، وبإيعه المصامدة ، واتفقت على تقديمه
الجماعة ، وكان الذين سعوا في تقديمه وهياًوا ذلك له ثلاثة ، وهم من أهل الجماعة : عمر
ابن عبد الله الصنهاجي المعروف عندهم بعمر أزناج ، وعمر ابن ومزال - الذي كان اسمه
قبل هذا فصكة فسماه ابن تومرت عمر ، يعرفونه بعمر إيتي - وعبد الله بن سليمان من أهل

تينمل ، من قبيلة يقال لها مسكالة ، ووافقهم على ذلك سائر أهل الجماعة وأهل خمسين وبقى الموحدون .

[وصية ابن تومرت]

وذلك أن ابن تومرت قبل موته بأيام يسيرة ، استدعى هؤلاء المسمين بالجماعة ، وأهل خمسين ، وهم - كما ذكرنا - من قبائل مفترقة لا يجمعهم إلا المصامدة ، فلما حضروا بين يديه قام وكان متكئاً ، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ، وصلى على محمد نبيه صلى الله عليه وسلم ، ثم أنشأ يترضى عن الخلفاء الراشدين ، رضوان الله عليهم ، ويذكر ما كانوا عليه من الثبات في دينهم ، والعزيمة في أمرهم ، وأن أحدهم كان لا تأخذه في الله لومة لائم ، وذكر من حد عمر رضى الله عنه ابنه في الخمر ، وتصميمه على الحق ، في أشباه هذه الفصول ، ثم قال : « . . . فانقرضت هذه العصابة - نضر الله وجوهها ، وشكر لها سعيها ، وجزاها خيراً عن أمة نبيها - وخبطت الناس فتنة تركت الحليم حيران ، والعالم متجاهلاً مداهناً ، فلم ينتفع العلماء بعلمهم ، بل قصدوا به الملوك ، واجتلبوا به الدنيا ، وأمالوا وجوه الناس إليهم . . . » في أشباه هذا القول ، إلى هلم جرا :

« ثم إن الله - سبحانه وله الحمد - منّ عليكم أيتها الطائفة بتأييده ، وخصكم من بين أهل هذا العصر بحقيقة توحيده ، وقبض لكم من ألكام ضللاً لا تهتدون ، وعمياً لا تبصرون ، لاتعرفون معروفأ ، ولا تُنكرون منكراً ، قد فشت فيكم البدع ، واستهوتكم الأباطيل ، وزين لكم الشيطان أضاليل وثرهات أنزه لسانى عن النطق بها ، وأربأ بلفظى عن ذكرها ، فهذاكم الله به بعد الضلالة ، وبصركم بعد العمى ، وجمعكم بعد الفرقة ، وأعزكم بعد الذلة ، ورفع عنكم سلطان هؤلاء المارقين ، وسيورثكم أرضهم وديارهم ، ذلك مما كسبته أيديهم ، وأضمرة قلوبهم ، وما ربك بظلام للعبيد ، فجددوا لله - سبحانه - خالص نياتكم ، وأروه من الشكر قولاً وفعلأ ما يُزكى به سعيكم ، ويتقبل أعمالكم ، وينشر

أمركم ، واحذروا الفرقة واختلاف الكلمة وشتات الآراء ، وكونوا يداً واحدة على عدوكم ، فإنكم إن فعلتم ذلك ، هابكم الناس وأسرعوا إلى طاعتكم ، وكثر أتباعكم ، وأظهر الله الحق على أيديكم ، وإلا تفعلوا شملكم الذل وعمكم الصغار واحتقرتكم العامة فتختفطكم الخاصة ، وعليكم في جميع أموركم بمزج الرأفة بالغلظة ، واللين بالعنف ، واعلموا - مع هذا - أنه لا يصلح أمر آخر هذه الأمة إلا على الذي صلح عليه أمر أولها ، وقد اخترنا لكم رجلاً منكم ، وجعلناه أميراً عليكم ، هذا بعد أن بلوناه في جميع أحواله ، من ليله ونهاره ، ومدخله ومخرجه ، واختبرنا سريره وعلايته ، فرأيناه في ذلك كله ثباتاً في دينه ، متبصراً في أمره ، وإنى لأرجو ألا يخلف الظن فيه ، وهذا المشار إليه هو عبد المؤمن ، فاسمعوا له وأطيعوا مادام سامعاً مطيعاً لربه ، فإن بدل أو نكص على عقبيه أو ارتاب في أمره ، ففي الموحدين - أعزهم الله - بركة وخير كثير ، والأمر أمر الله يقلده من شاء من عباده .

فبايع القوم عبد المؤمن ، ودعاهم ابن تومرت ، ومسح وجوههم وصدورهم واحداً واحداً ، فهذا سبب إمرة عبد المؤمن رحمه الله ، ثم توفي ابن تومرت بعد عهده بيسير ، واجتمع أمر المصامدة على عبد المؤمن .

فصل

حياة عبد المؤمن وأعماله وعماله

وعبد المؤمن هذا ، هو عبد المؤمن بن علي بن علوى الكومى (١) .

حُرّة كومية أيضًا ، من قوم يقال لهم بنو مجبر ، مولده بضبيعة من أعمال تلمسان تعرف بتاجرا ، وقيل : إنه يقول إذا ذكر كومية : لست منهم ، إنما نحن لقيس عيلان بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان ، ولكومية علينا حق الولادة بينهم والمنشأ فيهم ، وهم الأخوال . وهكذا أدركت من أدركت من أولاده وأولاد أولاده ينتسبون لقيس عيلان بن مضر ، وبهذا استجاز الخطباء أن يقولوا إذا ذكروه بعبد ابن تومرت : « قسيمه رضى الله عنه في النسب الكريم » .

وكان مولده في آخر سنة ٤٨٧ في أيام يوسف بن تاسفين ، وكانت وفاته في شهر جمادى الآخرة سنة ٥٥٨ ، ومدة ولايته من حين استوثق له الأمر بموت على بن يوسف أمير المسلمين - في سنة ٣٧ على التحقيق - إحدى وعشرين سنة ، إلى أن توفي في التاريخ المذكور .

وكان أبيض ذا جسم عظم تعلوه حمرة ، شديد سواد الشعر ، معتدل القامة ، وضىء الوجه ، جهورى الصوت ، فصيح الألفاظ ، جزل المنطق ، وكان محبباً إلى النفوس ، لا يراه أحد إلا أحبه بديهة ، وبلغنى أن ابن تومرت كان يُنشد كلما رآه :

تَكاملت فيك أخلاق خُصصت بها	فكلنا بك مسرور ومُغتبط
فالسُّنُّ ضاحكة ، والكفُّ مانحة	والصدر منشرح ، والوجه مُنبسط

(١) نسبة إلى قبيلة تسمى كومة وأحياناً يطلق عليها كومية تقع على ساحل البحر بالقرب من مدينة تلمسان .

أولاده

كان له من الولد ستة عشر ذكرًا ، وهم : محمد وهو أكبر ولده وولى عهده وهو الذى خلع ، وعلى ، وعمر ، ويوسف ، وعثمان ، وسليمان ، ويحيى ، وإسماعيل ، والحسن ، والحسين ، وعبد الله ، وعبد الرحمن ، وعيسى ، وموسى ، وإبراهيم ، ويعقوب .

وزراؤه

وزر له فى أول الأمر أبو حفص عمر أزواج ، إلى أن استقر الأمر واستقل عبد المؤمن ، فأجلى أبا حفص هذا عن الوزارة ورباً بقدره عنها ، إذ كان عندهم فوق ذلك ، واستوزر أبا جعفر أحمد بن عطية ، فجمع بين الوزارة والكتابة ، فهو معدود فى الكتاب والوزراء ، فلم يزل عبد المؤمن يجمعهما له إلى أن افتتحوا بجاية ، فاستكتب عبد المؤمن من أهلها رجلاً من نبهاء الكتاب يقال له : أبو القاسم القالى - وسيأتى ذكره فى كتابه - واستمرت وزارة أبى جعفر إلى أن قتله عبد المؤمن فى شهر سنة ٥٣ واستصفى أمواله ، ثم وزر له عبد السلام الكومى ، وكان يدعى المقرَّب ، لشدة تقرب عبد المؤمن إياه ، فاستمرت وزارة عبد السلام هذا إلى أن أرسل إليه عبد المؤمن من قتله خنقاً فى شهر سنة ٥٥٧ ، ثم وزر له ابنه عمر إلى أن توفى عبد المؤمن .

كتابه

أبو جعفر أحمد بن عطية المذكور فى الوزراء ، كان قبل اتصاله بعبد المؤمن وفى الدولة اللمتونية ، يكتب لعل بن يوسف فى آخر أيامه ، وكتب عن تاشفين بن على بن يوسف ، فلما انقرض أمرهم هرب وغيرَ هيئته وتشبه بالجند ، وكان محسنًا للرمى ، وكان فى الجند الذين خرجوا إلى سوس لقتال ثائر قام هناك ، كان الأمير على هذا الجند أبو حفص عمر إينتى المتقدم الذكر فى أهل الجماعة ، فلما انهزم أصحاب ذلك الثائر وقُتل هو وانقضت تلك الجموع ، طلب أبو حفص من يكتب عنه صورة هذه الكائنة إلى الموحدىن الذين بمراكش ،

فذل على أبى جعفر هذا ونُبه على مكانه ، فاستدعاه ، وكتب عنه إلى الموحدين رسالة فى شرح الحال ، أجاد فى أكثرها ما شاء ، منعنى من رسمها فى هذا الموضوع ما فيها من الطول ، فلما بلغت الرسالة عبد المؤمن استحسناها واستدعى أبى جعفر هذا واستكتبه ، وزاده إلى الكتابة الوزارة ، لما رآه من شجاعة قلبه وحصافة عقله ، فلم يزل وزيره - كما ذكرنا - إلى أن قتله فى التاريخ الذى ذكر ، وكان سبب قتله - فيما بلغنى - أنه كانت عنده بنت أبى بكر ابن يوسف بن تاشفين ، التى تعرف ببنت الصحراوية ، وأخوها يحيى فارس المرابطين المشهور عندهم ، يُعرف أيضاً بيحيى ابن الصحراوية (١) ، فحظى يحيى هذا عند الموحدين ، وقودوه على من وَّحد من لتونة ، ولم يزل وجيهاً عندهم مُكرماً لديهم - وكان خليفاً بذلك - إلى أن نقلت عنه إلى عبد المؤمن أشياء كان يفعلها وأقوال كان يقولها أحقتة عليه ، فتحدث عبد المؤمن ببعض ذلك فى مجالسه ، وربما همَّ بالقبض على يحيى هذا ، فرأى الوزير أبو جعفر أن يجمع بين المصلحتين ، من نصيح أميره ، وتحذير صهره ، فقال لامراته أخت يحيى المذكور : قولى لأخيك يتحفظ ، وإذا دعونه غداً فليعتل ويظهر المرض ، وإن قدر على الهروب واللحاق بجزيرة مبرقة فليفعل ! فأخبرته أخته بذلك ، فتهارض وأظهر أن ألمأ به ، فزاره وجوه أصحابه وسألوه عن علته ، فأسر إلى بعضهم - ممن كان يثق به - ما بلغه عن الوزير ، فخرج ذلك الرجل الذى أسرَّ إليه فنقل ذلك كله بجملته إلى رجل من ولد عبد المؤمن ، فكان هذا هو السبب الأكبر فى قتل أبى جعفر المذكور ، وأمر أمير المؤمنين عبد المؤمن بتقييد يحيى المذكور وسجنه ، فكان من سجنه إلى أن مات !

ثم كتب له بعد أبى جعفر هذا : أبو القاسم عبد الرحمن القالى ، من أهل مدينة بجاية ، من ضيعة من أعمالها تعرف بقالم ، وكتب له معه أبو محمد عياش بن عبد الملك بن عياش من أهل مدينة قرطبة .

(١) انظر : وفيات الأعيان .

قضااته

أبو محمد عبد الله بن جبل ، من أهل مدينة وهران من أعمال تلمسان ، ثم عبد الله بن عبد الرحمن المعروف بالمالقي ، لم يزل قاضياً له إلى أن توفي عبد المؤمن ، وصدرأ من خلافة أبي يعقوب .

رجع الحديث إلى أخبار عبد المؤمن

وكان عبد المؤمن مؤثراً لأهل العلم ، محباً لهم ، محسناً إليهم ، يستدعيهم من البلاد إلى الكون عنده والجوار بحضرته ، ويجري عليهم الأرزاق الواسعة ويظهر التنويه بهم والإعظام لهم ، وقسم الطلبة طائفتين : طلبة الموحدين ، وطلبة الحضر ، هذا بعد أن تسمى المصامدة بالموحدين ، لتسمية ابن تومرت لهم بذلك لأجل خوضهم في علم الاعتقاد الذي لم يكن أحد من أهل ذلك الزمان في تلك الجهة يخوض في شيء منه .

وكان عبد المؤمن في نفسه سرىَّ الهمة ، نزيه النفس ، شديد الملوكة ، كأنه كان ورثها كابراً عن كابر ، لا يرضى إلا بمعالي الأمور .

أخبرني الفقيه المتفنن أبو القاسم عبد الرحمن بن محمد ابن أبي جعفر الوزير ، عن أبيه عن جده الوزير أبي جعفر ، قال : دخلت على عبد المؤمن وهو في بستان له قد أينعت ثماره ، وتفتحت أزهاره ، وتجاوبت على أغصانها أطياره ، وتكامل من كل جهة حسنه ، وهو قاعد في قبة مشرفة على البستان ، فسلمت وجلست ، وجعلت أنظر يمناً وشأمة ، متعجباً مما أرى من حسن ذلك البستان ، فقال لي : يا أبا جعفر ، أراك كثير النظر إلى هذا البستان ! قلت : يُطيل الله بقاء أمير المؤمنين ، والله إن هذا لمنظر حسن ! فقال : يا أبا جعفر ، المنظر الحسن هذا ؟ قلت : نعم ، فسكت عني ، فلما كان بعد يومين أو ثلاثة ، أمر بعرض العسكر أخذى أسلحتهم ، وجلس في مكان مُطل ، وجعلت العسكر تمر عليه قبيلة بعد قبيلة وكتيبة بعد كتيبة ، لا تمر كتيبة إلا والتي بعدها أحسن منها ، جودة سلاح ،

وفراة خيل ، وظهور قوة ، فلما رأى ذلك التفت إلى وقال : يا أبا جعفر ، هذا هو المنظر الحسن ، لا ثمارك وأشجارك !

ولم يزل عبد المؤمن - بعد وفاة ابن تومرت - يطوى الممالك مملكة مملكة ، ويدوخ البلاد ، إلى أن ذلت له البلاد ، وأطاعته العباد .

نهاية المرابطين وآخر من ولى الأمر منهم

وكان آخر ما استولى عليه من البلاد التى يملكها المرابطون ، مدينة مراکش ، دار ملك أمير المسلمين وناصر الدين على بن يوسف بن تاشفين ، وهذا بعد وفاة أمير المسلمين المذكور حتف أنفه فى شهر سنة ٥٣٧ ، وكان قد عهد فى حياته إلى ابنه تاشفين ، فعاقته الفتنة عن تمام أمره ، ولم يتفق له ما أمله من استقلال ابنه تاشفين المذكور بشىء من الأمور .

وخرج تاشفين بعد وفاة أبيه قاصداً تلمسان ، فلم يتفق له من أهلها ما يريد ، فقصد مدينة وهران - وهى على ثلاث مراحل من تلمسان - فحاصره الموجدون بها ، فلما اشتد عليه الحصار خرج راكباً فرساً شهباء ، عليه سلاحه ، فاقتحم البحر حتى هلك ، ويقال : إنهم أخرجوه من البحر وصلبوه ثم أحرقوه ، فالله أعلم بصحة ذلك .

فكانت ولاية تاشفين هذا من يوم وفاة أبيه إلى أن قتل - كما ذكرنا - بمدينة وهران ، ثلاثة أعوام إلا شهرين ، وكان قتله سنة ٥٤٠ ، وكان طول هذه الولاية لا يستقر به قرار ولا تستقيم له حال ، تنبؤ به البلاد ، وتتنكر له الرعية ، فلم تزل هذه حاله إلى أن كان من أمره ما ذكر .

وبعد دخول عبد المؤمن - رحمه الله - مراکش ، طلب قبر أمير المسلمين ، وبحث عنه عبد المؤمن أشد البحث ، فأخفاه الله وستره بعد وفاته كما ستره فى أيام حياته ، وتلك عادة الله الحسنى مع الصالحين المصلحين .

وانقطعت الدعوة بالمغرب لبنى العباس بموت أمير المسلمين وابنه ، فلم يذكروا على منبر من منابرها إلى الآن ، خلا أعوام يسيره بإفريقية ، كان قد ملكها يحيى ابن غانية الناصر من جزيرة ميرة على ما سيأتى بيانه .

وكانت مدة المرابطين - من حين نزولهم رحبة مراکش إلى أن انقرض ملكهم جملة واحدة بموت أمير المسلمين وابنه - نحوًا من ست وسبعين سنة .

انتصار عبد المؤمن على منطقتي

بجاية وقلعة بنى حماد

ولما دان لعبد المؤمن جميع أقطار المغرب الأقصى مما كان يملكه المرابطون - على ما قدمنا - وأطاعة أهلها ، جمع جمعًا عظيمًا وخرج من مراکش يقصد مملكة يحيى بن العزيز ابن المنصور ابن المنتصر الصنهاجى وكان يملك بجاية وأعمالها إلى موضع يعرف بسيوسيرات ، وهذا الموضع هو الحد فيما بينه وبين لتونة ، فقصدته عبد المؤمن - كما ذكرنا - فى شهر سنة ٥٤٠ ، فحاصر عبد المؤمن بجاية وضيق عليها أشد التضييق ، فلما رأى يحيى بن العزيز أن لا طاقة له بدفاع القوم ولا يدان بمنعهم ، هرب فى البحر حتى أتى مدينة بونة ، وهى أول حد بلاد إفريقية ، ثم خرج منها حتى أتى قسطنطينية المغرب ، فأرسل إليه عبد المؤمن - رحمه الله - بالجيش ، فاستنزل وأتى به عبد المؤمن ، هذا بعد أن عاهد عبد المؤمن أن يؤمن يحيى فى نفسه وأهله .

ودخل عبد المؤمن بجاية وملكها ، وملك قلعة بنى حماد ، وهى معقل صنهاجة الأعظم وحرزهم الأمنع ، فيها نشأ ملكهم ، ومنها انبعث أمرهم .

وكان يحيى هذا وأبوه العزيز وجداه المنصور والمنتصر ، وجدهم الأكبر حماد - من شيعة بنى عبيد وأتباعهم والقائمين بدعوتهم ، ومن بلادهم - أعنى صنهاجة - قامت دعوة بنى عبيد ، وهم الذين أظهروها ونشروها ونصروها ، فلم يزل ملك بنى حماد هؤلاء مستمرًا ،

ودولتهم قائمة ، وأمرهم نافذاً ، لا ينازعهم أحد شيئاً مما في أيديهم ، إلى أن أخرجهم من ذلك كله وملكه بأسره وضمه إلى مملكته : أبو محمد عبد المؤمن بن على ، في التاريخ الذى تقدم ! .

ولما ملك عبد المؤمن بجاية والقلعة وأعمالها ، رتب مع الموحدين من يقوم بحماية تلك البلاد والدفاع عنها ، واستعمل عليها ابنه عبد الله ، وكر راجعاً إلى مراكش ومعه وفي جنده يحيى بن العزيز ملك صنهاجة وأعيان دولته ، فحين وصلوا إلى مراكش أمر لهم بالمنازل المتسعة والمراكب النبيلة والكسى الفاخرة والأموال الوفرة ، وخص يحيى من ذلك بأجزله ، وأسناه وأحفله ، ونال يحيى هذا عنده رتبة عالية وجاهاً ضخماً ، وأظهر عبد المؤمن عناية به لا مزيد عليها .

بلغنى من طرق عدة أن يحيى بن العزيز كان فى مجلس عبد المؤمن يوماً ، فذكروا تعذر الصرف ، فقال يحيى : أما أنا فعلى من هذا كلفة شديدة ، وعبيدى فى كل يوم يشكون إلى ما يلقون من ذلك ، ويذكرون أن أكثر حوائجهم تتعذر لقلة الصرف - وذلك أن عادتهم فى بلاد المغرب أنهم يضربون أنصاف الدراهم وأرباعها وأثمانها والخراريب ، فيستريح الناس فى هذا وتجرى هذه الصروف فى أيديهم فتتسع بياعتهم - فلما قام يحيى بن العزيز من ذلك المجلس ، أتبعه عبد المؤمن ثلاثة أكياس صُروف كلها ، وقال لرسوله : قل له لا يتعذر عليك مطلوب مادمت بحضرتنا - إن شاء الله عز وجل !

وأقام عبد المؤمن رحمه الله بمراكش ، مرتباً للأمور المختصة بالمملكة ، من بناء دور ، واتخاذ قصور ، وإعداد سلاح ، واستنزال مستعص ، وتأمين سبل ، وإحسان إلى رعية ، وما هذا سبيله .

فصل

أحوال الأندلس بعد سقوط دولة المرابطين

فأما أحوال جزيرة الأندلس ، فإنه لما كان آخر دولة أمير المسلمين أبي الحسن على بن يوسف ، اختلت أحوالها اختلالاً مفرطاً ، أوجب ذلك تخاذل المرابطين وتواكلهم ، وميلهم إلى الدعة ، وإيثارهم الراحة ، وطاعتهم النساء ، فهانوا على أهل الجزيرة ، وقلوا في أعينهم ، واجترأ عليهم العدو ، واستولى النصارى على كثير من الثغور المجاورة لبلادهم ، وكان - أيضاً - من أسباب ما ذكرناه من اختلالها ، قيام ابن تومرت بسوس ، واشتغال على بن يوسف به عن مراعاة أحوال الجزيرة .

ولما رأى أعيان تلك الجزيرة ما ذكرناه من ضعف أحوال المرابطين ، أخرجوا من كان عندهم من الولاة ، واستبد كل منهم بضبط بلده ، وكادت الأندلس تعود إلى سيرتها الأولى بعد انقطاع دولة بنى أمية ، فأما بلاد أفراغة فاستولى عليها ملك أرغن ، لعنه الله ، وملك مع ذلك سرقسطة - أعادها الله للمسلمين - وكثيراً من أعمال تلك الجهات .

واتفق أمر أهل بلنسية ومرسية وجميع شرق الأندلس على تقديم رجل من أعيان الجند اسمه عبد الرحمن بن عياض ، وكان عبد الرحمن هذا من صلحاء أمة محمد وخيارهم ، بلغنى عن غير واحد من أصحابه أنه كان مجاب الدعوة ، ومن عجائب أمره أنه كان أرق الناس قلباً وأسرعهم دمعة ، فإذا ركب وأخذ سلاحه لا يقوم له أحد ولا يستطيع لقاءه بطل ، كان النصارى يعدونه - وحده - بمائة فارس ، إذا رأوا رأيته قالوا : هذا ابن عياض ! هذه مائة فارس ! فحمى الله تلك الجهات ودفع عنها العدو ببركة هذا الرجل الصالح ، وانتشر له من الهيبة في صدور النصارى ما ردهم عن البلاد ، وأقام ابن عياض هذا بشرقى الأندلس يحفظ تلك البلاد ويذود عنها إلى أن توفي ، رحمه الله ، ونضر وجهه وشكر له سعيه ، لا أتحقق تاريخ وفاته .

وقام بأمر تلك الجهات بعده رجل اسمه محمد بن سعد ، المعروف عندهم بابن مردنيش ، كان محمد هذا خادماً لابن عياض ، يحمل له السلاح ويتصرف بين يديه في حوائجه ، فلما حضرته الوفاة اجتمع إليه الجند وأعيان البلاد فقالوا له : إلى من تُسند أمورنا وبمن تشير علينا ؟ وكان له ولد ، فأشاروا به عليه ، فقال : إنه لا يصلح ، لأنني سمعت أنه يشرب الخمر ويغفل عن الصلاة ، فإن كان ولا بد فقدموا عليكم هذا - وأشار إلى محمد بن سعد - فإنه ظاهر النجدة كثير الغناء ، ولعل الله أن ينفع به المسلمين !

فاستمرت ولاية ابن سعد على البلاد إلى أن مات في شهر سنة ٥٦٨ .

وأما أهل المرية فأخرجوا من كان عندهم أيضاً من المرابطين ، واختلفوا فيمن يقدمونه على أنفسهم ، فندب إليها القائد أبا عبد الله ابن ميمون ، ولم يكن منهم ، إنما هو من أهل مدينة دانية ، فأبى عليهم وقال : إنما أنا رجل منكم ، ووظيفتي البحر وبه عُرِفْتُ ، فكل عدو جاءكم من جهة البحر فأنا لكم به ، فقدموا على أنفسكم من شئتم غيري ! فقدموا على أنفسهم رجلاً منهم اسمه عبد الله بن محمد ، يعرف بابن الرمي ، فلم يزل عليها إلى أن دخلها عليه النصاري من البر والبحر ، فقتلوا أهلها وسبوا نساءهم وبنيتهم وانهبوا أموالهم في خبر يطول ذكره .

وملك جيان وأعمالها إلى حصن شقورة وما وإلى تلك الثغور ، رجل اسمه عبد الله ، لا أعرف اسم أبيه ، وهو معروف عندهم بابن همشك ، وربما ملك عبد الله هذا قرطبة أياماً يسيرة .

وأقامت على طاعة المرابطين أغرناطة وإشبيلية .

فهذه جملة أحوال الأندلس في آخر دعوة المرابطين ، وفي ضمن هذه الجملة جزئيات من أخبار الحصون والقلاع والمدن الصغار أضربت عن ذكرها خوفاً من الإطالة ، لأنها نكرةٌ والتعريف بها مخرج إلى الطول .

وقام بمغرب الأندلس دعاة فتن ورءوس ضلالات ، فاستفزوا عقول الجاهال ، واستمالوا

قلوب العامة ، من جملتهم رجل اسمه أحمد بن قسى ، كان فى أول أمره يدعى الولاية ، وكان صاحب حيلٍ ورب شعبذة ، وكان - مع هذا - يتعاطى صنعة البيان وينتحل طريق البلاغة ، ثم ادعى الهداية ، بلغنى ذلك عنه من طرق صحاح ، ثم لم يستقم له شىء مما أراد ، واختلف عليه أصحابه ، وكان قيامه بحصن مارتلة - وقد تقدم اسم هذا الحصن فى أخبار الدولة العبادية - فأسلمه - كما ذكرنا - أصحابه ، واختلفوا عليه ، وودسوا إليه من أخرجه من الحصن بحيلة حتى أخذه الموحدون قبضاً باليد ، فعبروا به إلى العدو ، فأتوا به عبد المؤمن رحمه الله ، فقال له : بلغنى أنك ادعيت الهداية ! فكان من جوابه أن قال : أليس الفجر فجرين : كاذباً وصادقاً ؟ فأنا كنت الفجر الكاذب ! فضحك عبد المؤمن وعفا عنه ، ولم يزل بحضرته إلى أن قتله بعض أصحابه الذين كانوا معه بالأندلس ، ولابن قسى هذا أخبار قبيحة ، مضمونها الجراءة على الله سبحانه ، والتهاون بأمر الولاية ، منعنى من ذكرها صرف العناية إلى ما هو أهم منها .

عبور الموحدين إلى الأندلس

ولما انتشرت دعوة المصامدة - كما ذكرنا - بالمغرب الأقصى ، تشوّف إليهم أعيان مغرب الأندلس ، فجعلوا يفدون فى كل يوم عليهم ، ويتنافسوا فى الهجرة إليهم ، فدخل فى ملكهم كثير من جزيرة الأندلس ، كالجزيرة الخضراء ، ورندة ، ثم إشبيلية ، وقرطبة ، وأغرناطة ، وكان الذى فتح هذه البلاد الشيخ أبو حفص عمر إيتنى المتقدم الذكر فى أهل الجماعة ، واجتمع على طاعتهم أهل مغرب الأندلس .

فلما رأى عبد المؤمن ذلك ، جمع جموعاً عظيمة ، وخرج يقصد جزيرة الأندلس ، فسار حتى نزل مدينة سبتة ، فعبر البحر ، ونزل الجبل المعروف بجبل طارق ، وسماه هو جبل الفتح ، فأقام به أشهراً ، وابتنى به قصوراً عظيمة ، وبنى هناك مدينة هى باقية إلى اليوم ، ووفد عليه فى هذا الموضع وجوه الأندلس للبيعة ، كأهل مالقة ، وأغرناطة ، وقرطبة ،

وإشبيلية ، وما إلى هذه البلاد وانضم إليها ، وكان له بهذا الجبل يوم عظيم ، اجتمع له وفي مجلسه فيه من وجوه البلاد ورؤسائها وأعيانها وملوكها من العدو والأندلس ما لم يجتمع لملك قبله ، واستدعى الشعراء في هذا اليوم ابتداءً ولم يكن يستدعيهم قبل ذلك ، إنما كانوا يستأذنون فيؤذن لهم .

محمد بن حبوس الفاسي الشاعر

وكان على بابيه منهم طائفة أكثرهم مجيدون ، فدخلوا ، فكان أول من أنشد : أبو عبد الله محمد بن حبوس من أهل مدينة فاس ، وكانت طريقته في الشعر على نحو طريقة محمد بن هانيء الأندلسي ، في قصد الألفاظ الرائعة والقعاقع الموهلة وإيثار التقدير ، إلا أن محمد بن هانيء كان أجود منه طبعًا وأحلى مهيعاً ، فأنشد في ذلك اليوم قصيدة أجاد فيها ما أراد . [أولها] :

بلغ الزمان بهديكم ما أقلا وتعلمت أيامه أن تعدلا
وبحسبه إن كان شيئاً قابلا وجد الهداية صورة فتشكلا

لم يبق على خاطري منها أكثر من هذين البيتين .

ولابن حبوس هذا قصائد كثيرة ، وكان حظياً عنده^(١) ، نال في أيامه ثروة ، وكذلك في أيام ابنه أبي يعقوب ، وكان في دولة لمتونة^(٢) مقدماً في الشعراء حتى نقلت إليهم عنه حماقات ، فهرب إلى الأندلس ، ولم يزل بها مستخفياً ينتقل من بلد إلى بلد ، حتى انتقلت الدولة المرابطية .

(١) المقصود به عبد المؤمن .

(٢) المقصود بها دولة المرابطين .

قرأ على ابنه عبد الله من خط أبيه هذه الحكاية ، قال :

دخلت مدينة شَلْب من بلاد الأندلس ، ولى يوم دخلتها ثلاثة أيام لم أطعم فيها شيئاً ، فسألت عمن يقصده إليه فيها ، فدلنى بعض أهلها على رجل يعرف بابن الملح ، فعمدت إلى بعض الوراقين فسألته سحاةً ودواةً ، فأعطانيهما ، فكتبت أبياتاً أمتدحه بها ، وقصدت داره ، فإذا هو فى الدهليز ، فسلمت عليه ، فرحب بى ورد على أحسن رد ، وتلقانى أحسن لقاء ، وقال : أحسبك غريباً ! قلت : نعم ، فقال لى : من أى طبقات الناس أنت ؟ فأخبرته أنى من أهل الأدب ، من الشعراء ، ثم أنشدته الأبيات التى قلت ، فوقعت منه أحسن موقع ، فأدخلنى إلى منزله ، وقدم إلى الطعام ، وجعل يحدثنى ، فما رأيت أحسن محاضرة منه ، فلما آن الانصراف ، خرج ثم عاد ومعه عبدان يحملان صندوقاً حتى وضعه بين يدى ، ففتحه فأخرج منه سبعمائة دينار مرابطية ، فدفعها إلى وقال : هذه لك ! ثم دفع إلى صرة فيها أربعون مثقالاً ، وقال : هذه من عندى ! فتعجبت من كلامه وأشكل على جداً ، وسألته : من أين كانت هذه لى ؟ فقال لى : سأحدثك : إنى أوقفت أرضاً من جملة مالى للشعراء ، غلتها فى كل سنة مائة دينار ، ومنذ سبع سنين لم يأتنى أحد لتوالى الفتن التى دهمت البلاد ، فاجتمع هذا المال حتى سيق إليك ، وأما هذه فمن حُر مالى ! يعنى الأربعين ديناراً ، فدخلتُ عليه جائعاً فقيراً ، وخرجت عنه شبعان غنياً .

الأصم المروانى الشاعر ، ابن الطليق

وأنشده فى ذلك اليوم رجل من ولد الشريف الطليق المروانى ، كان شريفاً من جهة أمه :

ما للعدا جُنَّة أوقى من الهرب

فقال عبد المؤمن رافعاً صوته : إلى أين ؟ فقال الشاعر :

أين المفر وخيلُ الله في الطلب ...
وأين يذهب من في رأس شاهقة ...
وقد رمته سماء الله بالشُّهب ...
والبحر قد ملأ العبرين بالعرب ...
حدث عن الروم في أقطار أندلس

فلما أتم القصيدة قال عبد المؤمن : بمثل هذا تُمدح الخلفاء ! فسمى نفسه خليفة كما ترى . . .

وجدُ هذا الشاعر هو الشريف الطليق ، طليق النعامة ، وإنما سُمي بذلك لأنه كان محبوساً في مُطبق أبي عامر محمد ابن أبي عامر الملقب بالمنصور القائم بدعوة هشام المؤيد ، وأقام في ذلك الحبس سنين ، فكتب يوماً قصة يذكر فيها ما آلت إليه حاله من ضيق الحبس وضنك العيش ، فرُفعت إلى ابن أبي عامر ، فأخذها في جملة رِقاع ودخل إلى داره ، فجاءت نعامه كانت هناك ، فجعل يُلقى إليها الرقاع ، فتبتلع شيئاً وتُلقي شيئاً ، فألقى إليها رقعة هذا الشريف في جملة الرقاع وهو لم يقرأها ، فأخذتها ثم دارت وألقته في حجره ، فرمى بها إليها ثانية ، فدارت القصر كله ثم جاءت وألقته في حجره ، فرمى بها إليها ثالثة . . . وفعلت ذلك مرارا ، فتعجب من ذلك ، وقرأ الرقعة ، وأمر بإطلاقه ، فسُمي بذلك طليق النعامة !

وأنشد في ذلك اليوم رجلٌ من أهل إشبيلية يعرف بابن سيد ، ويلقب باللص :

غمض عن الشمس واستقصر مدى زُحل وانظر إلى الجبل الراسي على جبل
أنى استقر به ، أنى استقل به أنى أرى شخصه العالي فلم يزل
فقال له عبد المؤمن : لقد ثقلتنا يارجل ! فأمر به فجلس ! وهذه القصيدة من خيار ما مدح به ، لولا أنه كدر صفوها بهذه الفاتحة .

الرصافي الرقاء الشاعر

وأنشده في ذلك اليوم الوزير الكاتب أبو عبد الله محمد بن غالب البلمسى المعروف
بالرصافي ، كان مستوطناً مدينة مالقة :

لو جئت نار الهدى من جانب الطور	قبست ما شئت من علم ومن نور
من كل زهراء لم ترفع ذؤابتها	ليلاً لسار ولم تشبب لمقرور
فيضية القدح من نور النبوة أو	نور الهداية تجلو ظلمة الزور
ما زال يقضمها التقوى بموقدها	صوامٍ هاجرة قوام ديجور
حتى أضاءت من الإيمان عن قبس	قد كان تحت رماد الكفر مكفور
نور طوى الله زند الكون منه على	سقط إلى زمن المهدي منذور
وآية كآيات الشمس بين يدي	غزو على الملك القيسى منذور
يادار دار أمير المؤمنين بسفح الطـ	طود طود الهدى ، بوركيت في الدور
ذات العمادين من عز ومملكة	على الأساسين من قُـدس وتطهير
ما كان بانك بالوانى الكرامة عن	قصر على مجمع البحرين مقصور
مواطيء من نبى طالما وصلت	فيها الخطا بين تسبيح وتكبير
حيث استقلت به نعلاه بوركنا	فطبيت كل موطوء ومعبور
حيث قامت قناة الدين ترفل في	لواء نصر على البرين منشور

في كف منشمر البردين ذي ورع
لِقَاكَ في حَالٍ غَيْبٍ من سريرته
تَسْنَمُ الْفُلْكَ في سَخَطِ المَرَارِ وَقَدْ
فَسَرْنَ يَحْمِلُنَ أَمْرَ اللَّهِ من ملك
يَوْمِي لَهُ بِسُجُودِ كُلِّ مُحَرِّكَةٍ
لَمَّا تَسَابَقْنَ في بَحْرِ الرِّزْقِاقِ بِهِ
أَهَزَّ من مَوْجِهِ أَثْنَاءَ مَسْرُورٍ ؟
كَأَنَّهُ سَالِكٌ مِنْهُ عَلَى وَجَلٍ
من السُّيُوفِ الَّتِي ذَابَتْ لِسَطْوَتِهِ
ذَوِ الْمُنَشَّاتِ الْجَوَارِي فِي أَجْرَتِهَا
أَعْدَى الْمِيَاهِ وَأَنْفَاسِ الرِّيَّاحِ لَهَا
من كُلِّ عِذْرَاءٍ حُبْلَى فِي تَرَائِبِهَا
تَجَالِهَا بَيْنَ أَيْدِي مَنْ مَجَازِفُهَا
وَرَبَّمَا خَاضَتْ التِّيَّارَ طَائِرَةً
كَأَنَّمَا عَبَرَتْ تَخْتَالُ عَائِمَةً
حَتَّى رَمَتْ جَبَلَ الْفَتْحِينَ مِنْ كَثَبٍ
لِلَّهِ مَا جَبَلُ الْفَتْحِينَ مِنْ جَبَلٍ
من شَامِخِ الْأَنْفِ فِي سَحْنَائِهِ طَلَسَ
مَعْبَرًا بِذَرَاهِ عَنْ ذُرَى مَلِكٍ

عَلَى التَّقَى وَصَفَاءِ النَّفْسِ مَقْطُورٍ
بِعَالَمِ الْقُدْسِ مَشْهُودٍ وَمَحْضُورٍ
تَوْدِينَ يَأْخِرُ أَفْلَاكَ الْعِلَا سِيرِي
بِاللَّهِ مُسْتَنْصِرٍ فِي اللَّهِ مَنْصُورٍ
مِنْهَا ، وَيُولِيهِ حَمْدًا كُلَّ تَصْرِيرٍ
تَرْكَنَ شَطِيطِهِ فِي شَكٍّ وَتَحْيِيرٍ
أَمْ خَاضَ مِنْ لُجَّةِ أَحْشَاءِ مَذْعُورٍ ؟
فِي الْأَرْضِ مِنْ مُهْجِ الْأَسْيَافِ مَقْطُورٍ
وَقَدْ رَمَى نَارَ هِيَجَاهَا بِتَسْعِيرٍ
شَكَلَ الْغَدَائِرَ فِي سَدَلٍ وَتَضْفِيرٍ
مَا فِي سَجَايَاهِ مِنْ لَيْنٍ وَتَعْطِيرٍ
رَدْعَانِ مِنْ عَنَبٍ وَرِدٍ وَكَافُورٍ
يَغْرِقْنَ فِي مِثْلِ مَاءِ الْوَرْدِ مِنْ جُورٍ
بِمِثْلِ أَجْنَحَةِ الْفُتُخِ الْكَوَاسِيرِ
فِي زَاخِرٍ مِنْ يَدَيِ وَيُؤْمِنَاهُ مَعْصُورٍ
بِسَاطِعٍ مِنْ سَنَاهِ غَيْرِ مَبْهُورٍ
مَعْظَمُ الْقَدْرِ فِي الْأَجْيَالِ مَذْكُورٍ
لَهُ مِنَ الْغَيْمِ جَيْبٌ غَيْرُ مَزْرُورٍ
مُسْتَمْطَرُ الْكَفِّ وَالْأَكْنَافِ مَمْطُورٍ

تمسى النجوم على إكليل مفرقه
وربما مسحته من ذوائبها
وأرد من ثناياه بما أخذت
مُحكك حلب الأيام أشطرها
مُقيّد الخطو جوال الخواطر في
قد واصل الصمت والإطراق مُفكرًا
كأنه مُكمدٌ مما تعبده
أخلق به وجبال الأرض راجفة
كفاه فضلًا أن انتابت مواطئه
مُستنشياً بهما ريح الشفاعة من
ما انفك أمل أمر منه بين يدي
حتى تصدى من الدنيا على رمق
مُستقبل الجانب الغربي مرتقبًا
لبارق من حُسامٍ سله قدر
إذا تالق قيسيًا أهاب به
ملك أتى عظمًا فوق الزمان فما
ما عن في الدين والدنيا له أرب
ولا رمى من أمانيه إلى غرض
حتى كأن لله في كل أونية

في الجو حائمة مثل الدنانير
بكل فضل على فوديه مجرور
منه مقاحم أعواد الدهارير
وساقها سوق حادى العير للعير
عجيب أمره من ماضٍ ومنظور
بإدى السكينة مُغبر الأساريير
خوف السوعيدى من دك وتسير
أن يطمئن غداً من كل محذور
نعلا ملك كريم السعى مشكور
ثرى إمام بأقصى الغرب مقبور
يوم القيامة محتوم ومقدور
يستنجز الوعد قبل النفخ في الصور
كأنه باهت في جو أسمر
بالغرب من أفق البيض المشاهر
إلى شفى من مُضاع الدين مورتور
يمر فيه بشيء غير محقور
إلا تأتى له من غير تعذير
إلا هدى سهمه نجح المقادير
سُلطان رق على الدنيا وتسخير

مميز الجيش ، مُلتفًا مواكبه
من الأولى خضعُوا قسراً له وعنوا
من بعد ما عاندوا أمراً فما تركوا
بقية الحرب ، فاتوها وما بهم
لا ينكر القوم مما في أكفهم
إذا صدعت بأمر الله مجتهداً
لا يذهب لتقليل أخو سبب
فالبحر قد عاد من ضرب العصا يبساً
وإنما هو سيف الله قلده
فإن يكن بيد المهدي قائمه
والشمس إن ذكرت موسى فما نسيت

من كل مثلول عرش الملك مقهور
لأمره بين منهي ومأمور
إذ أمكن العفو ميسوراً لمعسور
في الضرب والطعن سيماءً لتقصير
بيض مفاليل أو سمر مكاسير
ضربت - وحدك - أعناق الجماهير
من الأمور ، ولا يركن لتكثير
والأرض قد غرقت من فور تنور
أقوى الهداة يداً في دفع محذور
فموضع الحد منه حد مشهور
فتاة يوشع قماع الجبابير

وكان الرصافي يوم أنشد هذه القصيدة لم تكمل له عشرون سنة ، وهو من مجيدى شعراء
عصره ، لاسيما في المقاطيع ، كالخمسة الأبيات فما دونها ، وقد رويت شعره عن جماعة ممن
لقيه ، وقد رأيت أن أورد منه ها هنا نبذة يسيرة تدل على ما وصفناه به فمن ذلك قوله يصف
نهر إشبيلية الأعظم ، وهو نهر لا نظير له في الدنيا :

متسايلاً من درة لصفائه
صدئت لفيئتها صفيحة مائه
كالدارع استلقى بظل لوائه

ومهدل الشطين تحسب أنه
فاعات عليه مع الهجيرة سرحة
فتراه أزرق في غلالة سمره

وله ، وقد اجتمع مع إخوان له في بعض العشايا في بستان رجل يقال له موسى بن رزق :

ما مثل موضعك ابن رزق موضع	روض يرق وجدول يتدفع
فكانما هو من محاجر عادة	فالحسن ينبث في ثراه وينبع
وعيشة لبست رداء شحوبها	والجو بالغيم الدقيق مقنع
بلغت بنا أمد السرور تألفا	والليل نحو فراقنا يتطلع
قابل بها رمق الغبوق فقد أتى	من دون قرص الشمس ما يتوقع
سقطت فلم يملك نديمك ردها	فوددت ياموسى لو انك يوشع

وله يصف عشية أيضاً في موضع هذا الرجل المتقدم الذكر :

محل ابن رزق جر فيه ذيوله	من المزن ساق يحسن الجر والسقيا
ذكرت عشياً فيك لا ذم عهد	وإن نحن لا نهتج ببهجته لقياً
ولم يتعلق بى منك عند افتراقنا	سوى عبق من مسك قينتك اللميا
وكنت أرانى في الكرى وكأننى	أناول كالدينار من ذهب الدنيا
فلما انطوى ذاك الأصيل وخسئه	على ساعة من أنسنا صحت الرؤيا

وله يصف دولاباً :

وذى حنين يكاد شوقاً	يختلس الأنفس اختلاسا
لما غدا للرياض جارا	قال له المحل لا مساسا
يبتسم الـروض حين يبكى	بأدمع ما رأين باسا
من كل جفن يسئل سيفاً	صار له غمده رئاسا

وله ، وقد رأى صبيًا يتباكى ويجعل من ريقه على عينيه ، يحكى بذلك الدموع :

عذيري من جذلان يُبدي كآبة	وأضلّعه مما يُحاوله صفرُ
أميلد مياس إذا قاده الصبا	إلى ملح الإدلال أيّدة السحرُ
يبُل مآقى زهرتيه بريقه	ويحكي البكا عمداً كما ابتسم الزهرُ
ويوهم أن الدمع بلّ جفونه	وهل عُصرت يوماً من النرجس الخمرُ ؟

وقال يصف نائماً قد تحبب العرق على خده :

ومُفهفٍ كالغصن إلا أنه	سلب التثني النوم عن أثناؤه
أضحى ينام وقد تحبب خدّه	عرقاً فقلت : الوردُ رُش بمائه

وللرصافي هذا افتنان في الآداب ، وكان - رحمه الله - عفيف الطعمة نزيه النفس ، لا يجب أن يشتهر بالشعر مع إجادته في كثير منه .

وصل الحديث عن عبد المؤمن بن علي

وأقام عبد المؤمن بجبل فتح ، مرتباً للأموال ، ممهداً للمملكة ، وأعيان البلاد يقدون عليه في كل يوم ، إلى أن تم له ما أراد من إصلاح ما استولى عليه من جزيرة الأندلس .

فولى مدينة إشبيلية وأعمالها ابنه يوسف ، وهو الذي ولى الأمور بعده على ما سيأتى بيانه ، وترك معه بها من أشياخ الموحدين وذوى الرأى والتحصيل منهم من يرجع إليه في أموره ، ويعول عليه فيما ينويه .

وولى قرطبة وأعمالها أبا حفص عمر إيتى .

وولى أغرناطة وأعمالها ابنه عثمان بن عبد المؤمن ، يكنى أبا سعيد ، وكان من نبهاء أولاده
ونجبائهم وذوى الصرامة منهم ، وكان محباً فى الآداب ، مؤثراً لأهلها ، يهتز للشعر ويثيب
عليه ، واجتمع له من وجوه الشعراء وأعيان الكتاب عصابة ما علمتها اجتمعت لملك
منهم بعده .

ثم كر عبد المؤمن راجعاً إلى مراكش ، بعد ماملاً مملكه من أقطار جزيرة الأندلس
خيلاً ورجالاً من المصامدة والعرب وغيرهم من أصناف الجند .

منازل العرب الهلالية فى المغرب والأندلس

وقد كان حين أراد العبور إلى جزيرة الأندلس ، استنفر أهل المغرب عامة ، فكان فيمن
استنفره العرب الذين كانوا ببلاد يحيى بن العزيز^(١) ، وهم قبائل من هلال بن عامر ،
خرجوا إلى البلاد حين نحلّ بنو عبید بينهم وبين الطريق إلى المغرب ، فعاثوا فى القيروان عيثاً
شديداً أوجب خرابها إلى اليوم ، ودوخوا مملكة بنى زيرى بن مناد^(٢) ، وهذا بعد موت المعز
ابن باديس ، فانتقل تميم إلى المهديّة^(٣) ، وسار هؤلاء العرب حتى نزلوا على المنصور ابن
المنتصر فصالحهم على أن يجعل لهم نصف غلة البلاد ، من تمرها وبرها وغير ذلك ، فأقاموا
على ذلك باقى أيامه ، وأيام ابنه الملقب بالعزيز ، وأيام يحيى ، إلى أن ملك البلاد أبو محمد
عبد المؤمن ، رحمه الله ، فأزال ذلك من أيديهم ، وصيرهم جنداً له ، وأقطع رؤساءهم
بعض تلك البلاد .

فكتب إليهم رسالة يستنفرهم إلى الغزو بجزيرة الأندلس ، وأمر أن تُكتب فى آخرها
أبيات قالها - رحمه الله - فى ذلك المعنى وهى :

(١) المقصود بهم مملكة حماد بإفريقية .

(٢) انظر : أخبار حماد .

(٣) وهو تميم ابن المعز بن بادمين الذى هرب إلى القيروان بسبب ثورات العرب .

وقودوا إلى الهيجاء جُرد الصواهل
وشُدوا على الأعداء شدة صائل
يفوت الصبا في شدة المتواصل
على الماء منسوج وليس بسائل
وما جمعت من باسل وابن باسل
عواقبها منصورة بالأوائل
تنجز من بعد المدى المتطاول
بها يُنصف التحقيق من كل باطل
وحسبكمو والله أعـدل عادل
وتسريحكم في ظل أخضر هـاطل
عليكم بخير عاجل غير آجل
وللمدلج السارى صفاء المناهل

أقيموا إلى العلياء هُوج الرواحل
وقوموا لنصر الدين قومة ثائر
فما الغزُ إلا ظهر أجرد سابح
وأبيض ماثور كأن قرنـده
بنى العم من عليا هلال بن عامر
تعالوا فقد شُدت إلى الغزو نيّة
هى الغزوة الغراء والموعـد الذى
بها تُفتح الدنيا ، بها تُبلغُ المنى
أهـبنا بكم للخير والله حسبنا
فما همنا إلا صلاح جميعكم
وتسويغكم نـعمى تـرف ظلالها
فلا تتوانوا فالبدار غنيمـة

فاستجاب له منهم جمع ضخم ، فلما أراد الانفصال عن الجزيرة رتبهم فيها ، فجعل بعضهم من نواحي قرطبة ، وبعضهم من نواحي إشبيلية مما يلى مدينة شريش وأعمالها ، فهم بها باقون إلى وقتنا هذا - وهو سنة ٦٢١ - وقد انتشر من نسلهم بتلك المواضع خلق كثير ، وزاد فيهم أبو يعقوب وأبو يوسف حتى كثروا هنالك ، فبالجزيرة اليوم من العرب من زغبة ورياح وجشم بن بكر وغيرهم نحو من خمسة آلاف فارس سوى الرّجالة .

وكان عبور عبد المؤمن - رحمه الله - إلى الجزيرة ونزوله بجبل الفتح في سنة ٥٣٨ هـ ، ثم كر - كما ذكرنا - راجعاً إلى مراكش ، فأخبرني غير واحد ممن أرضى نقله ، أنه لما نزل مدينة سلا - وهي مدينة على البحر الأعظم المحيط ، ينصب إليها نهر عظيم يصب في البحر المذكور - عبر النهر ، وُضربت له خيمة على الشاطئ ، وجعلت العساكر تعبر قبيلة بعد قبيلة ، فلما نظر إلى كثرة العدد وانتشار العالم ، خر ساجداً ، ثم رفع رأسه وقد بلّ الدمع لحيته ، والتفت إلى من عنده وقال : « أعرف ثلاثة أشخاص وردوا هذه المدينة لا شيء لهم إلا رغبة واحد ، فراموا عبور هذا النهر ، فأتوا صاحب القارب وبذلوا له الرغبة على أن يعبروا ثلاثتهم فقال : لا آخذه إلا على اثنين خاصة ، فقال لهم أحدهم - وكان شاباً جليداً - : خذا ثيابي معكما وأعبر أنا سباحة ! فأخذا ثيابه معهما ، وصعدا في القارب ، فجعل الشاب يسبح ، فكلما أعيا دنا من القارب ووضع يديه عليه ليستريح ، فضربه صاحبه بالمجداف الذي معه حتى يؤله ، فما بلغ البر إلا بعد جهد شديد ! .

فما شك السامعون للحكاية أنه العابر سباحة ، وأن الاثنين المذكورين هما ابن تومرت وعبد الواحد الشرقي .

ثم سار حتى أتى مراكش ، فنزلها ، وأخذ في البناء والغراسة وترتيب القصور ، غير مُخل بشيء مما تحتاج إليه المملكة من السياسة وتدبير الأمور وبسط العدل والتحبب إلى الرعية وإخافة من تجب إخافته .

وأخبرني السيد حقيقة والماجد خلقاً وخليقة ، أبو زكريا يحيى ابن الإمام أمير المؤمنين أبي يعقوب ابن الإمام أمير المؤمنين أبي محمد عبد المؤمن بن علي : أنه رأى على ظهر كتاب الحماسة بخط الخليفة عبد المؤمن هذين البيتين ، وقال لي - رحمه الله : لا أدري أهما له أو لغيره :

وخلها سيرة تبقى على الحقب
وحكم السيف لا تعباً بعاقبة

ولا ترد صدور الخيل بالكتب
فما تنال بغير السيف منزلة

وقد كان عبد المؤمن حين فصل عن بجاية وولى عليها ابنه عبد الله - حسبما تقدم - عهد إليه أن يشن الغارات على نواحي إفريقية ، أن يضيق على تونس ويمنع عنها المرافق التي تصل إليها على طريقه ، ففعل ذلك .

[غزو الموحيدين لإفريقية]

ثم إن عبد الله تجهّز في جيش عظيم من المصامدة والعرب وغيرهم ، وسار حتى نزل على مدينة تونس ، وهي حاضرة إفريقية بعد القيروان ، وكرسى مملكته ، ومقر تدبيرها ، وإياها يستوطن والى إفريقية ، لم يزل هذا معروفاً من أمرها إلى وقتنا هذا - وهو سنة ٦٢١ - فحاصرها عبد الله المذكور وأخذ في قطع أشجارها وتغوير مياهها ، وكان الذى يملكها فى ذلك الوقت لوجار بن لوجار المعروف بابن الدوقة الرومى صاحب صقلية ، لعنه الله ! وكان العامل عليها رجلاً من المسلمين اسمه عبد الله ، يعرف بابن خراسان^(١) ، ولم يزل عاملاً عليها حتى أخرجه الموحدون فى التاريخ الذى سيذكر ، فلما طال على ابن خراسان الحصار ، أجمع رأيه ورأى أهل البلد من الجند على الخروج لقتال المصامدة ، ففعلوا ذلك ، وخرجوا بخيل ضخمة ، فالتقوا هم وأصحاب عبد الله^(٢) فانهزم أصحاب عبد الله ، وقتل منهم خلق كثير ، ورجع عبد الله ببقية أصحابه إلى بجاية ، فكتب إلى أبيه يخبره بذلك .

فتح المهديّة واسترجاعها من يد الصقليين

فلما كان آخر سنة ٥٥٣ أخذ عبد المؤمن فى الحركة إلى إفريقية ، فجمع جمعاً عظيمة من المصامدة وغيرهم من جُند المغرب ، وسار حتى نزل على مدينة تونس ، فافتتحها عنوة ،

(١) يطلق عليه ابن الأثير فى كتابه الكامل فى التاريخ : أحمد بن خراسان .

(٢) وهو عبد الله بن عبد المؤمن .

وفصل عنها إلى مهدية بنى عبيد ، وفيها الروم أصحاب ابن الدوقة ، وفيها معهم يحيى بن حسن بن تميم ابن المعز بن باديس ابن المنصور بن بلجين بن زيرى بن مناد الصنهاجى ، ملوك القيروان ، فنزل عبد المؤمن عليها فحاصرها أشد الحصار ، وهى من معاقل المغرب المنيعة ؛ لأن بنيانها غاية فى الإحكام والوثاقة ، بلغنى أن عرض حائط سورها ممشى ستة أفراس فى صف واحد ، ولا طريق لها من البر إلا على باب واحد ، والبحر فى قبضة من فى البلد : يُدخل الشينى كما هو بمقاتلته إلى داخل دار الصناعة ، لا يقدر أحد ممن فى البر على منعه ، فبهذا قدر الروم على الصبر على الحصار ، لأن النجدة كانت تأتيهم من صقلية فى كل وقت ، وأقام عبد المؤمن وأصحابه عليها سبعة أشهر إلا أياماً ، وأصابتهم عليها شدة شديدة من غلاء السعر ، بلغنى من غير واحد أنهم اشتروا الباقلاء فى العسكر ، سبع باقلات بدرهم مؤمنى ، وهو نصف درهم النصاب ، ثم افتتحها عبد المؤمن - رحمه الله - بعد أن أمّن النصارى الذين بها على أنفسهم ، على أن يخرجوا له عن البلد ويلحقوا بصقلية بلدهم حيث مملكة صاحبهم : ففعلوا ذلك ، ودخل عبد المؤمن وأصحابه المهدية فملكوها .

وبعث إلى قابس من افتتحها ، وفيها الروم أيضاً .

امتداد مملكة الموحيدين إلى الشرق

ثم افتتح طرابلس المغرب ، وأرسل إلى بلاد الجريد ، وهى توزر ، وقفصة ، ونفطة ، والحامة ، وما إلى هذه البلاد ، فافتحت كلها ، وأخرج الإفرنج منها وألحقهم ببلادهم ، كما تقدم ، فمحا الله به الكفر من إفريقية وقطع عنها طمع العدو ، فانتبه بها الدين بعد خموله ، وأضاء كوكب الإيمان بعد انطماسه وأفوله .

وتم لعبد المؤمن - رحمه الله - ملك إفريقية كلها منتظماً إلى مملكة المغرب ، فملك فى

حياته من طرابلس المغرب إلى سوس الأقصى من بلاد المصامدة ، وأكثر جزيرة الأندلس ،
وهذه مملكة لم أعلمها انتظمت لأحد قبله منذ أن اختلت دولة بنى أمية في وقته .

ألوان من شكر النعمة

ثم كر عبد المؤمن راجعاً من إفريقية ، بعدما استولى على بلادها ودان له أهلها ،
فأخبرني بعض أشياخ الموحدين من ذوى التحصيل منهم والثقة ، أن عبد المؤمن مر في
طريقه راجعاً من إفريقية ببجاية ، فدخل البلد متنزهاً فيه ، فمر بسوقة بناحية باب من
أبوابها يدعى باب تاطنت ، فوقف ووقفت معه وجوه دولته ، فسأل عن بيع بها سماه باسمه
فأخبره أهل السوقة بوفاته ، فقال : هل خلف عقباً ؟ قالوا : نعم ، فأمر بشراء جميع
الدكاكين التى بتلك السوقة وأوقفها عليهم ، وأمر لهم بهال كثير ، ثم التفت إلى بعض
خواصه وقال له : أتيت إلى هذا البيع ولى وللإمام - يعنى ابن تومرت - ولجماعة من أصحابنا
من الطلبة أيام لم نطعم فيها ، وما معى إلا سكين الدواة ، فأخذتُ منه خبزاً وإداما ، ثم
وضعت عنده السكين رهنا على ذلك ، فأبى قبولها وقال لى : إنى توسمت فيك الخير ،
فمتى أعوزك شىء فهُلم الدكان فهو بين يديك وبحكمك ! فحقه على أكثر من هذا .

ونظر في هذا اليوم الذى ركب فيه مخترقاً بجاية إلى يحيى بن العزيز^(١) يمشى بين يديه
راجلاً وقد علاه الغبار ، فدمعت عيناه ، واستدعاه ، فقال له : أتذكر يوماً خرجت إلى
بعض منتزهاتك ، فأذكر أنى جمعنى وإياك هذا الباب ، فوطئت دابتك عقبى ، فلما نظرت
إليك أمرت أحد عبيدك فوكزنى وكزة كدت أقع منها لفيئ ! فاستحيا يحيى وتغير لونه
وأطرق ، وجعل يقول : الله الله يامولاي ! وظن أنه الشر ، فلما رأى ذلك منه قال له : إنما
ذكرتُ لك ذلك على طريق الاعتبار ، ولتذكر وتنظر كيف تقلب الأيام بأهلها ! وأمر له بما
زال به روعه .

(١) كان صاحب عرش منطقة بجاية قبل عبد المؤمن .

ومر في طريقه هذا ما بين البطحاء وتلمسان بموضع قد التف فيه الدوح ، فجاءت منه دوحة عظيمة في وسطها رحبة نقية ، فأمر أن يضرب خبأؤه هنالك ، وهو غير منزل معروف ، فلما نزل ونزلت العساكر واستقر بهم النزول ، قال لبعض خواصه : أتدرون لم آثرت النزول بهذا المكان ؟ قالوا : لا ؛ قال : ذلك لأنى بت بهذا الموضع في بعض الليالى جائعاً مقروراً ، وكانت ليلة ممطرة ، فما زال هذا الدوح وقائى حتى أصبحت ، فأردت النزول هنا على هذه الحالة لأشكر الله سبحانه على الفرقى ما بين المنزلتين والفصل ما بين الميتين ! ثم قام فتوضأ وصلى ركعتين شكراً لله عز وجل . وجدتُ هذه الحكاية بخط رجل من ولد عبد المؤمن اسمه موسى بن يوسف بن عبد المؤمن .

وبدا له في هذا الوجه أن يمر على القرية التى تسمى تاجرا - وبها كان مولده كما تقدم - لزيارة قبر أمه وصلة من هناك من ذوى رحمه ، فلما أطل عليها والجيش قد انتشرت بين يديه وقد خفقت على رأسه أكثر من ثلاثمائة راية مابين بنود وألوية ، وهُزّت أكثر من مائتى طبل - وطبولهم في نهاية الكبر وغاية الضخامة ، يخيل لسامعها إذا ضربت أن الأرض من تحته تهتز ويحس قلبه يكاد يتصدع من شدة دويها - فخرج أهل القرية للقائه والتسليم عليه بالخلافة ، فقالت امرأة عجوز من عجائز القرية ، ممن كانت تصحب أمه : هكذا يعود الغريب إلى بلده ! تقول ذلك رافعة صوتها . . .

ونازع عبد المؤمن الأمر قومٌ من قرابة ابن تومرت يُعرفون بأيت ومغار - معناه بالعربية : بنو ابن الشيخ - وانتهوا في ذلك إلى أن أجمع رأيهم ورأى من وافقهم على سوء صنيعهم على أن يدخلوا على عبد المؤمن خبأؤه ليلاً فيقتلوه ، وظنوا أن ذلك يخفى من أمرهم ، وأن عبد المؤمن إذا فُقد ولم يُعلم من قتله صار الأمر إليهم ، لأنهم أحق به ، إذ كانوا أهل الإمام وقربته وأولى الناس به ، فأعلم بما أرادوه من ذلك رجلٌ من أصحاب ابن تومرت ، من خيارهم ، اسمه إسماعيل بن يحيى الهزرجى ، فأتى عبد المؤمن فقال له : يا أمير المؤمنين ، لى إليك حاجة ! قال : وما هى يا أبا إبراهيم ؟ فجميع حوائجك عندنا مقضية ! قال : أن تخرج عن هذا الخباء وتدعنى أبيتُ فيه ! ولم يُعلمه بمراد القوم ، فظن عبد المؤمن أنه إنما يستوهبه الخباء

لأنه أعجبه ، فخرج عنه وتركه له ، فبات فيه إسماعيل المذكور ، فدخل عليه أولئك القوم فتولوه بالحديد حتى برد ، فلما أصبحوا ورأوا أنهم لم يُصيبوا عبد المؤمن ، فروا بأنفسهم حتى أتوا مراکش وراموا القيام بها ، فأتوا البوابين الذين على القصور فطلبوا منهم المفاتيح ، فأبوا عليهم ، فضربوا عنق أحدهم وفر باقيهم ، وكادوا يغلبون على تلك القصور ، ثم إن الناس اجتمعوا عليهم ، من الجند وخاصة العبيد ، فقاتلوهم قتالاً شديداً من لدن طلوع الفجر إلى طلوع الشمس ، ثم إن العبيد غلبوهم على أمرهم ، ولم يزل الناس يتكاثرون عليهم إلى أن أخذوا قبضاً باليد ، فقيّدوا وجعلوا في السجن إلى أن وصل أبو محمد عبد المؤمن - رحمه الله - إلى مراکش ، فقتلهم صبراً ، وقتل معهم جماعة من أعيان هرغة ، بلغه أنهم قادحون في ملكه متربصون به .

ولما أصبح أبو إبراهيم إسماعيل المتقدم الذكر في الخباء مقتولاً على الحال التي ذكرنا ، أعظم ذلك عبد المؤمن ووجد عليه وجداً مفرطاً أخرجه عن حد التمسك إلى حيز الجزع ، فأمر بغسله وتكفينه ، وصلى عليه بنفسه ، ودُفن .

ولم يترك إسماعيل هذا من الولد سوى ولد واحد ذكر اسمه يحيى ، نال يحيى هذا في أيام أبي [يوسف] يعقوب جاهاً متسعاً ورتبة عالية ، وكذلك في أيام أبي عبد الله [محمد] ، كانت أكثر أمورهم ترجع إليه ، لم يزل كذلك إلى أن مات في شهور سنة ٦٠٢ وترك بنتاً واحدة تزوجها أمير المؤمنين أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن ، اسمها فاطمة ، لا عقب له منها ، طال عمرها ، وتركها بالحياة حين فصلت عن مراکش في شهور سنة ٦١١ .

ولإسماعيل هذا مع ابن تومرت خبر يقرب مما قدمنا في النصيح والتحذير ، وتلطف فيه إسماعيل غاية التلطف ، وذلك أن ابن تومرت حين خرج من مراکش على الحال التي تقدمت من إخراج أمير المسلمين إياه عنها ، سار حتى نزل الضيعة التي فيها أبو إبراهيم ، فدخل المسجد ، فاجتمع أهل الضيعة على باب المسجد ينظرون إلى ابن تومرت ويقول بعضهم لبعض همساً : هذا الذي نفاه أمير المسلمين عن بلاده لإفساده عقول الناس ،

ونحو هذا القول ، وهموا بقتله تقرُّبًا بذلك إلى أمير المسلمين ، فلما رأى ذلك أبو إبراهيم من أمرهم ، تقدم إلى ابن تومرت فسأله عن إعراب هذه الآية : ﴿ إِن الْمَلَأُ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ﴾ ^(١) ففهم ابن تومرت ما أراد ، وخرج عن تلك الضيعة ، وعرف لأبى إبراهيم نصحه ، ثم لحق به أبو إبراهيم هذا بعد ما اشتهر أمره بتينمل ، فهو معدود في أهل الجماعة .

ولما قتل عبد المؤمن أولئك القوم الذين قدمنا ذكرهم صبراً ، هابه المصامدة وسائر أهل دولته ، وعظم أمره في صدورهم .

وأقام عبد المؤمن بمراكش بقية سنة ٥٥ وسنة ٦ وسنة ٧ وفي أول سنة ٥٨ خرج أمره إلى الناس كافة بالغزو إلى بلاد الروم من جزيرة الأندلس ، وكتب عنه الكتب إلى سائر الجهات يستنفر الناس ويحضهم على الجهاد ويرغبهم فيه ، فاجتمعت له جموع عظيمة ، وخرج يقصد جزيرة الأندلس مظهرًا للغزو والاحتساب ، ويتمم أيضًا مع ذلك ما بقى عليه من مملكتها مما بيد محمد بن سعد المتقدم الذكر ^(٢) ، فسار بالجيوش حتى نزل مدينة سَلا ، فأقام بها ينتظر تكامل العساكر ، فاعتل علته التي مات منها - رحمه الله .

[وفاة عبد المؤمن وعهده لولده]

وكانت وفاته ، كما تقدم ، في السابع والعشرين من جمادى الآخرة من هذه السنة ، أعنى سنة ٥٨ .

وكان قد عهد في حياته إلى أكبر أولاده محمد ، وبايعه الناس ، وكتب بيعته إلى البلاد ، فأبى تمام هذا الأمر لمحمد هذا ما كان عليه من أمور لاتصلح معها الخلافة ، من إدمان شرب الخمر ، واختلال الرأي ، وكثرة الطيش ، وجبن النفس ، ويقال إنه مع هذا كان به ضربٌ من الجُذام ، فالله أعلم .

(١) سورة القصص : الآية : ٢٠ : مكة .

(٢) هو ملك منطقة شرق الأندلس محمد بن سعد بن مردنيش .

ولما مات عبد المؤمن ، اضطرب أمر محمد هذا واختلف عليه اختلافا كثيراً ، فكانت ولايته إلى أن خلع خمسة وأربعين يوماً ، واتفقوا على خلعه في شعبان من هذه السنة ، وكان الذى سعى فى خلعه - مع ما قدمنا من استحقاقه لذلك - أخواه يوسف وعمر .

ذكر ولاية أبى يعقوب يوسف بن عبد المؤمن

وما يتعلق بها

ولما تم خلع محمد فى التاريخ المذكور ، بعد اتفاق من وجوه الدولة على ذلك ، دار الأمر بين اثنين من ولد عبد المؤمن : يوسف ، وعمر ، وهما من نبهاء أولاده ونجبائهم وذوى الرأى والغناء منهم ، فأبأها عمر منها وتأخر عنها مختاراً ، وبايع لأخيه أبى يعقوب ، وسلم له الأمر ، حملة على ذلك فرط عقله وإيثار دينه وحب المصلحة للمسلمين ، لأنه كان يعلم من نفسه أشياء لا يصلح معها لتدبير المملكة وضبط أمور الرعية ، فبايع الناس أباً يعقوب ، واتفقت عليه الكلمة ، فلم يختلف عليه أحد من الناس من إخوته ولا غيرهم ، وذلك كله بحسن سعى أبى حفص عمر بن عبد المؤمن ، وشدة تلافه ، وجودة رأيه ، فاستوثق لأبى يعقوب أمره ، وتمت بيعته فى التاريخ المذكور ،

وكان الساعى فيها والقائم بها ومديرها إلى أن تمت - كما ذكرنا - أخوه لأبيه وأمه ، أبو حفص المتقدم الذكر .

وأبو يعقوب هذا هو يوسف بن عبد المؤمن بن على ، أمه وأم أخيه أبى حفص ، امرأة حرة اسمها زينب ابنة موسى الضرير ، كان [موسى هذا] من [شيوخ] أهل تينمل وأعيانهم ، [من ضيعة يقال لها : أنسا] ، وكان عبد المؤمن يستخلفه على مراکش إذا خرج عنها ، وكانت مصاهرته إياه أيام كان عبد المؤمن بتينمل ، برأى ابن تومرت ، وخلف موسى هذا من الولد الذكور ثلاثة ، إبراهيم ، وعليا ، ومحمدا ، وبنات .

صفة أبى يعقوب

كان أبيض تعلوه حمرة ، شديد سواد الشعر ، مستدير الوجه ، أفوه ، أعين ، إلى الطول ما هو ، فى صوته جهارة ، رقيق حواشى اللسان ، حلو الألفاظ ، حسن الحديث ، طيب المجالسة ، أعرف الناس كيف تكلمت العرب ، وأحفظهم لأيامها ومآثرها وجميع أخبارها فى الجاهلية والإسلام ، صرف عنايته إلى ذلك أيام كان بإشبيلية والياً عليها فى حياة أبيه ، ولقى بها رجالاً من أهل علم اللغة والنحو والقرآن ، منهم الأستاذ اللغوى المتقن أبو إسحاق إبراهيم بن عبد الملك المعروف عندهم بابن ملكون ، فأخذ عنهم جميع ذلك وبرع فى كثير منه .

أخبرنى من لقيته من ولده ، كأبى زكريا ، وأبى عبد الله ، وأبى إبراهيم إسحاق ، وغيرهم ممن لقيته وشافهته منهم ، أنه كان أحسن الناس ألفاظاً بالقرآن ، وأسرعهم نفوذ خاطر فى غامض مسائل النحو ، وأحفظهم للغة العربية ، وكان شديد الملوكية ، بعيد الهمة سخياً جواداً ، استغنى الناس فى أيامه وكثرت فى أيديهم الأموال : هذا مع إشار للعلم شديد ، تعطش إليه مفرط ، صح عندى أنه كان يحفظ أحد الصحيحين - الشك منى ، إما البخارى أو مسلم ، وأغلب ظنى أنه البخارى - حفظه فى حياة أبيه بعد تعلم القرآن ، هذا مع ذكر جمل من الفقه ، وكان له مشاركة فى علم الأدب ، واتساع فى حفظ اللغة ، وتبحر فى علم النحو حسبما تقدم ، ثم طمح به شرف نفسه وعلو همته إلى تعلم الفلسفة ، فجمع كثيراً من أجزاءها ، وبدأ مع ذلك بعلم الطب ، فاستظهر من الكتاب المعروف بالمالكى أكثره ، مما يتعلق بالعلم خاصة دون العمل ، ثم تخطى ذلك إلى ما هو أشرف منه من أنواع الفلسفة ، وأمر بجمع كتبها ، فاجتمع له منها قريب مما اجتمع للحكم المستنصر بالله الأموى .

أخبرني أبو محمد عبد الملك الشذوني^(١) ، أحد المتحققين بعلم الطب وأحكام النجوم ، قال : كنت في شببتي أستعير كتب هذه الصناعة - يعني صنعة الأحكام - من رجل كان عندنا بمدينة إشبيلية ، اسمه يوسف ، يُكنى أبا الحجاج ، يعرف بالمراني (بتخفيف الراء) ، كانت عنده جملة كبيرة وقعت إلى أبيه في أيام الفتنة بالأندلس ، فكان يعيرني إياها في غرائر : أحمل غرارة وأجىء بغرارة ، من كثرتها عنده ، فأخبرني في بعض الأيام أنه عدم تلك الكتب بجملتها ، فسألته عن السبب الموجب لذلك ، فأسر إلى : إن خبرها انتهى إلى أمير المؤمنين ، فأرسل إلى داري وأنا في الديوان لا علم عندي بذلك ، وكان الذي أرسل كافور الخصى من جماعة من العبيد الخاصة ، وأمره ألا يروع أحدًا من أهل الدار ، وألا يأخذ سوى الكتب ، وتوعده والذين معه أشد الوعيد إن نقص أهل البيت إبرة فما فوقها ، فأخبرت بذلك وأنا في الديوان ، فظننته يريد استصفاء أموالى ، فركبت وما معى عقلى ، حتى أتيت منزلى ، فإذا الخصى كافور الحاجب واقف على الباب والكتب تخرج إليه ، فلما رآنى وتبين دُعرى قال لى : لا بأس عليك ! وأخبرني أن أمير المؤمنين يسلم علىّ ، وأنه ذكرني بخير ! ولم يزل ييسطنى حتى زال ما فى نفسى ، ثم قال لى : سل أهل بيتك هل راعهم أحدٌ أو نقصهم شيء من متاعهم ؟ فسألهم ، فقالوا : لم يرعنا أحدٌ ولم ينقصنا شيء ، جاء أبو المسك حتى استأذن علينا ثلاث مرات ، فأخلى لنا له الطريق ، ودخل هو بنفسه إلى خزانة الكتب فأمر بإخراجها . فلما سمعت هذا القول منهم زال ما كان فى نفسى من روع .

وولَّوه بعد أخذهم لهذه الكتب منه ولاية ضخمة ما كان يحدث بها نفسه ، ولم يزل يجمع الكتب من أقطار الأندلس والمغرب ، ويبحث عن العلماء ، وخاصة أهل علم النظر ، إلى أن اجتمع له منهم ما لم يجتمع لملك قبله ممن ملك المغرب .

(١) نسبة إلى منطقة شذونة وهى تابع لإشبيلية .

[أبو بكر ابن طفيل]

وكان من أصحابه من العلماء المتفنين ، أبو بكر محمد بن طفيل ، أحد فلاسفة المسلمين ، كان متحقيقاً بجميع أجزاء الفلسفة ، قرأ على جماعة من المتحقيقين بعلم الفلسفة ، منهم أبو بكر بن الصائغ المعروف عندنا بابن باجة وغيره ، ورأيت لأبي بكر (١) هذا تصانيف في أنواع الفلسفة من الطبيعيات والإلهيات وغير ذلك ، فمن رسائله الطبيعيات رسالة سماها رسالة « حى بن يقظان » غرضه فيها بيان مبدأ النوع الإنسانى على مذهبه ، وهى رسالة لطيفة الجرم كبيرة الفائدة فى ذلك الفن ، ومن تصانيفه الإلهيات رسالة فى النفس رأيها بخطه رحمه الله ، وكان قد صرف عنايته فى آخر عمره إلى العلم الإلهى ونبذ ما سواه ، وكان حريصاً على الجمع بين الحكمة والشريعة ، معظماً لأمر النبوات ظاهراً وباطناً ، هذا مع اتساع فى العلوم الإسلامية ، وبلغنى أنه كان يأخذ الجامكية مع عدة أصناف من الخدمة ، من الأطباء والمهندسين والكتاب والشعراء والرماة والأجناد ، إلى غير هؤلاء من الطوائف ، وكان يقول : لو نفق عليهم علمُ الموسيقى لأنفقته عندهم ! وكان أمير المؤمنين أبو يعقوب شديد الشغف به والحب له ، بلغنى أنه كان يقيم فى القصر عنده أياماً ليلاً ونهاراً لا يظهر ، وكان أبو بكر هذا أحد حسنات الدهر فى ذاته وأدواته ، أنشدنى ابنه يحيى بمدينة مراكش سنة ٦٠٣ من شعر أبيه رحمه الله :

أملت وقد نام المُشِيح وهو ما	وأسرت إلى وادى العقيق من الحمى
وجرت على تُربِ المحصب ذيلها	فما زال ذاك الترب نهباً مقسماً
تناولته أيدى التجار لطيمة	ويحملُـه الدارى أيمان تمما
ولما رأت أن لا ظلام يجنُها	وأن سَراها فيه لن يُتكتما
نضت عذبات الرِّيط عن حُر وجهها	فأبدت مُحيا يُدهش المتوسما

(١) وهو الفيلسوف المسلم ابن طفيل .

فكان تجليها حجاب جمالها	كشمس الضحى يعشى بها الطرف كلما
ولما التقينا بعد طول تهاجر	وقد كاد حبل الود أن يتصرما
جلت عن ثناياها وأومض بارق	فلم أدر من شق السدجنة منهما
وساعدنى جفن الغمام على البكا	فلم أدر دمعاً أيننا كان أسجما
فقلت وقد رق الحديث وأبصرت	قـرائن أحـوالٍ أذعن المكتما :
نشدتك لا يذهب بك الشوق مذهباً	يُهون صعباً أو يُرخص مأثماً
فأمسكتُ لامستغنيا عن نوالها	ولكن رأيت الصبر أوفى وأكرماً

ومن شعره فى الزهد - رحمه الله - ما قرأه على ابنه من خطه فى التاريخ المذكور :

ياباكيا فرقة الأحباب عن شحط	هلا بكيت فراق الروح للبدن
نور تردد فى طين إلى أجل	فانحاز علواً وخلي الطين للكفن
ياشد ما افترقا من بعد ما اعتلقا	أظنها هُدنةً كانت على دخن
إن لم يكن فى رضى الله اجتماعهما	فيا لها صفقةً تمت على غبن

وأنشدنى بعض أصحابنا من الكتاب له رحمه الله :

ما كل من شم نال رائحة	للناس فى ذا تبائين عجب
قوم لهم فكرة تجول بهم	بين المعانى ، أولئك النجب
وفرقة فى القشور قد وقفوا	وليس يسدرون لب ما طلبوا
لا غاية تنجلي لناظرهم	منه ولا ينقضى لهم أرب
لا يتعدى امرؤ جبلته	قد قسمت فى الطبيعة الرتب

ولم يزل أبو بكر هذا يجلب إليه العلماء من جميع الأقطار ، وينبئه عليهم ، ويحضه على إكرامهم والتنويه بهم ، وهو الذى نبَّهه على أبى الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن رشد ، فمن حينئذ عرفوه ونبَّه قدره عندهم .

أبو الوليد بن رشد

أخبرنى تلميذه الفقيه الأستاذ أبو بكر بُندود بن يحيى القرطبى قال : سمعت الحكيم أبا الوليد يقول غير مرة : لما دخلت على أمير المؤمنين أبى يعقوب وجدته هو وأبا بكر بن طفيل ليس معهما غيرهما ، فأخذ أبو بكر يُثنى علىَّ ويذكر بيتى وسلفى ، ويضم بفضلهم إلى ذلك أشياء لا يبلغها قدرى ، فكان أول ما فاتحنى به أمير المؤمنين بغد أن سألنى عن اسمى واسم أبى ونسبى أن قال لى : ما رأيهم فى السماء - يعنى الفلاسفة - أقديمةٌ هى أم حادثة ؟ فأدركنى الحياء والخوف ، فأخذت أتعلل وأنكر اشتغالى بعلم الفلسفة ، ولم أكن أدري ما قرر معه ابنُ طفيل ، ففهم أمير المؤمنين منى الروع والحياء ، فالتفت إلى ابن طفيل وجعل يتكلم على المسألة التى سألنى عنها ، ويذكر ما قاله أرسطاطاليس وأفلاطون وجميع الفلاسفة ويورد مع ذلك احتجاج أهل الإسلام عليهم ، فرأيتُ منه غزارة حفظ لم أظنها فى أحد من المشتغلين بهذا الشأن المتفرغين له ، ولم يزل يبسطُننى حتى تكلمت ، فعرف ما عندى من ذلك ، فلما انصرفْتُ أمر لى بهال وخلعة ، سنية ومركب .

وأخبرنى تلميذه المتقدم الذكر عنه قال : « استدعانى أبو بكر بن طفيل يوماً فقال لى : سمعت اليوم أمير المؤمنين يتشكى من قلق عبارة أرسطاطاليس ، أو عبارة المترجمين عنه ، ويذكر غموض أغراضه ، ويقول : لو وقع لهذه الكتب من يلخصها ويقرب أغراضها بعد أن يفهمها فهماً جيداً لقرب مأخذها على الناس ، فإن كان فيك فضل قوة لذلك فافعل ، وإنى لأرجو أن تفى به ، لما أعلمه من جودة ذهنك وصفاء قريحتك وقوة نزوعك إلى الصناعة ، وما يمنعنى من ذلك إلا ماتعلمه من كُبرة سننى واشتغالى بالخدمة وصرف عنايتى

إلى ما هو أهم عندي منه ، قال أبو الوليد : فكان هذا الذى حملنى على تلخيص ما لخصته من كتب الحكيم أرسطاطاليس » .

وقد رأيت أنا لأبى الوليد هذا تلخيص كُتب الحكيم فى جزء واحد فى نحو مائة وخمسين ورقة ، ترجمه بـ « كتاب الجوامع » لخص فيه كتاب الحكيم المعروف بسمع الكيان ، وكتاب السماء والعالم ، ورسالة الكون والفساد ، وكتاب الآثار العلوية وكتاب الحس والمحسوس ، ثم لخصها بعد ذلك وشرح أغراضها فى كتاب مبسوط فى أربعة أجزاء .

رجع الحديث عن الأمير أبى يعقوب

وفى الجملة ، لم يكن فى بنى عبد المؤمن فىمن تقدم منهم وتأخر ملك بالحقيقة غير أبى يعقوب هذا .

وزراؤه

وزر له أخوه عمر أياما يسيرة ، ثم ارتفع قدره عن الوزارة إذ رآها دونه .
ثم وزر له أبو العلاء إدريس بن إبراهيم بن جامع ، إلى أن قبض عليه واستصفى أمواله فى شهور سنة ٥٧٧ .
ووزر له بعده ابنه أبو يوسف ولّى عهده إلى أن مات سنة ٥٨٠ . فكانت ولايته من حين بويع له إلى أن استشهد - رحمة الله عليه - ببلاد الروم ، اثنتين وعشرين سنة إلا أشهر .

كتّابه

أبو محمد عياش بن عبد الملك بن عياش كاتب أبيه ، وأبو القاسم المعروف بالقالى ، وأبو الفضل جعفر بن أحمد المعروف بابن محشوة ، من أهل مدينة بجاية ، كان يخدم أبا القاسم القالى إلى أن مات ، فكتب مكانه .

هؤلاء كتبة الإنشاء خاصة ، وكتاب الجيش : أبو الحسين الهوزنى الأشبيلي ، وأبو عبد الرحمن الطوسى .

حاجبه

كافور مولاه الخصى ، كان يدعى كافور بغرة .

أولاده

كان له من الولد ثمانية عشر ذكراً ، وهم : عمر ، ويعقوب - وهو ولي عهده - وأبو بكر ، وعبد الله ، وأحمد ، ويحيى - كان يحيى هذا رحمه الله ، لى صديقاً ، ومن جهته تلقيت أكثر أخبارهم ، لم أر في الملوك ولا في السوق مثله رحمه الله عليه ، وما استجزت لفظة الصداقة مع أن الواجب لفظ الخدمة ، إلا لما كان ، رحمه الله ، يكتب إلى : أخى ، وصديقى في بعض الأوقات ، ووليى في بعضها ، اجتمعت عندي بخطة رقاع كثيرة ، خلع على فيها فضله ، وحلاني بما لم أكن استحققه - وموسى ، وإبراهيم ، وإدريس ، وعبد العزيز ، وطلحة ، وإسحاق ، ومحمد ، وعبد الواحد ، وعثمان ، وعبد الحق ، وعبد الرحمن ، وإسماعيل ، وبنات .

قضاته

أبو محمد الملقى المتقدم الذكر ، ثم عزله وولى بعده عيسى بن عمران التازى ، من أهل رباط تازا من أعمال مدينة فاس ، من قبيلة يقال لها تسول من البربر يرجعون إلى زناتة .

كان عيسى هذا من فضلاء أهل المغرب ونبھائهم ، وكان خطيباً مصقفاً وبلغاً لسيناً وشاعراً مفليحاً مشاركاً في كثير من العلوم ، ونال في أيام أبى يعقوب حظوة ومكانة ؛ كان يتكلم عن الوفود ويخطب في النوازل فيأتى بكل عجيبة ، وكان مع هذا ذا مروءة تامة وتعصب لمن ينقطع إليه مفرط . أخبرنى ابنه أبو عمران - قاضى الجماعة في وقتنا هذا - قال : سمعت أبى يقول وقد لامه بعض من يلوذ به في التنويه بأقوام ليست لهم سوابق ولا أقدار ، رفعهم من الحضيض جاهه ، ونبھهم بعد الخمول اعتناؤه : « ليس العجب ممن يأتى إليه رجل نبيه القدر يرفعه ، إنما العجب ممن يُحى الميت ويُنبه الخامل ويرفع الوضع ، فأما النبيه القدر فنباھته تكفيه » .

وبلغ من إفراطه في التعصب أن قال يوما : « ليس بحماية أن تحمى صاحبك وهو مُحق ، فإن الحق أظهر وأقوى من أن يُحمى ، إنما الحماية أن تحميه وهو مُبطل ! » في أشباه هذه الأخبار .

وكان له أولاد ما منهم إلا ولى القضاء ؛ وهم ، على ، وكان على هذا رجلا صالحا ، ولى في حياة أبيه قضاء مدينة بجاية ، ثم عُزل عنها وولى مدينة تلمسان ، وهو عندنا من المشهورين بالتصميم والتبتل في دينه ، ومن لا تأخذه هوادة في الحق ؛ ومن أولاده طلحة ، ولى قضاء تلمسان ؛ ويوسف ، تركته قاضيا بمدينة فاس ، بلغتني وفاته وأنا بمكة في سنة ٦٢٠ ، وأبو عمران موسى ، قاضى الجماعة في وقتنا هذا ، وسيأتى ذكره في موضعه إن شاء الله عز وجل .

ثم ولى بعد أبى موسى هذا رجل اسمه حجاج ابن إبراهيم التجيبى ، من أهل مدينة أغمات من أعمال مدينة مراكش ، وكان حجاج هذا رجلا صالحا يُعد في الزهاد المتبتلين ، وكان له تبحر في الفقه ومعرفة بأصوله وبصر بعلم الحديث ، هذا مع نزاهة نفس وطهارة عرض وتصميم في الحق ، أفرط في ذلك حتى ثقلت على كثير من وجوه الدولة وطأته ، ونالوا منه عند أبى يعقوب فما زاده ذلك إلا حبا وتقريبا إلى أن مات - رحمه الله - في حياة أبى يعقوب بلغ من رقة قلبه وسرعة دمعته أنه دخل يوما على أمير المؤمنين أبى يعقوب وقد بل لحيته ورداءه بدموعه ؛ فلما مثل بين يديه زاد في البكاء ، فسأله أمير المؤمنين عما أبكاه ، فقال : يا أمير المؤمنين ، سألتك بالله ، ألا أعفيتنى ؟ قال : عزمت عليك لتخبرنى أولاً بسبب بكائك ! قال : بينا أنا قاعد في مجلس الحكم إذ أتيتُ بشيخ سكران كنت قد حددته مرارا ، فكان من كلامى أن قلت له : يا شيخ ، كيف تحشر ؟ ففتح يديه وقال : هكذا . . (١) فوالله ما ملكتُ دمعتي حين عرفت ما عنى بقوله ، إنما عرض لى بقول النبى ﷺ : « إن القاضى يحشر مُطَوَّقَةً يداه إلى عنقه ، فإما أن يحمله عدله أو يهوى به جوره ! » هذا معنى الحديث ؛ فأسألك

(١) بياض في الأصل .

بالله ، ألا أعفيتني ؟ فوعده بذلك ، فقال : عسى أن يكون في مقامى هذا ! فقال له : لا أفعل حتى أجد عوضا منك ! فخرج من عنده ، فما لبث إلا أياما يسيرة حتى مات ، رحمة الله عليه !

ثم ولى بعده القضاء أبو جعفر أحمد بن مضاء ، من أهل مدينة قرطبة ؛ فلم يزل أبو جعفر هذا قاضيا إلى أن مات أمير المؤمنين أبو يعقوب ، وصدرأ من خلافة أبى يوسف المنصور رحمه الله .

فصل

دخول بنى مردنيش فى طاعة الموحدين

ولما استوسق لأبى يعقوب هذا الأمر ، لم يزل مقيماً بمراكش إلى أن كانت سنة ٥٦٧ ، فبدأ له أن يعبر إلى جزيرة الأندلس ، مُظهراً قصد غزو الروم ، ومبطناً إتمام تملك الجزيرة والتغلب على ما فى يد محمد بن سعد المعروف بابن مردنيش منها ؛ وكان يملك منها ابن سعد المذكور من أول أعمال مرسية إلى آخر ما يملكه اليوم المسلمون من شرقها - وقد تقدم تلخيص التعريف بمملكته إياها ومن أين اتصلت إليه - فجمع أمير المؤمنين أبو يعقوب جموعاً عظيمة من قبائل الموحدين وغيرهم من أصناف الجند ، وسار حتى نزل مدينة سبتة ، فبنى له بها منزل هو باق هناك إلى اليوم ؛ فأقام بها إلى أن تكاملت جموعه ، ولحق به من كان تأخر عنه من العساكر ؛ ثم عبر البحر وقصد مدينة أشبيلية ، فنزلها ، وجهز العساكر إلى محمد بن سعد .

وكان أخو أبى يعقوب ، عثمان بن عبد المؤمن ، والياً على مدينة أغرناطة ، فكتب إليه يقصد بالعساكر إلى مدينة مرسية ، دار مملكة محمد بن سعد ، فخرج عثمان بالعساكر حتى نزل قريباً منها بموضع يدعى الجلاب ، وخرج إليه محمد بن سعد فى جموع عظيمة أكثرها من الإفرنج ؛ لأن ابن سعد كان مستعيناً بهم فى حروبه ، وقد اتخذهم أجناداً له وأنصاراً ، وذلك حين أحس باختلاف وجوه القواد عليه ، وتنكر أكثر الرعية له ، فقتل من أولئك القواد الذين اتهمهم جماعة بأنواع من القتل ، بلغنى أن منهم من بنى عليه فى حائط وتركه حتى مات جوعاً وعطشاً ، إلى غير هذا من ضروب القتل ؛ واستدعى النصارى كما ذكرنا ، فجعلهم أجناداً له ، وأقطعهم ما كان أولئك القواد يملكونه ، وأخرج كثيراً من أهل مرسية وأسكن النصارى دُورهم . . .

فزحف - كما ذكرنا - بجيشه ، ومعظمهم من الإفرنج ، فالتقى هو والموحدون بالموضع

المعروف بالجلاب ، على أربعة أميال من مرسية ، فانهمز أصحاب محمد بن سعد انهزاماً قبيحاً ، وقُتل من أعيان الروم جملة ، ودخل محمد بن سعد مدينة مرسية مستعداً للحصار ، فضايقه الموحدون ، ومازالوا محاصرين له إلى أن مات وهو في الحصار حتف أنفه ، وسُترت وفاته إلى أن ورد أخوه يوسف بن سعد ، الملقب بالرئيس ، من بلنسية ؛ وكان والياً عليها من جهة أخيه محمد ؛ فاجتمع رأيهم ورأى أكابر ولد محمد بن سعد - بعد أن أتهموا وأنجدوا وأخذوا في كل وجه من وجوه الحيل - على أن يُلقوا أيديهم في يد أمير المؤمنين أبى يعقوب ، ويُسلموا إليه البلاد ، ففعلوا ذلك ، وقيل : إن أبا عبد الله محمد بن سعد حين حضرته الوفاة ، جمع بنيه - وكان له من الولد على علمى ثمانية ذكور ، وهم : هلال - يكنى أبا القمر ، وهو أكبر ولده وإليه أوصى - وغانم ، والزبير ، وعزيز ، ونصير ، وبدر ، وأرقم ، وعسكر ، وأصاغر لا علم لى بأسمائهم ؛ وبناتٌ تزوج إحداهن أمير المؤمنين أبو يعقوب ، وتزوج الأخرى أمير المؤمنين أبو يوسف يعقوب بن يوسف - فكان فيما أوصاهم به أن قال : « يا بنى ، إنى أرى أمر هؤلاء القوم قد انتشر ، وأتباعهم قد كثروا ودخلت البلاد في طاعتهم ، وإنى أظن أنه لا طاقة لكم بمقاومتهم ، فسلموا إليهم الأمر اختياراً منكم ، تحظوا بذلك عندهم ، قبل أن ينزل بكم منازل بغيركم ، وقد سمعتم ما فعلوا بالبلاد التى دخلوها عنوة ! » ففعلوا ما أمرهم به ؛ فالله أعلم أى الأمرين كان .

وخرج أمير المؤمنين أبو يعقوب من أشبيلية قاصداً بلاد الأدفنش - لعنه الله - فنزل على مدينة له عظيمة تسمى وَبْدَة ، وذلك أنه بلغه أن أعيان دولة الأدفنش ووجوه أجناده في تلك المدينة ، فأقام محاصراً له شهراً ، إلى أن اشتد عليهم الحصار وأرادوا تسليم البلد . أخبرنى جماعة يكثر عددهم ممن أدركت من شيوخ أهل الأمر ، أن أهل هذه المدينة لما برح بهم العطش أرسلوا إلى أمير المؤمنين يطلبون الأمان على أنفسهم ، على أن يخرجوا له عن المدينة ، فأبى ذلك عليهم ، وأطمعه فيهم ما نُقل إليه من شدة عطشهم وكثرة من يموت منهم ؛ فلما يشوا مما عنده شُمع لهم في بعض الليالى لغطٌ عظيم وجلبة أصوات ؛ وذلك أنهم أخرجوا أناجيلهم ، واجتمع قسيسوهم ورهبانهم يدعون ويؤمنون باقيهم ، فجاء مطر عظيم كأفواه

القرب ، ملأ ما كان عندهم من الصهاريج ، وشربوا وارتووا وتقووا على المسلمين ؛ فانصرف عنهم أمير المؤمنين راجعاً إلى أشبيلية ، بعد أن هادن الأذفنش - لعنه الله - مدة سبع سنين .
ولم يزل أمير المؤمنين مقيماً بالأندلس بقية سنة سبع ، وثمان ، وتسع ، إلى أن رجع إلى مراكش في آخر سنة ٥٦٩ وقد ملك الجزيرة بأسرها ، ودانت له بجمليتها ، ولم يخرج عن طاعته شيء منها .

الخارجون على طاعة الموحدين بالمغرب

وفي سنة ٧١ خرج إلى سوس لحسم خلاف وقع هنالك بين بعض القبائل الذين بדרن فتم له ما أراد من إخماد الفتنة وجمع الكلمة وإطفاء النائرة وحسم الخلاف .

وفي صدر سنة ٧٣ رام بعض القبيلة المسماة بغمارة مفارقة الجماعة ونزع اليد من الطاعة ، وكان رأسهم في ذلك الذي إليه يرجعون ، وعميدهم الذي عليه يعولون ، رجل اسمه سُبُع ابن حيان ، ووافقه على ذلك أخ له يسمى مرزدغ ، فدعوا إلى الفتنة ، واجتمع عليهما خلق كثير ، والقبيلة المذكورة لا يكاد يحصرها عدد ولا يحدها حَزْر لكثرتها ؛ مسافة بلادها طولا وعرضاً نحو من اثنتي عشرة مرحلة ، فخرج إليهم أمير المؤمنين أبو يعقوب نفسه ، فأسلمتهما جموعهما ، وتفرق عنهما من كان اجتمع عليهما ، وأخذوا قبضَ اليد ؛ فقتلوا صبراً وصلبوا ، ثم رجع أمير المؤمنين أبو يعقوب إلى مراكش .

وفي أول سنة ٧٥ خرج أبو يعقوب من مراكش قاصداً بلاد أفريقية ؛ فقصده منها مدينة قفصة ؛ وكان قد قام بها رجل اسمه علي ، يُعرف بابن الرند ، وتلقب بالناصر لدين النبي ، فحاصره أبو يعقوب والموحدون إلى أن استنزلوه ، وقطعوا دابر الخلاف وحسموا مواده ، ورجعوا إلى مراكش .

صُلح ملك صقلية

وفي هذه السفرة صالحه ملك صقلية وأرسل إليه بالإتاوة ، بعد أن خافه خوفاً شديداً ، فقبل منه ما وجه به إليه ، وهادنه على أن يحمل إليه في كل سنة مالاً اتفقا عليه ، وبلغنى أنه اتصلت إليه منه ذخائر لم يكن عند ملك مثلها ، مما اشتهر منها حجر ياقوت يسمى الحافر - جعلوه فيما كللوا به المصحف ، لا قيمة له ، على قدر استدارة حافر الفرس ، وهو في المصحف إلى اليوم - مع أحجار نفيسة .

المصحف العثماني في المغرب

وهذا المصحف الذى ذكرناه ، وقع إليهم من نسخ عثمان - رضي الله عنه - من خزائن بنى أمية ، يحملونه بين أيديهم أنى توجهوا ، على ناقه حمراء عليها من الحلى النفيس وثياب الديباج الفاخرة ما يعدل أموالاً طائلة ، وقد جعلوا تحته بردعة من الديباج الأخضر يجعلونه عليها ، وعن يمينه ويساره عصيان عليها لواءان أخضران ، وموضع الأسنة منها ذهب شبه ثفاحتين ، وخلف الناقه بغل محلى أيضاً ، عليه مصحف آخر يقال إنه بخط ابن تومرت ، دون مصحف عثمان فى الجرم ، محلى بفضة مموهة بالذهب ، هذا كله بين يدى الخليفة منهم .

ورجع أمير المؤمنين أبو يعقوب إلى مراكش من أفريقية ، بعد أن لم يبق بجميع المغرب مختلف عليهم ولا معاند لهم ، ودانت له جزيرة الأندلس بأسرها - كما ذكرنا - وكثرت فى أيامه الأموال واتسع الخراج .

حسن معاملة الموحدين لمن يغلبونهم من الملوك

وكان - كما ذكرنا - سخيّاً جواداً ، بلغنى أنه أعطى هلال بن محمد بن سعد المتقدم الذكر ، صاحب شرقى الأندلس ، اثنى عشر ألف دينار فى يوم واحد ، ولهلال هذا معه أخبار عجيبة ، من تقريبه إياه وإحسانه إليه وحبه له .

أخبرنى بعض ولد هلال هذا ، أنه سمع أباه يقول : رأيت فى المنام فى بعض الليالى كأن أمير المؤمنين أبا يعقوب ناولنى مفتاحاً ، فلما أصبحت إذا رسوله يستحثنى ، فركبت وأتيت القصر ، فدخلت عليه وسلمت ، فاستدنانى حتى مست ثيابى ثيابه ، ثم أخرج إلى من تحت برنسه مفتاحاً على النحو الذى رأيت فى المنام ، وقال : خذ إليك هذا المفتاح ، فتهيت أن أسأل عن شأن المفتاح ، فقال لى ابتداءً : يا أبا القمر ، إن عامل مرسية أرسل إلينا فى جملة ما أرسل صندوقاً وجدته - زعم - فى بعض خزائنكم ، لا يدرى ما فيه ، وهذا مفتاحه ، ونحن لا ندرى ما فيه ! فقلت : هلاً أمر أمير المؤمنين أن يفتح بين يديه ! فقال : لو أردنا أن يفتح بين أيدينا لم نسلم إليك المفتاح ! وأمر فحمل الصندوق إلى ففتحته ، فإذا فيه حلٌّ وذخائر من ذخائر أبى ما يساوى أكثر من أربعين ألف دينار .

ولما تجهز أمير المؤمنين إلى غزو الروم ، أمر العلماء أن يجمعوا أحاديث فى الجهاد تُملى على الموحدين ليدرسوها - وهكذا جرت عادتهم إلى اليوم - فجمع العلماء ذلك وجاءوا به يمليه على الناس بنفسه ، فكان كل واحد من الموحدين والسادة يحبىء بلوح يكتب فيه الإملاء ، فجاء هلال هذا المذكور يوماً ولا لوح معه ، فأخرج القوم ألواحهم ، فقال له الوزير : أين لوحك يا أبا قمر ؟ فخجل وافتتح يعتذر ، فأخرج له أمير المؤمنين من تحت برنسه لوحاً وناولته إياه ، وقال : هذا لوحك ! فلما كان من الغد جاء ومعه لوح غير الذى دفعه له أمير المؤمنين ، فلما نظر إليه قال له : أين لوحك بالأمس يا أبا القمر ؟ فقال : خبأته وأوصيت إذا مت أن يجعل بين جللى وكفى ! وأتبع ذلك بكاء حتى أبكى بعض من كان فى المجلس ، فقال أمير المؤمنين : هذا المحب الصادق ! وأمر له بخيل وأموال وخلع ، ولبنيه بمثل ذلك .

اتساع الدولة وزيادة الخراج

وكان الذى يُسهل عليه بذل الأموال - مع ما جُبِل عليه من ذلك - سعة الخراج وكثرة الوجوه التى يتحصل منها الأموال .

كان يرتفع إليه خراج إفريقية ، وجملته في كل سنة وفُر مائة وخمسين بغلاً ، هذا من إفريقية وحدها ، خلا بجاية وأعمالها ، وتلمسان وأعمالها ، والمغرب - وحدُ عمل المغرب عندهم الذي يطلقون عليه هذا الاسم ، من مدينة تدعى رباط تازا إلى مدينة تدعى مكناسة الزيتون ، طول هذه المسافة وعرضها نحو من سبعة مراحل ، وهى أخصب رقعة على الأرض فيها علمت ، وأكثرها أنهاراً مطردة ، وأشجاراً ملتفة ، وزروعاً وأعشاباً - ومدينة سَلا وأعمالها ، وسبّعة وأعمالها - وأعمال سبّعة هذه فى غاية السعة والضخامة ؛ لأن بلاد غُمارة كلها ترجع إليها ، وهى - كما ذكرنا - طولاً وعرضاً نحو من اثنتى عشرة مرحلة - وجزيرة الأندلس قاطبة ، أول ذلك آخر بلاد المسلمين مما يتاخم أرض الروم ، وآخره أيضاً مما يتاخم أرض الروم من أعمال شلب ، ومسافة ذلك طولاً وعرضاً نحو من أربع وعشرين مرحلة .

هذا كله لا ينازعه إياه أحد ولا يمتنع عليه منه درهم ، مضافاً إلى مراكش وأعمالها ، وأعمال مراكش أيضاً فى نهاية من السعة ، لأن بالقرب منها قبائل ضخمة وبلاداً كثيرة ، فلم يرتفع لملك من الملوك - أعنى ملوك المغرب - قبل أبى يعقوب هذا وبعده ، ما ارتفع إليه من الأموال .

وقد بلغنى من جهة رجل من أصحابنا كان يتولى بيوت الأموال ، قال لى : وجدت خرائط كثيرة مما كان يرتفع إلى أمير المؤمنين أبى يعقوب بختمها . . قال لى هذا القول فى غرة سنة ٦١١ .

وفى أيام أبى يعقوب ورد علينا المغرب أول من وردها من الغُز^(١) ، وذلك فى آخر سنة ٧٤ ، وما زالوا يكثرون عندنا إلى آخر أيام أبى يوسف .

(١) نسبة إلى الممالك الترك الذين سكنوا مصر .

ولم تزل أيام أبي يعقوب هذا أعياداً وأعراساً ومواسم ، كثرة خصب ، وانتشار أمن ،
ودرور أرزاق ، واتساع معاش ، لم ير أهل المغرب أياماً قط مثلها ، واستمر هذا صدراً من
إمارة أبي يوسف .

محاولة أبي يعقوب فتح شنترين ووفاته

ولما كانت سنة ٧٩ تجهز أبو يعقوب للغزو ، واستنفر أهل السهول والجبال من المصامدة
والعرب وغيرهم ، وخرج بجيوشه قاصداً جزيرة الأندلس ، فعبر البحر بعساكره كما ذكرنا ،
وقصد مدينة أشبيلية على عادته ، إذ هي منزله ومنزل الأمراء من بنيہ بالأندلس أيام كونهم
بها ، فأقام بها ريثما أصلح الناس شئونهم وأخذوا أهبتهم ، ثم خرج يقصد مدينة شنترين^(١)
أعادها الله للمسلمين ، وهذه المدينة - أعنى شنترين - بمغرب الأندلس ، وهي من أمنع
المدائن - وقد تقدم ذكرها في أخبار الدولة اللمتونية - يملك وجهاتها مع بلاد كثيرة هنالك ،
ملك من ملوك النصارى يعرف بابن الريق - لعنه الله - فخرج أمير المؤمنين - كما ذكرنا - في
جيشه حتى نزل عليها ، فضايقها وأخذ في قطع ثمارها وإفساد زروعها وشن الغارات على
نواحيها ، وكان ابن الريق - لعنه الله - حين سمع بحركة أبي يعقوب وصح عنده أنه
يقصده ، نظر في أمره ، فلم ير له طاقة بدفاعه ولا نهضة لمقاومته ، فلم يكن له هم إلا أن
جمع وجوه دولته وأعيان جنده وذوى الغناء من قواده وسائر أتباعه ، ودخل بهم مدينة
شنترين ، واثقاً بحصانتها وشدة منعتها ، هذا بعد أن ملأها أقواتاً وسلاحاً وجميع ما يحتاج
إليه ، وجلل أسوارها مقاتلة معهم الدرق والقسي والحراب ، إلى غير ذلك مما يحتاج إليه .

فنزّل عليهم أبو يعقوب ، فألفاها - كما ذكرنا - ، قد استعد أهلها بكل ما يظنون نافعاً

(١) شنترين : مدينة كبيرة بالأندلس ، على الشاطئ الأيمن من نهر تاجو ، وهي مفتاح واديه ، موقعها
إلى الشمال الشرقى من أشبونة ، وبينهما ثمانون ميلاً ، وقد ظلت شنترين في يد العرب منذ الفتح إلى أن
ملكها ألفونس السادس ملك قشتالة سنة ٥٤٣ ثم كانت هذه المحاولة لاستردادها ، وقد قام بعبء
الدفاع عنها في هذه المحاولة ، الدون شانجو (Don Sangho) .

لهم ودافعاً عنهم ، وهذه المدينة على نهر عظيم من أنهار الأندلس المشهورة ، يسمى تاجو ، فبالغ أبو يعقوب - كما ذكرنا - في التضييق عليها وانتساف معيشتها وقطع المواد والمدد عنها ، فما زاد أهلها إلا صرامة وشدة وجلداً ، فخاف المسلمون هجوم البرد - وكان في آخر فصل الخريف - وخافوا أن يعظم النهر فلا يستطيعوا عبوره وينقطع عنهم المدد ، فأشاروا على أمير المؤمنين بالرجوع إلى أشبيلية ، فإذا كان وجوه الزمان عادوا إليها أو بعث من يتسلمها ، وصوروا له أنها في يده ، لا يمنعه منها مانع ، فقَبِلَ ذلك منهم ووافقهم عليه ، وقال : نحن راحلون غداً إن شاء الله . ولم يتشر هذا القول كل الانتشار ، لأنه كان قاله في مجلس الخاصة ، فكان أول من قوض خبائه وأظهر الأخذ في أهبة الرحيل ، أبو الحسن على بن عبد الله بن عبد الرحمن المعروف عندهم بالمالقي - وقد تقدم ذكر أبيه في قصة عبد المؤمن - وكان أبو الحسن هذا خطيبهم ومعتبراً عندهم ، يُدعى خطيب الخلافة ، وكان له حظ جيد مع الفقه ومعرفة الحديث ، وقسم وافر من قرض الشعر وصناعة الكتابة ، فلما رآه الناس قوض خبائه قوضوا أخبيتهم ثقة به ، لمكانه من الدولة ومعرفته بأخبارها ، فعبر في تلك العشية أكثر العسكر النهر يريدون التقدم خشية الزحام وحرصاً على أخذ جيد المواقع واختيار المنازل ، ولم يبق إلا من كان بقرب خباء أمير المؤمنين .

وبات الناس يعبرون الليل كله وأمير المؤمنين لا علم له بذلك ، فلما رأى الروم عبور العساكر وبلغهم من جهة عيونهم الذين بالعسكر ماعزم عليه أبو يعقوب والمسلمون من الرحيل ، ورأوا انفضاض الأجناد وافتراق أكثر الجموع ، خرجوا منتهزين الفرصة التي أمكنتهم ، في خيل كثيفة ، فحملوا على من يليهم من الناس ، فانهزموا أمامهم ، حتى بلغوا الخباء الذي فيه أمير المؤمنين أبو يعقوب ، فقتل على باب الخباء من أعيان الجند خلق كثير ، أكثرهم من أعيان الأندلس ، وخلص إلى أبي يعقوب فطعن تحت سرتة طعنة مات منها بعد أيام يسيرة .

وتدارك الناس فانهزم الروم راجعين إلى بلدهم بعد أن قضاوا ما قضاوا ، وعُبر بأمر المؤمنين النهر جريماً ، فجعل في محفة وسير به .

عاقبة أبى الحسن المالىقى الخطيب

وسأل أمير المؤمنين : من كان السبب فى حركة الناس على هذا الوجه المؤدى إلى هذا الاختلال ؟ فأخبر بما فعله أبو الحسن المالىقى ، فقال : عنده : سيجنى ثمرتها إن شاء الله ! فلما بلغه ذلك هرب حتى دخل مدينة شنترين فأرّأ بنفسه على ملك الروم ابن الريق ، فأحسن نُزله وأكرم مثواه وأجرى عليه رزقاً واسعاً ، ولم يزل عنده مكرماً إلى أن بدا له من سوء رأيه أن يكتب كتاباً إلى الموحدین يستعطفهم ويسأل من عرفه من أعيانهم الشفاعة له ، وأدرج فى ضمن ذلك فصلاً يذكر فيه ضعف المدينة وأنهم لو كانوا أقاموا عليها ليلة أخرى أخذوها ، ويدلهم على بعض عوراتهم مما كان خفى عنهم ، وقال لملك الروم ابن الريق : إني أحب أن أكتب كتاباً إلى عيالى وأولادى وأخبرهم بسلامتى وأعلمهم إكرام الملك إياى وإحسانه إليّ وما أنا فيه من العافية ، حتى تطمئن نفوسهم ، وأريد أن توجه مع الذى يحمله من يخفره إلى أول بلاد المسلمين ، فأذن له فى ذلك وأجابه إليه ، فكتب الكتاب . .

وكان العليج الموكل به الذى يقوم عليه ويأتيه بكل ما يحتاج إليه ، يعرف لسان العرب - إلا أنه لم يكن يتكلم به - ويقرأ الخط العربى ، فقام أبو الحسن المذكور لبعض حوائجه وترك الكتاب منشوراً ، ولم يخطر له أن العليج يعرف شيئاً من لسان العرب ولا يقرأ الخط العربى ، فلمح العليج الكتاب لمحّة ، ووقف على الفصل المذكور وفهم مقصوده ، فمضى حتى دخل على الملك وأخبره الخبر . .

وختم أبو الحسن الكتاب ودفعه إلى بعض عبيده ، فلما خرج العبد بالكتاب وفصل عن المدينة بنحو من مرحلة ، أمر بالقبض عليه هناك وأخذ الكتاب منه ، فلما أتى بالكتاب فتحه وجمع المسلمين الذين بالمدينة وألقى إليهم الكتاب وأمرهم بقراءة ذلك الفصل المذكور ، واستحضر أبا الحسن ، وقال لترجمانه : قل له : ما حملك على ما صنعت مع إكرامى لك وبرى بك ؟ فكان من جوابه أن قال : إن برك بى وإكرامك إياى لا يمنعانى من

النصح لأهل ديني والدلالة لهم على مافيه مصلحتهم ! فشاور ابن الريق - لعنه الله - قسيسه في أمره ، فأشاروا عليه بإحراقه ، فأحرقوه .

وفاة الأمير أبي يعقوب

وأما ما كان في أمر أمير المؤمنين أبي يعقوب ، فإنهم لما عبروا به النهر كما ذكرنا ، أثقله الجرح واشتد عليه ، فما ساروا به إلا ليلتين أو ثلاثا حتى مات رحمه الله ، فأخبرني من كان معهم في تلك السفرة أنه سُمع النداء فيما بين العشاءين في العسكر كله : الصلاة على الجنازة ، جنازة رجل ! فصلى الناس قاطبة على الجنازة لا يعرفون على من صلوا ، ولم يعلم بذلك إلا خواص أهل الدولة ، وساروا به حتى بلغوا أشبيلية فنزلوها ، فصبرّوه وبعثوا به في تابوت مع كافور الحاجب مولاه المتقدم الذكر إلى تينمل ، فدفن هناك مع أبيه عبد المؤمن وابن تومرت .

وكانت وفاته يوم السبت قبيل غروب الشمس لسبع خلون من رجب الفرد سنة ٥٨٠
أخبرني ابنه أبو زكريا يحيى - رحمه الله عليه - أنه كان قبل موته بأشهر يسيرة كثيراً ما يردد هذا البيت :

طوى الجديدان ما قد كنت أنشره وأنكـرتنـى ذوات الأعين النجل !

ذكر ولاية أبي يوسف يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن

وهو يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن بن علي كما ذكرنا ، يكنى أبا يوسف ، أمه أم ولد رومية اسمها ساحر ، بويع له في حياة أبيه بأمره بذلك ، وكان سنه يوم صار إليه الأمر اثنتين وثلاثين سنة ، فكانت مدة ولايته منذ وفاة أبيه إلى أن توفي في شهر صفر الكائن في

سنة ٥٩٥ ، ست عشرة سنة وثمانية أشهر وأيامًا ، وتوفى وله من العمر ثمان وأربعون سنة وقد وخطه الشيب .

صفاته

كان صافي السمرة جدًا إلى الطول ما هو ، جميل الوجه ، أغين أفوه أفنى ، شديد الكحل ، مستدير اللحية ، ضخم الأعضاء ، جهورى الصوت ، جزل الألفاظ ، أصدق الناس لهجة وأحسنهم حديثًا وأكثرهم إصابة بالظن ، كان لا يكاد يظن شيئًا إلا وقع كما ظن ، مجربًا للأمور ، عارفًا بأصول الشر والخير وفروعهما ، ولى الوزارة أيام أبيه فبحث عن الأمور بحثًا شافيًا ، وطالع أحوال العمال والولاة والقضاة وسائر من ترجع إليه الأمور مطالعة أفادته معرفة جزئيات الأمور ، فدبرها بحسب ذلك ، فجرت أموره على قريب من الاستقامة والسداد حسبما يقتضيه الزمان والإقليم .

أولاده

كان له من الولد : محمد - ولى عهده ، وسيأتى ذكر مولده ووفاته - وإبراهيم ، وعبد الله وعبد العزيز ، وأبو بكر ، وزكريا ، وإدريس ، وعيسى ، وموسى ، وصالح ، وعثمان ، ويونس ، وسعد ، ومساعد ، والحسن ، والحسين ، هؤلاء أولاده المخلفون بعده ، ومات له فى حياته عدة من الولد ، وله بنات فيهن كثرة .

وزراؤه

أبو حفص عمر بن أبى زيد الهنتاتى إلى أن مات .

ثم وزر له بعده [أبو يحيى] أبو بكر بن عبد الله بن أبى حفص عمر إينتى المتقدم الذكر ، واستمرت وزارة أبى يحيى هذا إلى أن استشهد - رحمه الله - ببلاد الروم على ماسيأتى بيانه إن شاء الله ، فاضطرب أمر الوزارة قليلا .

ثم وقع اختيارهم على أبى عبد الله محمد بن أبى بكر بن الشيخ أبى حفص المتقدم الذكر ، وأبو عبد الله هذا هو الملقب عندهم بالفيل ، وهو ابن عم الوزير الشهيد [أبى يحيى] المذكور آنفاً ، فوزر أبو عبد الله هذا أياماً يسيرة ، ثم ترك الوزارة مختاراً وهرب إلى بعض نواحي أشبيلية ، فخلع ثيابه ولبس عباءة وتزهد ، فأرسلوا إليه من رده ، وأعفوه من الوزارة .

ثم وزر له أبو زيد عبد الرحمن بن موسى بن يوجان الهنتاتى ، فلم يزل عبد الرحمن هذا وزيراً إلى أن مات أبو يوسف ، وصدرأ من إمارة ابنه أبى عبد الله ، ثم عزل عن الوزارة .

حجابه

عنبر الخصى مولاه ، ثم ريجان الخصى مولاه أيضاً ، إلى أن مات وحجب ابنه أبا عبد الله ، فلم يزل حاجباً له إلى أن مات ريجان المذكور .

كُتابه

أبو الفضل جعفر المعروف بابن محشوة ، كان من كتاب أبیه - حسبما تقدم - جمع أبو [الفضل] جعفر هذا إلى براعة الكتابة سعة الرواية وغزارة الحفظ وذكاء النفس ، لم يزل كاتباً له إلى أن توفي ، أعنى أبا الفضل .

فكتب له بعده أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن بن عياش من أهل برشانة من أعمال المرية من بلاد الأندلس ، لم يزل أبو عبد الله هذا كاتباً له ولابنه محمد ولابن ابنه يوسف ، تركته حياً حين ارتحلت عن البلاد سنة ٦١٤ ، ثم اتصلت بى وفاته فى شهور سنة ٦١٩ وأنا يومئذ بالبلاد المصرية .

هذان الكاتبان اللذان ذكرناهما ، كاتباً الإنشاء الخاصة .

وَكُتَّابُ الجِيشِ : رجل يعرف بالكُباشى ، ذهب عنى اسمه ، وقد كان يكتب قبله

أبو الحسن بن مُغْنٍ ، استمرت كتابة الكباشى هذا ديوان الجيش إلى أن مات أمير المؤمنين أبو يوسف .

ولم يكتب لهم منذ قام أمرهم - أعنى من كتبة الإنشاء - من عرف طريقتهم وصب في قلوبهم وجرى على مهيعهم وأصاب ما في أنفسهم كأبى عبد الله بن عياش هذا ، فإن القوم لهم طريقة تخالف طريقة الكتاب ، ثم جرى الكتاب بعده على أسلوبه وسلوكوا مسلكه لما رأوا من استحسانهم لتلك الطريقة .

قضاته

أبو جعفر أحمد بن مضاء المتقدم الذكر إلى أن مات ، وولى بعده أبو عبد الله محمد ابن مروان من أهل مدينة وهران ، ثم عزله وولى بعده أبا القاسم أحمد بن محمد ، رجلاً من ولد بَقِيٍّ بن مخلد الفقيه المحدث الذى يروى عن أحمد بن حنبل ، وقد تقدم ذكر بقى هذا وطرف من أخباره فى صدر الدولة الأموية فى أخبار الأمير محمد بن عبد الرحمن بن الحكم بن هشام ابن عبد الرحمن بن معاوية الداخل بالأندلس ، ولم يزل أبو القاسم هذا قاضياً إلى أن توفى أمير المؤمنين أبو يوسف ، وشيئاً من أيام ابنه محمد .

تلخيص التعريف بخبر بيعته

ولما مات أبو يعقوب - كما ذكرنا - على مراحل من مدينة شنترين ، سُتِرت وفاته إلى أن بلغوا أشبيلية ، وهم فى كل يوم يصبحون يمشون بين يدى الدابة التى عليها المحفة مشاة على أرجلهم كما جرت العادة ، ثم يركبون والمحفة مسدول عليها ستر أخضر إلى أن بلغوا أشبيلية كما ذكرنا ، فخرج الإذن من أمير المؤمنين أبى يعقوب - زعموا - بتجديد البيعة لابنه أبى يوسف ، فبايعه المصامدة والناس عامة من جميع الأصناف .

وكان الذى سعى فى بيعته وقام بها ورغب فيها وتولى كبر أمرها ، ابن عمه أبو زيد عبد الرحمن بن عمر بن عبد المؤمن ، فتم له الأمر وبايعه الناس ، يحسبون ذلك بإذن أبيه ، فلما فرغ مما أراده من ذلك وتهايا له ، أعلن وفاة أبيه عند خواص الدولة ، ولم تجر عاداتهم بإعلان موت خلفائهم عند العامة إلى هلم .

وكان له من إخوته وعمومته منافسون لا يرونه أهلاً للإمارة ؛ لما كانوا يعرفون من سوء صباه ، فلقى منهم شدة - على ماسياتى بيانه - وكانت هذه البيعة العامة - كما ذكرنا - فى سنة ٥٨٠ .

ولما استوسق أمره - على ما تقدم - عبر البحر بعساكره وسار حتى نزل مدينة سلا ، وبها تمت بيعته واستجاب له من كان تلكاً عليه من أعمامه من ولد عبد المؤمن ، بعد ما ملأ أيديهم أموالاً وأقطعهم الأقطاع الواسعة .

بنيان مدينة الرباط

ثم شرع فى بنيان المدينة العظمى التى على ساحل البحر والنهر من العُدوة التى تلى مراکش ، وكان أبو يعقوب - رحمه الله - هو الذى اختطها ورسم حدودها وابتدأ فى بنيانها ، فعاقه الموت المحتوم عن إتمامها ، فشرع أبو يوسف - كما ذكرنا - فى بنيانها إلى أن أتم سورها ، وبنى فيها مسجداً عظيماً كبير المساحة واسع الفناء جداً ، لا أعلم فى مساجد المغرب أكبر منه ، وعمل له مأذنة فى نهاية العلو ، على هيئة منار الأسكندرية ، يُصعد فيه بغير درج ، تصعد الدواب بالظن والأجرّ وجميع ما يُحتاج إليه إلى أعلاها ، ولم يتم هذا المسجد إلى اليوم ، لأن العمل ارتفع عنه بموت أبى يوسف ، ولم يعمل فيه محمد ولا يوسف شيئاً ، وأما المدينة فتمت فى حياة أبى يوسف وكملت أسوارها وأبوابها وعمر كثير منها ، وهى مدينة كبيرة جداً ، تجىء فى طولها نحواً من فرسخ ، وهى قليلة العرض

ثم خرج بعد أن رتب أشغال هذه المدينة وجعل عليها من أمناء المصامدة من ينظر فى

أمر نفقاتها وما يصلحها ، فلم يزل العمل فيها وفي مسجدھا المذكور طول مدة ولايته إلى سنة ٥٩٤ ، وسار هو حتى نزل مراکش .

طمع بنى غانية فى التغلب على إفريقية

وفى هذه السنة - أعنى سنة ٨٠ - خرج الميرقيون بنو ابن غانية من جزيرة ميرة قاصدين مدينة بجاية ، فملكوها وأخرجوا من بها من الموحدين ، وذلك لست خلوان من شعبان من السنة المذكورة ، وهذا أول اختلال وقع فى دولة المصامدة ، لم يزل أثره باقياً إلى وقتنا هذا وهو سنة ٦٢١ .

التعريف ببنى غانية ودار ملكهم

وتلخيص خبر هؤلاء القوم - أعنى بنى غانية - أن أمير المسلمين على بن يوسف بن تاشفين ، وجه إلى الأندلس برجلين ، اسم أحدهما يحيى ، والآخر محمد ، ابنى على ، من قبيلة مسوفة ، يعرفان بابنى غانية ، وهى أمهما ، فأما يحيى وهو الأكبر ، فكان حسنة من حسنات الدهر ، اجتمع له من المناقب ما افترق فى كثير من الناس ، فمنها أنه كان رجلاً صالحاً شديد الخوف لله - عز وجل - والتعظيم له والاحترام للصالحين ، هذا مع علو قدم فى الفقه واتساع رواية للحديث ، وكان - مع هذا - شجاعاً فارساً ، إذا ركب عُد وحده بخمسائة فارس ، وكان على بن يوسف يُعده للعظام ويستدفع به المهمات ، وأصلح الله على يديه كثيراً من جزيرة الأندلس ودفع به للمسلمين غير مرة مكاره قد كانت نزلت بهم ، كان أمير المسلمين ولاء مدينة بلنسية ، ثم عزله عنها وولاه قرطبة ، فلم يزل بها والياً إلى أن مات - رحمة الله عليه - أول الفتنة الكائنة على المرابطين ، لا أعلم له عقباً .

محمد بن غانية

وكان أخوه محمد والياً من قبله على بعض أعمال قرطبة ، فلما مات اضطرب أمر محمد هذا وبقي يجول في بلاد الأندلس والفتنة تتزايد ودعوة المصامدة تنتشر ، فلما اشتد خوف محمد هذا أتى مدينة دانية فعبر منها إلى جزيرة مिरقة في حشمه وأهل بيته ، فملكها والجزيرتين اللتين حولها ، منرقة ويابسة ، ويقال إن أمير المسلمين على بن يوسف نفاه إليها على طريق السجن بها ، فالله أعلم .

وهذه الجزيرة - أعنى مिरقة - أخصب الجزر أرضاً ، وأعد لها هواء ، وأصفها جواً ، طولها وعرضها نحو من ثلاثين فرسخاً ، اتفق أهلها على أنهم لم يروا فيها شيئاً من الهوام المؤذية قط منذ عمرت ، من ذئب أو سبع أو حية أو عقرب ، إلى غير ذلك مما يُخشى ضرره ، ويجاورها بالقرب منها جزيرتان تقربان منها في الخصب ، تسمى إحداهما منرقة ، والأخرى يابسة ، وقد تقدم ذكرهما .

فاستقل محمد بمملكة هذه الجزر ، وضبطها لنفسه ، وأقام فيها جاريًا على أمر لمتونة الأول ، يدعو لبني العباس ، وكان له من الولد : عبد الله ، وإسحاق ، والزبير ، وطلحة ، وبنات .

فعهد في حياته إلى أكبر ولده ، عبد الله ، فنفس ذلك عليه أخوه إسحاق ، ودخل عليه في جماعة من الجند وعبيد له فقتله - قيل في حياة أبيه ، وقيل بعد وفاته - وتوفي عبد الله المذكور .

إسحاق بن محمد

واستقل أبو إبراهيم بالملك استقلالاً حسنًا ، وحسنت حالته ، وكثر الداخلون عليه بجزيرة مिरقة من فل لمتونة وبقاياهم ، فكان يحسن إليهم ويصلهم حسب طاقته .

وأقبل على الغزو ، وصرف عنايته إليه ، فلم يكن له هم غيره ، فكان له في كل سنة سفرتان إلى بلاد الروم ، يغنم ويسبي وينكي في العدو أشد نكاية ، إلى أن امتلأت أيدي أصحابه أموالاً ، فقوى بذلك أمره ، وتشبه بالملوك ، ولم يزل هذه حاله إلى أن توفي في سنة ٧٩ ، وفي أولها وفي آخر أيام أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن .

وكان يرأسل الموحدين ويهاديهم ويهاندهم ويختصهم من كل مايسبي ويغنم بنفسه وجيده ، يشغلهم بذلك عنه ، مع احتقارهم لأمر تلك الجزيرة وقلة التفاتهم إليها ، فلما كان في شهور سنة ٥٧٨ والوا إليه الكتب يدعونه إلى الدخول في طاعتهم والدعاء لهم على المنابر ، ويتوعدونه على ترك ذلك ، فوعدهم ذلك واستشار وجوه أصحابه ، فاختلفوا عليه ، فمن مشير عليه بالامتناع بمكانه وحاض له على الدخول فيما دعوه إليه ، فلما رأى اختلافهم أرجأ الأمر إلى أن ينظر

وخرج إلى بلاد الروم غازياً ، فاستشهد - رحمه الله - هناك ، وقيل إنه طعن طعنة في حلقه لم يمت منها مكانه وإنما جيء به حياً حتى أدخل قصره فمات فيه ، فالله أعلم .

وكان له من الولد : علّ - وهو أكبر ولده والقائم بأمره من بعده - [وعبد الله] ويحيى ، وأبو بكر ، وسير ، وتاشفين ، ومحمد ، والمنصور ، وإبراهيم ، توفي إبراهيم هذا بدمشق حين كان نازلاً بها على السلطان الملك العادل .

على بن إسحاق

ولما توفي أبو إبراهيم إسحاق بن محمد المذكور ، قام بالأمر من بعده ابنه على بعهد أبيه إليه ، وخرج بأسطول مبرقة إلى العدو ، وقصد مدينة بجاية حين راسله جماعة من أعيانها - على ما يقال - يدعونه إلى أن يملكوه ، ولولا ذلك لم يجسر على الخروج ، ومما جراه أيضاً كون الموحدين بالأندلس ، وسماعه خبر موت أبي يعقوب واشتغالهم ببيعة أبي يوسف ، وظن أن الأمر سيضطرب وأن الخلاف سينشأ ، فكان هذا أيضاً مما أعانه على الخروج ؛ ولولا هذه الأسباب التي ذكرنا لم يجسر على الخروج .

فقصد ساحل بجاية فنزل به ، فقاتله أهلها قتالاً غير كثير ، ثم دخلها ، وكان دخوله إياها - كما ذكرنا - يوم الاثنين لست خلون من شعبان من السنة المذكورة .

استطراد عن انتقاض العرب بإفريقية على الموحدين

وكان فيها إذ دخلها ، أبو موسى عيسى بن عبد المؤمن ، لم يكن والياً عليها ، وإنما كان الوالى عليها أبو الربيع سليمان بن عبد الله بن عبد المؤمن ، وكان أبو موسى ماراً بها حين رجع من إفريقية ، وكان والياً عليها هو وأخوه الحسن من قبل أخيهما أبى يعقوب ، فظهر من العرب إفساد ببعض نواحي إفريقية ، فخرج أبو موسى هذا وأخوه أبو على بجيش من المصامدة ومن انضاف إليهم من العرب وسائر الجند ، فالتقواهم وأولئك العرب المفسدون ، فانهزم جند إفريقية عنهما وأخذتها العرب أسيرين ، فأقاما عندهم ، وانتهى الخبر إلى أبى يعقوب ، فأرسل إلى أولئك العرب ، فطلبوا مالا اشتطوا فيه غاية الاشتطاط ، ثم إن الأمر تقرر بينهم وبين الموحدين على ستة وثلاثين ألف مثقال ، فلما أخبر بذلك أبو يعقوب استكثر المال وقال : هذه أيضاً مضرة أخرى ، إن أعطيناهم مثل هذا المال تقووا به على ما يريدونه من الفساد ! ثم اتفق رأيهم على أن يضربوا لهم دنائير من الصفر ممهوه ، ففعلوا ذلك وأرسلوا بها إليهم ، فأطلقوا أبا على وأبا موسى ومن كان معهما من خدمهما وحاشيتهما ، فهذا ما أوجب كون أبى موسى ببجاية ، فخرج من أسر العرب إلى أسر الميرقيين ! .

رجع الحديث عن بنى غانية في بجاية

فدخل على بن إسحاق - كما ذكرنا - بجاية في اليوم المؤرخ ، وأقام بها سبعة أيام صلى فيها الجمعة فخطب ودعا لبنى العباس ، ثم للإمام أبى العباس أحمد الناصر منهم ، وكان خطيبه الفقيه الإمام المحدث المتقن أبو محمد عبد الحق بن عبد الرحمن الأزدي الأشبيلي - مؤلف كتاب الأحكام وغيره من التأليف - فأحرق ذلك عليه أبا يوسف يعقوب

أمير المؤمنين ، ورام سفك دمه ، فعصمه الله منه وتوفاه حتف أنفه وفوق فراشه !
وخرج على بن إسحاق من بجاية بعد أن أسس أموره فيها ، وسار حتى نزل على قلعة
بنى حماد ، فملكها وملك جميع تلك النواحي ، فانتهى ذلك إلى أمير المؤمنين يعقوب ،
فخرج بالموحدين قاصداً مدينة بجاية ، فلما سمع على بقدومه خرج له عنها وقصد بلاد
الجرید .

استرجاع بجاية من يد الميورقيين

ونزل أمير المؤمنين بالقرب من بجاية ، فتلقاه أهلها ، فلقبهم منشراح الصدر ظاهر
البشر ، وقال لهم من القول مابسط به نفوسهم ورد إليهم نافر أنسهم ، وقد كانوا يظنون غير
ذلك ، فخرجوا من عنده متعجبين مما رأوا منه وسمعوا .

واستعمل على بجاية من أعيان الموحدين رجلاً اسمه محمد بن أبي سعد الجنفيسى ، ثم
سار حتى نزل مدينة تونس ، فجهز جيشاً عظيماً أمر عليهم رجلاً من ولد عمر بن عبد المؤمن
اسمه يعقوب ، وذلك لما كانوا يرونه في ملحمة كانت عندهم من أنهم سيهزمون مع رجل
اسمه يعقوب ، بموضع يعرف بوطا عمره ، فسار يعقوب هذا بالجيش المذكور ، وأقام هو في
تونس ؛ فكانت الهزيمة على يعقوب بن عمر كما ذكر ، وذلك أن الموحدين التقواهم
وأصحاب على بن غانية ، فانهزم الموحدون انهزاماً قبيحاً ، واتبعتهم العرب والبربر يقتلونهم
في كل وجه ، وهلك أكثرهم عطشا ، ورجع بقيتهم إلى تونس حيث أمير المؤمنين ، فلم
شعثهم ، وجبر ما وهى من أحوالهم ، وخرج هو بنفسه حتى لقي على ابن غانية بموضع
يعرف بالحامة ، حامة دقيوس ، فما وقف أصحاب على إلا يسيرا حتى انكشفوا عنه ، وأبلى
هو عذراً فأثخن جراحاً ، وخرج فاراً بنفسه فمات في خيمة لعجوز أعرابية .

وكان حين خرج من مبرقة خرج معه من إخوته : عبد الله ، ويحيى ، وأبو بكر ، وسير ،
فبقى هؤلاء المذكورون بعد موت أخيهم على من كان معهم من أصحابهم ، ثم رأوا أن يقدموا

عليهم يحيى لما رأوا من شهامته وشجاعة نفسه ، فقدموه ، ثم لحقوا بالصحراء فكانوا بها مع العرب الكائنين هناك إلى رجوع أن أمير المؤمنين من هذا الوجه .

استرجاع قفصة

وفى هذه السفرة انتقضت عليهم أيضاً مدينة قفصة ، ونزع أهلها أيديهم من طاعتهم ودعوا للميرقيين ، فنزل عليها أمير المؤمنين أبو يوسف فحاصرها أشد الحصار ، ثم دخلها عنوة فقتل أهلها قتلاً ذريعاً ، بلغنى أنه قتل أكثرهم ذبحاً ، وأمر بأسوارها فهدت .

إبراهيم الزويلي الكاتب

وفى ذلك يقول رجل من أصحابنا من الكتّاب ، اسمه إبراهيم ، يُعرف عندنا بالزويلي ، فى قصيدة طويلة له يمدح بها أمير المؤمنين أبا يوسف ويذكر شأن قفصة ورميهم إياها بحجارة المنجنقين :

سائل بقفصة هل كان الشقى لها بعلاً وكانت له حمالة الحطب
تبت يدا كافرٍ بالله ألهبها فكان كالكافر الأشقى أبى لهب

وفيهما يقول :

لما زنت وهى تحت الأمر مُحصنة حصبتموها اتباع الشرع بالحصب

أنشدنى - رحمه الله - هذه القصيدة بلفظه من أولها إلى آخرها ، فلما انتهى إلى هذا البيت « لما زنت . . » غلبنى الضحك لما سبق إلى خاطرى من سوء معناه ، فسترت وجهى ، فقال لى : مالك ؟ فلم أملك أن قهقهت ! فتغير لى ، فلما خفت غضبه أخبرته بما سبق إلى

خاطري ، فسبني وقال لي : أنت والله شيطان سيئ القريحة ، غالبٌ على طباعك
اللهو ! ..

واستمر في إنشاده حتى أتم القصيدة .

وأبو إسحاق الزويلي هذا من شيوخ الكتاب وظرفاء الشعراء ، جمعتني وإياه مجالس عند
السيد الأجل أبي زكريا يحيى بن يوسف بن عبد المؤمن ، شاهدت فيها من ظرفه وغلزارة
بديته ما قضيت منه العجب .

رجع الحديث عن بني غانية

ولما فرغ أبو يوسف من أمر إفريقية ، كر راجعاً إلى المغرب .

ولم يزل يحيى بن غانية قائماً بما كان يقوم به أخوه من تدبير الأمور ، ورجع منهم عبد الله
خاصة إلى جزيرة ميرقة ، فألفاها قد انتقضت عليهم ودُعي فيها للموحدين ، فعل ذلك
أخوهم أبو عبد الله محمد بن إسحاق ، فلما قدم عبد الله قام معه عِلْجٌ من علوج أبيه يسمى
نجاحا ، كان نجاحٌ هذا لم ينقض عهداً ولا نزع يداً من طاعة ، وكان متحصناً في قلعة ومعه
جماعة على رأيه من الموالى والجند ، فلما قدم عبد الله - كما ذكرنا - تلقوه ، وانضاف إليهم
خلق من بَوادي الجزيرة من الفلاحين ورعاة الغنم ، فنهد بهم عبد الله إلى المدينة ، فلم
يدفعه عنها أحد ولا أمتنع عليه من أهلها ممتنع ، ففتحوا له الأبواب ، ودخلها بمن معه ،
وأخرج أخاه محمداً ونفاه إلى الأندلس ، فحظى محمد هذا عند المصامدة حظوة عظيمة ،
وولوه مدينة دانة ، فلم يزل والياً عليها حتى مات .

واستقر عبد الله بميرقة ، فضبط أمرها وجرى في الغزو وإخافة العدو على سنن أبيه ،
فلم يزل كذلك إلى أن دخلها عليه الموحدون في سنة ٥٩٩ على ماسياتى بيانه إن شاء الله .

ولم يزل أمر يحيى بأفريقية ينبه تارة ويحمل أخرى ، وله أخبارٌ يطول شرحها ويخرج عن الغرض بسطها .

اختلاف بنى عبد المؤمن

وحين كان أمير المؤمنين أبو يوسف غائباً في هذا الوجه الذى ذكرنا ، طمع فى الأمر أخوه أبو حفص عمر المتلقب بالرشيد ، وعمه سليمان بن عبد المؤمن ، وكان أحدهما بشرقى الأندلس بمدينة مرسية ، والآخر بتادلا من بلاد صنهاجة .

فأما أبو الربيع سليمان فسولت له نفسه وزين له سوء رأيه أن يجمع على نفسه قبائل صنهاجة ليقوموا بدعوته ، وصرح بذلك ودعا أشياخهم فألقى إليهم ما أراد ، فلم يتفق له من ذلك أكثر من أن تشعت عليه البلاد وانتشرت عنه هذه الأشنوعة القبيحة ، وبلغ الخبر أمير المؤمنين .

وأما عمر فكان قد بدأ من ذلك بتنقص أمير المؤمنين أبى يوسف على رؤوس الأشهاد ، تعريضاً مرة وتصريحاً تارة ، وإلقاء ذلك إلى خواصه ليلقوه إلى وجوه الأندلس ، وانتهى أن قتل قاضى مرسية وخطيبها المعروف بابن أبى جمرة ، وقيل : إنه وكزة برأس السيف فى صدره وكزة مات منها بعد أيام .

فاستحثت هذه الأخبار أمير المؤمنين وأزعجته ، فعجل من بجاية إلى فاس سبع عشرة مرحلة ، وهذا نهاية ما يكون من سرعة السير لمثله ، فلما سمع بقدومه أبو الربيع سليمان وعمر المذكوران ، خرجا يلتقيانه ، فعبر عمر البحر ، وجاء سليمان بمن معه من تادلا للقاءه أيضاً ، فأما عمر فلقية بالقرب من مدينة مكناسة ، فلما رآه نزل عن دابته على العادة ليسلم عليه ، فلما قرب منه لم تدّر بينهما كلمتان حتى أمر بالقبض عليه وتقييده ، وحمل بعد التقييد إلى مدينة سلا ، ولقيه سليمان عمه ، ففعل به مثل ذلك ، وسار حتى نزل مدينة سلا ، وفصل عنها بعد أن وكل بهما من يقوم عليهما ، وأثقلهما بالحديد ، وسار حتى بلغ مراکش ،

فكتب إلى القائم عليها بقتلها وتكفينها والصلاة عليها ودفنها ، فقتلها صبراً ، ودفنها ، وكتب يعلمه بذلك ، فبلغني أنه قال له : بنيت قبريها بالكدان والرخام ، وجعل يذكر حسنهما ، فكتب إليه : مالنا ولدفن الجبابة ، إنما هما رجلان من المسلمين ، فادفنها كيف يدفن عامة المسلمين .

وبعد قتله هذين الرجلين هابه بقية القرابة وأشربت قلوبهم خوفه ، بعد أن كانوا متهاونين بأمره محتقرين له ، لأشياء كانت تظهر منه في صباه توجب ذلك ، وكان قتله هذين الرجلين في سنة ٥٨٣ ، وأظهر بعد ذلك زهداً وتقشفاً وخشونة ملبس ومأكل .

وانتشر في أيامه للصالحين والمتبتلين وأهل علم الحديث صيئ ، وقامت لهم سوق ، وعظمت مكانتهم منه ومن الناس ، ولم يزل يستدعى الصالحين من البلاد ، ويكتب إليهم يسألهم الدعاء ، ويصل من يقبل صلته منهم بالصلوات الجزيلة .

دعوة أبي يوسف إلى الأخذ بالكتاب والسنة

وفي أيامه انقطع علم الفروع ، وخافه الفقهاء ، وأمر بإحراق كتب المذهب بعد أن مجرد ما فيها من حديث رسول الله ﷺ والقرآن ، فاحرق منها جملة في سائر البلاد ، كمدونة سحنون ، وكتاب ابن يونس ، ونوادر ابن أبي زيد ومختصره ، وكتاب التهذيب للبراذعي ، وواضحة ابن حبيب ، وما جانس هذه الكتب ونحا نحوها ، ولقد شهدت منها وأنا يومئذ بمدينة فاس ، يؤتى منها بالأحمال فتوضع ويطلق فيها النار ، وتقدم إلى الناس في ترك الاشتغال بعلم الرأي والخوض في شيء منه ، وتوعد على ذلك بالعقوبة الشديدة ، وأمر جماعة ممن كان عنده من العلماء المحدثين بجمع أحاديث من المصنفات العشرة (الصحيحين ، والترمذي ، والموطأ ، وسنن أبي داود ، وسنن النسائي ، وسنن البزار ، ومسند ابن أبي شيبة ، وسنن الدارقطني ، وسنن البيهقي) في الصلاة وما يتعلق بها ، على نحو الأحاديث التي جمعها محمد بن تومرت في الطهارة ، فأجابوه إلى ذلك ،

وجمعوا ما أمرهم بجمعه ، فكان يُمليه بنفسه على الناس ويأخذهم بحفظه ، وانتشر هذا المجموع في جميع المغرب ، وحفظه الناس من العوام والخاصة ، فكان يجعل لمن حفظه الجُعَل السَّني من الكسا والأموال ، وكان قصده في الجملة محو مذهب مالك وإزالته من المغرب مرة واحدة ، وحمل الناس على الظاهر من القرآن والحديث ، وهذا المقصد بعينه كان مقصد أبيه وجده ، إلا أنها لم يظهره وأظهره يعقوب هذا ، يشهد لذلك عندي ما أخبرني غير واحد ممن لقي الحافظ أبا بكر بن الجَد ، أنه أخبرهم قال : لما دخلت على أمير المؤمنين أبي يعقوب أول دخلة دخلتها عليه ، وجدت بين يديه كتاب ابن يونس ، فقال لي : يا أبا بكر ، أنا أنظر في هذه الآراء المتشعبة التي أحدثت في دين الله ، رأيت يا أبا بكر المسألة فيها أربعة أقوال أو خمسة أقوال أو أكثر من هذا ، فأى هذه الأقوال هو الحق ؟ وأيها يجب أن يأخذ به المقلد ؟ فافتتحت أبين له ما أشكل عليه من ذلك ، فقال لي وقطع كلامي : يا أبا بكر ، ليس إلا هذا ، وأشار إلى المصحف ، أوهذا ، وأشار إلى كتاب سنن أبي داود ، وكان عن يمينه ، أو السيف ! فظهر في أيام يعقوب هذا ما خفى في أيام أبيه وجده ، ونال عنده طلبه العلم - أعنى علم الحديث - ما لم ينالوا في أيام أبيه وجده ، وانتهى أمره معهم إلى أن قال يوماً بحضرة كافة الموحدين يسمعونهم - وقد بلغه حسدهم للطلبة على موضعهم منه وتقريبه إياهم وخلوته بهم دونهم - يا معشر الموحدين ، أنتم قبائل ، فمن نابه منكم أمر فزع إلى قبيلته ، وهؤلاء - يعنى الطلبة - لا قبيل لهم إلا أنا ، فمهما نابهم أمرٌ فأنا ملجؤهم وإلى فزعهم وإلى يتسبون ! فعظم منذ ذلك اليوم أمرهم ، وبالعالم الموحدون في برهم وإكرامهم .

استرجاع مدينة شلب

ولما كان في سنة ٥٨٥ ، قصد بطرو بن الريق - لعنه الله - مدينة شلب ، من جزيرة الأندلس ، فنزل عليها بعساكره ، وأعانته من البحر الإفرنج بالبُطس والشوانى ، وكان قد وجه إليهم يستدعيهم إلى أن يعينوه ، على أن يجعل لهم سبى البلد ، وله هو المدينة

خاصة ، ففعلوا ذلك ، ونزلوا عليها من البر والبحر ، فملكوها وسبوا أهلها ، وملك ابن الريق - لعنه الله - البلد .

وتجهز أمير المؤمنين في جيوش عظيمة ، وسار حتى عبر البحر ، ولم يكن له هم إلا مدينة شلب المذكورة ، فنزل عليها ، فلم تُطق الروم دفاعه ، وخرجوا عنها وعما كانوا قد ملكوه من أعمالها ، ولم يكفه ذلك حتى أخذ حصناً من حصونهم عظيماً يقال له طُرُش ، ورجع إلى مراکش .

طامع آخر من بنى عبد المؤمن !

وبعد رجوعه مرض مرضاً شديداً خيف عليه منه ، وكان قد ولى أخاه أبا يحيى ، الأندلس ، فجعل يتلکأ في خروجه ويبطئ تربصاً به وطمعاً في وفاته ، وكلما أفاق هو سأل : هل عبر أبو يحيى أم لا ؟ فلما بلغ أبو يحيى استحاثه إياه ، أسرع إلى العبور وهو لا يشك أن أول ما يرد عليه خبر وفاته ، فاستمال أشياخ الجزيرة ودعاهم إلى نفسه ، وقال : ماتركت أمير المؤمنين إلا هامة اليوم أو غد ، وليس لها غيري ! فجعل أشياخ الجزيرة يُحيل بعضهم على بعض ، وأهل بلد على أهل بلد ، حتى بلغ مرسية ، وكتبوا بذلك مساطير خوفاً على أنفسهم .

وأفاق أمير المؤمنين من مرضه ، وأشار عليه الأطباء بالسفر ، فخرج قاصداً مدينة فاس ، يُحمل في محفة على بغلين ، وبلغه أمر أبي يحيى المذكور ، وجاءته كتب أهل الأندلس والمساطر التي كتبوها .

ولما سمع أبو يحيى بحركته ، جاء معتذراً إليه حتى عبر البحر ، فلقاه بمدينة سلا ، فلما وقعت عينه عليه قال لمن عنده : هذا الشقي قد جاء ! وأمر به فقيد ، ووجه إلى أشياخ الأندلس فحضروا وأدوا شهادتهم ، وأمر به فأحضر وقال : إنما أقتلك بقوله ﷺ : « إذا بويع خليفتان بأرض فاقتلوا الآخر منهما » ! وأمر به فضربت عنقه ، وتولى قتله أخوه لأبيه عبد الرحمن بن يوسف ، وذلك بمحضر من الناس ، وأمر به فكفن ودفن ، وأقبل على

القراية فنال منهم بلسانه وأخذ منهم أخذاً شديداً ، وأمر بإخراجهم على أسوأ حال ، حفاة
عراة الرءوس ، فخرجوا وكل واحد منهم لا يشك أنه مقتول !

ولم يزل أمر القراية من يومئذ في خمول وهلم ، وقد كانوا قبل ذلك لا فرق بين أحدهم
وبين الخليفة سوى نفوذ العلامة ، فكان جملة من قتل يعقوب : أخويه وعمه !

وقعة الأرك

ولما كان في سنة ٩٠ انتقض ما بينه وبين الأدفنش - لعنه الله - من العهد ، فخرجت
خيل الأدفنش تدوس البلاد وتجوس خلالها ، إلى أن كثر عيثها بالأندلس .

وتجهز أمير المؤمنين وأخذ في العبور ، فعبّر البحر في جمادى الآخرة من سنة ٥٩١ بجموع
عظيمة ، ونزل مدينة أشبيلية ، فلم يقم بها إلا يسيراً ريثما اعترض الجند وقسم الأموال ،
وخرج يقصد بلاد الروم .

وسمع الأدفنش - لعنه الله - بقصده ، فتجهز هو أيضاً في جموع ضخمة ، والتقوا
بموضع يعرف بفحص الحديد ، وكان الأدفنش قد جمع جموعاً لم يجتمع له مثلها قط ، فلما
ترأى الجمع انشد خوف الموحدين وساءت ظنونهم ، لما رأوا من كثرة عدوهم ، وأمير
المؤمنين في ذلك كله لامستند له إلا الدعاء والاستعانة بكل من يظن عنده خيراً من
الصالحين .

فلما كان يوم الأربعاء وهو الثالث من شعبان من هذه السنة المذكورة ، التقى المسلمون
 وعدوهم ، فأنزل الله على الموحدين نصره ، وأفرغ عليهم صبره ، ومنحهم أكتاف الروم ،
وكانت الدائرة على الأدفنش - لعنه الله - وأصحابه ، ولم ينج إلا هو في نحو من ثلاثين من
وجوه قواده ، واستشهد من المسلمين جماعة من أعيان الموحدين ، وغيرهم ، منهم الوزير
أبو يحيى أبو بكر بن عبد الله ابن الشيخ أبي حفص المتقدم الذكر في وزراء أبي يوسف .

وخرج أمير المؤمنين بنفسه حتى أتى قلعة رباح ، وقد انجلى عنها أهلها ، فدخلها ، وأمر بكنيستها فغيّرت مسجداً ، فصلى فيها المسلمون ، واستولى على ما حول طليطلة من الحصون ، ثم رجع إلى مدينة أشبيلية منصوراً مفتوحاً عليها . وكانت هذه الهزيمة أختاً لهزيمة الزلاقة ، المتقدم ذكرها في مدة يوسف بن تاشفين أمير المرابطين .

وأقام أمير المؤمنين بأشبيلية بقية سنة ٥٩١ ، وقصد بلاد الروم في السنة الثانية ، فنزل على مدينة طليطلة بعساكره ، فقطع أشجارها ، وانتسف معاشها ، وغور مياهها ، وأنكى في الروم أشد نكاية .

ثم عاد في السنة الثالثة أيضاً ، وتوغل بلاد الروم ، ووصل إلى مواضع لم يصل إليها ملك من ملوك المسلمين قط ، ورجع إلى مدينة أشبيلية ، فأرسل الأذفنش إليه - لعنه الله - يسأله المهادنة ، فهادنه إلى عشر سنين ؛ فعبر البحر بعد أن أصلح الجزيرة ورتب فيها من يقوم بحمايتها ، وقصد مدينة مراكش ، وذلك في سنة ٥٩٤ .

عزم أبي يوسف على قصد مصر ، ووفاته

فبلغني من غير واحد أنه صرّح للموحدين بالرحلة إلى المشرق ، وجعل يذكر البلاد المصرية وما فيها من المناكر والبدع ، ويقول : نحن إن شاء الله مطهروها ، ولم يزل هذا عزمه إلى أن مات - رحمه الله - في صدر سنة ٥٩٥ - كما ذكر - ودفن بتينمل مع آبائه .

شيء من سيرته

وكان في جميع أيامه وسيره مؤثراً للعدل ، متحرّياً له بحسب طاقته وما يقتضيه إقليمه والأمة التي هو فيها ، كان في أول أمره أراد الجرى على سنن الخلفاء الأول . . .

فمن ذلك أنه كان يتولى الإمامة بنفسه في الصلوات الخمس ، لم يزل على ذلك مستمراً أشهرًا ، إلى أن أبطأ يومًا عن صلاة العصر إبطاءً كاد وقتها يفوت ، وقعد الناس ينتظرونه ، فخرج عليهم فصلى ثم أوسعهم لومًا وتأنياً ، وقال : ما أرى صلاتكم إلا لنا ، وإلا فما منعكم عن أن تقدموا رجلاً منكم فيصلى بكم ؟ أليس قد قدم أصحاب رسول الله ﷺ عبد الرحمن بن عوف حين دخل وقت الصلاة وهو غائب ؟ أما لكم بهم أسوة وهم الأئمة المتبعون والهداة المهتدون ؟ فكان ذلك سبباً لقطعه الإمامة .

وكان يقعد للناس عامة ، لا يحجب عنه أحد من صغير ولا كبير ، حتى اختصم إليه رجلان في نصف درهم ، فقضى بينهما ، وأمر الوزير أبا يحيى صاحب الشرطة أن يضربهما ضرباً خفيفاً تأديباً لهما ، وقال لهما : أما كان في البلد حكام قد نصبوا لمثل هذا ؟ فكان هذا أيضاً مما حمله على القعود في أيام مخصوصة لمسائل مخصوصة لا ينفذها غيره .

ولما ولي أبا القاسم بن بَقِيَّ المتقدم الذكر ، كان فيما اشترط عليه أن يكون قعوده بحيث يسمع حكمه في جميع القضايا ، فكان يقعد في موضع بينه وبين أمير المؤمنين ستر من ألواح .

وكان قد أمر أن يدخل عليه أمناء الأسواق وأشياخ الحضر في كل شهر مرتين ، يسألهم عن أسواقهم وأسعارهم وحكامهم .

وكان إذا وفد عليه أهل بلد فأول ما يسألهم عن عمالهم وقضاتهم وولاتهم ، فإذا أثنوا خيراً قال : اعلموا أنكم مسئولون عن هذه الشهادة يوم القيامة ، فلا تقولن امرؤ منكم إلا حقاً ، وربما تلا في بعض المجالس ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ ﴾ [النساء : ١٣٥] .

ولما خرج إلى الغزوة الثانية سنة ٩٢ - وهي الغزوة التي كانت بعد الوقعة الكبرى التي أذل الله فيها الأدفنش وجموعه وأعز الإسلام وأنصاره - كتب قبل خروجه إلى جميع البلاد بالبحث عن الصالحين والمنتمين إلى الخير وحملهم إليه ، فاجتمعت له منهم جماعة كبيرة كان يجعلهم

كلما سار بين يديه ، فإذا نظر إليهم قال لمن عنده : هؤلاء الجند لا هؤلاء ! ويشير إلى العسكر ، فكان في ذلك شبيهاً بما حكى عن قتيبة بن مسلم وإلى خراسان حين لقي الترك وكان في جيشه أبو عبد الله محمد بن واسع ، فجعل يُكثر السؤال عنه ، فأخبر أنه في ناحية من الجيش متكئاً على سية قوسه رافعاً أصبعه إلى السماء ينفض بها ، فقال قتيبة : لأصبعه تلك أحب إليّ من عشرة آلاف سيف !

ولما رجع أمير المؤمنين أبو يوسف من وجهه هذا ، أمر هؤلاء القوم بأموال عظيمة ، فقبل منهم من رأى القبول ورد من رأى الرد ، فتساوى عنده - رضى الله عنه - الفريقان وقال : لكل مذهب ، ولم يزد هؤلاء ردهم ولا نقص أولئك قبولهم .

وكان كثير الصدقة ، بلغنى أنه تصدق قبل خروجه إلى هذه الغزوة - أعنى التى كانت فيها الوقعة الكبرى - بأربعين ألف دينار ، خرج منها للعامة نحو من نصفها ، والباقي فى القرابة ، أدركتهم وقد قسموا مدينة مراکش أرباعاً ، وجعلوا فى كل ربع أمناء معهم أموال يتحرّون بها المساير وأرباب البيوتات ، وكان كلما دخلت السنة يأمر أن يُكتب له الأيتام المنقطعون ، فيجمعون إلى موضع قريب من قصره ، فيُختنُون ويأمر لكل صبى منهم بمئقال وثوب ورغيف ورمانة ، وربما زاد على المئقال درهمين جديدين ، هذا كله شاهدته لا أنقله عن أحد من الناس .

وبنى بمدينة مراکش بيارستاناً ما أظن أن فى الدنيا مثله ، وذلك أنه تخير ساحةً فسيحة بأعدل موضع فى البلد ، وأمر البنائين بإتقانه على أحسن الوجوه ، فأتقنوا فيه من النقوش البديعة والزخارف المحكمة ما زاد على الاقتراح ، وأمر أن يُغرس فيه مع ذلك من جميع الأشجار المشمومات والمأكولات ، وأجرى فيها مياهاً كثيرة تدور على جميع البيوت ، زيادةً على أربع برك فى وسطه ، إحداها رخام أبيض ، ثم أمر له من الفرش النفيسة من أنواع الصوف والكتان والحرير والأديم وغيره بما يزيد على الوصف ويأتى فوق النعت ، وأجرى له ثلاثين ديناراً فى كل يوم برسم الطعام وما ينفق عليه خاصة ، خارجاً عما جلب إليه من

الأدوية وأقام فيه من الصيادلة لعمل الأشربة والأدهان والأكحال ، وأعد فيه للمرضى ثياب ليل ونهار للنوم ، من جهاز الصيف والشتاء ، فإذا نَقَّه المريض فإن كان فقيراً أمر له عند خروجه بمال يعيش به ريثما يستقل ، وإن كان غنيا دُفِعَ إليه ماله وتُركَ وسببه ، ولم يقصره على الفقراء دون الأغنياء ، بل كل من مَرَضَ بمراكش من غريب حمل إليه وعولج إلى أن يستريح أو يموت ، وكان في كل جمعة بعد صلاته يركب ويدخله ، يعود المرضى ويسأل عن أهل بيت أهل بيت ، يقول : كيف حالكم ؟ وكيف القومة عليكم ؟ إلى غير ذلك من السؤال ، ثم يخرج ، لم يزل مستمراً على هذا إلى أن مات رحمه الله .

ممالك الغز ، المصريون في المغرب

وفي أول ولايته - إما سنة ٨٣ أو ٨٢ - ورد علينا البلاد الغز من مصر كان فيمن ورد علينا مملوك يسمى قراقش ، ذكروا أنه كان مملوكاً لتقي الدين ابن أخى الملك الناصر ، ورجل يسمى شعبان ، ذكروا أنه من أمراء الغز ، ومن أجناد المصريين رجل يعرف بالقاضى عماد الدين ، فى آخرين ، فأحسن نزلهم ، وبألف فى إكرامهم ، وجعل لهم مزية ظاهرة على الموحدين ، وذلك أن الموحدين يأخذون الجامكية ثلاث مرات فى كل سنة ، فى كل أربعة أشهر مرة ، وجامكية الغز مستمرة فى كل شهر لا تختل ، وقال : الفرق بين هؤلاء وبين الموحدين أن هؤلاء غرباء لاشئ لهم فى البلاد يرجعون إليه سوى هذه الجامكية ، والموحدون لهم الأقطاع والأموال المتأصلة ، هذا مع أنه أقطع أعيانهم أقطاعاً كقطاع الموحدين أو أوسع : أقطع رجلاً منهم فيما أعرف ، من أهل إربل ، يُعرف بأحمد الحاجب ، مواضع ليس لأحد من قرابته مثلها ، وأقطع شعبان المذكور بالأندلس قرى كثيرة تغل فى كل سنة نحواً من تسعة آلاف دينار ، هذا خارجاً عن جامكيتهم الكثيرة التى ليس لأحد من الأجناد غيرهم مثلها .

ولم يرد المغرب من هذه الطائفة - أعنى الغز - ألطف حساً ولا أزكى نفساً ولا أحسن محاضرةً ولا أطيب عشرة من شعبان هذا المذكور ، ما لقيته إلا استنشدنى أو أنشدنى .

أنشدته يوماً لشاعر من أصحابنا من أهل أشبيلية :

وقائل : فيما لم تهجع ؟ فقلت له : كيف الهجوع لطرفٍ نافر الوسن

لم قدر أن الكرى الممنوع عن بصرى هي السنوات التى فى مقلتي حسن !

فضحك وقال : لقد حوم هذا الشاعر وما ورد ، ورفرف فما طار ، وأراد غاية فوق
دونها ، ولله من آثار هذا المعنى بأوجز لفظ وأسهل مأخذ وأيسر كلفة حيث يقول :

أعيدوا صباحى فهو عند الكواعب وردوا رقادى فهو لحظ الحبائب

قلت : هو أبو الطيب ، قال لى : نعم ، هو الطيب أبو الطيب .

وأنشدته يوماً - وقد جرى ذكر التجنيس اللفظى ، فأنشد هو منه وأكثر :

إذا صال ذو ود بود صديقه فيا أيها الخل المصاحب لى صل بى

فإنى مثل الماء ليناً لصاحبى وناهيك للأعداء من رجل صلب !

فاستحسنهما وكتبهما عنده ، وقال لى رحمه الله : لك على بهذين البيتين حق ، فما وافقنى شىء من الشعر فى هذا المعنى ولا فى غيره ولا وقع منى موقعهما .

وفى الجملة كان له شغف بالأدب شديد ، وكان يقرض شيئاً من الشعر ، وربما نذرت
له الأبيات الجيدة ، سأله أن يكتب لى شيئاً من شعره أو ينشدنيه ، فأبى على كل الإباء
وحلف لا يفعل . . .

أبو يوسف وعقيدة العامة فى ابن تومرت

وخرج أمير المؤمنين أبو يوسف إلى تينمل للزيارة ومعه هؤلاء الغز المذكورون ، فقعدوا
تحت شجرة خرّوب مقابلة للمسجد ، وقد كان ابن تومرت قال لأصحابه فيما قال لهم

ووعدهم به : ليُبصرَنَّ منكم من طالت حياته أمراء أهل مصر مستظلين بهذه الشجرة قاعدين تحتها ! فلما جلس الغز على الصفة المتقدمة تحتها كان ذلك اليوم في تينمل يومًا عظيمًا ، اتصل التكبير من كل جهة ، وجاء النساء يولولن ويضربن بالدفوف ويقلن ما معناه بلسان : صدق مولانا المهدي ! نشهد أنه الإمام حقًا !

فأخبرني من رأى أمير المؤمنين أبا يوسف حين رأى ذلك يتبسم استخفافاً لعقولهن ، لأنه لا يرى شيئاً من هذا كله ، وكان لا يرى رأيهم في ابن تومرت ، فאלله أعلم .

أخبرني الشيخ الصالح أبو العباس أحمد بن إبراهيم بن مطرف المري ونحن بحجر الكعبة قال : قال لي أمير المؤمنين أبو يوسف : يا أبا العباس اشهد لي بين يدي الله عز وجل أني لا أقول بالعصمة - يعنى عصمة ابن تومرت قال : وقال لي يومًا وقد استأذنته في فعل شيء يفتقر إلى وجود الإمام يا أبا العباس ، أين الإمام . . . ؟ أين الإمام . . . ؟

أخبرني شيخ ممن لقيته من أهل مدينة جيان من جزيرة الأندلس ، يسمى أبا بكر بن هانيء ، مشهور البيت هناك ، لقيته وقد علت سنُّه فرويت عنه ، قال لي : لما رجع أمير المؤمنين من غزوة الأرك - وهى التى أوقع فيها الأذفنش وأصحابه - خرجنا نلتقاه ، فقدمنى أهل البلد لتكليمه ، فرُفعت إليه ، فسألنى عن أحوال البلد وأحوال قضاته وولاته وعماله - على ماجرت عادته - فلما فرغت من جوابه - سألنى كيف حالى فى نفسى ، فتشكرت له ودعوت بطول بقاءه ، ثم قال لي : ما قرأت من العلم ؟ قلت : قرأت تواليف الإمام ، - أعنى ابن تومرت - فنظر إلى نظرة المغضب ، وقال : ما هكذا يقول الطالب ! إنها حكمك أن تقول : قرأت كتاب الله ، وقرأت شيئاً من السنة ، ثم بعد هذا قل ماشئت ، فى أضراب لهذه الحكايات لو أوردناها لطال بها هذا التلخيص .

اهتمامه بالتشييد والبناء

وكان عند رجوعه من السفارة التى استنقذ فيها مدينة شلب من أيدي الروم على ما

تقدم ، أمر أن يبنى له على النهر الأعظم ، نهر أشبيلية ، حصن ، وأن تبنى له في ذلك الحصن قصور وقباب ، جاريًا في ذلك على عادته من حب البناء وإيثار التشييد - فإنه كان مهتمًا بالبناء ، وفي طول أيامه لم يخل من قصر يستجده أو مدينة يعمرها ، زاد في مدينة مراكش في أيامه زيادة كثيرة يطول تفصيلها - فتمت له هذه القصور المذكورة على ما أراد وفوقه ، وسمّى ذلك الحصن « حصن الفرّج » .

على بن حزمون الشاعر

ولما رجع من غزوته العظمى - المتقدم ذكرها في سنة ٥٩١ جلس للوفود في قبة من تلك القباب مشرفة على النهر الأعظم ، وأذن فدخلوا عليه على طبقاتهم ومراتبهم ، وأنشده الشعراء ، فممن أنشده في ذلك اليوم صديق لى من أهل مرسية اسمه على بن حزمون ، أنشده قصيدة في عروض يسمى الخب كان يقترحه على الشعراء فوقع القصيدة من أمير المؤمنين ومن الحاضرين موقع استحسان ، أولها :

حيثك معطـرة النفس	نفحات الفتح بأنـدلس
فذر الكفار ومأثمهم	إن الإسلام لفي عـرس
أمـام الحق ونـاصره	طهرت الأرض من الـدنس
وملأت قلوب الناس هدى	فـدنا التـوفيق للتمس
ورفعت منار الـدين على	عمـد شـمّ وعلى أسس
وصدعت رداء الكفر كما	صدع الـديجور سنا قبس
لاقيت جموعهم و فـغدوا	فرصاً في قبضة مفترس
جـاءوك تضيق الأرض بهم	عـداً لم يحص ولم يُقس

خَرَجُوا بِطَرَأٍ وَرِثَاءِ النَّا
وَمَضِيَتْ لِأَمْرِ اللّٰهِ عَلَى
فَأَنَّاخَ الْمَوْتَ كَلَاكِلَهُ
وَتَسَاوَى الْقَوَاعُ بِهِامِهِمْ
سُقِيَتْ بِنَجِيْعِهِمْ وَوَأَكَمَّ
فَأُولَئِكَ حَزَبُ الْكُفْرِ أَلَا
أَذْوَى الصَّالِبَانِ وَرَاءَ كَمُو
لَوْ أَنَّ الْبَحْرَ تَنَاولَهُ
كَأَنَّ الْأَصَمَّ تُرَاجِمَهَا
مَلَأَ التَّوْحِيدَ أَعْنَتَهَا
نَهَضَتْ فَمَضَتْ فَقَضَتْ أَمَلًا
جَاسَتْ جَنِبَاتُ الْكُفْرِ فَلَمْ
لَمْ يَبْقَ بِهَا مَثَلُ سَوَى رَجُلٍ
لَحَقُوا بِقُرُونِ الشُّمِّ فَلَا
إِنْ كَانَ نَجَا أَدْفَنَ شَهْمُو
نَظَرَ الْمَلِكُ الْأَعْلَى فَرَأَى
كَالصُّبْحِ تَوَشَّحَ رَوْنَقَهُ
فَمَضَى لَمْ يَلَوْ عَلَى أَحَدٍ
لَصَلِيلُ الْهَنْدِ بِمَقْرِقَتِهِ

سَ لِيَخْتَلِسُوا مَعَ مَخْتَلِسِ
ثَقِيَّةٍ بِاللّٰهِ وَلَمْ تَخْسِ
بِظُبُرِكَ عَلَى بَشَرٍ رَجَسِ
السَّرْبُضُ مَعَ الْحَرْبِ الضَّرْسِ
وَطِئْتُ سَوَا مِنْهَنَ عَلَى دَهْسِ
إِنَّ الْكُفْرَ لَمَّا لَفَى نَكْسِ
خَيْلُ الْمَلِكِ الْخَبَرُ الذَّنْدُسِ
جُرْعَةً وَطَأْتَهُ عَلَى يَبْسِ
أَضْحَتْ كَحُلِ الْمَقِيلِ الذَّنْسِ
وَأَغَارَ بِهَا رُوحُ الْقَسْدُسِ
أَنْسَى عَتَبَ الدُّنْيَا قُنْسَى
تَتَرَكَ لَهُمْ سَوَا مَالِمْ تَجْسِ
إِلَّا وَعَلَيْهِ شَذَى فَرَسِ
سَقِيَا لَطْلُولَهُمْ وَالدُّرْسِ
فَإِلَى عَيْشٍ نَكْسٍ دِ تَعْسِ
مَلَكًا مَا بَيْنَ قَنَاءٍ وَقَسَى
كَالطُّورِ بَنُورِ اللّٰهِ كُوسَى
وَرَمَى بِالْأَدْرَعِ وَبِالْأَتْرَسِ
لَا يَسْمَعُ صَلَاحَةَ الْجَرَسِ

سهر الموتور وأرقه	تذكر المنصل والمرس
وبكاء عقائل هاتفة	كالورق ينحن مع الغلس
برزت وكأن ذوائبها	أذنباب رومحة شمس
ترنو كظباء الرمل على	وجل لضرغامسة شرس
قد كن مها أنس فغدت	تحت الرايات بلا أنس
إن الأيام قد ازدهرت	كالروض يروق لغترس
وتناسقت الآمال لنا	كالثغر تنظم في لعس
وتسلأ نور الحق على	أثر المهديّة فاقتبس
أجزيرة أندلس اعتصمى	بإمام الأمة واحترسى
أرعاك حراسته ملك	جبريل له أحد الحرس
حكمت أسيافك سيدنا	في كل مصر الكفر مسى
ومضت في الروم مضاربها	وكذلك تفعل في الفرس
لأخلف ربك موعده	دوخ أقطارهمو ودس !

أوردتها على تواليها وإن كان فيها طول ، لغرابة عروضها وجودة أكثر أبياتها ، أنشدنيها منشئها المذكور من لفظه ، ثم أعدتها عليه بلفظ آخر مرة لقيته بمدينة مرسية في سنة ٦١٤ .

ولعلي بن حزمون هذا قدم في الآداب ، واتساع في أنواع الشعر ، ركب طريقة أبي عبد الله ابن حجاج البغدادي - سامحه الله وغفر له - فأربى فيها عليه ، وذلك إنه لم يدع

موشحة تجرى على ألسنة الناس بتلك البلاد إلا عمل في عروضها ورويها موشحة على الطريقة المذكورة ، وله مع هذا في الهجاء يد لا تطاول ، غير أنه يفحش في كثير منه ، فمن أحسن ما أحفظ له من ذلك وأسلمه من الفحش والإقذاع ، أبيات ركب فيها طريقة الحطئة :

ابتدأ يهجو نفسه ، ثم استطرد يهجو رجلاً من أعيان قواد الأنسلس يقال له محمد ابن عيسى ، مشهور النجدة عندهم . والأبيات :

تأملت في المرأة وجهي فخلتـه
 كأن على الأزرار منى عـورة
 فلو كنت مما تنبت الأرض لم أكن
 وأقبح من مرأى بطنى فإنه
 وإلا كقلب بين جنبى محمـد
 يود بأن لو كان في بطن أمه
 ثقيل ولكن عقله مثل ريشة
 تميل بشدقيه إلى الأرض لحية
 وقد حدثوا عنه بكل نقيصة

كوجه عجوز قد أشارت إلى اللهو
 تنادى الوري : غضوا ولا تنظروا نحوى
 من الرائق الباهى ولا الطيب الحلو
 يقرقر مثل الرعد قرقر في الجو
 سليل ابن عيسى حين فر ولم يلو
 جنيناً ولم يسمع حديثاً عن الغزو
 تطير بها الأرواح في مَهْمَـةٍ دوى
 تظن بها ماءً يفرغ من دلو
 ولكن مثلى لا يُرَوَّى ولا يَـرَوَّى

وله في هذا المعنى أحسن من هذا كثيراً إلا أنه أقنع فيه ، فلذلك لم أودعه هذه الأوراق ،
لأنني لا أستجيز أن ينقل مثل هذا عني .

ونال ابن حزمون هذا عند قضاة المغرب وعماله وولاته جاهًا وثروة ، كل ذلك خوفًا من لسانه وحذرًا من هجائه ، ولا أعلم في جميع بلاد المغرب بلداً إلا وأهاجى هذا الرجل تحفظ

فيه وتدرس ، أسأل الله له المسامحة ولجميع إخواننا من المسلمين .

محمد بن عبد ربه الكاتب حفيد صاحب العقد

وأمر أمير المؤمنين بعرض الجند في هذا اليوم في السلاح التام ، فلما انتشروا بين يديه وأعجبه ما رأى من حسن هياتهم ، قام فصلى ركعتين شكراً لله عز وجل ، واتفق أثر فراغه من ذلك الركوع أن جاءت سحابة فأمطرت مطراً جوداً حتى ابتل الناس ، فقال في ذلك صديق لي من الكتاب اسمه محمد بن عبد ربه أصله من الجزيرة الخضراء ، كان يكتب لأبى الربيع سليمان بن عبد الله بن عبد المؤمن ، وكان مختصاً به :

بادى الكرامة بل بادی الكرامات	قد شفع الله آيات بآيات
ياليت شعري ما بشيء دعوت به	قبل السلام ومن بعد التحيات
شيء تآثر عنه الجو فاتصلت	من السحاب رايات برايات
من كل وطفاء لفاء الرباب همت	ماءً نقيّاً على زعفر نقيّات
قل كيف لا يفتح الله البلاد وقد	تفتحت لك أبواب السماوات

فاشتهر من يومئذ أبو عبد الله هذا وعرف مكانه ونبه قدره ، وله ! إحسان كثير وقدم راسخة في صناعتى النظم والنثر ، مع تحقق بشيء من أجزاء الفلسفة من علوم التعاليم وعلم المنطق ، أنشدنى - رحمه الله - من شعره :

قف بالقباب وأين ذاك الموقف	واسألهم بمامهم أن يعطفوا
وانشد فؤادك إن عرفت مكانه	بين القباب وما إخالك تعرف
عند التى رمت الجمار غديّة	وبنانها بدم القلوب مطرف
نفسى الفداء لها وإن لم تُبق لي	نفساً تُذكرنى بها وتُعرف

وهى قصيدة طويلة لم يبق تقادم العهد [منها] على خاطرى سوى ما أورده .
وأنشدته - رحمه الله - يوماً ونحن فى قبة على شاطئ نهر وقد أخذ المطر فى الانسكاب ،
بيتين أحفظهما لشاعر قديم :

حاكت يمين الرياحُ محمّةً فى نهرٍ واضح الأسارىـر
فكلما ضعفت به حلقاً قام لها القطرُ بالمسامير

فاستحسنها وقال لى : ذكرتني هذا المعنى ، وأنشدنى فيه لنفسه أبياتاً ما سمعت
بمثلها ، هذا على إكثار الناس فى هذا المعنى وتواردهم عليه حتى صار أخلق من الليل
والنهار من كثرة تكراره على الأسماع ، فلا يتخلص منه إلا من لطف حسه وجاد طبعه
وحسن ميزه ، والأبيات :

بين الرياض وبين الجو معترك بيض من البرق أو سمر من السمر
إن أوترت قوسها كف السماء رمت نبلاً من الماء فى زغف من الغدر
لأجل ذاك إذا هبت طلائعها تدرّع النهر واهتزت قنا الشجر

فانظر- حفظك الله - إلى حسن توطأته لهذا المعنى وقوة تخلصه إلى هذا التشبيه بأحسن.
لفظ وأسهله على السمع والنطق .

واستأذنت عليه يوماً وهو فى مجلس له ، فلم ير- رحمه الله - أن يحجبني ، فاسترفع ما كان
لديه وأذن لى ، فدخلت ، فتلقانى أحسن لقاء ، وأخذ يحدثنى ، وفهمت أنه مستحي
خجل إذ عرف أنى تطفنت لبعض الأمر ، فأنشدته رافعاً عنه كلفة الخجل لبعض
الشعراء :

أدرها فما التحريم فيها لذاتها ولكن لأسباب تضمنها السكر
إذ لم يكن سُكْرٌ يزلُّ به الفتى فسيان ماءً في الزجاجة أو خمر!

فطرب - نضر الله وجهه - وعأوده أنسه وانبسط ، ثم سكت عنى ساعة واستدعى
الدواة وكتب بديهاً في قريب من المعنى الذى أنشدته فيه :

ماضرت الخمر لولا الشرع يشربها قومٌ حديثهمو همسُ التسابيحِ
ليسوا برعشٍ إذا أدوا فوضهمو عند القيام ولا ميل مراجيحِ
بيت كبيتٍ وفيه شادنٌ سدينٌ مزج الكئوس به وقد المصابيحِ

وأنشدنى بعد هذا لنفسه ، فى هذا المجلس ، من قديم شعره ، مقطوعةً سينية لم أسمع
بأحسن منها ، لم يبق على خاطرى منها سوى آخر بيت فيها ، وهو :

ولكن قوماً لا يغيب نهارهم إذا غربت شمسٌ يُديرونها شمساً

وله - رحمه الله - رحلة إلى مصر لقي فيها ابن سناء الملك (١) وأخذ عنه من شعره ، وهو
أول من سمعت يذكره عندنا ويروى شعره .

ولأبى عبد الله هذا اتساع فى صناعة الشعر ، إلا أنه نحل كثيراً من شعره السيد الأجل
أبا الربيع سليمان بن عبد الله بن عبد المؤمن أيام كتابته له ، ولم يدع بعد ذلك فى شىء مما
نحله إياه من شعره ، ولا ذكر أنه له ، فكان أكثر شعره يُنشد لأبى الربيع وترويه الرواة له ،

(١) وهو أبو بكر السعيد هبة الله بن جعفر وهو من شعراء مصر فى المائة السادسة ، مات بمصر ٦٥٨ هـ
وقيل ٦٥٩ هـ .

عرفت ذلك بعد مفارقتة إياه ، لأننى فقدت شعر السيد أبى الربيع واختلف على كلامه ،
ورأيت بخطه أشعاراً نازلة عن رتبة الشعر جداً ، فعلمت أن ذلك الأول ليس من نسجه !
وأخبرنى ابن عبد ربه هذا قال : دخلت على السيد أبى الربيع وهو فى قبة له وقد دخلت
عليه الشمس من كوى صغارٍ فى أعلاها ، فلما رأيت ذلك المنظر أعجبني وقلت بديهاً :

لما رأته الشمس يفعل فعلها فى العالمين مُقاسما ومساها
خافت توالى الجود يُنفد ماله نثرت عليه دنائراً ودراهما !

فحذف الياء من « دنائير » ، وهذا جائز ، كما قال الأول :

تضل به أمناً وفيه العصافر

أبو جعفر الحميرى المؤدب

ومما يتعلق بأخبار أبى يوسف - رحمه الله - ما أخبرنى شيخى وأستاذى أبو جعفر أحمد بن
محمد بن يحيى الحميرى - رحمه الله - أيام قراءتى عليه بقرطبة سنة ٦٠٦ ، وذلك أنا بلغنا
عليه فى الحماسة إلى مقطوعة ابن زياة التيمى (١) التى أولها :

يالهِف زياة للحارث الصابح فالغانم فالآيب

فلما انتهينا منها إلى قوله :

والله لو لاقيته خالياً لأب سيفسانا مع الغالب !

(١) هو مسلمة بن ذهل التيمى ، وزياة : أمه ، وبها يعرف ، والحارث المذكور فى البيت هو الحارث بن
همام الشيبانى ، وأنشد ابن زياة هذه المقطوعة يناقض بها الحارث المذكور فى شعر قاله ، انظر ديوان
الحماسة لأبى تمام .

قال لنا : أحدثكم بأعجب ما اتفق لي في هذا البيت ، وذلك أن أمير المؤمنين أبا يوسف رحمه الله - لما فصل عن قرطبة متوجهاً إلى لقاء الأدفنش - لعنه الله - قال لي ولدي عصام بعد انفصاله ليلة أو ليلتين : ياأبت ، رأيت البارحة أمير المؤمنين داخلاً قرطبة وقد رجع من السفر وهو متقلد بسيفين ! فقلت : يا بني ، لئن صدقت رؤياك هذه ليَهْزِمَنَّ الأدفنش لعنه الله ! وخطر لي هذا البيت :

والله لو لاقيتُـه خالياً لأب سيفاناً مع الغالب !

فصدقت الرؤيا والتعبير .

وأبو جعفر هذا المذكور ، آخر من انتهى إليه علم الآداب بالأندلس ، لزمته نحواً من ستين ، فما رأيت أروى لشعرٍ قديم ولا حديث ، ولا أذكر بحكاية تتعلق بأدبٍ أو مثلٍ سائر أو بيت نادر أو سَجعةٍ مستحسنة منه ، رضى الله عنه ، وجازاه عنا خيراً . أدرك جلةً من مشايخ الأندلس فأخذ عنهم علم الحديث والقرآن والآداب ، وأعاناه على ذلك طول عمره وصدق محبته وإفراط شغفه بالعلم ، قال لي ولده عصام - وقد رأيت عنده نسخة من شعر أبي الطيب قُرئت عليّ أو أكثرها فألفيتها شديدة الصحة ، فقلت له :

لقد كتبتها من أصل صحيح وتحزرت في نقلها . فقال لي : ما يمكن أن يكون في الدنيا أصلٌ أصح من الأصل الذي كتبت منه ! فقلت له : أين وجدته ؟ قال هو موجود الآن بين أيدينا وعندنا ! وكنا في المسجد في زاوية ، فقلت له : أين ؟ فقال لي : عن يمينك ! فعلمت أنه يريد الشيخ ، فقلت : ما على يميني إلا الأستاذ ! فقال لي : هو الأصل ، وبإملائه كتبت ، كان يُملئ عليّ من حفظه ! فجعلت أتعجب ، فسمع الأستاذ حديثنا ، فالتفت إلينا وقال : فيم أنتما ؟ فأخبره ولده الخبر ، فلما رأى تعجبي قال : بعيداً أن تفلحوا ! يعجب أحدكم من حفظ ديوان المتنبي ! والله لقد أدركت أقواماً لا يعدُّون مَنْ حفظ كتاب سيبويه حافظاً ولا يرونه مجتهداً !

توفي أبو جعفر هذا في شهر صفر من سنة ٦١٠ وقد كُملت له ست وتسعون سنة ، لم يبق في الأندلس أعلى رواية منه في كل ما يُروى ، ولم أر قبله ولا بعده - مع اتساع علمه وشدة تميزه وحسن اختياره ومعرفته بعِلل هذه الصناعة - أكثر إنصافاً منه ولا أسرع رجوعاً إلى الحق ، كنت أنشده من شعري على ركاكته وكثرة تكلفه وبعده من الجودة أبياتاً لا أعدها شيئاً يحملني على إنشادها إياه فرط استدعائه ذلك مني ، فيلهج بها ويشهد استحسانه لها ، وربما درسها فحفظها .

أنشدته يوماً - وقد استدعى مني ذلك على عادته - بيتين ارتجلتهما في شاب كان يقرأ معنا كان شديد العفة - رحمه الله - مع حسن رائع وظرف ناصع ، كان اسمه « فتحاً » وهما :

يَا مَنْ لَه عَنْ كُنَاسِ	مَنْ الْمَتِيمِ قَلْبُهُ
مَآ أَنْتَ كُنَاسُكَ فَتَحٌ	وَإِنَّمَا أَنْتَ قَلْبُهُ

فطرب والتفت إلى ابنه وقال له : هذا والله الشعر ، لا ما تصدعني به طول نهارك ، إن كنت تقول مثل هذا وإلا فاسكت ! فلما كان من الغد قال لي - رحمه الله : أعلمت ما صنع عصام أمس ؟ قلت : لا ، قال : كان كما قالوا في المثل : « سكت ألفاً . . . » ، لم يزل أمس يُعمل فكرته ، فبعد الجهد الشديد أخذ معنى بيتيك فسلبه روحه وأعدمه رونقه ومسخه جملةً فقال :

سَبَبِي فَمَنْ وَادِي خَشَفَ	فَقَوْتِي الْيَوْمَ ضَعْفُ
سَمَوَهُ فَتَحاً مَجَازاً	وَفِي الْحَقِيقَةِ حَتْفُ !

مازاد فيه أكثر من المجاز والحقيقة ، فقلت أنا : هذا والله أحسن من شعري ! فتغير لي وقال : يا بني ، دع عنك هذه العادة ، فإن أسوأ ما تخلق به الإنسان : الملق وتزيين الباطل ،

سيما إذا أضاف إلى ذلك الحلف الكاذب ، والله إنك لتعلم أن هذا ليس بشيء ، وإلا فقد اختل ميزك وساء اختيارك ، وما أظن هذا هكذا .

وسمعتة - من شدة إنصافه رحمه الله - يستحسن بيتين هجاء بهما صاحبنا على بن خروف رحمه الله ، وذلك أن الأستاذ - رحمه الله وعفا عنه - كان يلقب بالوزغى ، وكان عنده شاب يقرأ عليه يلقب بالغرنوق - وهو اسم عندهم للكركى ، والفصيح فيه غرنيق - فكان بعض الطلبة يتهمون الأستاذ بالميل إلى ذلك الشاب ، وذلك خلق قد أعاده الله منه ونزهه بفضله عنه ، فقال ابن خروف في ذلك ، سامحه الله :

أحَقَّا سَامَّ أَبْرَص مَاسْمَعْنَا بَأْنِكَ قَد تَعَشَّقْتَ ابْنَ مَاء
وَكَيْفَ وَأَنْتَ فِي الْحَيْطَانِ تَمْشَى وَذَاكَ يَطِيرُ فِي جَوِّ السَّمَاءِ !

فأبعده الأستاذ - رحمه الله - وأنهى خبره إلى القاضى أبى الوليد ابن رشد ، فأوجعه ضرباً ، وامتنع الأستاذ من قراءة عليه ، فحرمه الله بهذين البيتين فوائد علمه ، وأبعده عن مريع جنابه ، وولاه الأستاذ خطته ، وألقى حبله على غاربه ، فلم يفلح ابن خروف بعدها ولا حصل على شيء من العلم ، وإنما كان يعتمد فيها يأتى به على طبعه خاصة .

وقد امتد بنا عنان القول إلى مالا حاجة لنا بأكثره ، رغبة في تنشيط الطالب وإثارة للأحماض ، ولنرجع - الآن - إلى ما قطعنا :

اليهود في عهد أبى يوسف

وفى آخر أيام أبى يوسف أمر أن يميز اليهود الذين بالمغرب بلباس يختصون به دون غيرهم ، وذلك ثياب كحلية وأكمام مفرطة السعة تصل إلى قريب من أقدامهم ، وبدلاً من العمام كلوتات على أشنع صورة كأنها البراديع تبلغ إلى تحت آذانهم ، فشاع هذا الزي في جميع

يهود المغرب ، ولم يزالوا كذلك بقية أيامه وصدرًا من أيام ابنه أبى عبد الله ، إلى أن غيره أبو عبد الله المذكور ، بعد أن توسلوا إليه بكل وسيلة ، واستشفعوا بكل ما يظنون أن شفاعته تنفعهم ، فأمر أبو عبد الله بلبسان ثياب صفر وعماثم صفر ، فهم على هذا الزى إلى وقتنا هذا - وهو سنة ٦٢١ - وإنما حمل أبا يوسف على ما صنعه من إفرادهم بهذا الزى وتمييزه إياهم به ، شكه في إسلامهم ، وكان يقول : لو صح عندي إسلامهم لتركتم يختلطون بالمسلمين في أنكحتهم وسائر الأمور ، ولو صح عندي كفرهم لقتلت رجالهم وسبيت ذراريهم وجعلت أموالهم فيئًا للمسلمين ، ولكنى متردد في أمرهم .

ولم تنعقد عندنا ذمة لليهودى ولانصرانى منذ قام أمر المصامدة ، ولا فى جميع بلاد المسلمين بالمغرب بيعة ولا كنيسة ، إنما اليهود عندنا يظهرون الإسلام ويصلون فى المساجد ويُقرءون أولادهم القرآن ، جارين على ملتنا وسنتنا والله أعلم بما تكن صدورهم وتحويه بيوتهم .

محنة أبى الوليد بن رشد

وفى أيامه نالت أبا الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن رشد - المتقدم الذكر - محنة شديدة وكان لها سببان جللٌ وخفى ، فأما سببها الخفى وهو أكبر أسبابها ، فإن الحكم أبا الوليد - رحمه الله - أخذ فى شرح كتاب الحيوان لأرسطاطاليس صاحب كتاب المنطق ، فهدبه وبسط أغراضه وزاد فيه مارآه لائقًا به ، فقال فى هذا الكتاب عند ذكره الزرافة وكيف تتولد وبأى أرض تنشأ : « وقد رأيتها عند ملك البربر . . . » جارياً فى ذلك على طريقة العلماء فى الإخبار عن ملوك الأمم وأسماء الأقاليم ، غير ملتفت إلى مايتعاطاه خدمة الملوك ومتحيلوا الكتاب من الإطراء والتقريظ وما جانس هذه الطرق ، فكان هذا مما أحنقهم عليه غير أنهم لم يظهروا ذلك ، وفى الجملة فإنها كانت من أبى الوليد غفلة ، فقد قال القائل : « رحم الله من عرف زمانه فهأنه ، وميز مكانه فكأنه ! » وما أحسن ما قال الأول :

وأنزلنى طول النوى دارَ غُربةٍ إذا شئت لاقيت الذى لا أشاكره
فحامقته حتى يُقال سجيّةٌ ولو كان ذا عقلٍ لكنت أعاقله !

واستمر الأمر على ذلك إلى أن استحكم ما فى النفوس ، ثم إن قومًا ممن يناوئه من أهل قرطبة ويدعى معه الكفاءة فى البيت وشرف السلف ، سعوا به عند أبى يوسف ، ووجدوا إلى ذلك طريقاً ، بأن أخذوا بعض تلك التلاخيص التى كان يكتبها ، فوجدوا فيها بخطه حاكياً عن بعض قدماء الفلاسفة بعد كلام تقدم : « فقد ظهر أن الزهرة أحد الآلهة . . . » فأوقفوا أبا يوسف على هذه الكلمة ، فاستدعاه بعد أن جمع له الرؤساء والأعيان من كل طبقة وهم بمدينة قرطبة ، فلما حضر أبو الوليد - رحمه الله - قال له بعد أن نبذ إليه الأوراق : أخطك هذا ؟ فأنكر ! فقال أمير المؤمنين : لعن الله كاتب هذا الخط ! وأمر الحاضرين بلعنه ، ثم أمر بإخراجه على حال سيئة وإبعاده وإبعاد من يتكلم فى شىء من هذه العلوم ، وكتبت عنه الكتب إلى البلاد بالتقدم إلى الناس فى ترك هذه العلوم جملة واحدة ، وبإحراق كتب الفلسفة كلها ، إلا ما كان من الطب والحساب وما يتوصل به من علم النجوم إلى معرفة أوقات الليل والنهار وأخذ سمت القبلة ، فانتشرت هذه الكتب فى سائر البلاد وعمل بمقتضاها .

ثم لما رجع إلى مراكش ، نزع عن ذلك كله ، وجنح إلى تعلم الفلسفة ، وأرسل يستدعى أبا الوليد من الأندلس إلى مراكش للإحسان إليه والعفو عنه فحضر أبو الوليد - رحمه الله - إلى مراكش ، فمرض بها مرضه الذى مات منه ، رحمه الله ، وكانت وفاته بها فى آخر سنة ٥٩٤ هـ وقد ناهز الثمانين ، رحمه الله .

ثم توفى أمير المؤمنين أبو يوسف بعد هذا التاريخ بيسير ، وكانت وفاته - كما ذكرنا - فى غرة صفر الكائن فى سنة ٥٩٥ هـ .

ذكر ولاية أبى عبد الله محمد ابن أبى يوسف أمير المؤمنين

أبو عبد الله هذا هو محمد بن يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن بن على ، أمه أم ولدٍ اسمها زهر ، رومية ، بويغ له بعهد أبيه إليه فى سنة ٥٩٥ بعد وفاة أبيه ، وقد كان أبوه أمر ببيعته فى سنة ٨٦ وسنه إذ ذاك عشر سنين إلا أشهراً ، وكان مولده فى آخر سنة ٥٧٦ ، ولم يزل مرشحاً للخلافة معروفاً بها إلى أن مات أبوه واستقل بالأمر فى التاريخ المذكور ، وسنه يوم بويغ له البيعة الكبرى العامة ، سبع عشرة سنة وأشهر ، وكانت وفاته لعشر خلون من شعبان سنة ٦١٠ ، فكانت مدة ولايته ست عشرة سنة إلا أشهراً .

صفاته

أبيض ، أشقر شعر اللحية ، أشهل العينين ، أسيل الخدين ، حسن القامة ، كثير الإطراق ، شديد الصمت بعيد الغور - كان أكبر أسباب صمته لثغاً كان بلسانه - حليماً ، شجاعاً ، عفيفاً عن الدماء ، قليل الخوض فيما لايعنيه جداً ، إلا أنه كان يُبخل أولاده .

أولاده

كان قليل الولد جداً ، لا أعلم له من الولد سوى يوسف ولى عهده ، ويحيى ، وإسحاق ، توفى يحيى فى حياته بإشبيلية سنة ٦٠٨ ، وبلغنى عن جماعة من الحشم أنه كان رشح يحيى لولاية العهد ، وله بنات .

وزراؤه

أبو زيد عبد الرحمن بن موسى بن يوجان ، وزير أبيه .

ثم عزله بعد مدة يسيرة وولى بعده أخاه إبراهيم ابن أمير المؤمنين أبى يوسف . . .

صلة المؤلف بإبراهيم ابن أبي يوسف

وهو خير ولده وأجدرهم بالأمر ولو كانت الأمور جارية على إثثار الحق واطراح الهوى ،
لا أعلم فيهم أنجب منه ، كان لى - رحمه الله - محباً وبى حفيّاً ، وصلت إلىّ منه أموال وخِلع
جَمَّةٌ غير مرة ، لم أعرفه أيام وزرائه ، لأنى كنت إذ ذاك حديث السن جدا كما ناهزت
الاحتلام ، وإنما كانت معرفتى إياه حين ولوه إشبيلية فى سنة ٦٠٥ ، من جهة رجل من
أصحابنا من الكتاب اسمه محمد بن الفضل - جازاه الله عنى خيراً - هو الذى أوصلنى إليه ،
أنشدته أول يوم لقيته قصيدة مدحته بها ، أولها :

لـكـمـو عـلـى هـذا الـوـرى التـقـديـم	وعـلـيـهـمـو التـقـوـيـض والتـسـليـم
الله أعـلـا كـم وأعلى أـمـرـه	بـكـمـو وأنف الحاسـديـن رغيـم
أحييتمو المنصور فهو كأنه	لم تفتقدـه معـالـمٌ وعُـلـومٌ
ومحابرٌ ومنابرٌ ومحارب	وحـمـى يُحـاط وأرـمـل ويـتـيـمٌ

إلى أن أقول فيها فى ذكر ولايته إشبيلية :

فكأنما حمضٌ جمالاً سـاـرة	وكان إبراهيم إبراهيم
وأرى طليطلةً كهاجر إثرها	سيـزفـها الأـدفـنـش وهـو دميـمٌ

أقول فيها :

يـذـرُ الصـليـب صـغـيره وكـبـيره	فـيـها جـذاذاً والعـلـوج جـثـومٌ
ويـحـرقُ الأـعـداء فـيـما أضـرمت	ويـجـوب نـار الحـرب وهى جـحيمٌ

ولم يبق على خاطري منها لتقادم عهدا وقلة اعتنائى بها سوى هذه الأبيات التى أوردتها ، فاستحسنها - رحمه الله - وبالع في الشاء عليها ، تفضلا منه وسؤدداً ، وجرياً على سنن الأجواد ، هذا مع ركاكتها وقلة انطباعها وظهور تكلفها .

ثم علت حالى عنده بعد ذلك - نضر الله وجهه - إلى أن كان يقول لى فى أكثر الأوقات : والله إننى لأشتاقلك إذا غبت عنى أشد الشوق وأصدقه ! ثم لم تزل حالى معه على هذا إلى أن فارقت - رحمه الله - وهو وإل على إشبيلية ولايته الثانية .

وكان توديعى إياه - قدس الله روحه - آخر يوم من ذى الحجة سنة ٦١٣ ، ثم اتصلت بى وفاته وأنا بصعيد مصر سنة ٦١٧ .

لم أر فى العلماء بعلم الأثر المتفرغين لذلك أنقل منه للأثر ، كان يذهب مذهب أبيه فى الظاهرية .

ثم عزله أبوه أبو عبد الله وولى بعده أبا عبد الله محمد بن على ابن أبى عمران الضرير جد يوسف بن عبد المؤمن لأمه ، وكناه أبا يحيى ، فكان أبو عبد الله الوزير هذا من أحسن الوزراء سيرة وسريرة ، وكان يحضه على فعل الخير بجهد ، ونشر العدل حسب طاقته ، والإحسان إلى الرعية والأجناد ، رأى الناس فى أيام وزارته من الخصب وسعة الأرزاق وكثرة العطاء مثل الذى رأوا فى أيام أبى يعقوب يوسف بن عبد المؤمن أو قريباً منه .

ثم عزله وولى بعده أبا سعيد عثمان بن عبد الله بن إبراهيم بن جامع .

أولية الوزير أبى سعيد ابن جامع

كان إبراهيم بن جامع جد هذا الوزير من جملة أصحاب ابن تومرت ، صحبه من مراكش ، وكان أصله من الأندلس ، آباؤه من أهل مدينة طليطلة ، ونشأ هو - أعنى

إبراهيم — بساحل مدينة شريش على البحر الأعظم ، بضیعة تسمى روطة ، وبها مسجد مشهور بالفضل يزوره أهل الأندلس قاطبة كل سنة ، ثم انتقل إبراهيم هذا إلى العدو ، وكان يحاول صنعة النحاس ، فتعرف بابن تومرت ، فكان من أصحابه ، فهو معدود فيهم ، وولد له أولادٌ نالوا في الدولة حظوة وجاهًا متسعًا ، فمن أولاده أبو العلاء إدريس وزير أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن ، وقد تقدم ذكره ، وأبو هذا الوزير المتقدم الذكر ، اسمه عبد الله ، كان يتولى في إمارة أبي يعقوب مدينة سبتة وجهاتها ، وزيادة على ذلك ولاية الأسطول في جميع بلادهم ، فلم يزل كذلك إلى أن مات — ظن أمير المؤمنين أبا يعقوب قتله ! — وترك من الولد : يوسف ، والحسين ، وعثمان الوزير هذا المذكور ، ويحيى ، وبنات .

فاستمرت وزارة أبي سعيد هذا إلى أن توفي أمير المؤمنين أبو عبد الله ، ووزر بعده لابنه أبي يعقوب إلى حين ارتحلت من البلاد — وهو سنة ٦١٤ — ثم اتصل بى في شهور سنة ٦١٧ أن أبا يعقوب عزله وولى من سيأتى ذكره بعد هذا — إن شاء الله عز وجل .

حُجَّابُهُ

ريحان الخصى ، ويدعى ريحان بَيْنَك ، حجه ريحان هذا إلى أن مات .
ثم حجه بعده مبشر الخصى ، يدعى مبشر وَلَدِي ، فلم يزل مبشر هذا حاجباً له إلى أن توفي أمير المؤمنين أبو عبد الله ، رحمه الله .

كُتَّابُهُ

أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن بن عياش المتقدم الذكر في كتاب أبيه .
وأبو الحسن علي بن عياش بن عبد الملك بن عياش المتقدم ذكر أبيه في كتاب عبد المؤمن وأبى يعقوب .

وأبو عبد الله محمد بن يَحْلُفْتَن بن أحمد الفازازي ، ذكره الله فيمن عنده ، وقرب مطالعتي تلك الغرة الميمونة ، وسماعى تلك الألفاظ الحلوة ، واستمتاعى بتلك الشمائل الشريفة ، فما أشد شوقى إلى تقبيل يديه !
هؤلاء كتبة الإنشاء .

وكتاب الجيش : أبو الحجاج يوسف المراني (بتخفيف الراء وضم الميم) من أهل مدينة شريش من جزيرة الأندلس .
ثم بعده أبو جعفر أحمد بن منيع إلى وقتنا هذا ، وهو سنة ٦٢١ .

قضاته

أبو القاسم أحمد [بن محمد] بن بَقِيّ قاضى أبيه .
ثم عزله وولى أبا عبد الله محمد بن مروان الذى كان أبوه قد عزله ، فلم يزل قاضياً إلى أن مات .
وولى بعده رجلاً من أهل مدينة فاس ، اسمه محمد بن عبد الله بن طاهر ، يدعى أنه من ولد الحسين بن على بن أبى طالب ، كان قبل اتصاله بهم ينتحل طريقة الوعظ ويتصوف ، ولم يزل هذا دأبه ولا برح معروفاً به ، وكان له - مع هذا - حظ جيد من معرفة أصول الفقه وأصول الدين وشىء من الخلافة ، اتصل بأمر المؤمنين أبى يوسف شهر سنة ٥٨٧ ، فحظى عنده وكانت له منزلة ، سمعت أبا عبد الله الحسينى هذا يقول وأنا عنده فى بيته :
جملة ما وصل إلى من أمير المؤمنين أبى يوسف منذ عرفته إلى أن مات ، تسعة عشر ألف دينار ، خارجاً عن الخلع والمراكب والأقطاع .

لم يزل أبو عبد الله هذا قاضياً إلى أن مات بالأندلس فى شهر سنة ٦٠٨ ، وكانت ولايته فى شهر سنة ٦٠١ .

ثم ولى بعده أبا عمران موسى بن عيسى بن عمران ، كان أبوه من قضاة أبي يعقوب ،
فاستمرت ولاية أبي عمران هذا إلى هذا الوقت - وهو سنة ٦٢١ - لم يبلغنى عزله ولا وفاته ،
وأبو عمران هذا لى صديق ، لم أر صديقاً لم تغيره الولاية غيره ، ولم يزل يعاملنى بها كان
يعاملنى به قبل ذلك ، لم ينقصنى شيئاً من بره ، ما لقيته قط فى مركبه إلا سلم علىّ مبتدئاً
وجدد لى برا ، جزاه الله عنى أفضل الجزاء ، وعم بذلك سائر إخوانى !

أعمال أبي عبد الله ابن أبي يوسف

ولما تمت بيعة أبي عبد الله العامة كما ذكرنا - وكان الذى تولاهما وقام بأمرها من القرابة :
أبو زيد عبد الرحمن بن عمر بن عبد المؤمن ، وهو الذى قام ببيعة أبيه ، ومن الموحدين :
أبو زيد عبد الرحمن بن موسى وزير أبيه ، وأبو محمد عبد الواحد ابن الشيخ أبي حفص ،
وهو الذى ولاه محمد بعد هذا أمر إفريقية - كان أول شىء شرع فيه تجهيز الجيوش إلى
إفريقية ، وذلك أن يحيى بن إسحاق بن غانية المتقدم الذكر ، كان استولى على أكثر بلادها
أيام اشتغال الموحدون عنه بغزو الروم ، فأول جيش جهز [أبو عبد الله] من الموحدين ،
الجيش الذى استعمل عليه السيد أبا الحسن على بن عمر بن عبد المؤمن ، لم أر لهم جيشاً
أضخم منه ولا أكثر منه سلاحاً ولا أحسن عدة ، وكان فيه أعيان الموحدين وأشياخهم جملة
وافرة ، فسار أبو الحسن هذا بجيشه المذكور حتى التقى هو والميرقيون فيما بين بجاية
وقسطنطينة وبالقرب من قسطنطينة ، فانهزم الموحدون أصحاب أبي الحسن المذكور ، ورجع
أبو الحسن إلى بجاية على حالة سيئة .

وجهاز بعد هذا الجيش جيشاً على مثاله ، وأمر عليهم من الموحدين أبا زيد عبد الرحمن
ابن موسى الوزير ، فسار بالجيش حتى بلغ قسطنطينة المغرب .

دخول الموحدين جزيرة ميورقة

ثم استعمل أمير المؤمنين أبو عبد الله على إفريقية وأعمالها ، السيد الأجل أبا زيد
عبد الرحمن بن عبد المؤمن ، وخرج هو فى سنة ٥٩٧ إلى تينمل لزيارة قبر أبيه أبي يوسف

وزيارة ضريح آبائه وابن تومرت ، ثم رجع إلى مراكش ، وأقام إلى أول سنة ٦٠٩ ، فتجهز بجيوش ضخمة حتى أتى مدينة فاس ونزل بها ، وأشاع أنه يقصد إفريقية - هذا بعد أن بلغه أن الميرقى استولى على مدينة تونس وقبض على الوالى عليها عبد الرحمن - فأقام بفاس ثلاثة أشهر وأياماً ، وبدا له أن يبعث بعثاً إلى جزيرة مركة ، ليستأصل شأفة بنى غانية ويقطع دابهم ، فعمر الأسطول والطرائد فيها الخيل والرجال ، واستعمل على الأسطول عمه أبا العلاء إدريس بن يوسف بن عبد المؤمن ، وعلى الجيش أبا سعيد عثمان ابن أبى حفص من أشياخ الموحدين ، فقصد الجزيرة هذان الرجلان ففتحها عنوة وقتلا عبد الله بن إسحاق بن غانية الأمير عليها ، وكان الذى قتله رجل من الأكراد يقال له عمر المقدم ، وذلك أنه حين نازله القوم خرج على باب من أبواب المدينة سكران ، فكبت به فرسه ، فضربه هذا المذكور بسيفه حتى مات ، وقيل : إنه قتله بسيف نفسه .

وكان دخولها مركة وقتلها أميرها المذكور فى شهر ذى الحجة من سنة ٥٩٩ ، فانتهاها أمواله ، وسببا حرمه ، ودخلا بهم مدينة مراكش على الجمال فى هيئة الأسارى ، فأما النساء فدخلن بهن ليلاً فجعلن فى بعض الخانات إلى أن نفذ الأمر بالمن عليهن وإطلاقهن وتزويج من تحتاج إلى التزويج منهن وتجهيزها بهال ، وأما الرجال فلم يزالوا فى الحبس إلى أن مَنَّ عليهم بعد أن ضمنهم أكابرهم واتُّخذوا أجناداً فهم كذلك إلى اليوم .

وبلغنى أن المتولين لفتحها انتهبوا منها أموالاً عظيمة وذخائر نفيسة .

ثم رجع أمير المؤمنين أبو عبد الله إلى مراكش ، وبها اتصل به خبر فتح مركة ، وكان رجوعه إلى مراكش فى ذى القعدة من السنة المذكورة .

عبد الرحمن الجزولى الثائر

وقد كان قبل هذا فى سنة ٩٧ ، قام بسوس رجل من جزولة اسمه عبد الرحمن ، يعرف عندهم بما معناه بلسانهم « ابن الجزيرة » ، فدعا إلى نفسه ، واجتمع إليه خلق كثير ، واشتد

خوف الموحدين منه ، فلم يزالوا يجهزون إليه العساكر بعد العساكر ، وفي كل ذلك يهزمهم ، إلى أن بعثوا بعثاً من الموحدين والغز وأصناف الجند ، بعد أن تقدموا إلى المصامدة والمجاورين للبلاد التي كان فيها ، وقالوا إنما يقوى هذا الرجل بتغافلكم عنه ، ومسااحتكم إياه ، ولو شئتم لم يبق بالبلاد يوماً واحداً ! فتحركوا عند ذلك وأظهروا الحمية ، والتقواهم وأصحاب عبد الرحمن المذكور - وكان يدعى أبا قسبة - فأسلمته جموعه ، وقتل وسير برأسه إلى مراكش ، فكتب إلى بعض إخواني ، وهو إذ ذاك صبي صغير كان مع أبيه بسوس - وكان أبوه من العمال ، من أهل جزيرة الأندلس من ناحية بلنسية - يخبرني بهذا الفتح قبل وصوله إلى من جهة كتاب الموحدين المتولين له ، رسالة أولها :

« كُتِبَ من منزل بسوس وقد تبليج فجر الفتح فأسفر ، وقال فريق الضلال وشيعته أين المفر ؟ وقد ألقى النصر جراحه ، وأعز الله حربه المؤيد وأعوانه ، وشرح الحال على غاية الإيجاز ، لأجل الاستعجال في إنهاء هذه البشائر والانحياز ، أن الناكثين النابذيين للعروة الوثقى ، المتمسكين بالسبب الأشقى ، حاصرهم الموحدون - أنجدهم الله - أشد الحصار ، وقطعوا عنهم مواد المعاش وزرافات الأنصار ، ولسان التأيد يتلو علينا بالعشى والإشراق : « ما ينظر هؤلاء إلا صيحة واحدة مالها من فواق »^(١) ، ولحين ما أخذ الموحدون - أنجدهم الله - في حسم دائهم العضال ، وجردوا لهم من عزماتهم الصادقة ما هو أمضى من النصال ، طاحوا مجذلين بالحضيض ، وملاً جثمانهم الفضاء العريض ، وخيب الله ظنونهم الكاذبة وآمالهم ، وصيرهم إلى أمهم الهاوية فكانت أولى بهم ، « ذلك بأنهم اتبعوا ما أسخط الله وكرهوا رضوانه فأحبط أعمالهم »^(٢) ، وأمكن الله من رأس ضلالهم المدعو بأبي قسبة ، فقهره الحزب المنصور وغلبه ، وحز الحسام منه قنة ورقبة . . . » .

(١) سورة ص : الآية : ١٥ : مكية .

(٢) سورة محمد : الآية : ٢٨ : مدنية .

إنما أوردت هذه الرسالة هاهنا لغرابة شأن من وردت علىّ منه ، وذلك أنه كان حين كتب بها إلى لم يحتلم بعد !

فتح جزيرة منركة

ومع اتصال هذا الفتح بهم ، اتصل معه فتح جزيرة منركة ، كان فيها من أصحاب ابن غانية رجل اسمه الزبير بن نجاح ، دخلوها عليه فقتلوه ووجهوا برأسه إلى مراکش ، فهو معلق بها مع رأس أبى قصبة المذكور .

محاربة يحيى بن غانية بإفريقية

ولما كانت سنة ٦٠١ ، تجهز أمير المؤمنين أبو عبد الله في جيوش عظيمة وقصد بلاد إفريقية ، وقد كان الميرقى يحيى بن غانية قد استولى عليها ، خلا قسطنطينة وبجاية ، هياً له ذلك غفلة الموحدين عنه ، واشتغال أمير المؤمنين أبى يوسف بغزو الروم بالأندلس على ما قدمناه .

فسار أبو عبد الله حتى نزل بلاد إفريقية ، فما استعصى عليه بلد من بلادها خلا المهديّة ، مهديّة بنى عبيد ، فإنه أقام عليها أربعة أشهر قبل أن دخلها ، أوجب ذلك ما قدمنا من شدة منعتها - وكان يحيى بن غانية قد ولى فيها ابن عمه لحاً ، أبا الحسن على بن عبد الله بن محمد بن غانية - فلما طال عليه الحصار سلم البلد وخرج بنفسه يقصد ابن عمه ، ثم بدا له أن يرجع إلى الموحدين ، فأرسل إليهم فتلّقوه أحسن لقاء ، ووصلوه من الصلوات النفيسة بما لا قيمة له ، ولا يصل بمثله إلا الخلفاء ، وبعد هذا نزع إليهم أخو يحيى ابن غانية ، سير بن إسحاق بن محمد ، فأكرموا نُزُوله وأقطعوه الأقطاع الواسعة بعد أن ملأوا يديه أموالاً .

ولم يزل أبو عبد الله أمير المؤمنين مقيماً بإفريقية يصلح ما أفسده ابن غانية إلى أن تم له ما أراد من ذلك ، وبلغنى أن جملة ما أنفق في هذه السفرة مائة وعشرون حملاً ذهباً .

ثم رجع إلى مراکش دار الملك ، بعد أن ترك بأفريقية من الموحدين وأصناف الجند من يقوم بحمايتها ويذود عنها من رامها ، واستعمل عليه من أشياخ الموحدين أبا محمد عبد الواحد بن الشيخ أبى حفص عمر إينتى فأقام بمراكش .

انتقاض الهدنة بين الموحدين والفرنجة

وكان رجوعه إليها في شهور سنة ٦٠٤ ، فأقام بها - كما ذكر - إلى أول سنة ٦٠٧ ، فانتقض ما بينه وبين الأذفنش - لعنه الله - من المهادنة ، وبدا له أن يقصد بلاد الروم للغزو ، فخرج بالجيش حتى عبر البحر ، وكان عبوره في شهر ذى القعدة من سنة ٧ المذكورة ، فسار حتى نزل إشبيلية قبله ، فأقام بها بقية السنة المذكورة .

فتح شلبتره

وتحرك في أول سنة ٨ فقصده بلاد الروم ، فنزل غاية المنعة تدعى شلبتره - معناه بلسان العرب : الأرض البيضاء ، إلا أن فيه تقدياً وتأخيراً ، كما جرت العادة في لسان العجم - ففتحها بعد حصار وتضييق عليها شديد ، وكان أبوه قد نزل عليها قبل ذلك فحاصرها أياماً يسيرة ثم تركها شفقة على المسلمين وخوفاً عليهم ، فراع فتح هذه القلعة الروم ، وخامرهم الرعب ، وخرج الأذفنش - لعنه الله - إلى قاصية بلاد الروم مستنفراً من أجابه من عظماء الروم وفرسانهم وذوى النجدة منهم ، فاجتمعت له جموع عظيمة من الجزيرة نفسها ومن السام حتى بلغ نفيده إلى القسطنطينية ، وجاء معه صاحب بلاد أرغن المعروف بالبرشنونى .

أشهر الإمارات الإسبانية في ذلك العهد

وذلك أن جزيرة الأندلس يملك جهاتها الأربع أربعة ملوك من الروم : إحدى الجهات تسمى أرغون - وهى التى ذكرنا - وهى شرقى الجزيرة مما يقابل الجنوب منها .

والجهة الأخرى - وهى المملكة الكبرى - بلاد تسمى بلاد قشتال ، يملكها الأدفنش - لعنه الله - وحد هذه الجهة فيما بين الجنوب والشمال ، أميل إلى الجنوب قليلا .

والجهة الأخرى تسمى ليون ، فهو أول الحد الشمالى المغربى ، يملكها رجل يدعى بالببوج ، ومعنى هذا الاسم بالعربية : الكثير اللُّعاب !

والجهة الأخرى فى الشمال مما يلي البحر الأعظم ، بحر أقيانس يملكها رجل يعرف بابن الريق ، وقد تقدم ذكره فى مواضع من هذا الكتاب .

والجزيرة بأسرها ، أعنى جزيرة الأندلس ، تسمى فى قديم الدهر عند الروم جزيرة أشانية .

وبعد رجوع أمير المؤمنين أبى عبد الله من هذا الفتح المتقدم الذكر إلى إشبيلية ، استنفر الناس من أقاصى البلاد ، فاجتمعت له جموع كثيفة ، وخرج من إشبيلية فى أول سنة ٦٠٩ ، فسار حتى نزل مدينة جيان ، فأقام بها ينظر فى أمره ويعبىء عساكره وخرج الأدفنش - لعنه الله - من مدينة طليطلة فى جموع ضخمة ، حتى نزل على قلعة رباح - وهى كانت للمسلمين ، افتتحها المنصور أبو يوسف فى الواقعة الكبرى - فسلمها إليه المسلمون الذين بها ، بعد أن أمنهم على أنفسهم ، فرجع عن الأدفنش - لعنه الله - بهذا السبب من الروم جموع كثيرة ، حين منعهم من قتل المسلمين الذين كانوا بالقلعة المذكورة ، وقالوا : إنما جئت بنا لتفتح بنا البلاد وتمنعنا من الغزو وقتل المسلمين ! مالنا فى صحبتك من حاجة على هذا الوجه !

وقعة العقاب وهزيمة المسلمين

وخرج أمير المؤمنين من مدينة جيان ، فالتقى هو والأدفش بموضع يعرف بالعقاب ، بالقرب من حصن يدعى حصن سالم ، فعبا الأدفش جيوشه ورتب أصحابه ، ودهم المسلمين وهم على غير أهبة ، فانهزموا ، وقُتل من الموحدين خلق كثير .

وأكبر أسباب هذه الهزيمة اختلاف قلوب الموحدين ، وذلك أنهم كانوا على عهد أبي يوسف يعقوب يأخذون العطاء في كل أربعة أشهر ، ولا يخل ذلك من أمرهم ، فأبطأ في مدة أبي عبد الله هذا عنهم العطاء ، وخصوصاً في هذه السفارة ، فنسبوا ذلك إلى الوزراء ، وخرجوا وهم كارهون فبلغني عن جماعة منهم أنهم لم يسلوا سيفاً ولا شرعوا رمحاً ولا أخذوا في شيء من أهبة القتال ، بل انهزموا لأول حملة الإفرنجة عليهم قاصدين لذلك ، وثبت أبو عبد الله هذا في ذلك اليوم ثباتاً لم يُرَ لملك قبله ، ولولا ثباته هذا لاستؤصلت تلك الجموع كلها قتلاً وأسراً !

ثم رجع من هذا الوجه إلى إشبيلية ، وأقام بها إلى شهر رمضان من هذه السنة ، ثم عبر البحر قاصداً مدينة مراكش

وكانت هذه الهزيمة الكبرى على المسلمين يوم الاثنين منتصف صفر الكائن في سنة ٦٠٩ .

وفصل الأدفش - لعنه الله - عن هذا الموضع بعد أن امتلأت يداه وأيدى أصحابه أموالاً وأمتعة من متاع المسلمين ، فقصد مدينتي بياسة وأبذة ، فأما بياسة فوجدتها أو أكثرها خالية ، فحرق دورها وخرب مسجدتها الأعظم ، ونزل على أبذة وقد اجتمع فيها من المسلمين عدد كثير من المنهزمة وأهل بياسة وأهل البلد نفسه فأقام عليها ثلاثة عشر يوماً ، ثم دخلها عنوة فقتل وسبى وغنم ، وفصل أصحابه من السبي من النساء والصبيان بها ملأوا به بلاد الروم قاطبة ، فكانت هذه أشد على المسلمين من الهزيمة ! .

وفاة الناصر محمد

ولم يزل أمير المؤمنين أبو عبد الله مقيماً بمراكش بقية سنة ٩ وأشهرًا من سنة ١٠ إلى أن توفي في شهر شعبان كما قدمنا ، واختلف علينا في سبب وفاته فأصبح ما بلغنى أنه أصابته سكتة من ورم في دماغه ، وذلك يوم الجمعة لخمس خلون من شعبان ، فأقام ساكتاً لا يتكلم يوم السبت والأحد والاثنين والثلاثاء ، وأشار عليه الأطباء بالفصد فأبى ذلك ، وتوفي يوم الأربعاء لعشر خلون من شهر شعبان من سنة ٦١٠ ، ودفن يوم الخميس ، صلى عليه خاصة الحشم ! .

ذكر ولاية أبي يعقوب يوسف بن محمد

هو يوسف بن محمد بن يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن بن علي ، أمه أم ولد رومية اسمها قمر ، تلقب حكيمة ، كانت ولادته في صدر شوال من سنة ٥٩٤ ، قبل وفاة جده أبي يوسف بأربعة أشهر .

بويح له وسنه يومئذ ست عشرة سنة ، لا أعلم له ولداً لحداثة سنه ، ثم اتصل بى في شهور سنة ٦٢١ أن يوسف هذا توفي في أحد الشهرين من شوال أو ذى القعدة سنة ٢٠ ، فكانت مدة ولايته من يوم بويح له - وذلك لأحد عشر يوماً خلت من شعبان من سنة ٦١٠ - إلى أن توفي كما ذكر في التاريخ المذكور ، عشرة أعوام وشهرين .

صافته

كان صافى السمرة ، مستدير الوجه ، شديد الكحل ، يشبهونه بجده أبي يوسف في أكثر خلقه وخلقته .

وزراؤه

أبو سعيد - المتقدم الذكر - وزير أبيه ، استمرت وزارته إلى آخر سنة ٦١٥ .
ثم عزله وولى بعده رجلاً اسمه زكريا بن يحيى ابن أبي إبراهيم إسماعيل الهزرجى
صاحب ابن تومرت والمقتول فى حياة عبد المؤمن ، كما تقدم .
أم هذا الوزير هى بنت أبى يوسف المنصور ، فهو وزيره إلى أن توفى ، كما ذكر .

حجابه

مبشر الخصى حاجب أبيه .
ثم حجبه بعده فارح الخصى ، يكنى أبا السرور ، فلم يزل حاجباً له إلى أن توفى ،
كما قيل .

قاضيه

أبو عمران موسى بن عيسى بن عمران قاضى أبيه ، لم يزل أبو عمران هذا قاضياً له إلى
أن توفى كما قيل .

كُتَّابُه

أبو عبد الله ابن عياش كاتب أبيه وجده .
وأبو الحسن بن عياش .
ثم اتصلت بى وفاة هذين الكتّابين وأنا بالديار المصرية فى شهر سنة ٦١٩ ، وأنهم
استعادوا أبا عبد الله محمد بن مخلُفَتْنِ الفازازى المتقدم الذكر فى كتاب أمير المؤمنين
أبى عبد الله ، وكان قاضياً بمدينة مرسية من شرقى الأندلس ، وبها فارقت فاعادوه إلى
الكتابة كما كان .

واستكتبوا معه أبا جعفر أحمد بن محمد بن عبد الرحمن بن عياش . أبوه هو كاتبهم المشهور بكتابتهم ، وقد تقدم ذكره في كُتّاب ثلاثة أمراء منهم وكاتب الجيش أحمد بن منيع ، لم يتغير .

بيعته

بويح لأبى يعقوب هذا يوم دفن أبيه ، لا أدري أبعهد أبيه إليه أم لا ؛ لأننى أعلم أن أباه كان كثير الانحراف عنه فى آخر أيامه ، لما كان يسمع من سوء أخباره والذين قاموا ببيعته من القرابة : أبو موسى عيسى بن عبد المؤمن - عم جده الذى دخل عليه الميرقيون بجاية ، وهو آخر من بقى من ولد عبد المؤمن لصلبه ، لم تبلغنى وفاته إلى وقتنا هذا - وأبو زكريا يحيى ابن أبى حفص عمر بن عبد المؤمن ، كانا قائمين على رأسه يأذنان للناس ، ومن الموحدين : أبو محمد عبد العزيز بن عمر ابن أبى يزيد الهنتاتى - كان أبوه أول وزير وزر لأبى يوسف ، وقد ذكر - وأبو على عمر بن موسى بن عبد الواحد الشرقى ، وأبو مروان عبد الملك بن يوسف بن سليمان ، من أهل تينمل .

وبويح البيعة الخاصة يوم الخميس ، ويوم الجمعة بايعه أشياخ الموحدين والقرابة ، وفى يوم السبت أذن للناس عامة ، شهدت ذلك اليوم ، وأبو عبد الله ابن عياش الكاتب قائم يقول للناس :

« تبائعون أمير المؤمنين ابن أمراء المؤمنين على ما بايع عليه أصحاب رسول الله ﷺ رسول الله ، من السمع والطاعة فى المنشط والمكره واليسر والعسر والنصح له ولولاته ولعامة المسلمين ، هذا ماله عليكم ولكم ، عليه : ألا يُجمر ببعوثكم ، وألا يدخر عنكم شيئاً مما تعمكم مصلحته ، وأن يعجل لكم عطائكم ، وألا يحتجب دونكم ، أعانكم الله على الوفاء وأعانه على ما قلد من أموركم » .

يعيد هذا القول لكل طائفة ، إلى أن انقضت البيعة ، ثم اتصلت وفادة أعيان البلاد ورؤسائها ووجوه القبائل عليه للبيعة إلى أن تم له الأمر .

فاطمى من سلالة ملوك القاهرة يثور بمراكش

ولأربعة أشهر من ولايته قُبض على رجل كان قد ثار عليهم يدعى أنه من بنى عُبيد ويقول : إنه ولد العاضد لصلبه ، اسمه عبد الرحمن .

كان قد ورد البلاد فى حياة أبى يوسف أيام كونه بإشبيلية ، ورام الاجتماع به فلم يأذن له ، وأقام بالبلاد مطرَحًا إلى أن حبسه أمير المؤمنين أبو عبد الله فى شهر سنة ٥٩٦ هـ ، فلم يزل فى الحبس إلى أن كانت سنة ٦٠١ هـ وتحرك أمير المؤمنين إلى إفريقية ، شفع له فيه أبو زكريا يحيى ابن أبى إبراهيم الهزرجى ، فأطلقه له بعد أن ضمن عنه أنه لا يتحرك فى أمر يكرهونه ، فلم يقم هذا العبيدى بمراكش إلا أيامًا يسيرة بعد خروج أمير المؤمنين أبى عبد الله ، ثم خرج وقصد بلاد صنهاجة ، فالتفت عليه منهم جماعة وانتشر له فيهم تعظيم ، لأن هذا الرجل كان كثير الإطراق والصمت ، حسن الهيئة ، لقيته مرتين فلم أر فى أكثر من شهادته من المشبهين بالصالحين مثله فى الآداب الظاهرة ، من هدوء النفس وسكون الأطراف ووزن الكلام وترتيب الألفاظ ووضع الأشياء مواضعها ، مع الرياضة المفرطة ، ثم قصد مدينة سجلماسة فى حياة أمير المؤمنين أبى عبد الله بجيش عظيم ، فخرج إليه متواليا السيد أبو الربيع سليمان بن أبى حفص عمر بن عبد المؤمن ، فهزمه العبيدى المذكور وأعادته إلى سجلماسة أسوأ عود ، ولم يزل ينتقل فى قبائل البربر من موضع إلى موضع ، وفى ذلك كله لا يستقيم له أمر ولا تثبت عليه جماعة ، أوجب ذلك كونه غريب البلد واللسان ، لا عشيرة له ، ولا أصل بالبلاد يرجع إليه ، إلى أن قُبض عليه بظاهر مدينة فاس ، لم يبلغنى تفصيل قضية القبض عليه ، وكتب إلى أمير المؤمنين متولى فاس أبو إبراهيم إسحاق ابن أمير المؤمنين أبى يعقوب يوسف بن عبد المؤمن ، يُعلمه بالقبض عليه وبكونه عنده فى سجنه ، فكتب إليه يأمره بقتله وصلبه ، فضرب عنقه وصُلب جسده ووُجه برأسه إلى مراكش فهو معلق هناك مع عدة رءوس من الثوار والمتغلبين .

ولم يغير أبو يعقوب هذا على الناس شيئًا من سير آبائه ، ولا أحدث أمرًا يتميز به عن

كان قبله ، خلا أنى رأيت كل من يعرفه من خواص الدولة قد ملئ قلبه منه رعباً ، لما يعلمون من شهامته وشدة تيقظه ، لقيته وجلست بين يديه خالياً به ، وذلك فى غرة سنة ٦١١ ، فرأيت - من حدة نفسه وتيقظ قلبه وسؤاله عن جزئيات لا يعرفها أكثر السوق فكيف الملك - ما قضيت منه العجب ، وإلى وقتنا هذا لم يظهر منه شىء مما يتوقع .

ثأران آخران على أبى يعقوب الثانى

وثار فى أيام يوسف هذا - بعد قتل العبيدى - رجلا ن : أحدهما ببلاد جزولة من سوس ، كان يدعى بالفاطمى ، قُتل وجىء برأسه إلى مراکش فى شهر سنة ٦١٢ وأنا يومئذ بجزيرة الأندلس ، لم يبلغنى تفصيل أمره لبعدى عن الحضرة ، غير أنى رأيتهم أعظموا الفرح بأخذه وقتله ، والآخر من صنهاجة ، قتل فى سنة ٦١٨ بعد أن أثر آثاراً قبيحة فيما بلغنى وهزم بعوثاً عدة واستفسد خلقاً كثيراً ، بلغنى هذا كله وأنا بالبلاد المصرية فى التاريخ المتقدم ، وكان الذى تولى قتل هذا الرجل والإراحة منه وحسم الخلاف الواقع بسببه ، السيد الأجل أبا محمد عبد العزيز ابن أمير المؤمنين أبى يعقوب ابن عبد المؤمن بن على ، وهو يومئذ وال على مدينة سجلماسة وأعمالها .

وفاة أبى يعقوب الثانى

ثم اتصل بى فى هذه السنة - وهى سنة ٦٢١ - أن أبا يعقوب أمير المؤمنين توفى فى أحد الشهرين من شوال أو ذى القعدة من سنة ٦٢٠ ولم يبلغنى كيفية وفاته ، فاضطرب الأمر وأشرأب الناس للخلاف .

ولاية أبى محمد عبد العزيز ابن أبى يعقوب الأول

ثم ذكر لى أن عامتهم ومعظمهم اجتمعوا على تقديم السيد الأجل أبى محمد عبد العزيز

ابن أمير المؤمنين أبى يعقوب يوسف ابن أمير المؤمنين محمد عبد المؤمن بن على ، رحمهما الله ونضر وجههما وجزاهما خيراً عن صلاحهما ، وإصلاحهما ! وأبو محمد عبد العزيز هذا من أصاغر أولاد أبى يعقوب ، أمه حرة اسمها مريم ، صنهاجية من أهل قلعة بنى حماد ، تزوجها أمير المؤمنين أبو يعقوب فى حياة أبيه ، وكانت سُميت هى وأمها ملكة فيمن سُبوا من أهل القلعة ، فأعتقهما أبو محمد عبد المؤمن ، وزوج مريم هذه لابنه أبى يعقوب ، فولدت له ثمانية من الولد : أربعة ذكور، وأربعة بنات ، فالذكور هم : إبراهيم ، وموسى ، وإدريس ، وعبد العزيز هذا المذكور ، وهو أصغرهم ، توفى موسى بظاهر مدينة تاهرت ، قتله العرب أصحاب الميرقى فى شهر سنة ٦٠٥ ، وتوفى إبراهيم منهم بإشبيلية وأتابها فى شهر سنة ٦١٢ ، وتوفى أبو العلاء إدريس منهم بإفريقية كما سيأتى ، والبنات هن : زينب ، ورقية ، وعائشة ، وعليه .

لم يتولَّ أبو محمد عبد العزيز هذا شيئاً من أمرهم فى حياة أبيه ، ولا فى حياة أخيه أبى يوسف ، فلما ولى أبو عبد الله الأمر ، ولاء مدينة مالقة وأعمالها من جزيرة الأندلس ، وذلك فى شهر سنة ٥٩٨ ، ثم عزله عنها فى شهر سنة ٦٠٣ وولاه أمر قبيلة هسكورة ، وهى ولاية ضخمة ، فلم يزل والياً عليها إلى أن عزله عنها وولاه أمر سجلماسة ، فلم يزل والياً عليها بقية مدته ومدة ابنه أبى يعقوب ، إلى أن قتل هذا الثائر المتقدم الذكر فى ولاية أبى يعقوب ابن أبى عبد الله ، فعزله أبى يعقوب عن سجلماسة وولاه مدينة إشبيلية حين عزل عنها أخاه أبا العلاء وولاه أمر إفريقية فلم يزل أبو العلاء إدريس والياً بإفريقية إلى أن مات بها فى رمضان من سنة ٦٢٠ على ما بلغنى ، رحمة الله عليه .

فهذه جملة أخبار هذا الرجل ، أبى محمد عبد العزيز المذكور بالولاية لأمرهم كما قالوا ، ولئن كان ما قالوا حقاً وتم هذا الأمر له ، ليملاًنها خيراً وعدلاً ، ولتكون الأرض وتخرج بركاتهما ، ولترسلن السماء مدرارها ، بيمن نقيبته وحسن سيرته وحميد سيرته ، هذا إذا ساعده الدهر وقيض الله له أعواناً صالحين ، فإنه - ما علمت - صوام قوام ، مجتهد فى دينه ،

شديد البصيرة في أمره ، قوى العزيمة ، شديد الشكيمة ، لا تأخذه في الحق لومة لائم ،
أرطب الناس لساناً بذكر الله ، وأتلاهم لكتاب الله ، شهدته والولاية قد اكتنفته ، وأمور
الرعية قد استغرقت أوقاته ، وهو في ذلك لا يُجَلُّ بشيءٍ من أوراده ، ولا يترك وظيفة من
الوظائف التي رتبها على نفسه ، من أخذ العلم وقراءة القرآن ، وأذكار رتبها على أوقات الليل
والنهار ، شهدته هذا كله منه بنفسى ، لا أنقله عن أحد ولا أستند فيه إلى رواية ، هذا مع
دمائة خلق ولين جانب وخفض جناح لأصحابه ولمن علم فيه خيراً من المسلمين أو ظنه
مُضافاً إلى سخاء نفس وطلاقة وجه .

وصفته

أبيض تعلوه صفرة ، جميل الوجه جداً ، معتدل القامة ، متناسب الأعضاء ، وله من
الولد - على علمى - ثلاثة : محمد وهو أكبرهم ، وعبد الرحمن ، وأحمد ، وبنات .



هذا تلخيص التعريف بأخبار دولة المصامدة من أول قيام أمرهم - وهو سنة ٥١٥ - إلى
وقتنا هذا - وهو سنة ٦٢١ - فذلك مائة سنة وست سنين ، على الإجمال لا على التفصيل .
وإنما أوردنا من ذلك ما تدعو الحاجة إليه ، وتجشم الضرورة من غنى بالأخبار إلى
معرفته ، من غير تعرض إلى ما لا حاجة بنا إليه ، من ذكر أولاد عبد المؤمن ، وأولاد أولاده ،
وأولاد وأولاد أولاده ، وتفصيل أخبارهم في ولايتهم وعزله وأمهاتهم وكتبهم وحجابهم
ووزرائهم ، إذ لو تتبعنا ذلك لخرج هذا المجموع عن حد التلخيص ولحق بالكتب المبسوطة ،
هذا على أننا لو كُفينا ضرورات المعاش ، وأعفينا من كد الزمان ، لأوردنا من ذلك ما أحاط به
العلم وبلغته الرواية وحصلته المشاهدة .

ولم أثبت في هذه الأوراق المحتوية على دولة المصامدة وغيرها إلا ما حققته نقلاً من كتاب ، أو سماعاً من ثقةٍ عدل ، أو مشاهدة بنفسى ، هذا بعد أن تحرّيت الصدق وتوخّيت الإنصاف في ذلك كله ، وجهدت ألا أنقص أحداً ذرة مما له ، ولا أزيده خردلة مما لا يستحقه ، وبالله أستعين ، وإياه أسأل ، وإليه أضرع في إلهام الصواب والسداد في القول والعمل ، فهو حسبى ونعم الوكيل .

جامع سيرة المصامدة وأخبارهم وقبائلهم

وأحوالهم في طعنهم وإقامتهم

قد قدمنا أن أول من صحب المهدي محمد بن تومرت ، عشرة أنفس ، وهم المسمون بالجماعة ، أولهم عبد الواحد الشرقي على الصحيح ، ثم عبد المؤمن بن علي أمير المؤمنين ، ثم عمر بن عبد الله الصنهاجي المعروف عندهم بعمر أزناج ، ثم فصكة بن ومزال ، وسماه ابن تومرت عمر ، وكناه أبا حفص ، انتشر من ظهر عمر هذا بشر كثير ، وكان له عدة من الولد ، منهم : إبراهيم ، وإسماعيل ، ومحمد - أم محمد هذا ابنة عبد المؤمن - ويحيى ، وعيسى ، وموسى ، ويونس ، وعبد الحق ، وعثمان ، وأحمد ، وعبد الواحد ، كان عبد الواحد هذا يتولى أمر إفريقية ، ولاه أمرها أمير المؤمنين أبو عبد الله سنة ٦٠٣ ، فلم يزل واليًا عليها إلى أن مات بها يوم الخميس وهو أول يوم من شهر محرم سنة ٦١٨ .

وكان ابن تومرت يسمي فصكة هذا : المبارك ، ويقول : لا يزالون بخير ما بقى فيهم هذا الرجل أو أحد من ولده ! فكان الأمر كما قال ، وانتفعوا به وبأولاده وأولاد أولاده ، وهو المشهور بعمر إيتي ، وقد تقدم ذكره في مواضع من هذا الكتاب ، ولم يبق في وقتنا هذا من ولده لصلبه سوى رجل واحد اسمه عثمان ، فارقه بمدينة مرسية ، وبها ودعته حين ارتحلت إلى هذه البلاد ، وقد ولوه مدينة جيان وأعمالها ، هذا آخر عهدي به ، ثم اتصل بي بديار مصر أنهم ولوه بلنسية ثم عزلوه عنها ، فلا أدري أهو بالأندلس اليوم أو بمراكش ؟ وهو معدود عندي من جملة إخواني ، رضى الله عنه وعنّا وعن جميع المسلمين .

... ثم يوسف بن سليمان ، وأخوه عبد الله بن سليمان ، وهما من أهل تينمل ، من قبيلة تدعى مسكالة حسبما تقدم ، ثم أبو عمران موسى بن علي الضرير ، صهر عبد المؤمن ، كان ضرير البصر ، كان عبد المؤمن يستخلفه على مراكش إذا سافر عنها ، ثم أبو إبراهيم إسماعيل الهزرجي - وهو الذي أسلم نفسه للقتل وفدى عبد المؤمن بذلك على ما تقدم - ثم

رجل من أهل تينمل ، يعرف عندهم بابن بيجيت - أنا شاك في اسمه - ثم أيوب الجدميوى ، وهو الذى تولى قسمة الأقطاع بين الموحدين فى أول الأمر .

فهؤلاء العشيرة المسمون بالجماعة ، وبعض الناس يعد فيهم أبا محمد وأسنان ، وهو رجل دبّاغ أسود من أهل مدينة أغمات ، صحب أبا عبد الله ابن تومرت حين مرّ فاخصه أبو عبد الله ابن تومرت لخدمته ، لما رأى من شدته فى دينه وكتمانه لما يرى ويسمع ، فكان يتولى وضوءه وسواكه والإذن عليه للناس وحجابه والخروج بين يديه ، فلم يزل على ذلك إلى أن توفى ابن تومرت ، فكان يتولى خدمة ضريحه وضريح عبد المؤمن حين دفن هناك ، توفى وأسنان هذا فى صدر دولة أبى يعقوب بعد أن علت سنه ، وكان من العباد المجتهدين والزهاد المتبتلين ، لم يكتسب شيئاً ولا خلف ديناراً ولا درهماً ، مع أنه لو شاء لكان أكثر الناس مالاً ، لمكانه من عبد المؤمن ومن المصامدة ، لما كانوا يعلمون من قربه من صاحبهم وثنائه عليه فى أكثر الأوقات .

وانضاف إلى هؤلاء القوم المسمين بالجماعة ، خلق من قبائلهم ، فعدوا فيهم ونسبوا إليهم .

وأول من يعترض فى العرض العام ، ولد عمر بن عبد الله الصنهاجى ، ثم فرس عبد المؤمن أو من كان من ولده يتولى الأمر ، ثم سائر أهل الجماعة على طبقاتهم من سبق وإبطاء ، ثم أهل خمسين ، وهم خلق كثير .

ذكر قبائل الموحدين

وقبائل الموحدين الذين يجمعهم هذا الاسم ويعمهم . . وهم الجند والأعوان والأنصار ، ومن سواهم من سائر البربر والمصامدة رعية لهم وتحت أمرهم - سبع قبائل ، أولهم قبيلة ابن تومرت ، وهى قبيلة تسمى هرغة ، وهى قليلة العدد بالنسبة إلى قبائل الموحدين ، ثم قبيلة عبد المؤمن ، تسمى كومية ، وهى قبيلة كثيرة العدد جمّة الشعوب ، لم

يكن لها في قديم الدهر ولا في حديثه ذكر في رياسة ولا حظ من نباهة ، إنما كانوا أصحاب
فلاحة ورعاة غنم وأصحاب أسواق يبيعون فيها اللبن والحطب وسوى ذلك من سقط المتاع ،
فتبارك المعز المذل المعطى المانع ! فأصبح القوم اليوم وليس فوقهم أحد ببلاد المغرب ، ولا
تطاول أيديهم يَدُّ يكون عبد المؤمن منهم ، هذا على أنه - كما قدمناه - ينتسب إلى غيرهم ، ثم
أهل تينمل ، وهم قبائل شتى يجمعها اسم هذا الموضع ، ثم هنتاتة ، وهى أيضا قبيلة
ضخمة جدا ، وفي بعضها رياسة وشرف في الدهر القديم ، ثم جنفيسة ، وهى قبيلة عزيزة
منيعه ، ولغتها أجود اللغات وأفصحها في ذلك اللسان ، ثم جدميوة ، وليست كلها - بل
بعضها - رعية ، ثم من استجاب للموحدين من قبائل صنهاجة ، ثم بعض
قبائل هسكورة .

فهذه جملة قبائل الموحدين المستحقين لهذا الاسم عندهم ، والذين يأخذون العطاء
وتجمعهم الجيوش وينفرون في البعوث ، وغير هؤلاء القبائل من المصامدة رعية .

وإذ قد جرى ذكرهم - أعنى المصامدة - على هذا النسق ، فلنذكر لك الآن - حفظك
الله وأصلحك وأصلحك بك - القبائل التى يجمعها هذا الاسم ، أعنى المصامدة ، وحد
بلادهم ، لتعرفهم ممن سواهم من البربر ، فحد بلادهم النهر الأعظم الذى يصب من جبال
صنهاجة وينتهى إلى البحر الأعظم ، بحر أقيانس ، يُدعى هذا النهر أم ربيع ، عليه قبيلتان
، إحداهما تسمى هسكورة ، وأخرى صنهاجة ، وهما من المصامدة ، وآخر بلادهم
الصحراء التى تسكنها قبائل لتونة ومسوفة وشرطة ، وهؤلاء ليسوا مصامدة ، وقد كانت
المملكة في هذه القبائل أيام المرابطين كما تقدم ، فهذا حد بلاد المصامدة عرضا ، وحدها
طولا من الجبل المعروف بدران إلى البحر الأعظم المسمى أقيانس ، وقبائلها الذين ينطلق
عليهم هذا الاسم ، هسكورة ، وصنهاجة ، ودكالة ، وحاحة ، ورجراجة ، وجزولة ، ولمطة
، وجنفيسة ، وهنتاتة ، وهرغة ، وقبائل أهل تينمل ، وحول مراكش قبائل منهم أيضا ،
وهم : هزمير ، وهيلانة ، وهزرجة ، يدعونهم الموحدين بالقبائل ، فهؤلاء الذين يجمعهم
اسم المصامدة ، ثم يجمع الكل جنس البربر ، من طرابلس المغرب إلى أقصى سوس وماوراء

ذلك ممن ذكرنا ، من لتونة ومسوفة وسرطة ، وآخر بلادهم أول حد بلاد السودان .
وللمصامدة بعد هذا جند من سائر أصناف الناس ، كالعرب والغز ، والأندلس ،
والروم ، وقبائل من المرابطين ، وغيرهم .

ثم من ذكرنا من الموحدين صنفان : فالصنف الأول يدعون الجموع ، وهم المرتزقة الذين
يكونون بمراكش لا يرحونها ، والصنف الآخر يدعون العموم ، وهم الكائنون ببلادهم
لا يحضرون إلى مراكش إلا في النفي الأعظم ، وعدد المرتزقة الذين بمراكش من قبائل
الموحدين وسائر من ذكرنا من الأجناد - على ما صرح عندي تلخيصه - عشرة آلاف نفس ،
هؤلاء الذين بمراكش خارجاً عما في سائر البلاد من الموحدين وأصناف الجند .

وإذا كان العرض العام فأول من يعترض ذرية أبي حفص عمر الصنهاجى على طبقاتهم
في أسنانهم ، ثم بعدهم فرس الخليفة من بنى عبد المؤمن ، ثم أهل الجماعة على ترتيب
طبقاتهم ، ثم أهل خمسين ، ثم القبائل ، وأولهم عرضاً هرغة قبيلة ابن تومرت ، ثم بعدهم
أهل تينمل ، ثم كومية ، ثم الموحدون بعد هذا على طبقاتهم في سرعة الهجرة ويوطئها .

وقد جرت عاداتهم بالكثب إلى البلاد واستجلاب العلماء إلى حضرته من أهل كل فن ،
وخاصة أهل علم النظر ، وسموهم طلبة الحضر ، فهم يكثرُونَ في بعض الأوقات ويقلُونَ ،
وصنف آخر ممن غنى بالعلم من المصامدة يسمون طلبة الموحدين ، ولا بد في كل مجلس عام
أو خاص يجلسه الخليفة منهم ، من حضور هؤلاء الطلبة الأشياخ منهم ، فأول ما يفتتح به
الخليفة مجلسه مسألة من العلم يُلقِيها بنفسه أو تلقى بإذنه ، كان عبد المؤمن ويوسف
ويعقوب يُلقون المسائل بأنفسهم ولا ينفصلون من مجلس من مجالسهم إلا على الدعاء ،
يدعون الخليفة ويؤمن الوزير جهرًا يُسمع من بُعد من الناس ، ثم إذا سافروا لا يزال القرآن
يُقرأ بين أيديهم بالغدو والعشى رُكبًا ، وإذا نزلوا فأول شيء يصنعونه في أول النهار بعد
صلاتهم الفجر ، أن يخرج من ينادى : « الاستعانة بالله والتوكل عليه ! » هذه عندهم
للكوب ، فحينئذ يركب الناس ، ويخرج الخليفة من خيمته راكباً وأعيان القرابة وأشياخ

الموحدين بين يديه مُشاةً خطوات كبيرة ، ثم يأمرهم بالركوب ، فإذا ركبوا وقف وبسط يديه ودعا ، فإذا فرغ الدعاء افتتح القراءة طلبة الموحدين خلفه ، فيقرأون حزباً من القرآن في نهاية الترتيل وهم سائرون سيراً رفيقاً ، ثم شيئاً من الحديث ، ثم يقرأون توالييف ابن تومرت في العقائد بلسانهم وباللسان العربى ، فإذا فرغوا وقف الخليفة أيضاً وبسط يديه ودعا ، وإذا كان وقت النزول أيضاً نزلوا مشاةً بين يديه إلى خيمته ، فإذا بلغها بسط يديه ودعا ، فلا يزال هذا دأبهم في جميع سفرهم كله .

صفة أحوالهم في إقامة الجمعة

فأما صفة أحوالهم وخطبتهم في جمعهم ، فيخرج الخليفة منهم عند زوال الشمس من خوخة في القبلة ، ويخرج معه خواص حشمه ، ويركع ركعتين ثم يجلس ، فيقرأ قارئاً قدر عشر آيات ، حسن القراءة حسن الصوت ، ثم يقوم رئيس المؤذنين ومعه العصا التى يتوكأ عليها الخطيب فيقول : « قد فاء الفىء ياسيدنا أمير المؤمنين ، والحمد لله رب العالمين ! » يريد بهذا القول استئذانه في صعود الخطيب المنبر ، فيقوم الخطيب ويصعد المنبر ، ثم يناوله ذلك الرجل العصا ، فإذا جلس الخطيب فوق المنبر أذن ثلاثة من المؤذنين مفترقين ، أصواتهم في نهاية الحسن ، قد انتخبوا لذلك من البلاد ، ثم يقوم الخطيب فيخطب ، فأول شىء يقول :

« الحمد لله ، نحمده ونستعينه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادى له ، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، ونشهد أن محمداً عبده ورسوله ، أرسله بالحق بشيراً ونذيراً بين يدى الساعة ، من يطع الله ورسوله فقد رشد ، ومن يعص الله ورسوله فلا يضر إلا نفسه ولا يضر الله شيئاً ، أسأل الله ربنا أن يجعلنا ممن يطيعه ويطيع رسوله ، ويتبع رضوانه ويمتنع بسخطه ، فإنما نحن به وله . . . »

ثم يتعوذ ويقرأ سورة « قاف » من أولها إلى آخرها ، ثم يجلس ، فإذا قام إلى الخطبة الثانية

قال :

« الحمد لله ، نحمده ونستعينه ونتوكل عليه ، ونبرأ من الحول والقوة إليه ، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، ونشهد أن محمداً عبده ورسوله ، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه الذين اتبعوه ففاتوا الأنام جِداً وعزماً ، وأنفدوا وسعهم في نصره والصبر على ما أصابهم فيه وفاءً وصدقاً وحزماً ، وعلى الإمام المعصوم المهدي المعلوم أبي عبد الله محمد بن عبد الله العربي القرشي الهاشمي الحسني الفاطمي المحمدي ، الذي أيد بالعصمة فكان أمره حتماً ، واكتنف بالنور اللائح والعدل الواضح الذي يملأ البسيطة حتى لا يدع فيها ظلاماً ولا ظلماً ، وعلى وارث شرفه الصميم قسيمه - رضى الله عنه - في النسب الكريم ، المجتبي لوراثة مقامه العلي ، الخليفة الإمام أبي محمد عبد المؤمن بن علي ، وعلى أبي يعقوب ولي ذلك الاستخلاص ومستوجب شرف الاجتباء والاختصاص اللهم وارض عن المجاهد في سبيلك ، المحيي سنة رسولك ، الخليفة الإمام أبي يوسف أمير المؤمنين ، ابن أمير المؤمنين ، ابن أمير المؤمنين ، وعلى الخليفة الإمام أبي عبد الله ابن الخلفاء الراشدين ، اللهم وانصر وليَّ عهدهم ، الطالع في أفق سعدهم ، القائم بالأمر من بعدهم ، الخليفة الإمام أمير المؤمنين أبا يعقوب ابن أمير المؤمنين ، ابن أمير المؤمنين ، ابن أمير المؤمنين ، اللهم كما شددت به عُرى الإسلام ، وجمعت على طاعته قلوب الأنام ، ونصرت به دين نبيك محمد عليه الصلاة والسلام ، فاقض له بالنصر المقرون بالكمال والتمام ، اللهم كما اجتبيته من الخلفاء الراشدين ، والأئمة المهديين ، فاجعله من المقتفين لأثارهم ، المهتدين بمنارهم ، المقتبسين من أنوارهم ، اللهم وأيد الطائفة المنصورة والجماعة ، إخوان نبيك ، وطائفة مهديك ، الذين أخبرت عنهم في صريح وحيك : إنهم لا يزالون ظاهرين على أمرك إلى قيام الساعة ، وأمدهم وكافة من انتظم في سلكهم من أنصار الدين ، وحزبك الموحدين ، بمواد النصر والتمكين ، والفتح المبين ، واجعل لهم من عضدك وتأيدك أعز ظهير ، وأكرم نصير . . . » .

ثم يدعو وينزل فيصلى ، فإذا فرغ دعا الخليفة بنفسه وأمن الوزير على ما تقدم ، فهذه
كليات سيرتهم مجملّة على ما يقتضيه شرط التقريب ، وفي أثناء ذلك تفاصيل يطول شرحها
وليس بالناظر في هذا الكتاب إليها كبير حاجة ، إذ قد بين له ما يستدل على ما لم يرسم في
هذه الأوراق بما رُسم .

ذكر أقاليم المغرب والأندلس

وهذا - أصلحك الله - منتهى ما بلغ من أخبار المغرب وسير ملوكه وزرائهم وكتابهم وما
تعلق بذلك حسب الاستطاعة ، وقد تقدم بسط العذر عما يقع من التقصير أو الخلل ، مع
أن أصغر خدم مولانا لم تجر عاداته بالتصنيف ولا حدث قط نفسه به ، وإنما بعثته عليه المهمة
الفخرية - أعلى الله رتبها - فما كان من إحسان فألى تلك المهمة العلية نسبته وعنها منبعثه ، وما
كان من غير ذلك فأغضاؤها يستره ، ومسامحتها تغمره .

وقد رسم مولانا - حرس الله مجده - أن يُضاف إلى هذا التصنيف ذكر أقاليم المغرب
وتعيين مدنه وتحديد ما بينها من المراحل عدداً ، من لدن برقة إلى سوس الأقصى ، وذكر
جزيرة الأندلس وما يملكه المسلمون من مدنها على ما تقدم ، فلم ير المملوك بُدأ من الجرى
على العادة في سرعة الإجابة وامتنال مرسوم الخدمة ، لوجوب ذلك، عليه شرعاً وعرفاً ، هذا
مع أن هذا الباب خارج عن مقصود هذا التصنيف ، وداخل في باب المسالك والممالك ، وقد
وضع الناس فيه كتباً كثيرة : ككتاب أبي عبيد البكري الأندلسي ، وكتاب ابن فياض
الأندلسي أيضاً ، وكتاب ابن حرداذبة الفارسي ، وكتاب الفرغاني ، وغيرها من الكتب
المفردة لهذا الشأن المستوعبة له ، ونحن إن شاء الله ذاكرون من ذلك - موافقة لرأى مولانا
العالي - ما يقف به على حدود البلاد ويصور له صورتها على التقريب من غير تطويل ،
جارين في ذلك على ما سلف من عادتنا في سائر الكتاب : فنقول وبالله التوفيق
ومنه الإعانة :

قد تقرر واشتهر أن أول حد البلاد المصرية مما يلي الشام ، العريش ، وآخره مما يلي المغرب ، مدينة أنطابلس المعروفة ببرقة ، هذا عرض الديار المصرية ، وحدها في الطول من ثغر أسوان إلى مدينة رشيد الكائنة على ساحل البحر الرومى ، هكذا ذكر أصحاب المسالك والممالك والمعتنون بهذا الشأن .

أولاً : المدن العامة على الساحل

وأول حد بلاد إفريقية والمغرب مدينة أنطابلس المذكورة ، المدعوة ببرقة ، بناها الروم فكانت حاضرة لتلك البلاد ومجتمعاً لأهلها ، افتتحها المسلمون في أيام أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، ومنها كان ابتداء فتح المغرب ومن هذه المدينة - أعنى أنطابلس - إلى مدينة طرابلس المغرب ، قريب من خمس وعشرين مرحلة .

اتصال العمران بين الإسكندرية والقيروان

وما بين الإسكندرية وطرابلس المغرب ، خمس وأربعون مرحلة ، وكانت العمارة متصلة من مدينة الإسكندرية إلى مدينة القيروان ، تمشى فيها القوافل ليلاً ونهاراً : وكان فيما بين الإسكندرية وطرابلس المغرب حصون متقاربة جداً ، فإذا ظهر في البحر عدوٌ نور كل حصن للحصن الذى يليه ، واتصل التنوير ، فيتتهى خير العدو من طرابلس إلى الإسكندرية ، أو من الإسكندرية إلى طرابلس ، في ثلاث ساعات أو أربع ساعات من الليل ، فيأخذ الناس أهبتهم ويحذرون عدوهم لم يزل هذا معروفاً من أمر هذه البلاد إلى أن خربت الأعراب تلك الحصون ونفت عنها أهلها أيام خلى بنو عبيد بينهم وبين الطريق إلى المغرب وذلك في حدود ٤٤٠ - حين تغير ما بينهم وبين المعز بن باديس الصنهاجى وقطع الدعاء لهم على المنابر ودعا لبنى العباس ، فاستولى الخراب عليها إلى وقتنا هذا ، واستوطنتها الأعراب من سليم بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس عيلان بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان وغيرهم ، فهم اليوم بها ، وآثار المدن والحصون باقية إلى اليوم .

ومدينة أنطابلس هذه خراب ، لم يبق منها إلا آثارها ، وفيما بين برقة وطرابلس حصن يسمى طلميثة ، بالقرب منه معدن كبريت ، فأما مدينة طرابلس فلم تزل معمورة إلى هذا الوقت ، وهى أول مملكة المصامدة ، وقد استولى عليها فى مدة ملكهم وفى ملك أبى يعقوب منهم ، المملوك قراقش المتقدم ذكره فى ترجمة أبى يوسف ، ثم أخرجه منها المصامدة ، واستولى عليها أيضاً يحيى بن غانية وعلى كثير من إفريقية حسبما تقدم تلخيصه ، ثم أخرجه عنها أيضاً المصامدة فهى فى ملكه إلى وقتنا هذا ، وهو سنة ٦٢١ .

[بلاد إفريقية الساحلية]

فحد بلاد إفريقية مما يلى المشرق ، مدينة أنطابلس المذكورة ، وحدها مما يلى المغرب ، المدينة المعروفة بقسطنطينية الهواء ، سميت بذلك لإفراط علوها وشدة منعته ، ومسافة ما بين أنطابلس وقسطنطينية المغرب قريبة من خمس ، وخمسين مرحلة ، فهذا حد إفريقية طولاً ، وعرضها يختلف بحسب مزاحمة الصحراء العمارة ومباعدتها ، وسميت إفريقية بذلك لنزول أفريقش من ولد حام بن نوح بها ، وأفريقش هذا هو أبو البربر ، فالبربر كلهم من ولد حام ابن نوح ، خلا صنهاجة ، فإنهم يرجعون إلى حمير ، هذا كله قول أبى جعفر محمد بن جرير الطبرى فى تاريخه ، من لدن ذكر أفريقش إلى ذكر صنهاجة .

فأول مدن إفريقية المعمورة ، طرابلس المغرب المتقدم ذكرها ، ومنها إلى مدينة تسمى قابس ، عشر مراحل ، وقابس هذه على ساحل البحر الرمى وكذلك طرابلس ، وتنصب إلى قابس هذه أنهار من بعض تلك الجبال التى تليها ، فهى بذلك أخصب بلاد إفريقية وأوسعها فواكه وأعشاباً ، ومن قابس هذه إلى مدينة صغيرة على الساحل أيضاً تسمى سفاقس ، أربع مراحل ، ومن سفاقس إلى مهدية بنى عُبيد ، ثلاث مراحل ، وقد تقدمت صفة المهدية فى أخبار أبى محمد عبد المؤمن بن على ، وبظاهر المهدية المذكورة وقريب منها

جدا ، مدينة تدعى زويلة ، بناها بنو عبيد حين بنوا المهدية ، فاختصوا المهدية لأنفسهم وحشمهم وأعيان جندهم ووجوه قوادهم ، وأسكنوا زويلة هذه سائر الناس من الرعية والسودان وأراذل كتامة وغيرهم من أتباعهم ، ولما ارتحل المعز إلى مصر بعد أن افتتحها على يدى خادمه جوهر ، ارتحلت معه طائفة كبيرة من أهل زويلة هذه فإليهم ينسب الباب والحارة التى بالقاهرة اليوم ، ومن مهدية بنى عبيد إلى مدينة تسمى سوسة - وإليها تنسب الثياب السوسية - مرحلتان ، ومن سوسة إلى مدينة تونس ، ثلاث مراحل ، ولم تكن تونس هذه فى قدم الدهر على أيام الإفرنج مدينة ، وإنما بنيت فى أول الإسلام ، بناها عقبة بن نافع الفهري لمصلحة رآها ، وإنما كانت المدينة الكبرى مدينة على الساحل هناك تسمى قرطاجة بينها وبين تونس نحو من أربع فراسخ .

شأن مدينة قرطاجة فى القديم

وهذه المدينة - أعنى قرطاجة - هى كانت حاضرة إفريقية أيام الروم ، وهى مدينة عظيمة ، ظهر فيها من قوتهم وشدة طاعة رعييتهم لهم وفرط جبروتهم ما يعجب منه من تأمله ، ويعتبر فيه من وقف عليه ، وذلك أهم جلبوا إليها المياه من بعد شديد ، وتحيلوا على ذلك بغرائب من الحيل يعجز عن أسرها جميع من فى هذا العصر ، وكانوا يضاهون بها مدينة القسطنطينية العظمى ، المنسوبة إلى قسطنطين بن هيلان ملك الأفرنج ، ثم لما افتتح المسلمون إفريقية فى أيام عثمان بن عفان رضى الله عنه ، خربوا هذه المدينة المذكورة ، واتخذوا مدينة القيروان دار ملكهم ومقر ولايتهم ومجتمع جندهم ومركز جيوشهم ، وأسسوا على ساحل البحر مدينة تونس المذكورة وكان هناك قبل ذلك دير معلّم عند الروم يزورونه من أقاصى بلادهم ، فهدمه المسلمون وبنوه مسجداً ، سموا المدينة تونس ، باسم الراهب الذى كان فى ذلك الدير ، فما زالت تونس معمورة إلى وقتنا هذا .

ولما خربت مدينة القيروان على ما سيأتى الإيلاء إليه ، صارت مدينة تونس حاضرة

إفريقية ومقر ولايتها وموضع مخاطبة أولى الأمر منها ، وكل ما بتونس من جيد الرخام وخالص المرمر فمن مدينة قرطاجة المذكورة .

ومن مدينة تونس هذه إلى مدينة صغيرة على ساحل البحر تدعى بونة — ومعنى هذه اللفظة بلسان الإفرنج : جيدة — ست مراحل ، وفيما بين تونس وبونة بُليدة صغيرة تسمى بنى زرت ، بينها وبين تونس يوم تام فى البر للمُجَدِّ (ولبنى زرت ، هذه شأن غريب ، وذلك أنه يخرج فى بحرهما كلما طلع هلال ، نوعٌ من السمك لم يكن فى الشهر الذى قبل ذلك ، هذا متواتر عند أهلها لا يختلف فيه منهم أحد ، والمتفطنون من الصيادين يعرفون الشهور باختلاف السمك عليهم وإن لم يروا الأهلَّة ، وهذا منسوب إلى الطلسمات ، اعتنى به من عنى بخدمة القمر) ، ومن مدينة بونة إلى مدينة قسطنطينة التى هى أحد حَدَّي إفريقية ، خمس مراحل ، وقسطنطينة بينها وبين البحر مرحلتان أو أكثر من ذلك قليلاً .

هذا ما على ساحل البحر أو قريب منه من مدن إفريقية ، وبها مما يلي الصحراء مدن أنا ذاكرها إن شاء الله تعالى إذا فرغت مما على ساحل البحر من بلاد المغرب .

بلاد المغرب الساحلية

ومن قسطنطينة المغرب إلى بجاية ، خمس مراحل على الرفق ، وبجاية هذه هى دار ملك بنى حماد الصنهاجيين الذين تنتسب قلعة بنى حماد إليهم وكانوا يملكون من قسطنطينة المغرب إلى موضع يعرف بسيوسيرات ، وقد تقدم هذا الموضع بينه وبين بجاية قريب من تسع مراحل .

لم يزل بنو حماد يملكون بجاية وجهاتها إلى أن أخرجهم عنها فى ولاية يحيى منهم ، أبو محمد عبد المؤمن بن على حسبما سبق .

ومن مدينة بجاية إلى مدينة صغيرة تدعى الجزائر - وتنسب إلى قوم يقال لهم بنو مزغنة - قريب من أربع مراحل ، وهذه المدينة - المعروفة بالجزائر - على ساحل البحر الرومى وكذلك مدينة بجاية ، ومن الجزائر هذه إلى مدينة صغيرة تسمى تنس ، أربع مراحل ، ومن مدينة تنس إلى مدينة وهران ، سبع مراحل ، ومن مدينة وهران إلى مدينة سبتة على التقريب ، ثمان عشرة مرحلة .

ضيق البحر بين المغرب والأندلس

وبساحل سبتة هذه يلتقى البهران ، بحر مانطس الذى هو بحر الروم ، وبحر أقيانس الذى هو البحر الأعظم ، وهذا أول الخليج المعروف بالزقاق .

وسعة البحر فيما بين سبتة والأندلس ، ثمانية عشر ميلاً ، ثم لا يزال يضيق إلى أن ينتهى ذلك من عُدوة البربر إلى موضع يُدعى قصر مصمودة ، بينه وبين سبتة نصف يوم ، ومن جزيرة الأندلس إلى موضع يدعى جزيرة طريف ، مقابلاً لقصر مصمودة المذكور ، فأضيق ما يكون البحر هنالك ، وسعته فيما بين هذين الموضعين اثنا عشر ميلاً ، ترى رمال كل واحد من الشطين من الآخر فى كل وقت من أوقات النهار ، وقد ذكر المؤرخون أن الروم بنت فى قديم الدهر قنطرة على هذا الخليج ، ثم طغت المياه فغطتها ، فيذكر قوم من أهل جزيرة طريف أنهم يرونها أوان سكون البحر وهدوئه حين تصفو المياه .

ومن مدينة سبتة إلى مدينة طنجة ، يوم تام فى البر ، وطنجة هذه آخر الخليج الذى به يلتقى البهران ، وهى على ساحل البحر الأعظم الذى لا عمارة وراءه ، وهو المعروف عندنا بالبحر المحيط ، المتصل ببحر الهند والحبشة - وطنجة هذه آخر بلد بالمغرب المحقق ، وما بعدها من البلاد فإنما هو فى الجنوب ، كمدينة سلا ، مدينة مراكش - ثم لا يزال دائراً فى الجنوب إلى أن يأتى بلاد الحبشة والهند .

فأول بلاد المغرب مما على ساحل البحر الرومى ، ومدينة أنطابلس المعروفة ببرقة ،

وآخرها مما على ساحل البحر الأعظم ، مدينة طنجة ، مسافة ما بين ذلك على التقريب ، ست وتسعون مرحلة ، فهذا ذكر المدن التي على ساحل البحر من بلاد المغرب .

ثانياً : البلاد التي ليست على ساحل

ثم نعود إلى ذكر ما ليس على الساحل من مدن إفريقية والمغرب ، فنقول :

بلاد إفريقية

من مدينة قابس المتقدم ذكرها إلى مدينة تسمى قفصة ، ثلاث مراحل ، من مدينة قفصة إلى مدينة تُوَزْرَ ، أربع مراحل .

وتوزر هذه هي حاضرة بلاد الجريد وأم قُراها ، وبلاد الجريد التي يقع عليها هذا الاسم تنقسم قسمين : قسم يسمى قسطيلية ، وهذا الاسم يقع على توزر وأعمالها ، وقسم يسمى الزاب ، وهذا الاسم أيضاً يقع على مدينة بسكرة وأعمالها . ومن مدينة توزر إلى مدينة بسكرة أربع مراحل ، وبالقرب من مدينة بسكرة مدينة صغيرة تسمى نقاوس ، بينها وبينها مرحلتان ، فهذه المدن التي تلى الصحراء من بلاد إفريقية ، ويتخللها قرى كثيرة لم نذكرها لصغرها .

شأن القيروان في قديم الزمان

وفيما بين مدينة تونس وتوزر ، مدينة القيروان المشهورة ، منها إلى الساحل ثلاث مراحل ، وهي كانت - أعنى القيروان - دار ملك المسلمين بإفريقية منذ الفتح ، لم يزل الخلفاء من بنى أمية وبنى العباس يُولون عليها الأمراء من قبلهم ، إلى أن اضطرب أمر بنى العباس واستبد الأغالبة بملك إفريقية بعض الاستبداد ، وهم بنو أغلب ابن محمد بن إبراهيم بن

أغلب التميميون ، فاتخذوا القيروان دار ملكهم ، فلم يزالوا بها إلى أن أخرجهم عنها بنو عبيد وملكوها أيام كونهم بأفريقية ، ثم ولوا عليها حين ارتحلوا إلى مصر زيرى بن مناد الصنهاجى ، فلم يزل زيرى وبنوه ملوكاً عليها ، إلى أن كان آخرهم الذى أخرجهم العرب عنها ، تميم بن المعز بن باديس بن منصور بن بلجين بن زيرى بن مناد المذكور ، فانتهبتها الأعراب وخربتها ، فهى كذلك خراب إلى اليوم ، فيها عمارة قليلة يسكنها الفلاحون وأرباب البادية .

وكانت القيروان هذه فى قديم الزمان منذ الفتح إلى أن خربتها الأعراب - دار العلم بالمغرب ، إليها ينسب أكابر علمائه ، وإليها كانت رحلة أهله فى طلب العلم ، وقد ألف الناس فى أخبار القيروان ومناقبه وذكر علمائه ومن كان به من الزهاد والصالحين والفضلاء المتبتلين ، كتباً مشهورة ، ككتاب أبى محمد ابن عفيف ، وكتاب ابن زيادة الله الطنبى ، وغيرهما من الكتب ، فلما استولى عليها الخراب - كما ذكرنا - تفرق أهلها فى كل وجه ، فمنهم من قصد بلاد مصر ، ومنهم من قصد صقلية والأندلس ، وقصدت منهم طائفة عظيمة أقصى المغرب ، فنزلوا مدينة فاس ، فعقبهم بها إلى اليوم .

فهذه نبذة من أخبار إفريقية ، وفيها مدن كثيرة قد خربت لا أعرف أسماءها ، لقلة معرفتى بتفاصيل أحوال إفريقية ، لأننى لم أدخل منها إلا مدينة تونس خاصة ، أتيتها فى البحر من الأندلس ، وذلك سنة ٦١٤ ، وإنما نقلت ما نقلته من أخبارها حسب المستفيض من السماع .

وفى خراب القيروان على ما تقدم يقول أبو عبد الله محمد ابن أبى سعيد ابن شرف الجذامى :

ترى سيئات القيروان تعاظمت	فجلت عن الغفران والله غافر !
تراها أُصِيبَت بالكبائر وحدها	ألم تك قدماً فى البلاد الكبائر ؟

بلاد المغرب

. . . فقسطنطينة آخر بلاد إفريقية ، ما يلي البحر منها وما يلي الصحراء ، وما بعد قسطنطينة فهو من المغرب غير إفريقية ، فأول ذلك بليدة صغيرة قبلى بجاية فى البر ، تسمى ميلة ، بينها وبين بجاية ثلاث مراحل ، ومن بجاية إلى قلعة بنى حماد أربع مراحل ، وهى أيضاً - أعنى القلعة - قبلى بجاية .

طريق السفار من بجاية إلى مراکش

وها أنا أذكر طريق السفار من بجاية إلى مراکش ، فمن بجاية إلى مدينة تلمسان عشرون مرحلة ، وفيها بين ذلك بليدات صغار كمليانة ، ومازونة ، ووهران - وقد ذكرناها فى بلاد الساحل - وبين مدينة تلمسان وبين البحر أربعون ميلاً ، وذلك يوم للمُجد ، ومن مدينة تلمسان إلى مدين فاس عشر مراحل ، سبع منها إلى المدينة التى تدعى رباط تازا ، وثلاث إلى فاس ، وقبلى مدينة تلمسان فى الصحراء ، مدينة سجلماسة ، منها إلى تلمسان عشر مراحل ، وهذه المدينة - أعنى سجلماسة - متوسطة فى الصحراء ، مسافة ما بينها وبين تلمسان وفاس ومراكش ، على حد سواء ، فمن حيث قصدت إليها من أحد هذه البلاد ، كان ذلك مسافة عشر مراحل .

التعريف بمدينة فاس

ومدينة فاس هذه هى حاضرة المغرب فى وقتنا هذا ، وموضع العلم منه ، اجتمع فيها علم القيروان وعلم قرطبة ، إذ كانت قرطبة حاضرة الأندلس ، كما كانت القيروان حاضرة المغرب ، فلما اضطرب أمر القيروان - كما ذكرنا - عاث العرب فيها ، واضطرب أمر قرطبة باختلاف بنى أمية بعد موت أبى عامر محمد ابن أبى عامر وابنه ، رحل من هذه وهذه من كان فيهما من العلماء والفضلاء من كل طبقة ، فراراً من الفتنة ، فنزل أكثرهم مدينة فاس ،

فهى اليوم على غاية الحضارة ، وأهلها فى غاية الكيس ونهاية الظرف ، ولغتهم أفصح اللغات فى ذلك الإقليم ، ومازلت أسمع المشايخ يدعونها بغداد المغرب ، وبحق ما قالوا ذلك ، فإنه ليس بالمغرب شىء من أنواع الظرف واللباقة فى كل معنى إلا وهو منسوب إليها وموجود فيها ومأخوذ منها ، لا يدفع هذا القول أحد من أهل المغرب ، ولم يتخذ لمتونة والمصامدة مدينة مراكش وطناً ولا جعلوها دار مملكة ، لأنها خير من مدينة فاس فى شىء من الأشياء ، ولكن لقرب مراكش من جبال المصامدة وصحراء لمتونة ، فلهذا السبب كانت مراكش كرسى المملكة ، وإلا فمدينة فاس أحق بذلك منها ، وما أظن فى الدنيا مدينة كمدينة فاس ، أكثر مرافق ، وأوسع معاش ، وأخصب جهات ، وذلك أنها مدينة يحفها الماء والشجر من جميع جهاتها ، ويتخلل الأنهار أكثر دورها زائداً على نحو من أربعين عيناً ينغلق عليها أبوابها ويحيط بها سورها ، وفى داخلها وتحت سورها نحو من ثلاثمائة طاحونة تطحن بالماء ، ولا أعلم بالمغرب مدينة لا تحتاج إلى شىء يجلب إليها من غيرها - إلا ما كان من العطر الهندى - سوى مدينة فاس هذه ، فإنها لا تحتاج إلى مدينة فى شىء مما تدعو إليه الضرورة ، بل هى توسع البلاد مرافق وتملؤها خيراً .

ومن مدينة فاس إلى مدينة مكناسة الزيتون ، يوم تام للمُجَدِّ ، ومن مكناسة الزيتون إلى مدينة سلا ، أربع مراحل .

ومدينة سلا هذه على ساحل البحر الأعظم المسمى أقيانس ، وهى فى الجنوب ، كما ذكرنا ، ينصب إليها نهر يسمى وادى الرمان ، يصب فى البحر الأعظم المذكور .

وقد بنى المصامدة على ساحل هذا البحر مما يلي مراكش مدينة عظيمة ، سموها رباط الفتح ، كان الذى اختطها أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن ، وأتمها ابنه يعقوب ، وبنى فيها مسجداً عظيماً قد تقدم ذكره ، وقيل : إنهم إنما بنوها بأمر ابن تومرت إياهم بذلك ، وذلك أنه قال لهم : « تبنون مدينة عظيمة على ساحل هذا البحر - يعنى البحر الأعظم - ثم

يضطرب أمركم وتنتقض عليكم البلاد حتى ما يبقى بأيديكم إلا هذه المدينة ، ثم يفتح الله عليكم ويجمع كلمتكم ويعود أمركم كما كان ! » فلهذا سموها رباط الفتح ، وبين هذه المدينة وبين سلا العتيقة ، النهر المذكور ، وقد بنوا عليه قنطرة من ألواح وحجارة يعبر الناس عليها حين يجزر النهر ، فإذا مد عبروا في القوارب .

وبين مدينة سلا هذه ومدينة مراكش كرسى المملكة ، تسع مراحل فمراكش آخر المدن بالمغرب ، وكان الذى اختطها ملك لمتونة تاشفين بن على ، ثم زاد فيها بعده ابنه يوسف بن تاشفين ، ثم زاد فيها بعدهما على بن يوسف بن تاشفين ، ثم ملكها المصامدة فزادوا فيها حتى جاءت فى نهاية الكبر ، فهى اليوم طولاً وعرضاً قدر أربع فراسخ - هذا إذا ضُمت إليها قصور بنى عبد المؤمن - وأجرى المصامدة فيها مياهًا كثيرة لم تكن فيها قبل ذلك ، وبنوا فيها قصوراً لم يكن مثلها لملك ممن تقدمهم من الملوك ، فصارت بذلك فى نهاية الحسن وغاية الكمال ، كما قال الأول :

ليس فيها ما يقال له كملت لو أنه كُملا

ترجمة المؤلف بقلمه

وبهذه المدينة - أعنى مراكش - مسقط رأسى ، وهى أول أرض مس جلدى تراها ، وكان مولدى بها لسبع خلوان من ربيع الآخر سنة ٥٨١ ، فى أول أيام أبى يوسف يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن بن على .

ثم فصلت عنها وأنا ابن تسعة أعوام إلى مدينة فاس ، فلم أزل بها إلى أن قرأت القرآن وجودته ورويته عن جماعة كانوا هنالك مبرزين فى علم القرآن والنحو .

ثم عدت إلى مراكش ، فلم أزل متردداً بين هاتين المدينتين .

ثم عبرت إلى جزيرة الأندلس في أول سنة ٦٠٣ ، فأدركت بها جماعة من الفضلاء من أهل كل شأن ، فلم أحصل بحمد الله من ذلك كله إلا معرفة أسمائهم ومواليدهم ووفياتهم وعلومهم ، انفردوا دونى بكل فضيلة ، ولا مانع لما أعطى الله ، ولا معطى لما منع ، يختص برحمته من يشاء وهو ذو الفضل العظيم !

بلاد السوس الأقصى

فمراكش هذه آخر بلاد المدن الكبار بالمغرب المشهورة به ، وليس وراءها مدينة لها ذكر وفيها حضارة ، إلا بليدات صغار بسوس الأقصى ، فمنها مدينة صغيرة تسمى تارودانت ، وهى حاضرة سوس ، وإليها يجتمع أهلها ، ومدينة أيضاً صغيرة تدعى زُجندر ، هى على معدن الفضة ، يسكنها الذين يستخرجون ما فى ذلك المعدن ، وفى بلاد جزولة مدينة هى حاضرتهم أيضاً تسمى الكُشت ، وفى بلاد لمطة مدينة أخرى هى حاضرتهم أيضاً تسمى نول لمطة ، فهذه المدن التى وراء مراكش ، فأما تارودنت وزجندر فدخلتها وعرفتُها ، ولم أزل أعرف السفار من التجار وغيرهم ، وخاصة إلى مدينة المعدن المعروفة بزجندر ، وأما مدينة جزولة ومدينة لمطة فلا يسافر إليهما إلا أهلها خاصة .

ذكر ما بالمغرب من معادن الفضة والحديد

والكبريت والرصاص والزئبق وغير ذلك ، وأسماء مواضعها

قد تقدم ذكر معدن الكبريت الذى بين برقة وطرابلس وأنه بالقرب من حصن يدعى طلميثة .

وفى بين سبتة ووهران موضع قريب من ساحل البحر يسمى تمسامان ، فيه معدن حديد .

وفى بين سلا ومراكش قريباً على ساحل البحر الأعظم بمقدار يوم أو أكثر قليلاً ،

موضع يدعى إبستتار ، فيه معدن حديد أيضًا ، وليس هذا الموضع على طريق السفار ، إنما يقصده من أراد حمل الحديد منه .

وبالقرب من مكناسة الزيتون على ثلاث مراحل منها حصن يدعى وركناس ، فيه معدن فضة ، وقد ذكرنا معدن زجندر الذى بسوس ، غير أن فضته ليست هناك ، أعنى فضة معدن زجندر .

وبسوس أيضا معدنان للنحاس ، ومعدن توتيا ، وهى التوتيا التى يصبغ بها النحاس الأحمر فيصير أصفر .

فهذه جملة ما بالغدوة من المعادن .

المعادن بجزيرة الأندلس

وبجزيرة الأندلس معادن أيضا ، فمنها معدن فضة ببلاد الزوم فى الجهة المغربية ، بموضع يدعى شنترة .

وعلى أربع مراحل من مدينة قرطبة موضع يسمى شلون ، فيه معدن زئبق ، منه يفترق الزئبق على جميع المغرب .

وفى أعمال ألمرية وعلى يوم ونصف منها بموضع يعرف بدلاية ، فيه معدن رصاص .

وفى أعمال ألمرية أيضا على يوم ونصف منها موضع يسمى بكارش ، فيه معدن حديد أيضا .

وما بين دانية وشاطبة موضع يسمى أوربة ، على نصف يوم من دانية ، فيه معدن حديد .

فهذا أيضا جملة ما بالأندلس من المعادن ، فأما الذهب فمسوق إليها من بلاد السودان .

ذكر أسماء الأنهار العظام التي بالمغرب

فأول ذلك نهر ببلاد إفريقية على نصف مرحلة من مدينة تونس ، يسمى بجردة ، ينصب من جبل هنالك ينتهى إلى البحر الرومى .

ونهر بجاية الذى يسمى الوادى الكبير ، وهو متنزهها وعليه بساينها وقصورها .

ونهر آخر فيما بين تلمسان ورباط تازا يدعى وادى ملوية ، يصب فى البحر الرومى أيضًا .

ونهر يدعى سَبُو ، هو محيط بمدينة فاس من شرقها وغربها ، ويجاور نهر سبو هذا نهر آخر كبير يسمى ورغة .

وهذان النهران ينصبان إلى البحر الأعظم ، بحر أقيانس ، بعد أن يلتقيا بموضع يدعى المعمورة .

وفما بين مكناسة وسلا نهر يدعى بهتا ، ينصب إلى البحر الأعظم أيضًا . ونهر سلا المتقدم الذكر .

وفما بين سلا ومراكش ، وعلى ثلاث مراحل من مراكش ، نهر عظيم يدعى أم ربيع ، ينصب من جبال صنهاجة من موضع يدعى وأنسيفن ، يصب فى البحر الأعظم أيضًا .

ونهر على أربعة أميال من مراكش ، عليه قنطرة عظيمة ، يسمى تانسيفت ونهر سوس الأقصى .

ونهر ببلاد حاحة ، يسمى شفشاوة .

هذه الأنهار كلها تصب إلى البحر الأعظم ، فهذه جملة الأنهار الكبار التى بالمغرب التى لا يقل ماؤها ولا ينقطع شتاء ولا صيفًا ، ولم نتعرض لذكر الأودية الصغار والأنهار التى تيس فى الصيف .

ذكر جزيرة الأندلس وأسماء مدنها وأنهارها

فأما جزيرة الأندلس فهي المعروفة في قديم الزمان عند الروم بجزيرة أشبانية ، وقد تقدم ذكر حدودها في صدر هذا الكتاب فأغنى ذلك عن إعادته ههنا ، وكان دين أهلها في الدهر القديم دين الصابئة من عبادة الكواكب واستنزال قواها والتقرب إليها بأنواع القرابين ، شهدت بذلك طلسمات وجدت بها وضعتها القدماء من أهلها ، ثم انتقل أهلها إلى دين النصرانية حين ظهر على أيدي أصحاب المسيح عليه السلام .

وكانت هذه الجزيرة - أعنى الأندلس - منتظمة في مملكة صاحب رومية ، يستعمل عليها من شاء من أصحابه ، فلم تزل كذلك والروم يملكونها - وقاعدة ملكهم منها مدينة تسمى طالقة ، على فرسخين من إشبيلية ، وهي مدينة عظيمة باقية أثرها إلى هذا اليوم - إلى أن غلبهم عليها القوطا ، وهي قبيلة من قبائل الإفرنج ، فأخرجوهم عن الجزيرة وألحقوهم برومية مدينتهم العظمى .

وانفرد القوطا هؤلاء بمملكة الجزيرة ، فملكوها أضخم مُلك قريباً من ثلاثمائة سنة ، وكانت دار ملك القوطا ، مدينة طليطلة ، وهي في قريب من وسط الجزيرة ، فلم يزالوا بها وطليطلة دار ملكهم - كما ذكرنا - إلى أن افتتحها المسلمون في شهر رمضان من سنة ٩٢ من الهجرة ، على ما تقدم في صدر الكتاب .

فلما افتتحها المسلمون تخيروا قرطبة دار ملكهم ومقر تدبيرهم وموضع حلهم وعقدهم ، فلم تزل قرطبة على ذلك إلى أن انتشرت الفتنة واضطرب أمر بني أمية بالأندلس بموت الحكم المستنصر وتغلب أبى عامر محمد ابن أبى عامر وابنه ، على هشام المؤيد ابن الحكم المستنصر حسبما تقدم في صدر هذا الكتاب .

فهذه تلخيص أخبار جزيرة الأندلس .

وأنا ذاكر - إن شاء الله - أول ما يلقاه من يعبر إليها من حدودها ومدنها ، فأول ذلك أنى أقول :

قد تقدم أن البحرين : بحر الروم ، وبحر أقيانس ، يلتقيان بساحل سبتة ، ثم يضيق الخليج ويتقارب العدوتان حتى ينتهى ذلك إلى قصر مصمودة من العدو وجزيرة طريف من الأندلس ، ثم يأخذ في السعة ، وأول هذا الخليج مما يلي طنجة ، الجبل الخارج في البحر الأعظم المعروف بطرف أشبرتال ، وآخره الجبل الذى شرقى سبتة ، فإذا عبرت إلى جزيرة الأندلس من سبتة ، كان الذى تنزل به المدينة المعروفة بالجزيرة الخضراء ، وإذا عبرت من قصر مصمودة وقعت إلى جزيرة طريف ، فالمدينة المعروفة بالجزيرة الخضراء هى - في التحقيق على ساحل البحر الرومى ، وجزيرة طريف على ساحل البحر الأعظم ، وبين الموضعين - أعنى الخضراء وطريف - ثمانية عشر ميلاً .

وفى شرقى الجزيرة الخضراء الجبل المعروف بجبل الفتح ، ويسمى أيضاً جبل طارق ، وله طرف خارج في البحر يسمى طرف الفتح ، وعنده يلتقى البهران بجزيرة الأندلس فهذا تلخيص التعريف بخبر مجاز الأندلس .

البلاد التى تغلب عليها النصارى إلى سنة ٦٢١

فأما ذكر مدنها فقد كانت فيها مدن كثيرة تغلب النصارى على أكثرها ، فأنا ذاكر أسماء المدن التى بأيدي النصارى فى وقتنا هذا ، وموضعها من الجزيرة من مشرق ومغرب ، من غير تعرض إلى ما بينها من المسافات ، إذ كان كون النصارى بها مانعاً من معرفة ذلك :

فأول المدن فى الحد الجنوبى المشرقى على ساحل البحر الرومى ، مدينة برشونة ، ثم مدينة طرعونة ، ثم مدينة طرطوشة ، هذه البلاد التى على ساحل البحر الرومى المذكور ، أعادها الله للمسلمين !

والمدن التى على غير الساحل فى هذا الحد المذكور ، مدينة سرقسطة ، ولاردة ، وأفراغة وقلعة أيوب ، هذه كلها يملكها صاحب برشونة - لعنه الله - وهى الجهة التى تسمى أرغن .

وفى الحد المتوسط ما بين الجنوب والمغرب من المدن : مدينة طليطلة ، وكونكة ، وأقليج

وطلبيرة ، ومكادة ، ومشريط ، ووبذ ، وأبله ، وشقوية ، هذه كلها يملكها الأدفنش
- لعنه الله - وتسمى تلك الجهات قشتال .

وتجاور هذه المملكة فيما يمل إلى الشمال قليلاً ، مدن كثيرة أيضاً ، وهى : سمورة ،
وشلمنكة ، والسبطاط ، وقلمرية ، هذه كلها يملكها رجل يعرف بالبيوج - لعنه الله -
وتسمى هذه الجهة ليون .

وفى الحد المغربى الذى هو ساحل البحر الأعظم أقيانس ، مدن أيضاً منها : مدينة
الأشبونة ، وشنترين ، وباجة ، وشنتره ، وشنث ياقو ، ومدينة يابرة ، ومدن كثيرة ذهبت
عنى أسماؤها ، يملكها رجل يعرف بابن الريق - لعنه الله .

فهذا ما بأيدي النصارى من مدن جزيرة الأندلس مما يلى بلاد المسلمين ، ووراء هذه
المدن مما يلى بلاد الروم ، مدن كثيرة لم تشتهر عندنا لبعدها عنا وتوغلها فى بلاد الروم ، لم
يملكها المسلمون قط ، لأنهم لم يملكوا الجزيرة بأسرها حين افتتحوها ، وإنما ملكوا معظمها
واستولوا على أكثرها .

المدن التى بقيت بأيدي المسلمين إلى سنة ٦٢١

وأنا ذاكر - بعد هذا - ما بقى بأيدي المسلمين من البلاد ، وعدد المراحل التى بينها ،
وقربها من البحر وبعدها ، حتى يبين ذلك - إن شاء الله تعالى :

فأول شىء يملكه المسلمون بجزيرة بالأندلس اليوم ، حصن صغير على شاطئ البحر
الرومى يسمى بنشكلة ، بينه وبين مدينة بلنسية ثلاث مراحل ، وهذا الحصن مما يلى بلاد
الروم ، بينه وبين طرطوشة مرحلتان أو أكثر قليلاً .

ثم مدينة بلنسية ، وهى مدينة فى غاية الخصب واعتدال الهواء ، كان أهل الأندلس
يدعونها فيما سلف من الزمان : مطيب الأندلس ، والمطيب عندهم ، حزمة يعملونها من

أنواع الرياحين ويجعلون فيها النرجس والآس وغير ذلك من أنواع المشمومات ، سموا بلنسية بهذا الاسم لكثرة أشجارها وطيب ريحها ، وبين بلنسية هذه وبين البحر الرومى قريب من أربعة أميال .

ثم بعدها مدينة تدعى شاطبة ، بينها وبينها مرحلتان .

وبينها مدينة صغيرة تدعى جزيرة الشقر ، وسميت جزيرة ؛ لأنها فى وسط نهر عظيم قد حف بها من جميع جهاتها فلا طريق إليها إلا على القنطرة .

ومن شاطبة هذه إلى مدينة دانية التى على ساحل البحر الرومى ، يوم تام .

ومن شاطبة إلى مدينة مرسية ثلاثة أيام .

ومن مدينة مرسية إلى البحر الرومى عشرة فراسخ .

ومن مدينة مرسية إلى مدينة أغرناطة سبع مراحل .

وبين ذلك بلاد صغار ، أولها مما يلي مرسية : حصن لركة ، ثم حصن آخر يدعى بلس ، ثم حصن آخر يدعى بلس ، قلعة ، ثم بليدة صغيرة تسمى بسطة ، ثم بليدة أخرى على مسيرة يوم من أغرناطة تسمى وادى آش ، يقال لها أيضاً وادى الأشى ، هكذا سمعت الشعراء ينطقون بها فى أشعارهم ، فهذه البليدات التى بين أغرناطة ومرسية .

وفى مقابلة وادى آش على ساحل البحر الرومى ، مدينة ألمرية (محففة الراء) وهى مدينة مشهورة ، تضرب أمواج البحر فى سورها ، بينها وبين وادى آش هذه مرحلتان للمجد .

وبعد المدينة المعروفة بألمرية على ساحل البحر الرومى ، حصن منكب ، وهى بليدة صغيرة يضرب البحر أيضاً فى سورها ، بينها وبين ألمرية أربع مراحل .

وبين حصن منكب هذا وبين مدينة مالقة ثلاث مراحل .

وبين مالقة وبين الجزيرة الخضراء ثلاث مراحل للمجد .

وبالجزيرة الخضراء ، أو بجبل الفتاح ، يلتقى البحرين ، كما ذكرنا ، فالذى على ساحل البحر الرومى من بلاد المسلمين بالأندلس : الجزيرة الخضراء ، ومالقة ، ومنكب ، والمرية ، ودانية ، وبين المرية ودانية نحو من ثمان مراحل ، ووراء دانية الحصن الذى يسمى بِشُكْلَة ، وقد تقدم ذكره .

فهذا ما على الساحل من بلاد المسلمين بالأندلس ، أعنى ما يضرب الموج فى سوره ، فأما مدينة بلنسية فينها وبين البحر - كما ذكرنا - قريب من أربعة أميال .

ثم نعود إلى ذكر البلاد التى ليست على الساحل ، فنقول :
من مدينة أغرناطة إلى البحر قريب من أربعين ميلاً ، وذلك مسيرة يوم تام أو يومين على الرفق .
ومن مدينة أغرناطة إلى مدينة جيان ، مرحلتان ، فبين جيان وبين البحر الرومى ثلاث مراحل .
ومن مدينة جيان إلى مدينة قرطبة مرحلتان .

ذكر قرطبة

وقد تقدم ذكر قرطبة هذه وأنها كانت دار ملك المسلمين ومقر تدبيرهم إلى أن نشأت الفتنة واختل أمر بنى أمية بالأندلس ، وبلغت قرطبة هذه من القوة وكثرة العمار وازدحام الناس مبلغاً لم تبلغه بلدة .

حكى ابن فياض فى تاريخه فى أخبار قرطبة قال : كان بالربض الشرقى من قرطبة مائة وسبعون امرأة كلهن يكتبن المصاحف بالخط الكوفى ، هذا ما فى ناحية من نواحيها ، فكيف بجميع الجهات ؟ .

وقيل : إنه كان فيها ثلاثة آلاف مُقَلَّس ، وكان لا يتقلس عندهم في ذلك الزمان إلا من صلح للفتيا .

وسمعت ببلاد الأندلس من غير واحد من مشايخها ، أن الماشى كان يستضيء بسروج قرطبة ثلاث فراسخ لا ينقطع عنه الضوء .

وبها الجامع الأعظم الذى بناه أبو المطرف عبد الرحمن بن محمد المتلقب بالناصر لدين الله ، وزاد فيه بعده ابنه الحكم المستنصر بالله ، فزيادة الحكم معروفة إلى اليوم .

وحكى أبو مروان ابن حيان - رحمه الله - في أخبار قرطبة ، أن الحكم لما زاد زيادته المشهورة في الجامع ، اجتنب الناس الصلاة فيها أياماً ، فبلغ ذلك الحكم ، فسأل عن علته ، ف قيل له : أنهم يقولون : ماندرى هذه الدراهم التى أنفقها في هذا البيان من أين أكتسبها ! فاستحضر الشهود والقاضى أبا الحكم المنذر بن سعيد البلوطى المتقدم الذكر في قضاته ، واستقبل القبلة وحلف باليمين الشرعية التى جرت العادة بها ، أنه ما أنفق فيه درهماً إلا من خمس المغنم ! وحيثئذ صلى الناس فيه لما علموا بيمينه ، ومن الخمس أيضاً كان أبوه بناه ، وزاد فيه أبو عامر محمد ابن أبى عامر زيادة أخرى من هذه النسبة ، فهو مسجد لم ينفق فيه درهم إلا من خمس المغنم ، وهو معظم القدر عند أهل الأندلس ، مبارك ، لا يصلى فيه أحد ويدعو بشيء من أمر الدنيا والآخرة إلا استجيب له ، قد عُرف ذلك من أمره واشتهر .

وحكى غير واحد أن الأدفنش - لعنه ا - لما دخلها في شهور سنة ٥٠٣ ، دخل النصارى في هذا المسجد بخيلهم ، فأقاموا به يومين لم تبُل دوابهم ولم تَرُث حتى خرجوا منه ، وهذه الحكاية مما تواتر عندهم واستفاض بقرطبة .

وقد جمع أهل الأندلس كتباً في فضائل قرطبة وأخبارها ومن كان بها أو نزلها من الصالحين والفضلاء والعلماء .

ذكر إشبيلية

ومن مدينة قرطبة إلى مدينة إشبيلية ثلاث مراحل ، وإشبيلية هذه هى حاضرة الأندلس فى وقتنا هذا ، وهى التى تسمى عندهم فى قديم الزمان حمص ، سُميت بذلك لنزول أجناد حمص إياها حين افتتح المسلمون الأندلس .

وقد زاد أمر هذه المدينة على صفة كل واصف ، وأتى فوق نعت كل ناعت ، وهى على شاطئ نهر عظيم ينصب من جبل شقورة ، وتنصب فيه أنهار كثيرة ، فلا يصل إلى إشبيلية إلا وهو بحر خضم ، تصعد فيه السفن الكبار من البحر الأعظم ، ترسو على باب المدينة ، بينها وبين البحر الأعظم سبعون ميلاً ، وذلك مرحلتان .

وهذه المدينة كانت قاعدة ملك بنى عباد حسبما تقدم ، ثم صيرها المصامدة منزلاً لهم أيام كونهم بالأندلس ، منها ينفذ أمرهم ، وفيها يستقر ملكهم ، وبنوا بها قصوراً عظيمة ، وأجروا فيها المياه ، وغرسوا البساتين ، فزاد ذلك فى حسن هذه المدينة ، أعنى إشبيلية .

ومن إشبيلية إلى مدينة شلب التى على ساحل البحر الأعظم ، خمس مراحل ، وبين ذلك بليدات صغيرة ، كمدينة لبلة ، وحصن مرتلة ، ومدينة طيرة ، ومدينة العليا ، والمدينة المعروفة بشتتمرية ، هذه البلاد كلها فيما بين شلب وإشبيلية من مغرب الأندلس .

وبين قرطبة وبين البحر الرومى خمس مراحل ، وقرطبة أيضاً على ساحل هذا النهر الذى ينصب إلى إشبيلية ، يعظم جدا حتى تصعد فيه السفن كما تقدم ، وينحدر من أراد فى القوارب من قرطبة إلى إشبيلية ، ويصعدون من إشبيلية إلى قرطبة ، كهيئة النيل .

وبين مدينة إشبيلية ومدينة شريش مرحلتان .

وبين شريش وبين البحر ثلاث مراحل .

فهذه جملة أخبار بلاد المغرب وجزيرة الأندلس ومسافات الأبعاد التى بين كل بلد وبلد على التقريب ، منها ما سافرت فيه بنفسى ، ومنها ما نقلته مستفيضاً عن السفار المترددين .

فصل

[أنهار الأندلس الكبار المشهورة]

وقد رأيت أن أذكرها ههنا جملة أنهار الأندلس الكبار المشهورة بها :

فأول ذلك مما يلي المشرق : نهر طرطوشة ، وهو نهر عظيم من جبال هناك إلى مدينة طرطوشة ، ثم يصب في البحر الرومى ، وبين طرطوشة وبين البحر الرومى اثنا عشر ميلاً .

ثم نهر مرسية ، وهو يصب أيضاً في البحر الرومى ، منبعه من جبل شقورة ، وهو قسيم نهر إشبيلية ، منبعها واحد ثم يفترقان ، فينصب هذا إلى إشبيلية وهذا إلى مرسية .

ثم نهر إشبيلية الأعظم — وقد تقدم ذكر منبعه — ثم تنصب فيه قبل وصوله إلى إشبيلية أنهار كثيرة ، فيعظم حتى يصير بحراً كما ذكرنا ، ثم يصب في البحر الأعظم المسمى أقيانس .

ثم نهر عظيم ببلاد الروم يسمى تاجو ، وهو الذى عليه مدينة طليظلة وشنترين ، وبين هاتين المدينتين قريب من عشر مراحل ، وعلى هذا النهر أيضاً مدينة الأشبونة ، وبينها وبين شنترين ثلاث مراحل ، ثم ينصب هذا النهر إلى البحر الأعظم .

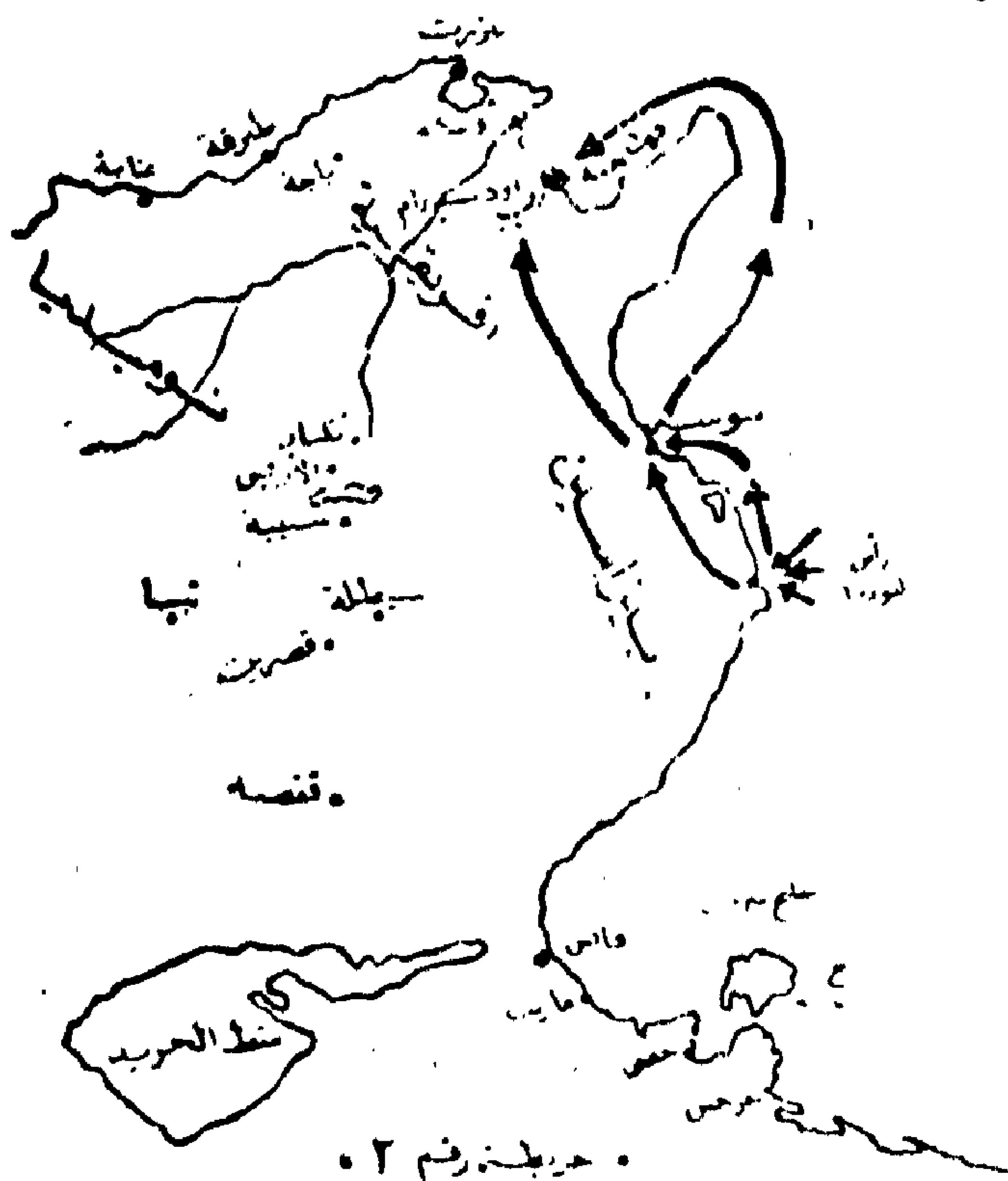
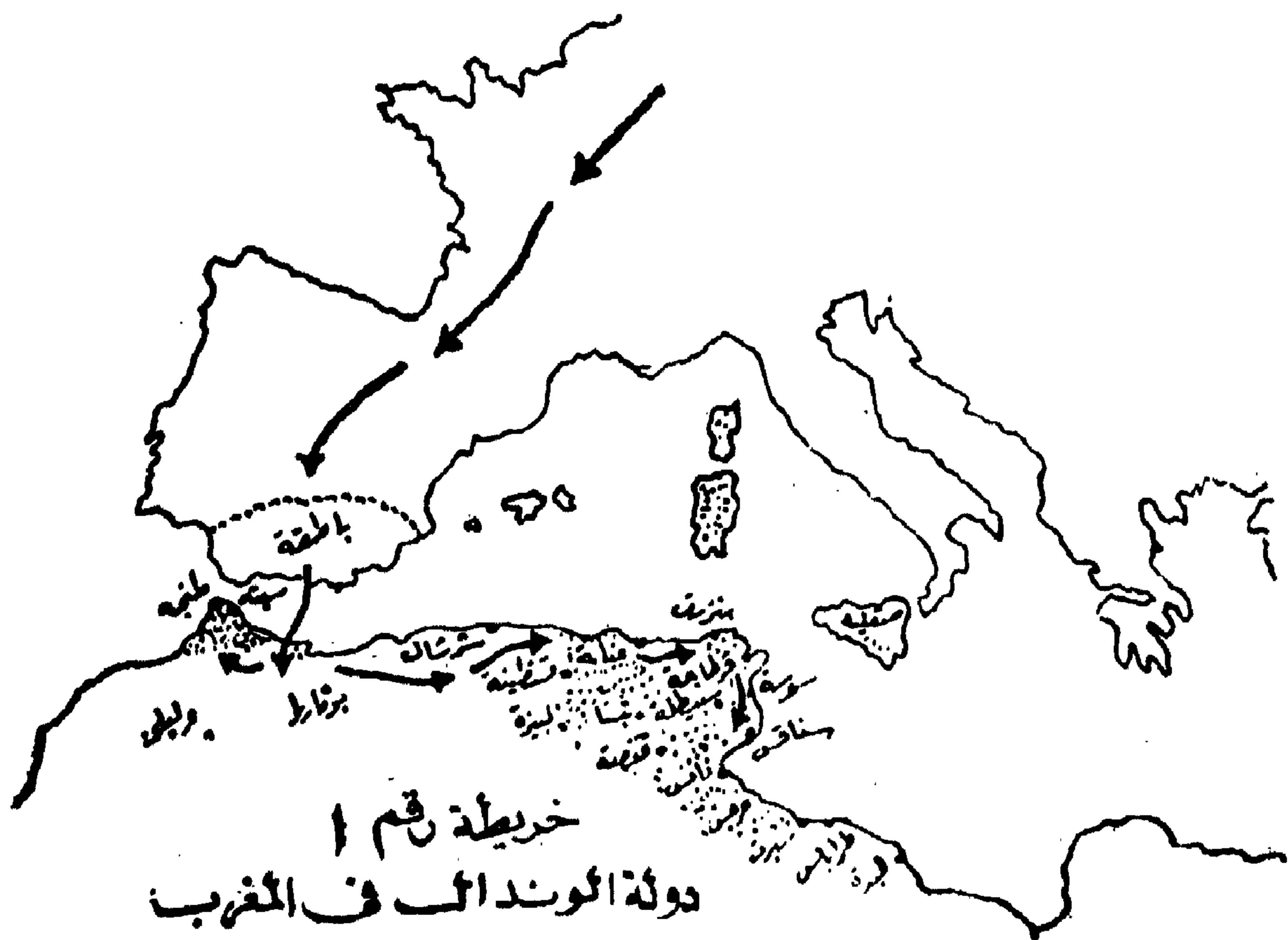
فهذه جملة أنهار الأندلس المشهورة بها .



وقد نجز — بحمد الله ج — ميع هذا الإملاء حسبما رسمه مولانا ، وجريئاً في ذلك كله على عادتى في التلخيص ، وتركت أسماء القرى والضياع والأنهار الصغار ، وغير ذلك مما لاتدعو إليه الحاجة ولا يُخل بالتصنيف تركه ، فإن وافق غرض مولانا ولاق بنفسه وأتى وفق مراده ، فهى البغية الكبرى والأمنية العظمى التى لم أزل أكدح لها وأسعى فيها وأسبق إليها ، وإن يك غير ذلك فما أنا بأول من اجتهد فحُرم الإصابة ولم يقع على المراد ولا وفى المقصود !

وبالله أعتصم ، وإياه أسترشد ، وعليه أعتمد ، وهو حسبي ونعم الوكيل .
وكان الفراغ من هذا الإملاء يوم السبت لست بقين من جمادى الآخرة من سنة ٦٢١
والحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين ، وحسبنا الله
ونعم الوكيل .

تم بحمد الله

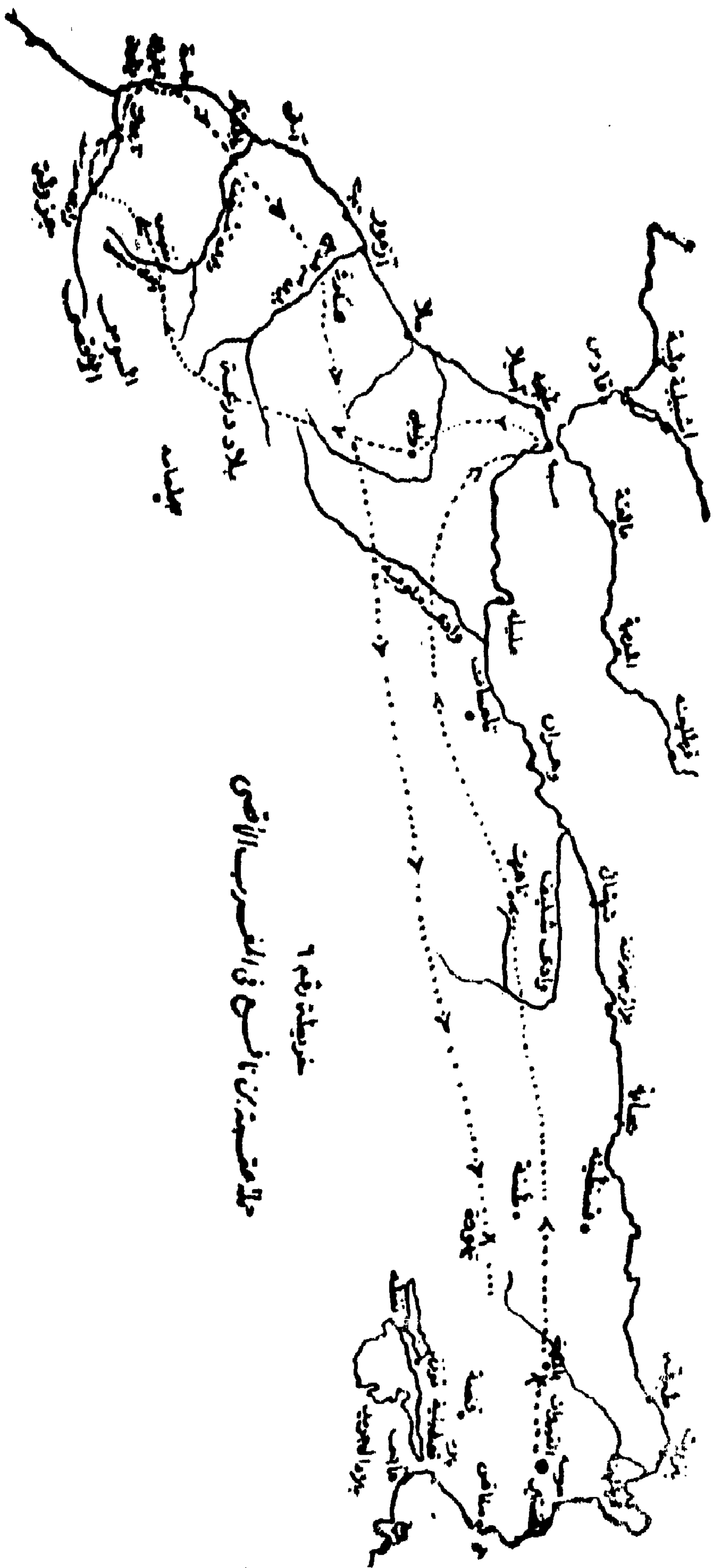


• حملة ملوك المغرب على المغرب سنة ٥٥٢ •

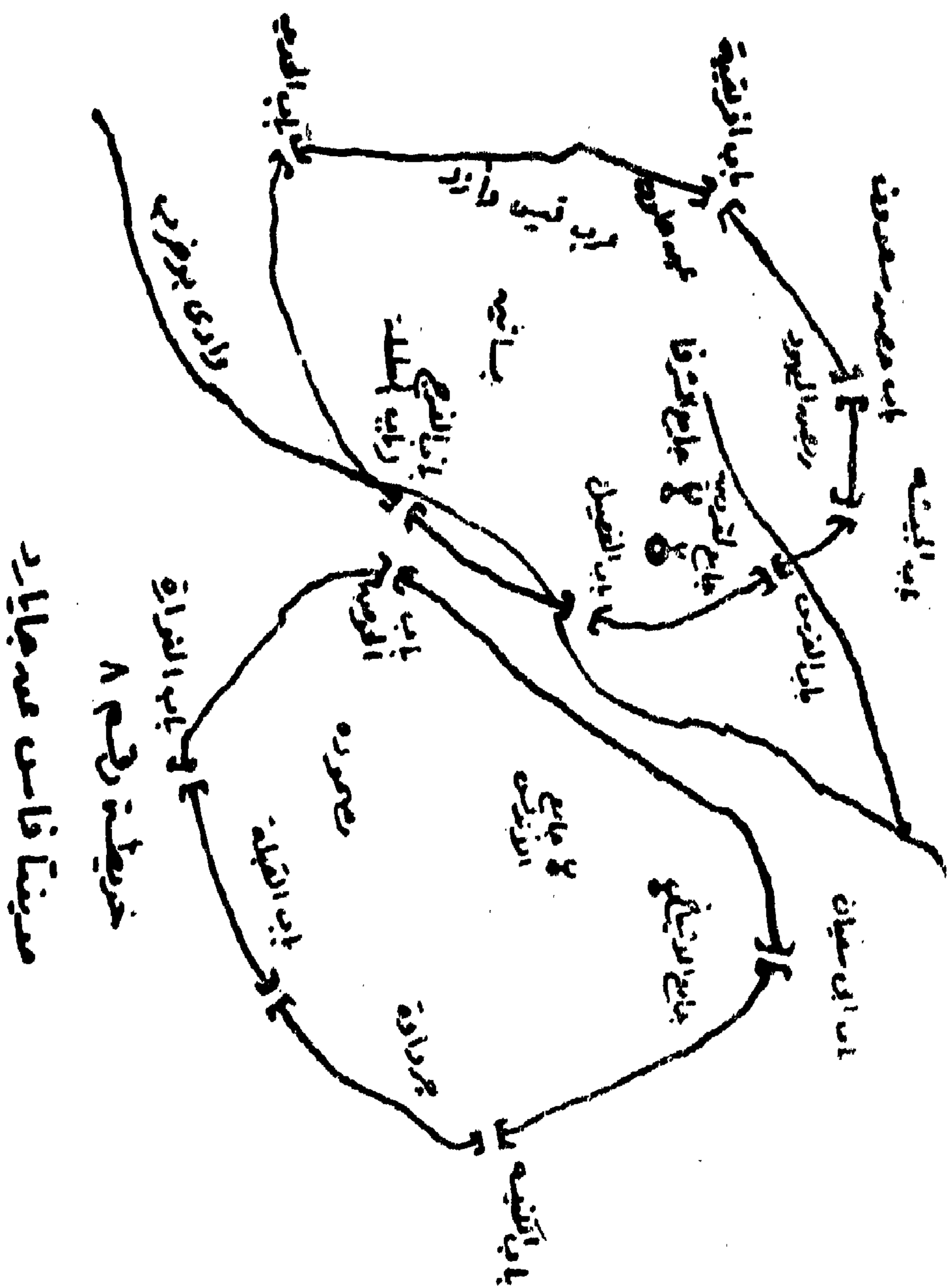


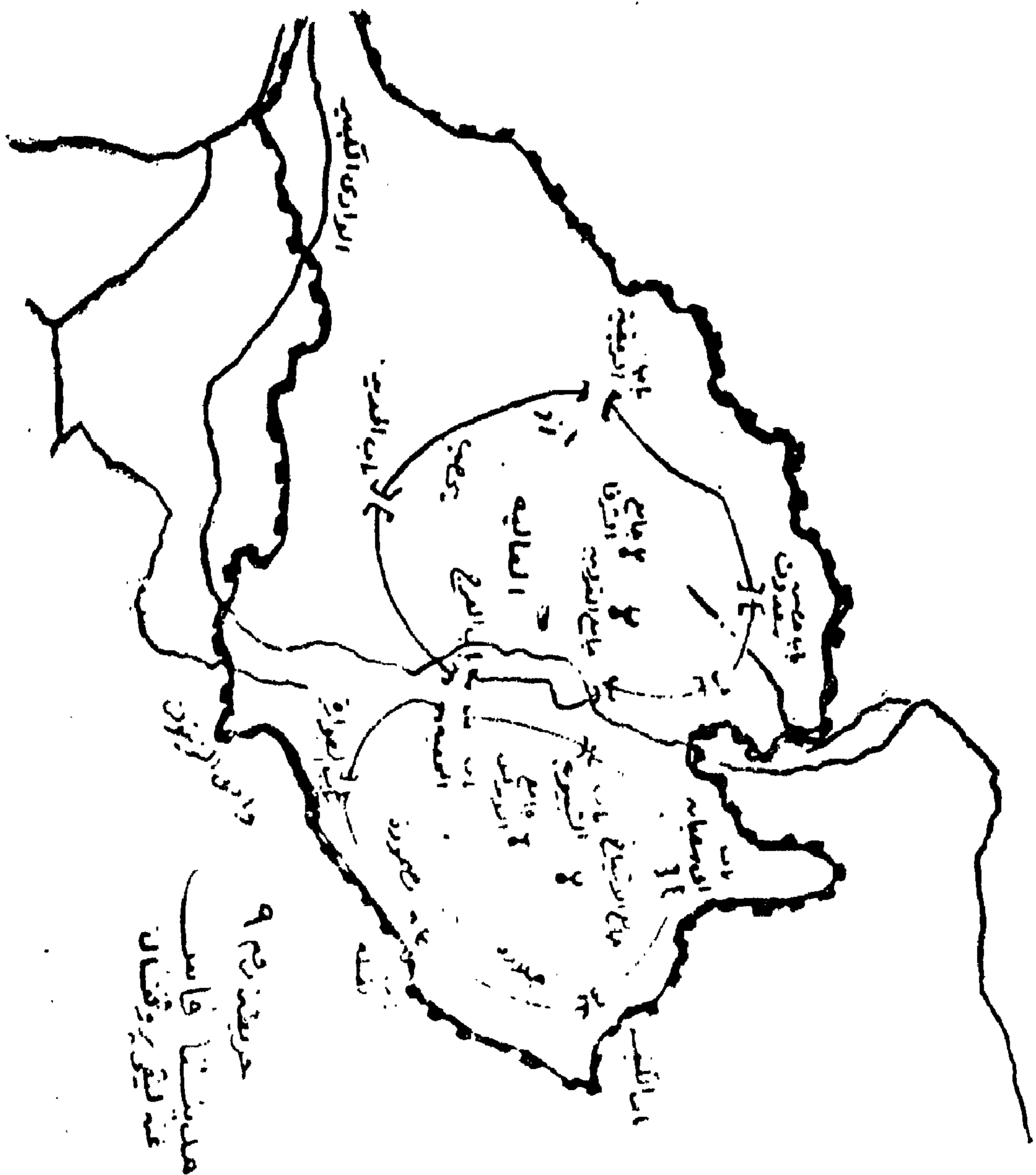
بلاد المغرب

درخبره جلد ٢٠

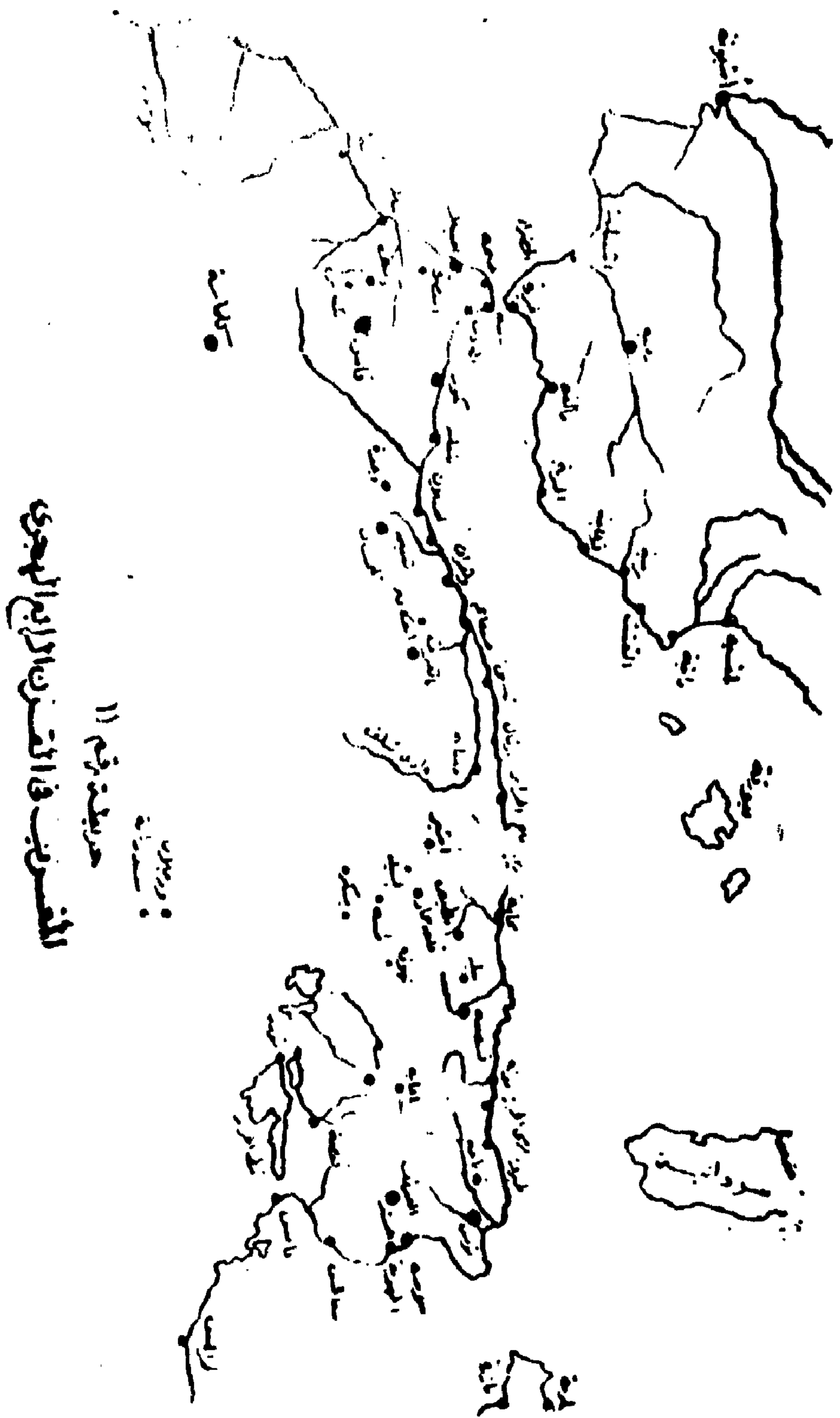


خريطة رقم ١
 مملكة المغربية في المغرب العربي الأقصى

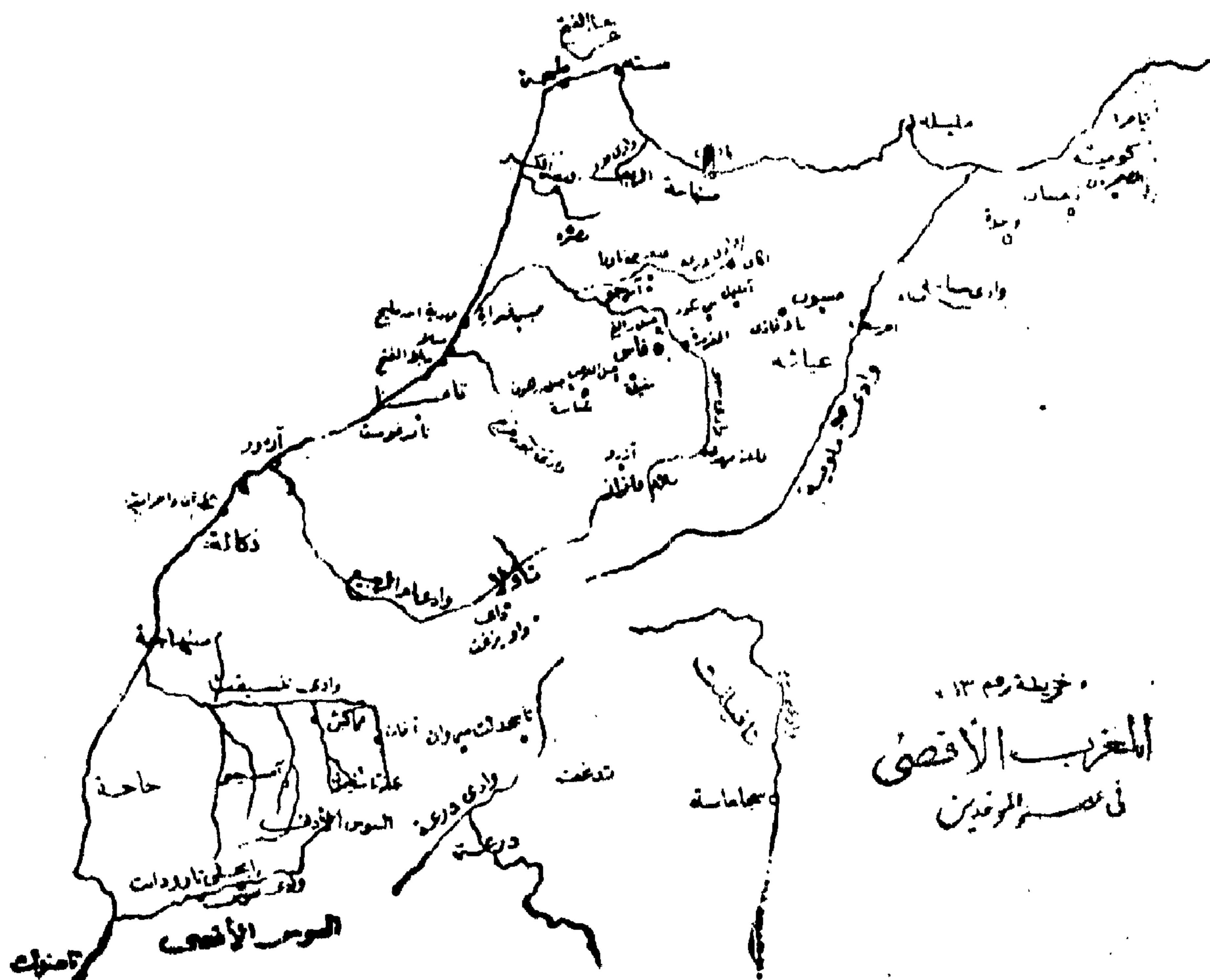




حریقه رسم ۹
هدیه شما فام
عنه لیس بر قفسان



البحر العربى
البحر الأحمر
البحر الأبيض المتوسط
البحر الأسود
البحر القزوين
البحر الهندي
البحر الصينى
البحر اليابانى
البحر الكورى
البحر الفلبينى
البحر الصينى الجنوبي
البحر الصينى الشمالي
البحر الصينى الشرقي





قائمة بالمصادر والمراجع العربية والأجنبية

(أ) المصادر

- ١- ابن الأبار: (ت ٦٥٨ هـ / ١٢٦٠ م) :
(أ) الحلة السراء . جزآن ، تحقيق حسين مؤنس سنة ١٩٦٣ م القاهرة .
(ب) التكملة لكتاب الصلة . جزآن نشر كوديرا طبعة مدريد سنة ١٨٨١ ، وطبعة القاهرة ١٩٥٩ م ضمن المكتبة الأندلسية .
(جـ) المعجم في أصحاب القاضي الإمام أبي علي الصديقي القاهرة ١٩٦٧ م دار الكتاب العربي للطباعة والنشر .
- ٢- ابن الأثير: (ت ٦٣٠ هـ / ١١٥٤ م) :
- كتاب الكامل في التاريخ ، طبعة القاهرة في سنة ١٣٠٣ هـ .
- ٣- الإدريسي: (٥٤٨ هـ / ١١٥٤ م) .
- وصف المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس .
- « مستخرج من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق » .
- طبعة ليدن سنة ١٨٦٦ م بعناية دوزي ودي غوي .
- ٤- ابن أبي أصيبعة: (ت ٦٧٧ هـ / ١٢٧٨ م) .
- عيون الأنباء في طبقات الأطباء - ط بيروت ١٩٦٥ م .

- ٥- الأندلسي : أبو عبد الله محمد بن محمد :
- الحل السندسية في الأخبار التونسية ، الطبعة الأولى تونس ١٢٨٧ م .
- ٦- الباجي : الشيخ أبو عبد الله محمد المسعودي :
- الخلاصة النقية في أمراء إفريقية ، تونس ١٣٢٣ هـ .
- ٧- ابن بشكوال : (٥٧٨ هـ / ١١٨٢ م) .
- كتاب الصلة في تاريخ أئمة الأندلس وعلمائهم ومحدثيهم وفقهائهم وأدبائهم تحقيق عزت عطار الحسيني ، طبعة القاهرة سنة ١٩٥٥ م .
- ٨ - البيهقي : أبو بكر الصنهاجي (كان حياً في النصف الثاني من القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي) :
- كتاب أخبار المهدي بن تومرت ، وابتداء دولة الموحدين ، نشر وتحقيق ليفي بروفنسال سنة ١٩٢٨ م . نشره عبد الوهاب بن منصور بعد ذلك بالرباط سنة ١٩٧١ م .
- ٩- ابن جبير : (ت ٦١٤ هـ / ١٢١٧ م) :
- رحلة ابن جبير ، بيروت سنة ١٩٤٩ م .
- ١٠- الجزنائي :
- كتاب زهرة الأس في بناء مدينة فاس . نشر الفريد بيل الجزائر سنة ١٩٢٣ م .
- ١١- الحميري : (ت أواخر القرن ٩ هـ / ١٥ م) :
- كتاب الروض المعطار في خبر الأقطار . نشر ليفي بروفنسال طبعة القاهرة سنة ١٩٣٧ م .
- ١٢- ابن الخطيب : (ت ٧٧٦ هـ / ١٣٧٤ م) :
- (أ) أعمال الأعلام فيمن بويغ قبل الاحتلال من ملوك الإسلام ، القسم الثاني ، تحقيق ونشر ليفي بروفنسال ، بيروت ١٩٥٦ م .

(ب) أعمال الأعلام فيمن بويغ قبل الاحتلال من ملوك الإسلام ، القسم الثالث ، تحقيق ونشر أحمد مختار العبادي ومحمد إبراهيم الكتاني بعنوان « تاريخ المغرب في العصر الوسيط » الدار البيضاء ١٩٦٤ م .

(ج) الإحاطة في أخبار غرناطة . تحقيق محمد عبد الله عنان القاهرة ١٩٥٦ م ، وطبعة ١٩٦٤ م .

١٣- ابن خلدون : (ت ٨٠٨ هـ / ١٤٠٥ م) :

- كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر ، ٧ أجزاء طبعة جديدة عن طبعة بولاق سنة ١٢٨٤ هـ .

١٤- ابن خلكان : (ت ٦٨١ هـ / ١٢٨٢ م) .

- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان . طبعة القاهرة سنة ١٢٩٩ هـ وطبعة ١٩٥٠ م .

١٥- ابن أبي دينار : (ت ١١١٠ هـ / ١٦٩٨ م) :

- المؤنس في أخبار إفريقية وتونس ، طبعة ١٢٨٦ هـ .

١٦- ابن الزبير :

- كتاب صلة الصلة ، نشر ليفي بروقنسال الرباط سنة ١٩٣٨ م .

١٧- ابن أبي زرع : (ت نحو منتصف القرن ٨ هـ / ١٤ م) .:

- الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس ، نشر كارل يوحن نورتبرغ ، أوبسالة ١٨٤٣ م .

١٨- الزركشى :

- تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية . تونس سنة ١٢٨٩ هـ .

١٩- ابن زيدان : عبد الرحمن بن محمد :

إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس ، ٥ أجزاء طبعة الرباط
سنة ١٩٤٩ م .

٢٠- زيني دحلان : أحمد بن السيد زيني دحلان .

- الفتوحات الإسلامية ، جزآن ، المطبعة الحسينية بمصر .

٢١- ابن سعيد : (ت ٦٨٥ هـ / ١٢٨٧ م) .

(أ) المغرب في حلل المغرب ، تحقيق ونشر شوقي ضيف ، طبعة القاهرة سنة
١٩٥٣ م ، وطبعة ١٩٦٤ م .

(ب) الغصون الياقة في محاسن شعراء المائة السابعة . تحقيق إبراهيم الإبياري ،
نشر دار المعارف بمصر سنة ١٩٤٥ م .

٢٢- ابن صاحب الصلاة : (كان حيا سنة ٥٩٤ هـ / ١١٩٨ م) :

- كتاب المن بالإمامة على المستضعفين بأن جعلهم الله أئمة وجعلهم الوارثين ،
تحقيق عبد الهادي التازي . بيروت سنة ١٩٦٤ م .

٢٣- ابن صاعد : (ت ٤٦٢ هـ) .

- كتاب طبقات الأمم ، مطبعة السعادة بمصر .

٢٤- الصفاقسي : محمود بن سعيد بن مقديش .

- نزهة دائرة الأنظار في علم التواريخ والأخبار ، الجزء الأول تونس سنة ١٣٢١ هـ

٢٥- الضبي : (ت ٥٩٩ هـ / ١٢٠٣ م) .

- بغية الملتبس في تاريخ أهل الأندلس وعلمائها وأمرائها وشعرائها وذوى النباهة
فيها ومن دخل إليها أو نزح عنها ، ضمن المكتبة الأندلسية .

٢٦- ابن عذارى : (كان حيا سنة ٧١٢ هـ / ١٣١٢ م) .

(أ) البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب . الجزء الرابع تحقيق إحسان عباس ،
بيروت سنة ١٩٦٧ م .

(ب) البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب . القسم الثالث ، تحقيق أمبروثو
هويثي ميرندا ومحمد بن تاويت وإبراهيم محمد الكتاني طبعة تطوان
سنة ١٩٦٠ م .

٢٧- ابن غازي : أبو عبد الله محمد بن أحمد بن محمد بن علي (ت ٩١٩ هـ) :

- الروض الهتون في أخبار مكناسة الزيتون ، طبع الحجر مغربي .

٢٨ - الغبريني : الشيخ أبو العباس أحمد بن أحمد بن عبد الله (ت ٧١٤ هـ /
١٣١٥ م) .

- عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية ، نشر محمد
ابن أبي شنب الجزائر ١٣٢٨ هـ .

٢٩- ابن القاضي : أحمد بن محمد بن محمد :

- جذوة الاقتباس فيمن حل من الأعلام بمدينة فاس ، طبع الحجر فاس
سنة ١٣٠٩ هـ .

٣٠- ابن القطان : (كان حيا في منتصف القرن السابع الهجري / الثالث
عشر الميلادي) .

- نظم الجمان من أخبار الزمان ، نشر محمود علي مكي ، تطوان ١٩٦٤ م .

٣١- القفطي : (ت ٦٤٦ هـ / ١٢٤٨ م) :

- أخبار العلماء بأخبار الحكماء طبعة ١٣٦١ هـ بمصر .

٣٢- القلقشندى : (ت ٨٢١ هـ / ١٤١٨ م) :

- صبح الأعشى فى صناعة الإنشا ، الجزء الخامس ، طبعة دار الكتب الخديوية ،
المطبعة الأميرية ١٣٣٣ هـ / ١٩١٥ م .

٣٣- المراكشى : (كان حيا فى النصف الأول من القرن السابع الهجرى / الثالث
عشر الميلادى) :

- المعجب فى تلخيص أخبار المغرب ، نشر محمد سعيد العريان ، ومحمد العربى
العلمى ، القاهرة سنة ١٩٤٩ م .

٣٤- المقرئ : (ت ١٠٤١ هـ / ١٦٣١ م) .

(أ) نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، وذكر وزيرها لسان الدين بن
الخطيب ، عشرة أجزاء تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ، القاهرة
١٣٠٢ هـ . عشرون جزءا ، مطبوعات دار المأمون ١٩٣٦ م .

(ب) أزهار الرياض فى أخبار القاضى عياض . ثلاثة أجزاء نشر مصطفى السقا
وإبراهيم الإبيارى وعبد الحفيظ شلبى ، القاهرة ١٩٤٢ م .

٣٥- ابن المؤقت : محمد بن محمد بن عبد الله :

- السعادة الأبدية فى التعريف بمشاهير الحضرة المراكشية ، جزءان طبع الحجر
مراكش سنة ١٣٣٥ هـ .

٣٦- مؤلف مجهول :

- الحلل الموشية فى ذكر الأخبار المراكشية ، طبع الرباط ١٩٣٦ م .

٣٧- مؤلف مجهول :

- الذخيرة السنية فى تاريخ الدول المرينية ، طبع الجزائر سنة ١٩٢٠ م .

٣٨ - مؤلف مجهول : (كان حيا في النصف الأول من القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي) :

- كتاب الطبيح ، نشر وتحقيق أمروثو هويثي ميراندا . مجلة مدريد للدراسات الإسلامية ، المجلدان التاسع والعاشر سنة ١٩٦١ - ١٩٦٢ م .

٣٩ - الناصري : أبو العباس أحمد بن خالد (ت ١٣١٥ هـ / ١٨٩٢ م) :

- الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى . الجزء الثاني والثالث تحقيق جعفر الناصري ومحمد الناصري . الدار البيضاء سنة ١٩٥٤ م .

٤٠ - النباهي : أبو الحسن المالقى (ت أواخر القرن الثامن الهجري)
(الرابع عشر الميلادي) :

- المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا . نشر ليفي بروفنسال القاهرة ١٩٤٨ م .

٤١ - الونشريشي : أبو العباس أحمد بن يحيى بن محمد التلمساني : (ت ٩١٤ هـ / ١٥٠٨ م) .

- أسنى المتاجر في بيان أحكام من غلب على وطنه النصارى ولم يهاجر وما يترتب عليه من العقوبات والزواج ، نشر وتحقيق حسين مؤنس ، مجلة مدريد للدراسات الإسلامية المجلد الخامس ١٩٥٧ م .

(ب) المراجع العربية

- ١- أحمد بن عامر :
- الدولة الصنهاجية . للدار التونسية للنشر سنة ١٩٧٢ م .
- ٢- أحمد لطفي عبد البديع :
- الإسلام في إسبانيا . المكتبة التاريخية الطبعة الأولى سنة ١٩٥٨ م بالقاهرة .
- ٣- أحمد مختار العبادي :
- دراسات في تاريخ المغرب والأندلس . الطبعة الأولى سنة ١٩٦٨ م .
- ٤- أرشيبالد لويس :
- القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط . ترجمة / أحمد محمد عيسى .
- ٥- أرنست رينان :
ابن رشد والرشدية . باريس ١٨٨١ م . ترجمة / عادل زعير .
- ٦- أنخل جنثالث بالنثيا .
- تاريخ الفكر الأندلسي . ترجمة / حسين مؤنس . القاهرة ١٩٥٥ م .
- ٧- ج . ترند واخرون :
- تراث الإسلام جزآن . ترجمة / زكى حسين وآخرين . لجنة الجامعيين لنشر العلم
بالقاهرة سنة ١٩٣٦ م .
- ٨- حسن أحمد محمود :
- قيام دولة المرابطين . صفحة مشرقة من تاريخ المغرب في العصور الوسطى . مكتبة
النهضة المصرية سنة ١٩٥٧ م .

٩- الحسن السائح :

- الحضارة المغربية عبر التاريخ . الدار البيضاء . الطبعة الأولى سنة ١٩٧٥ م .

١٠- حسن على حسن عبد الجواد :

- الحياة الإدارية والاقتصادية والاجتماعية في المغرب الأقصى في القرنين الخامس والسادس من الهجرة . رسالة دكتوراه من كلية دار العلوم بإشراف د / أحمد شلبي سنة ١٩٧٣ م .

١١- حنا الفاخوري و خليل الجر :

- تاريخ الفلسفة العربية . جزءان . دار المعارف بيروت .

١٢- خواد بخشي :

- الحضارة الإسلامية . ترجمة / على حسنى الخربوطلى . القاهرة ١٩٦٠ م .

١٣- ديلاسى أوليرى :

- الفكر العربى ومكانه فى التاريخ . ترجمة / تمام حسان ومراجعة مصطفى حلمى . وزارة الثقافة والإرشاد القومى . المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر .

١٤- سلفادور غومث نوغالس :

- الفلسفة الإسلامية وتأثيرها الحاسم فى فكر الغرب أثناء العصور الوسطى .

ترجمة / عثمان الكعاك . الدار التونسية للنشر سنة ١٩٧٧ م .

١٥- شارل أندريه جوليان :

(أ) تاريخ إفريقيا الشمالية . ثلاثة أجزاء ترجمة / محمد فرالى والبشير بن سلامة عن الطبعة الثانية ١٩٥٨ م التى نقّحها وزاد عليها روجيه لوتورنو . الدار التونسية للنشر سنة ١٩٧٨ م ١٣٩٨ هـ .

(ب) تاريخ إفريقيا . ترجمة / طلعت أباطة ومراجعة عبد المنعم ماجد . دار النهضة بمصر سنة ١٩٦٨ م .

١٦- شاخت وبوزورث :

- تراث الإسلام . ثلاثة أقسام . ترجمة ونشر المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب بالكويت ، ضمن سلسلة عالم المعرفة سنة ٩٨ - ١٣٩٩ هـ / ١٩٧٨ م .

١٧- الشخات السيد زغلول :

- السريان والحضارة الإسلامية . الهيئة المصرية العامة للكتاب . فرع الإسكندرية سنة ١٩٧٥ م .

١٨- طارو وجان جيروم :

- أزهار البساتين فى أخبار المغرب والأندلس على عهد المرابطين والموحدين . ترجمة وتعليق أحمد بلا فريج ومحمد الفاسى طبعة الرباط سنة ١٣٤٩ هـ .

١٩- عبد الله العراوى :

- تاريخ المغرب . محاولة فى التركيب . ترجمة / ذوقان قرقوط سنة ١٩٧٧ ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر .

٢٠- عبد الله على علام :

- الدولة الموحدية بالمغرب فى عهد عبد المؤمن بن على . دار المعارف بمصر سنة ١٩٧١ م .

٢١- عبد الله كنون :

- النبوغ المغربى فى الأدب العربى . الطبعة الثالثة . دار الكتاب اللبنانى سنة ١٩٥٧ م بيروت (٣ أجزاء) .

٢٢- عبد الرحمن على الحجى :

الحضارة الإسلامية في الأندلس . بيروت ١٩٦٩ م / ١٣٨٩ هـ .

٢٤- عثمان أمين :

- إحصاء العلوم للفارابى . الطبعة الثانية . دار الفكر العربى سنة ١٩٤٩ م .

٢٥- ليولد توريس بالباس :

- الفن المرباطى والموحدى . ترجمة / سيدي غازى . منشأة المعارف بالإسكندرية
سنة ١٩٧٦ م .

٢٦- ليفى بروفنسال :

(أ) الإسلام فى المغرب والأندلس . ترجمة / سيد محمود عبد العزيز سالم ومحمد
صلاح الدين حلمى . مراجعة أحمد لطفى عبد البديع . نشر مكتبة النهضة
بمصر .

(ب) نخب تاريخية جامعة لأخبار المغرب الأقصى . باريس ١٩٤٨ م .

٢٧- مانويل جوميث مورينو :

- الفن الإسلامى فى إسبانيا . ترجمة / أحمد لطفى عبد البديع وسيد محمود عبد العزيز
سالم . مراجعة جمال محمد محرز . الدار العربية للترجمة والنشر .

٢٨- محمد بيصار :

- فى فلسفة ابن رشد . الوجود والخلود . دار الكتاب العربى بمصر ١٣٧٣ هـ /
١٩٥٣ م .

٢٩- محمد عبد الله عنان :

(أ) دولة الإسلام فى الأندلس . القسم الأول والثانى من العصر الثالث . القاهرة
الطبعة الأولى ١٩٦٤ م .

(ب) الآثار الأندلسية الباقية في إسبانيا والبرتغال . القاهرة ، الطبعة الثانية ١٣٨١ هـ / ١٩٦١ م مؤسسة الخانجي .

٣٠- محمد المرزوقي :

- قابس تونس ١٩٦٢ . الناشر مكتبة الخانجي بمصر ، والمثنى ببغداد .

٣١- محمد ولد أدادة :

- مفهوم الملك في المغرب من انتصاف القرن الأول إلى انتصاف القرن السابع الهجري . دار الكتاب اللبناني سنة ١٩٧٧ م .

٣٢- محمود علي مكى :

- مدريد العربية . دار الكتاب العربى للطباعة والنشر بالقاهرة .

٣٣- محمود قاسم :

- دراسات في الفلسفة الإسلامية ، الطبعة الثالثة ، دار المعارف بمصر سنة ١٩٧٠ م .

٣٤- مراجع عقيلة الغناي :

(أ) قيام دولة الموحدين . الطبعة الأولى ١٩٧١ ، المكتبة الوطنية بينغازى . ليبيا .
(ب) سقوط دولة الموحدين ، منشورات جامعة بنغازى ليبيا ، الطبعة الأولى ١٩٧٥ م .

٣٥- نجاة باشا :

- التجارة في المغرب الإسلامى من القرن الرابع إلى القرن الثامن للهجرة ، منشورات الجامعة التونسية ١٩٧٦ م .

٣٦- يوسف أشباخ :

- تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين ترجمة / محمد عبد الله عنان . مجلدان القاهرة ١٩٤١ ، مجلد واحد القاهرة ١٩٥٨ م .

(ج) المراجع الأجنبية

- 1 - **Altamira. R** : A history of Spain from the beginnings to the present day. Translated by Muna Lee. Copyright 1949. by D. Van Nostrand Company Canand. Ltd.
- 2 - **Artz. F. B** : The mind of the middle ages, Newyork 1953 .
- 3 - **Darbour. N** : A Survey of north west Africa (The Maghrib) Oxford University press, London 1959 .
Barbour. N : Morocco, Thames and Hudson Lt. London 1965 .
- 4 - **Barker. E and Clark. G** : The European inheritance. 3 Volumes Oxford 1954 .
- 5 - **Bell. F.** : Les Benou Ghanga. Paris 1903 .
- 6 - **Bernard. L. and Hodges. T. B** : Readings in european history Newyork 1958 .
- 7 - **Cambridge Medieval History** : 8 Volumes, Cambridge 1936 .
- 8 - **Cantor. F. N** : The medieval world, 300 - 1300, Columbia University, Third printing 1964 .
Cantor. F. N : Medieval history, the life and death of a civilization, Columbia University, first Printing 1963. The Macmillan company, Newyork .
- 9 - **Chapman. C.E** : A history of Spain, Newyork 1931 .
- 10 - **Encyclopeadia Judaica**, Massadah publishing company Ltd. Jerusalem, Tel - Aviv, 1958 - 1959 .
- 11 - **Haskins. H. Ch** : Studies in medieval culture, Newyork 1929 .
- 1 2 - **Hayes. F. C. and Baldwin. W. M** : A history of Europe. The Macmillan company, Newyork, fifth printing 1959 .

- 13 - Hirschberg. J. W :** A history of the Jews in north Africa. V. I second revised-edition. Translated from the hebrew. Leiden 1974 .
- 14 - Hulme. M. E :** The middle ages. Newyork, Henry Haltanel comany 1936 .
- 15 - Ibars. A. P :** Valencie arabe, Valencia 1901 .
- 16 - Lafuente. M :** Historia general de Espana. T. III Y IV. Barcelona 1977 .
- 17 - Lea. Ch. H :** A history of the inquistion in spain. V. I, II . London . Macmillan company 1906 .
- 18 - Meakin. B :** The moorish empire, London, Newyork 1899.
- 19 - O'callaghan. F. J :** A history of medieval Spain, copyright 1975, Cornell University, Ithaca, Newyork.
- 20 - Painter. S :** A history of the middle ages. 284 - 1500, Newyork 1954 .
- 21 - Prestage. E :** Chivalry, members of king's college, London 1928 .
- 22 - Remiro G. M :** Historia de murcia musulmana, Zaragoze 1903 .
- 23 - Russel. B :** History of western philosoph. London, second impression 1947
- 24 - Scott. S. P :** A history of the moorish empire in Europe V. II, III philadelphia, London 1904 .
- 25 - Sephenson. G :** Medieval history (Europe from the second to the sixteenth century) Harper and brotheres publishers, Newyork and London .
- 26 - Thompson. W. J :** The middl ages, 300 - 1500, V. II, III printed in the United States of America, by the plimpon press .

(د) الدوريات

١ - إحسان عباس :

- نوازل ابن رشد . مجلة الأبحاث عن الجامعة الأمريكية ببيروت . المجلد ٢٢ ،
الأجزاء ٣ ، ٤ سنة ١٩٦٩ م .

٢ - أحمد الأهواني :

- الفلسفة في الأندلس . مجلة كلية الآداب ، مجلد ١٥ ، الجزء الأول مايو
سنة ١٩٥٣ م .

٣ - أحمد لطفي عبد البديع :

- التروبادور غرسية فرنانديث ، مجلة مدريد للدراسات الإسلامية المجلد الثاني
سنة ١٩٥٤ م .

٤ - أحمد المكناسي :

- دراسة تمهيدية عن الخزف الإسلامي القديم في المغرب مجلة تطوان ، العدد الثاني
سنة ١٩٥٧ م .

٥ - أرنولد شتيجر :

- التأثيرات والمصادر العربية في مؤلفات ألفونسو الحكيم العاشر . مجلة مدريد
للدراسات الإسلامية ، المجلد الثالث سنة ١٩٥٥ م .

٦ - أمبروثو هويثي ميراندا :

(أ) موقعة الأرك . مجلة مدريد للدراسات الإسلامية ، العدد الثاني سنة ١٩٥٤ م .

(ب) المطبخ الأندلسي المغربي خلال العصر الموحدى . مجلة مدريد للدراسات
الإسلامية ، العدد الخامس سنة ١٩٥٧ م .

٧- جون بكويث :

- أثر الفن الإسلامى فى الفن الغربى الحديث . مجلة الأبحاث تصدر عن الجامعة الأمريكية ببيروت العدد ١٣ ١٠ آذار سنة ١٩٦٠ م .

٨- حسين مؤنس :

(أ) الثغر الأعلى الأندلسى . مجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة المجلد الحادى عشر ، ج ٢ ديسمبر ١٩٤٩ م .

(ب) عقد بيعة بولاية العهد لأبى عبد الله المعروف بالخليفة الناصر الموحدى . . مجلة كلية الآداب . . بجامعة القاهرة ، المجلد الثالث عشر الجزء الثانى ديسمبر سنة ١٩٥٠ م .

(ج) نصوص سياسية عن فترة الانتقال من المرابطين إلى الموحدين . مجلة مدريد للدراسات الإسلامية ، المجلد الثالث سنة ١٩٥٥ م .

٩- خثو بوسك بيلا :

- الوثائق العربية المحفوظة فى كاتدرائية وشقة . . مجلة مدريد للدراسات الإسلامية ، العدد الخامس سنة ١٩٥٧ م .

١٠- خوسيه كامون أثنار :

- الأساليب الفنية المستمرة فى الفن الإسلامى . . . مجلة المعهد المصرى بمدريد للدراسات الإسلامية ، العدد الثالث ١٩٥٥ .

١١- خثو مياس بياكروزوا :

(أ) المؤلفات الأولى عن الاسطرباب فى إسبانيا العربية . مجلة المعهد المصرى بمدريد للدراسات الإسلامية ، العدد الثالث سنة ١٩٥٥ م .

(ب) كتاب الرّد على اليهود لرامون لل . مجلة المعهد المصرى بمدرّيد للدراسات الإسلامية المجلد الخامس ١٩٥٧ م .

(ج) نشاط الدراسات الفلكية فى الأندلس . . نفس الدورية والعدد .

١٢ - خوليان ريبيزا :

— المكتبات وهواة الكتب فى إسبانيا الإسلامية . . . ترجمة جمال محرز مجلة معهد المخطوطات العربية ، المجلدان الرابع والخامس سنة ١٩٥٨ - ١٩٥٩ م .

١٣ - رامون منندث بيدال :

(أ) إسبانيا حلقة اتصال بين المسيحية والإسلام . . ترجمة أحمد لطفى عبد البديع مجلة المعهد المصرى بمدرّيد للدراسات الإسلامية ، العدد الأول ١٩٥٣ م .

(ب) إسبانيا وإدخال العلوم العربية إلى الغرب . . . مجلة المعهد المصرى بمدرّيد للدراسات الإسلامية . المجلد الثالث ١٩٥٥ م .

١٤ - سعد زغلول عبد الحميد :

— العلاقة بين صلاح الدين وأبى يوسف يعقوب المنصور الموحدى . مجلة كلية الآداب بجامعة الإسكندرية . المجلدان السادس والسابع سنة ١٩٥٢ - ١٩٥٣ م .

١٥ - الصديق بن العربى

— طوائف وشخصيات مسيحية بالمغرب . . مجلة تطوان المغربية العدد الأول سنة ١٩٥٦ م .

١٦ - عبد العزيز بن عبد الله :

(أ) العربية لغة العلم والحضارة . مجلة المعهد المصرى بمدرّيد للدراسات الإسلامية ، العدد الخامس سنة ١٩٥٧ م .

(ب) البحرية المغربية والقرصنة . مجلة تطوان المغربية العددان الثالث والرابع سنة ١٩٥٨ - ١٩٥٩ م .

(ج) تطور الفن في عهد الموحدين . مجلة البيئة ، السنة الأولى ، العدد التاسع
شعبان ١٣٨٣ هـ / يناير ١٩٦٣ م .

١٧ - ليولد توريس بالباس :

- الأبنية الإسبانية الإسلامية . ترجمة عليّة إبراهيم العناني . مجلة المعهد المصري بمدرّيد
للدراستات الإسلامية ، العدد الأول سنة ١٩٥٣ م .

١٨ - الأب مانويل ألونسو ألونسو :

- ابن سينا وآثاره الأولى في العالم اللاتيني . ترجمة تاج الدين أبو زيد . . مجلة المعهد
المصري بمدرّيد للدراستات الإسلامية . . العدد الأول سنة ١٩٥٣ م .

١٩ - محمد المنوني :

- تاريخ المصحف الشريف بالمغرب ، مجلة معهد المخطوطات العربية . المجلد
الخامس عشر ، ربيع الأول سنة ١٣٨٩ هـ / مايو سنة ١٩٦٩ م .

٢٠ - نيفل باربر :

(أ) سفارة جيون ملك انجلترا إلى محمد الخامس ملك المغرب . ترجمة محمد ابن
تاويت . مجلة تطوان المغربية العدد الخامس سنة ١٩٦٠ م .

(ب) أخبار الأندلس في المدونات الإنجليزية في القرنين الثاني عشر والثالث عشر
الميلاديين ، مجلة المعهد المصري بمدرّيد للدراستات الإسلامية . المجلد الثالث
عشر سنة ١٩٦٥ - ١٩٦٦ م .

الكشاف العام

١ - الأعلام			
٢٢٩ ، ٢٢٧ ، ٢٢٦	إسحاق بن محمد		
٢٠٥	أرسطاليس		
١٦٦	الاسكندر	٢٣١ ، ٢٣٠	إبراهيم الزويلي
٤٩	إسماعيل بن إسحاق	٢٤	إبراهيم بن سفيان
	المنادى	٢٥٧	إبراهيم بن أبي يوسف
٨٩ ، ٦٨ ، ٦٧ ، ٦٦	إسماعيل بن محمد	٢٤٢	إبراهيم بن إبراهيم بن
٩٢ ، ٩١ ، ٩٠	ابن إسماعيل		مطرف المرى
١٩٨ ، ١٩٧	إسماعيل بن يحيى	٤٩	أحمد بن سعيد بن الدب
	الهزرجي	٥٨	أحمد بن عبد الملك
٤٢	أشهب		ابن شهيد
٢٨٥	أفريقش	١٧٢	أحمد بن عطية
٧٨	ابن الأفطس	١٨١	أحمد بن قسى
٩٦ ، ٤٢	امرىء القيس	٢٢٣	أحمد بن محمد
٥٦	أميرة بنت الحسن	٢٢٣	أحمد بن مضاء
١٩	أيوب	٢٦٠	أحمد بن منيع
٢٠١	البخارى	٦٧ ، ٦٦	أحمد بن موسى
٢٣٣	البراذعى		(ابن بقية)
٤٥	ابن برطل	٢٢٩ ، ٢٢٨	أحمد الناصر
٢٣٣	البزاز	٢٠٦	إدريس بن إبراهيم
١٥٥ ، ١٥٤	ابن بسام	٦٧ ، ٦٦ ، ٥٦ ، ٥٥	إدريس بن على
٣٢	أبو البسام	٧١ ، ٧٠ ، ٦٩ ، ٦٨	
٢٣٤	بطرو بن الريق	٨٨	
٢٢٣	بقى بن مخلد	١١٠ ، ١٠٩ ، ٧٦	الأدفنش
١٥٨	أبو بكر الطرطوشى	١٢٠ ، ١١٩ ، ١١٨	
٤١	أبو بكر بن دريد	٢١٣ ، ٢١٢ ، ١٢١	
٢٠٣	أبو بكر بن الصائغ	٢١٨ ، ٢١٧ ، ٢١٦	
١٠٥ ، ١٠٤ ، ١٠٢	أبو بكر بن عمار	٢٣٩ ، ٢٣٨ ، ٢٣٧	
١٠٨ ، ١٠٧ ، ١٠٦	•	٢٦٥ ، ٢٥٢ ، ٢٥١	
١١١ ، ١١٠ ، ١٠٩		٢٦٨ ، ٢٦٧ ، ٢٦٦	
١١٤ ، ١١٣ ، ١١٢		٣٠٢ ، ٢٩٩ ، ٢٩٨	
١١٥		٣٠٣	

٢٠٦	جعفر بن أحمد	٢٤٢	أبو بكر بن هانيء
	(ابن محشوة)	٢٠	بلج بن بشر
٧٧ ، ٦٥ ، ٦٤ ، ٦٠	جهور بن محمد بن	١٥٢	ابن البنى
	جهور	٢٦٧ ، ٢٦٦	الببوج
٢٨٥	حام بن نوح	٩٢ ، ٩٣ ، ١٧٢ ،	تاشفين بن يوسف
٢٨٥	ابن حبيب	١٧٣	
١٩ ، ١٨	حبيب بن أبي عبيدة	٢١ ، ١٩٩	تميم الدارى
	الفهرى	٢٩٠ ، ٢٩١ ، ٢٩٢	تميم بن المعز
٦٧	أبو الحجاج	٨٧ ، ١٥٦ ، ١٥٧ ،	ابن تومرت
٢٠٨	حجاج بن إبراهيم	١٥٨ ، ١٥٩ ، ١٦٠	
١٢٥	حدير بن واسنو	١٦١ ، ١٦٢ ، ١٦٣	
٤٩ ، ٤٢ ، ٤١ ، ٣٧	ابن حزم	١٦٤ ، ١٦٥ ، ١٦٦	
٥٨ ، ٥٢ ، ٥١		١٦٧ ، ١٦٨ ، ١٦٩	
٢٠	حسام بن ضرار	١٧٠ ، ١٧١ ، ١٧٢	
	(أبو الخطار الكلبي)	١٧٩ ، ١٨٠ ، ١٩٣	
٤٢	حسان بن مالك	١٩٤ ، ١٩٥ ، ١٩٦	
٢١٩ ، ٢٢٠ ، ٢٢١ ،	أبو الحسن الملقى	١٩٧ ، ١٩٨ ، ١٩٩	
٢٢٢		٢٠٠ ، ٢١٤ ، ٢١٥	
١١٩ ، ٧٤	الحسن بن رثيق	٢٢٠ ، ٢٢١ ، ٢٣٣	
١٥٧ ، ٥٦ ، ٤٨	الحسن بن على	٢٣٤ ، ٢٤١ ، ٢٤٢	
	ابن أبي طالب	٢٤٣ ، ٢٤٤ ، ٢٥٨	
٢٢٣	أبو الحسن بن مغن	٢٥٩ ، ٢٦٧ ، ٢٦٨	
٦٨ ، ٦٦	حسن بن يحيى	٢٦٩ ، ٢٦٩ ، ٢٧٧	
٢٠٦	أبو الحسين الهوزنى	٢٧٨ ، ٢٧٩ ، ٢٨٠	
٢٦٠	الحسين بن على	٢٩٢ ، ٢٩٣ ، ٢٩٤	
	ابن أبي طالب	٢٩٥	
٧٢ ، ٧١ ، ٦٦	الحسينين	٤٥	الثعلبي (أبو منصور)
٦٧	ابن حفصون	٤١	ثعلب (غلام)
٣٨ ، ٣٦ ، ٣٥ ، ٣٠	الحكم بن هشام	٢٦٢ ، ٢٦٣	ابن الجزيرة
	(الرضى)	٥ ، ٢٥٠ ، ٢٥١ ،	أبو جعفر (الحميري)
		٢٥٢ ، ٢٥٣	

٩٧	زهير	٦٥	حمامة
٧٧	زهير العامري	٤٩ ، ٤٢ ، ٤١ ، ٣٧	الحميدى
٢٥٠	ابن زياية	٧٢ ، ٥١ ،	
١٩	زياد بن النابغة	٢١	حنش بن عبد الله
٢٣٣	ابن أبى زيد		الصنعانى
٢٠٠	زينب بنت موسى	٣٤ ، ٣٣	أبو حنيفة
٢٣٣	سخنون	٥٨ ، ٢٩	حوراء
٢٤	سعد بن أبى وقاص	٢٠٣	حى بن يقظان
٢٥٩ ، ٢٥٨	أبو سعيد بن جامع	٢١٣	حيان
٥٩	سعيد بن المنذر	١٩٤	ابن خراسان
٤٩ ، ٤٨ ، ٤٧ ، ٤٦	سليمان بن الحكم	٢٨٣	ابن خرداذبة
	ابن سلمان	٨٧	دارا بن دارا
١٩	سليمان بن داود	٥٤ ، ٥١	أبو داود الظاهري
٢٥٠ ، ٢٤٩ ، ٢٤٧	سليمان بن عبد الله بن	٢٤	داود بن أبى هند
	عبد المؤمن	١٩٥ ، ١٩٤	ابن الدوقة
١٩	سليمان بن عبد الملك	٢٧	راح
٧٥	سليمان بن هود	١٢٦ ، ١١٥	الراضى
١٩	السمح بن مالك	١٥٥	ابن رذمير
	الخولانى	٢٥٣ ، ٢٠٦ ، ٢٠٥	ابن رشد
٤٠	أبو السرى	٢٥٥ ، ٢٥٤ ،	
١٨٤	ابن سيد	١٨٨ ، ١٨٦ ، ١٨٥	الرصافى
٢٥١	سيبويه	١٩٠ ، ١٨٩ ،	
١٤٧ ، ١٢٦ ، ١٢٥	سير بن أبى بكر بن	١٨٠	ابن الريمى
١٤٩ ، ١٤٨	تاشفين -	٢١٤ ، ٢١٣	ابن الرند
٥١	الشافى	٢٥٩	ريحان الخصى
٢٤	شعبان	٢٢١ ، ٢٢٠ ، ٢١٩	ابن الريق
٤٢	الشماخ بن ضرار	٢٦٤	الزبير بن نجاح
٤٣ ، ٤٢ ، ٣٩ ، ٣٨	صاعد بن الحسن الربعى	٣٠	زخرف
٤٤		٢٦٨	زكريا بن يحيى
٣٦	صبح	٢٥٦ ، ١٣٨ ، ١٣٧	زهير بن عبد الملك

٢٠٦	أبو عبد الرحمن الطوسي	١٧٣	ابن الصحراوية
٥٩	عبد الرحمن (الناصر)	١٨ ، ١٧	طارق بن زياد
١٩	عبد الرحمن بن عبد الله	٣٢ ، ٣١	طالوت
	العكي	٣٠٠ ، ٥١	الطبري
٢١	عبد الرحمن بن عبد الله	٢٠٥ ، ٢٠٤ ، ٢٠٣	ابن طفيل
	الغافقي	١٨٤ ، ١٨٣	ابن الطليق
٢٦١	عبد الرحمن بن عبد	٩٥	ابن الطيار
	المؤمن	٢٤٢ ، ٢٤١ ، ١٠١	أبو الطيب
٥٦	عبد الرحمن بن عطف	٢٥٢ ، ٢٥١	
	اليفرني	٤٩	ظبية
١٧٩	عبد الرحمن بن عياض	٦٠	عائب
١٧٣	عبد الرحمن القالمى	٢٧٠	العاضد
	عبد الرحمن بن محمد	٥٠	العباس بن الأحنف
٥٩	ابن السليم	١٧٤	عبد الله بن جبل
	عبد الرحمن بن محمد	٢٤٥	أبو عبد الله بن حجاج
٤٦	ابن أبى عامر	١٧٤	عبد الله بن عبد الرحمن
	عبد الرحمن بن موسى		المالقي
٢٥٦ ، ٢٢٢	ابن يوجان	٨٨	عبد الله بن على الهوزنى
٥٧	عبد الرحمن بن هشام	٢١	عبد الله بن عمر
٢٣٧ ، ٢٣٦ ، ٢٣٥	عبد الرحمن بن يوسف		ابن الخطاب
٢٤٠ ، ٢٣٩ ، ٢٣٨	...	٢١	عبد الله بن عمر
٢٥٠ ، ٢٤٢ ، ٢٤١			ابن العاص
٢٥٥ ، ٢٥٤ ، ٢٥٣		٢٢٣	أبو عبد الله بن عياش
٢٥٦		١٨	عبد الله بن موسى
٢٨ ، ٢٧ ، ٢٥	عبد الرحمن بن معاوية		ابن نصير
١٧٢	عبد السلام الكومى	٩٤	عبد الجليل بن وهبون
١١٩	ابن عبد العزيز بن أبى بكر	٢٣٠ ، ٢٢٩ ، ٢٢٨	عبد الحق بن عبد
			الرحمن الأزدرى
١٩ ، ١٨	عبد العزيز بن موسى	٢٤٩ ، ٢٤٨ ، ٢٤٧	ابن عبد ربه
	ابن نصير	٢٥٠	

٢٧٤ ، ٢٧٣ ، ٢٧٢	عبد العزيز بن أبي يعقوب
٢٤	ابن عبد الغافر الفارسي
٨٤ ، ٧٨	عبد المجيد بن عبدون
٢٠٢	أبو محمد عبد الملك
	الشذوني
٣٨	عبد الملك بن إدريس
	الجزيري
٤٦	عبد الملك بن أبي عامر
٧٦	عبد الملك بن عبد العزيز
٨٥ ، ٨٤	عبد الملك بن أبي العلاء
٤٠	عبد الملك بن المنصور
٢٠	عبد الملك بن قطن
	الفهري
١٦٠	عبد المنعم بن عشير
١٦٠ ، ١٥٩ ، ١٥٨	عبد المؤمن بن علي
١٦٣ ، ١٦٢ ، ١٦١	
١٦٩ ، ١٦٨ ، ١٦٧	
١٧٢ ، ١٧١ ، ١٧٠	
١٧٥ ، ١٧٤ ، ١٧٣	
١٧٨ ، ١٧٧ ، ١٧٦	
١٨٤ ، ١٨٣ ، ١٧٩	
١٩٠ ، ١٨٩ ، ١٨٥	
١٩٣ ، ١٩٢ ، ١٩١	
١٩٦ ، ١٩٥ ، ١٩٤	
٢٠٦ ، ٢٠٥ ، ١٩٧	
٢٠٩ ، ٢٠٨ ، ٢٠٧	
٦ ، ٥	عبد الواحد المراكشي
١٤٩ ، ١٤٨ ، ١٤٧	ابن عبدون
١٥٢ ، ١٥١ ، ١٥٠	
١٥٥ ، ١٥٤ ، ١٥٣	
١٥٦	
١٦٦	أبو عبيد البكري
٥٥	ابن أبي عثمان
٢١٥ ، ٢١٤ ، ٣٤	عثمان بن عفان
٣٤	العرجي
١٦٠	العز بن المنصور
٢٠	عقبة بن الحجاج
١١٦ ، ٦٥	ابن عكاشة
٢٢٩ ، ٢٢٨ ، ٢٢٧	علي بن إسحاق
٢٤٣ ، ٢٤٤ ، ٢٤٥	علي بن جرمون
٢٤٧ ، ٢٤٦	
٨٧ ، ٥٤ ، ٤٩ ، ٤٨	علي بن محمود
٢١	علي بن أبي طالب
٧٧	علي بن مجاهد
٢٤٧ ، ١٥١ ، ١٥٢	علي بن يوسف
١٥٣ ، ١٦٢ ، ١٦٣	
١٦٤ ، ١٦٥ ، ٢٢٥	
٢٢٦ ، ٢٢٧	
١٧	العلج
٤١ ، ٤٠	أبو العلاء
١٥٠	أبو العلاء بن سليمان
٢٤٠	عماد الدين
٤١ ، ٣٥ ، ٣٤ ، ٣٣	أبو عمر
٤٥	
٣٣	عمر بن الخطاب
٢٢٢ ، ٢٢١	عمر بن أبي زيد الهنتائي
١٦٨	عمر بن عبد الله
	الصنهاجي
٢٢٢	عمر الخصي
١٩	عنيسة بن سحيم الكلبي
٢٠٦ ، ١٧٣	عياش بن عبد الملك
	ابن عياش

١٣١ . ١٣٠ . ١٢٩	ابن اللبانة	٨٨	عيسى بن الحجاج
١٣٤ . ١٣٣ . ١٣٢		٢٠٩ . ٢٠٨ . ٢٠٧	عيسى بن عمران
١٣٧ . ١٣٦ . ١٣٥		٣٤	عيسى بن موسى
١٤٠ . ١٣٩ . ١٣٨		١٥٧	الغزالي
١٤٢ . ١٤١		١٩	الغمر بن عبد الرحمن
١٨	لذريق		ابن عبد الله
١٩٥ . ١٩٤	لوجار بن لوجار	٥٣	فتحا
٥٨	ليعلی بن أبي زيد	١٤٢	فخر الدولة
٢٦٦	ليون	١١٨	أبو فراس
٥٤ . ٣٢ . ٣١	مالك بن أنس	٢٨٤ . ٢٨٣ . ٥١	الفرغانی
٢٠٢ . ٢٠١		٤٥	فريهة بنت يحيى
١٦٣ . ١٦٢	مالك بن وهيب	٢١	فضالة بن عبيد
١٦٧ . ١١٩ . ١١٨	المأمون	٣٠٢ . ٣٠١ . ٢٨٣	ابن فياض
٦٥	المأمون بن ذى النون	٢٣٨	أبو القاسم بن بقى
١١٤ . ١١٣ . ١١٢	ابن مبارك	٥٥ . ٥٤ . ٤٩ . ٤٨	القاسم بن حمود
٢١١	المبارك بن عبد الجبار	٦٧ . ٥٨ . ٥٧ . ٥٦	
٢٥٩ . ١٣٢	مبشر العامري	٨٧ . ٧٧ . ٦٩ . ٦٨	
٢٥١	المتنبى	٩٤ . ٩٣ . ٨٨	
٨٣ . ٧٨ . ٧٤	المتوكل	٩٣ . ٩٢ . ٧١	القاسم بن محمد
٢٤	محمد بن أحمد		ابن القاسم
	ابن صاعد		القالي
٧١ . ٧٠ . ٦٩	محمد بن إدريس	٢٠٦ . ٣٩ . ٣٤	
٣٧	محمد بن إسحاق	٢٠٧	
٨٨ . ٧٧ . ٦٦ . ٥٥	محمد بن إسماعيل	٧٨	ابن قتيبة
	ابن عباد	٢٤	قراقش
٢١	محمد بن أوس	٢٨٧ . ٢٨٦	قسطنطين بن هيلان
٣٧	محمد بن بشير	٢٦٩	قمر
٦٥	محمد بن جهور	٢٠٣ . ٢٠٢ . ١٠١	كافور
١٨٣	محمد بن حبوس	٢٢١ . ٢٢٠ . ٢٠٧	
٨٨ . ٥٦ . ٥٥ . ٣٨	محمد بن الحسن		
	الزبيدي		

٤٧ ، ٤٦	محمد بن هشام	١٥٢	محمد بن حمدين
٤٠ ، ٣٩	محمد بن يحيى	١٥٣ ، ١٥١ ، ١٤٩	محمد بن أبى الخصال
٢٦.	محمد بن يخلفتن	١٥٤	
٨٨ ، ٥٥	محمد بن يريم	٦	محمد بن سعيد العريان
٢٥٨ ، ٢٥٧ ، ٢٥٦	محمد بن يعقوب	٢٩٠	محمد بن أبى سعيد بن
٢٦١ ، ٢٦٠ ، ٢٥٩			شرف الجذامى
٢٦٧ ، ٢٦٣ ، ٢٦٢		٣٧	محمد بن السليم
٢٧٠ ، ٢٦٨ ، ٢٦٨		١١٢ ، ١١١ ، ١١٠	محمد بن طاهر
٨٥	محمد بن أبى يوسف	٤٠ ، ٣٧ ، ٣٦ ، ٣٥	محمد بن أبى عامر
١٩٨ ، ١٨١ ، ١٨٠	ابن مردنيش	٤٥ ، ٤٣ ، ٤٢ ، ٤١	
٢١١ ، ٢٠٠ ، ١٩٩		٥٧ ، ٥٦ ، ٥٢ ، ٥١	
٢١٣ ، ٢١٢		٧٧ ، ٥٩ ، ٥٨	
٨٤ ، ٤٤ ، ٣١ ، ٣٠	أبو مروان بن حيان	١٨٤	
٨٦		٩٣ ، ٩٢ ، ٦٥	محمد بن عباد
٧٦	أبو مروان بن رزين	٢٦٠ ، ٦٦	محمد بن عبد الله
١٧	مروان بن موسى	٦٠	محمد بن عبد الله
٤٧	مزنة		ابن قاسم
٨٩ ، ٥٨	المستظهر	٢٢٣	محمد بن عبد الرحمن
٦٨	المستعلى	٢٤٦	محمد بن عيسى
٧٤ ، ٥٠	المستعين	٢٤	محمد بن عيسى بن
٨٩ ، ٥٩	المستكفى بالله		عمرويه الجلودى
٤٢	مسعود بن سليمان	٢٥٧	محمد بن الفضل
٢٠١ ، ٢٤	مسلم بن الحجاج	٢٤	محمد بن أبى الفضل
٣٨ ، ٣٥	أبو الحسن المصطفى		الشييانى
٨١ ، ٧٨	المظفر	٧١	محمد بن القاسم
١٢٤ ، ٧٧ ، ٧٤	المعتصم	٢٢٣	محمد بن مروان
١٣٣ ، ١٢٥		١٢٢ ، ٧٧	محمد بن معن
٩١ ، ٩٠ ، ٨٩ ، ٧٤	المعتضد	٥	محمد الناصر
١٠٥ ، ١٠٤ ، ١٠٣		١٨٤ ، ١٨٣ ، ١٠٢	محمد بن هانىء
١٠٩ ، ١٠٨ ، ١٠٧		١٨٥	

٤٦	الناصر بن أبي عامر	١١٢ ، ١١١ ، ١١٠	
٢٣٢ ، ٢٣١	نجاح	١٢٦ ، ١١٨ ، ١١٧	
٩٤ ، ٩٣ ، ٥٠	هارون الرشيد	١٢٩ ، ١٢٨ ، ١٢٧	
٢١	أبو هريرة	٩٧ ، ٩٤ ، ٨٩ ، ٦٥	المعتمد
٢٤	هشام بن بشر	١١٧ ، ١٠٢ ، ٩٨	
٤٧ ، ٤٦ ، ٣٨ ، ٣٦	هشام بن الحكم	١٢٠ ، ١١٩ ، ١١٨	
٦١ ، ٥٨ ، ٤٨		١٢٣ ، ١٢٢ ، ١٢١	
٣٦ ، ٢٩	هشام بن عبد الرحمن	١٢٦ ، ١٢٥ ، ١٢٤	
٣٤ ، ٢٠	هشام بن عبد الملك	١٣٨ ، ١٣٧ ، ١٣٧	
٦٤ ، ٦٠ ، ٥٩ ، ٥٨	هشام المعتد	١٤١ ، ١٤٠ ، ١٣٩	
١٠٢ ، ٩٢ ، ٩٠		١٤٤ ، ١٤٣ ، ١٤٢	
١٢٦ ، ١٠٣		١٤٧ ، ١٤٦ ، ١٤٥	
٢١٥ ، ٢١٤	هلال بن محمد بن سعد	١٢٣ ، ١٢٢ ، ١٢١	المعتمد بن عباد
١٨	ابن همشك	٢٨٤ ، ١٩١	المعز بن باديس
٩٣	الوائق	٣٤	المغيرة بن شعبة
٤٧	واضح	٧٥ ، ٧٤	المقتدر
٩٧	أبو الوليد بن زيدون	١٨٣	ابن الملح
١٩ ، ١٨	الوليد بن عبد الملك	٢٠٢ ، ٢٠١	ابن ملكون
٤٩	وليد بن محمد الكاتب	٩٠ ، ٥١ ، ٢٧	المنصور
٢٤	الوليد بن يزيد	١٩١	المنصور بن المنتصر
٦٨ ، ٦٧ ، ٦٦	يحيى بن إدريس	٦٧ ، ٤٨ ، ٤٧ ، ٤٦	المهدي
٧٦	يحيى بن إسماعيل	١٠٢ ، ١٠١ ، ٧١	
١٩٥	يحيى بن حسن	١٨٩	موسى بن رزق
٢٣١	يحيى بن عاتية	٦٩	موسى بن عفان
١٩١ ، ١٧٧ ، ١٧٦	يحيى بن العزيز	٢١ ، ١٨ ، ١٧	موسى بن نصير
١٩٦ ، ١٩٣ ، ١٩٢		١٩٧	موسى بن يوسف
١٩٧		٧٤	الموفق
٨٨ ، ٨٧ ، ٦٠ ، ٥٩	يحيى بن علي	٩٢ ، ٨٦ ، ٢٤	المؤيد
٢٤	يحيى بن يحيى الليثي	٤١	ميدمان بن يزيد
٥١	يزيد بن أبي سفيان	٥	الناصر لدين الله

٤٧	أره (وادی)	٢١	يزيد بن قاسط
٣٦	أروا (وادی)	٢١٧ ، ٢١٨ ، ٢١٩	يعقوب بن عبد المؤمن
٦٦	أستيجة	٢٢٠ ، ٢٢١ ، ٢٢٢	
٢٨٤ ، ١٥٨ ، ٣١	الإسكندرية	٢٢٣ ، ٢٢٤ ، ٢٢٥	
٢٨٥		٢٢٧ ، ٢٢٨ ، ٢٢٩	
٣٠٠	أش	٥	أبيوسف
٢٦٦	أشانية	١٠ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ٨٧	يوسف بن تاشفين
٢٩٨ ، ٧٨ ، ٤٧	أشبونة	١١٧ ، ١١٨ ، ١١٩	
٢٩٩		١٢٠ ، ١٢١ ، ١٢٤	
٣٠٠	الأشى	١٢٥ ، ١٤٤ ، ١٤٥	
٦٥ ، ٥٥ ، ١٣ ، ٥	إشبيلية	١٧١ ، ١٧٢ ، ١٧٣	
٨٨ ، ٨٧ ، ٧٧ ، ٦٦		٧٢	يوسف بن سعد
٩٢ ، ٩١ ، ٩٠ ، ٨٩		٢٤ ، ٢٥	يوسف بن عبد الرحمن
١٠٠ ، ٩٧ ، ٩٦			الفهرى
١٠٩ ، ١٠٢ ، ١٠١		٢٠٠ ، ٢٠١ ، ٢٠٢	يوسف بن عبد المؤمن
١١٢ ، ١١١ ، ١١٠		٢٠٥ ، ٢٠٦ ، ٢٠٧	
١١٧ ، ١١٦ ، ١١٤		٢٠٨ ، ٢٠٩ ، ٢١٦	
١٢٦ ، ١٢٥ ، ١٢٤		٢١٧ ، ٢١٨ ، ٢١٩	
١٨١ ، ١٨٠ ، ١٢٧		٢٢٠ ، ٢٢٨	
١٩٢ ، ١٩١ ، ١٩٠		١٠٦	يوسف بن عيسى
٢٠٢ ، ٢٠١ ، ١٩٣		٢٦٨ ، ٢٦٩ ، ٢٧٠	يوسف بن محمد
٢١٣ ، ٢١٢ ، ٢١١		٢٧١	
٢٢١ ، ٢٢٠ ، ٢١٤		٢٣٣	ابن يونس
٢٣٧ ، ٢٣٦ ، ٢٢٢			
٢٤٠ ، ٢٣٩ ، ٢٣٨			١ - الأماكن الجغرافية
٢٤٤ ، ٢٤٣ ، ٢٤١		٢٩٨	أبله
٢٥٨ ، ٢٥٧ ، ٢٥٦		٥١	الأدين
٢٦٧ ، ٢٦٦ ، ٢٦٥		٢٣٦ ، ٢٤٢ ، ٢٤٣	الأرك
٣٠١ ، ٣٠٠ ، ٢٩٩		٧٦ ، ١٧٩ ، ١٨٠	أرغن
٣٠٤ ، ٣٠٣ ، ٣٠٢		٢٦٥ ، ٢٦٦ ، ٢٦٧	
		٢٩٨	

. ١١٩ . ٧٧ . ١٣
 ١٢٣ . ١٢٢ . ١٢ .
 ٢٢٢ . ١٨٩ . ١٨ .
 ٢٩٦ . ٢٩٥ . ٢٢٣
 ٣ . ٢ . ٣ . ١ . ٣ . .
 ٣ . ٣
 ٢٧٩
 . ١١ . ٩ . ٦ . ٥
 ١٥ . ١٤ . ١٣ . ١٢
 ٢٠ . ١٩ . ١٨ . ١٧
 ٢٦ . ٢٥ . ٢٤ . ٢١
 ٣٩ . ٣٨ . ٣٧ . ٣١
 ٤٩ . ٤٨ . ٤٥ . ٤٤
 ٦٠ . ٥٥ . ٥٤ . ٥١
 ٦٤ . ٦٣ . ٦٢ . ٦١
 ٧٤ . ٧١ . ٧٠ . ٦٥
 ٨٦ . ٧٨ . ٧٧ . ٧٦
 ٩٣ . ٩٠ . ٨٩ . ٨٧
 . ١٠٢ . ٩٥ . ٩٤
 . ١٠٧ . ١٠٦ . ١٠٣
 . ١١٦ . ١١٠ . ١٠٨
 . ١١٩ . ١١٨ . ١١٧
 . ١٢٢ . ١٢١ . ١٢٠
 . ١٢٥ . ١٢٤ . ١٢٣
 . ١٢٨ . ١٢٧ . ١٢٦
 . ١٥١ . ١٤٦ . ١٤٥
 . ١٥٦ . ١٥٥ . ١٥٢
 ١٦٤ . ١٦٣ . ١٦٢
 ١٨١ . ١٨٠ . ١٧٩
 ١٨٤ . ١٨٣ . ١٨٢

المرية

أم الربيع
الأندلس

٧٢ . ٦٦
 . ١٩٣ . ٧٨ . ١٢
 ٢٩٢ . ٢٤٣ . ١٩٤
 ٢٩٣
 . ١٨١ . ١٨٠ . ١٣
 ٢١٢ . ٢١١ . ١٨٢
 ٢٩٣ . ٢٩٠ . ٢٨٩
 ٢٠٩ . ٢٠٨ . ١٢٨
 ٧٥ . ٦٠
 ٧٦ ١٢
 ٧٦ . ١٢
 ١٩٥ . ١٩٤ . ١٧٦
 ١٩٨ . ١٩٧ . ١٩٦
 ٢١٥ . ٢١٤ . ٢١٣
 ٢٢٨ . ٢١٧ . ٢١٦
 ٢٣١ . ٢٣٠ . ٢٢٩
 ٢٦٣ . ٢٦٢ . ٢٦١
 ٢٦٦ . ٢٦٥ . ٢٦٤
 ٢٨٧ . ٢٨٦ . ٢٨٥
 ٢٩٠ . ٢٨٩ . ٢٨٨
 ٢٩٥ . ٢٩٣ . ٢٩٢
 ٢٩٦
 ٣١
 . ٢٦٧ . ٢٦٦ . ١٢
 ٢٨١ . ٢٨٠ . ٢٧٩
 ٢٨٨ . ٢٨٧ . ٢٨٢
 ٢٩٣ . ٢٩٢ . ٢٨٩
 ٢٩٨ . ٢٩٧
 ٢٩٨
 ٥٩

أشونة
الأعظم (البحر)

أغرناطة

أغمات

أفراغة

أفرنجة

أفرنسية

أفريقية

أقريطش

أقيانس (بحر)

أقليج

البيش

٢٩٥	بدلاية	١٩٠ ، ١٨٦ ، ١٨٥	
٥	البرانس	١٩٧ ، ١٩٦ ، ١٩١	
٣٠٠	بسطة	٢٠٠ ، ١٩٩ ، ١٩٨	
٢٨٩	بسكرة	٢١٣ ، ٢٠٣ ، ٢٠٢	
٣٠٣ ، ٣٠٢ ، ٢٢٢	برشانة	٢١٧ ، ٢١٦ ، ٢١٤	
٢٩٨ ، ٧٦	برشلونة	٢٢٢ ، ٢١٩ ، ٢١٨	
٢٨٤ ، ٢٨٣ ، ٣١	برقة	٢٢٦ ، ٢٢٥ ، ٢٢٣	
٢٨٧		٢٣٣ ، ٢٣٢ ، ٢٢٧	
١٩٧	البطحاء	٢٣٦ ، ٢٣٥ ، ٢٣٤	
٧٨	بطليوس	٢٤٦ ، ٢٤١ ، ٢٤٠	
١٥٧ ، ٤١ ، ٣٩ ، ٥	بغداد	٢٦٥ ، ٢٦٠ ، ٢٤٧	
٢٩٣ ، ٢٩٢ ، ٢٩١		٢٦٨ ، ٢٦٧ ، ٢٦٦	
٤٧	البقر (دار)	٢٩٠ ، ٢٨٩ ، ٢٨٨	
٢٩٥	بكارس	٢٩٧ ، ٢٩٦ ، ٢٩٥	
٣٠٠	بلس	٣٠١ ، ٣٠٠ ، ٢٩٩	
١١١ ، ٧٦ ، ١٣	بلنسة	٣٠٤ ، ٣٠٣ ، ٣٠٢	
١٢٠ ، ١١٩ ، ١١٢		٣٠٥	
١٧٩ ، ١٥٦ ، ١٥٥		٣٠٢ ، ٣٠١ ، ٥	أبيريا
٢٢٥ ، ٢١٣ ، ٢١٢		٣٠١ ، ١٥٧	إيجلى
٣٠٢ ، ٣٠٠ ، ٢٢٦		٢٩٨ ، ٧٠ ، ٦٩	إيرش
٣٠٣		٣٠٢ ، ٢٩٨ ، ٧٥	أيوب (قلعة)
٣٠٠ ، ٢٩٩	بنشكلة	٣٠٢ ، ٣٠١ ، ٦٧	بياشتر
٢٩٦	بهتا	١٦١ ، ١٦٠ ، ١٥٨	بجاية
١٧٦	بونة	١٧٧ ، ١٧٦ ، ١٧٣	
٢٩٦ ، ٢١٨	تاجو (نهر)	١٩٧ ، ١٩٦ ، ١٩٤	
٢٩٤	تارودانت	٢١٦ ، ٢٠٧ ، ٢٠٦	
٢٩٢ ، ٢٩١	تازا	٢٢٩ ، ٢٢٨ ، ٢١٧	
٧١	تاكرونة	٢٣٢ ، ٢٣١ ، ٢٣٠	
٢٩٦	تانسيفت	٢٦٥ ، ٢٦٤ ، ٢٣٣	
		٢٨٩ ، ٢٨٨ ، ٢٨٧	
		٢٩٣ ، ٢٩٢ ، ٢٩٠	
		٢٩٧ ، ٢٩٦ ، ٢٩٤	

٣٠٠ ، ٢٨٩ ، ٢٨٨	جزيرة طريف	١٧٥ ، ١٦٢ ، ١٦١	تليمان
٢١١	الجلاب	١٩٧ ، ١٧٧ ، ١٧٦	
، ١٨٠ ، ١٥ ، ١٣	جيان	٢٠٩ ، ٢٠٨ ، ١٩٨	
، ٢٦٦ ، ٢٤٢ ، ١٨١		٢١٨ ، ٢١٧ ، ٢١٦	
، ٣٠١ ، ٣٠٠ ، ٢٦٧		٢٩٣ ، ٢٩٢ ، ٢٩١	
٣٠٥ ، ٣٠٤ ، ٣٠٣		٢٩٨ ، ٢٩٦	
١٩٥	الحامة	٩٤	تمسان
٢٨٨	الحبشة	٢٨٧	تنس
٩٠ ، ٥	الحجاز	٢٩٠ ، ٢٨٩ ، ١٩٥	تورز
٢٤٣	حصن الفرج	٢٩٣	
٣٠٣ ، ٣٠٢	حمص	٢٦٢ ، ١٩٤ ، ١٩٣	تونس
٢١٨	الخباء (باب)	٢٨٦ ، ٢٦٤ ، ٢٦٣	
٢٤٣	الخبب	٢٨٩ ، ٢٨٨ ، ٢٨٧	
٣٠٢ ، ٢٩٥ ، ١٨٠	دانية	٢٩٥ ، ٢٩١ ، ٢٩٠	
٢٣٦	رباح (قلعة)	٢٩٨ ، ٢٩٧ ، ٢٩٦	
٢٢٥ ، ٢٢٤	الرباط	١٧٠ ، ١٦٩ ، ١٦٧	تينمل
٤٦ ، ٣٠	الريض	٢٠٠ ، ١٩٩ ، ١٩٨	
١٢٦	رندة	٢٣٨ ، ٢٣٧ ، ٢٢٠	
٢٩٢	الرومان (وادي)	٢٦٣ ، ٢٦٢ ، ٢٦١	
٣١ ، ١٣ ، ١٢ ، ١١	الرومي (خليج)	٢٦٤	
٢٩٨		٧٧ ، ٧٦ ، ٤٨ ، ٤٧	الثغر
١٢	رومية	٧٨	
، ٣٠٢ ، ٣٠٠ ، ٣٧	رية	٢٩٨ ، ١٨٢ ، ١٨١	جبل طارق
٣٠٣		٢٩٩	
٢٩٤	زجندر	٢٩٠ ، ٢٨٩ ، ١٩٥	الجريد
٤٨ ، ١٧ ، ١٠	الزقاق	٢٩٤	جزولة
١٢١ ، ١٢٠ ، ١١٩	الزلاقة	٣٦ ، ١٨ ، ١٧ ، ١٣	الجزيرة الخضراء
٢٣٧ ، ١٢٣ ، ١٢٢		٧١ ، ٧٠ ، ٥٥ ، ٤٨	
٢٨٥	زويلة	، ١١٨ ، ٧٧ ، ٧٢	
٢٦٦ ، ٥٩ ، ٤٥	سالم (مدينة)	٢٤٨ ، ٢٤٧ ، ١١٩	
٢٩٠ ، ٢٦٧		٣٠٣ ، ٣٠٢	

٢٨ ، ٢٧ ، ٢٤ ، ٥	الشام	٧٠ ، ٦٨ ، ٦٦ ، ٤٨	سبته
١٨٣ ، ١٥٧ ، ٤٥		٢١١ ، ١٨٢ ، ١٨١	
١٨٤		٢١٧ ، ٢١٦ ، ٢١٢	
١٩٢ ، ٥٦	شريش	٢٨٨ ، ٢٦٠ ، ٢٥٩	
٢٩٦	شفشاوة	٢٩٩ ، ٢٩٨ ، ٢٩٧	
٢٩٨	شقوية	٣٠٠	
، ١٨٣ ، ١٠٦ ، ١٣	شلب	٢٩٦	السبطاط
، ٢٣٤ ، ٢١٧ ، ٢١٦		٢٧٣ ، ٢٧٢ ، ٢٧١	سبو
، ٢٤٢ ، ٢٣٦ ، ٢٣٥		٢٩٠ ، ٢٨٩ ، ٢٧٤	سجلحامة
٢٤٣		٢٩٣ ، ٢٩٢ ، ٢٩١	
٧٢	شلبير	، ١٠٢ ، ٧٥ ، ٦٠	
٢٦٦ ، ٢٦٥	شليترة	٣٠٢ ، ٣٠١ ، ١١٢	سرقسطة
٣٠٠	شلمنكة	٣٠٣	
٢٩٥	شلون	٢٨٥	
٥٩	شمنت	٢٦٢	سفاقس
١٠٦	شنبوس	٢١٧ ، ٢١٦ ، ١٩٩	سكران
٣٠٠	شنت ياقو	٢٣٣ ، ٢٣٢ ، ٢٢٤	سلا
٢٩٥	شنترة	٢٩٥ ، ٢٩٤ ، ٢٩٣	
، ١٤٨ ، ١٤٧ ، ٧٨	شنترين	٢٩٧ ، ٢٩٦	
، ٢١٧ ، ١٥٠ ، ١٤٩		٣٠٠	
، ٢٢٠ ، ٢١٩ ، ٢١٨		٢٨٧ ، ٢٨٦ ، ٦٧	سمورة
٢٢٣ ، ٢٢٢ ، ٢٢١		، ١٦٣ ، ١٥٧ ، ٨٧	السودان
١٨١ ، ١٨٠ ، ١١٢	شنقور	١٧٢ ، ١٦٧ ، ١٦٤	بلاد السوس
٢٥٨	صعيد	١٩٦ ، ١٨٠ ، ١٧٩	
، ١٩٥ ، ١٩٤ ، ٤٤	صقلية	٢٦٢ ، ١٩٨ ، ١٩٧	
٢١٥ ، ٢١٤		٢٩٥ ، ٢٩٤ ، ٢٦٣	
١٩	طبرية	٢٩٨ ، ٢٩٧ ، ٢٩٦	
٢٧٩ ، ١٩٦ ، ١٩٥	طرابلس	٢٨٧ ، ٢٨٦	
٢٨٣ ، ٢٨٢ ، ٢٨٠		٢٨٨ ، ٢٨٧ ، ١٧٦	سوسة
٢٨٦ ، ٢٨٥ ، ٢٨٤		٢٩٠ ، ٢٨٩	سيو سيرات

٢٦١ ، ٢٦٠ ، ٢٣٤		٢٣٦ ، ٢٣٥ ، ٣٦	طرش
٢٩٢ ، ٢٩١		٢٩٠ ، ٢٨٩	
١٦٠	فتزارة	٧٥ ، ٦٠ ، ٤٧	طرطوشة
٢٨٠ ، ١٩٦ ، ١٩٥	قابس	٣٠٢ ، ٣٠١ ، ٣٠٠	
٢٨٧ ، ٢٨٦	قرطاجنة	٣٠٣	
١٨ ، ١٤ ، ١٣ ، ٥	قرطبة	٢٩٨	طرعوننة
٣٩ ، ٣٦ ، ٢٨ ، ٢٧		٢٩٨	طلييرة
٤٨ ، ٤٧ ، ٤٦ ، ٤٤		٢٩٤	طلمبشة (حصن)
٥٦ ، ٥٥ ، ٥٤ ، ٤٩		٦٥ ، ٤٧ ، ١٩ ، ١٢	طليطة
٦٤ ، ٦١ ، ٦٠ ، ٥٩		٩٥ ، ٩٠ ، ٧٧ ، ٧٦	
٨٩ ، ٨٨ ، ٧٧ ، ٦٥		٢٣٦ ، ١٢٠ ، ١١٩	
٩٨ ، ٩٧ ، ٩٦ ، ٩٠		٢٦٦ ، ٢٣٨ ، ٢٣٧	
١٠٢ ، ١٠١ ، ١٠٠		٢٨٥ ، ٢٨٠ ، ٢٦٧	
١١٢ ، ١١١ ، ١٠٩		٣٠٢ ، ٣٠١ ، ٣٠٠	
١١٦ ، ١١٤ ، ١١٣		٣٠٥ ، ٣٠٤ ، ٣٠٣	
١٣٨ ، ١٣٧ ، ١١٧		٦٦ ، ٤٨ ، ١٧ ، ١٠	طنجة
١٥٦ ، ١٥٣ ، ١٥٢		١٢٧ ، ٧٠ ، ٦٨	
١٦٣ ، ١٦٢ ، ١٥٧		٢٨٧ ، ١٢٩ ، ١٢٨	
١٧٤ ، ١٧٣ ، ١٦٤		٢٩٠ ، ٢٨٩ ، ٢٨٨	
١٨٢ ، ١٨١ ، ١٧٥		٢٩٨ ، ٢٩٧	
١٩٢ ، ١٩١ ، ١٩٠		١٢	الظلمة (بحر)
٢٢٥ ، ٢٠٩ ، ١٩٣		٧٠ ، ٦٠ ، ٢٧ ، ١١	العدوة (بلاد)
٢٩٥ ، ٢٦١ ، ٢٢٦		٢٩٦ ، ٢٢٨ ، ٢٢٧	
٢٩٨ ، ٢٩٧ ، ٢٩٦		٢٩٧	
٣٠٣ ، ٣٠٢ ، ٣٠١		٢٨٤ ، ٢٨٣	العريش
٣٠٤		٢٦٧ ، ٢٦٦	العقاب
٧٢ ، ٦٦ ، ٥٩ ، ٥٧	قرونة	٧٧ ، ٧٢ ، ٥٤ ، ١٣	غرناطة
٣٠٢ ، ٩٢ ، ٩١		٣٠١ ، ٣٠٠ ، ١١٩	
٣٠٣		٣٠٥ ، ٣٠٣ ، ٣٠٢	
٢٩١ ، ٢٩٠ ، ٢٨٩	قسطيلية	١٦٢ ، ١٦١ ، ٥	فاس
		٢٣٣ ، ٢٣٢ ، ٢٠٧	

، ٨٨ ، ٧٧ ، ٧ .

٣٠١ ، ٣٠٠ ، ١٨٥

٣٠٤ ، ٣٠٢

، ٢٨٨ ، ١٢ ، ١١

٣٠٠ ، ٢٨٩

١٦ .

٥

، ٩٣ ، ٩٢ ، ١٠٠ ، ٥

، ١٢٠ ، ١١٩ ، ١١٧

، ١٣٧ ، ١٢٣ ، ١٢٢

، ١٥٧ ، ١٥٦ ، ١٣٨

، ١٧٥ ، ١٧٣ ، ١٧٢

، ١٧٨ ، ١٧٧ ، ١٧٦

، ١٩٨ ، ١٩٤ ، ١٩٣

، ٢٠١ ، ٢٠٠ ، ١٩٩

، ٢٠٨ ، ٢٠٣ ، ٢٠٢

، ٢١٤ ، ٢١٣ ، ٢٠٩

، ٢١٧ ، ٢١٦ ، ٢١٥

، ٢٣٣ ، ٢٣٢ ، ٢١٨

٢٣٧ ، ٢٣٦ ، ٢٣٥

٢٤٠ ، ٢٣٩ ، ٢٣٨

٢٥٥ ، ٢٤٣ ، ٢٤١

٢٦٠ ، ٢٥٩ ، ٢٥٦

٢٦٧ ، ٢٦٥ ، ٢٦٢

٢٧٠ ، ٢٦٩ ، ٢٦٨

٢٧٣ ، ٢٧٢ ، ٢٧١

٢٧٩ ، ٢٧٨ ، ٢٧٧

٢٩١ ، ٢٩٠ ، ٢٨٠

٢٩٤ ، ٢٩٣ ، ٢٩٢

٢٩٨ ، ٢٩٧ ، ٢٩٦

٢٩٩

مانطس (بحر)

متيجة

المحيط الأطلسي

مراكش

٢٨٦ ، ٢٨٥ ، ٢٦١

٢٨٩ ، ٢٨٨ ، ٢٨٧

٢٩٢ ، ٢٩١ ، ٢٩٠

١١٦ ، ١١٤

٢٨٨

٢٧٢

٢١٤ ، ٢١٣ ، ١٩٥

٢٨٩ ، ٢٣١ ، ٢٣٠

٢٩٠

٣٠١ ، ٣٠٠

٣٠٠

٤٧

٢٤ ، ١٩ ، ١٨ ، ١٧

١٩٦ ، ١٩٥ ، ١٩٤

٢٨٧ ، ٢٨٦ ، ٢٨٤

٢٩٠ ، ٢٨٩ ، ٢٨٨

٢٩١

٢٩٤

٢٩٢

٢٩٨

٥١

١٨٤ ، ١٨٣ ، ١٧٦

٢٢٦ ، ٢١٨ ، ٢١٧

٢٩٢ ، ٢٢٨ ، ٢٢٧

٢٩٥ ، ٢٩٣

٢٩٤

٧٥ ، ٦٠

٢٩١

٥٦ ، ٥٥ ، ٣٧ ، ١٣

٦٩ ، ٦٨ ، ٦٧ ، ٦٦

قسططينية (المغرب)

قصر (المبارك)

قصر (مصمودة)

قلعة (بنى حماد)

قفصة

قلمرية

قلية

قنطش

القيروان

الكست

كمليانة

كونكة

لبلة

لمتونة

لمطة

لاردة

مازونة

مالقة

. ٢٨٥ ، ٢٨٤ ، ٢٨٣
 . ٢٨٩ ، ٢٨٨ ، ٢٨٧
 . ٢٩٢ ، ٢٩١ ، ٢٩٠
 ٢٩٤ ، ٢٩٣
 ٢٩٨
 . ٢١٧ ، ٢١٦ ، ١٢٨
 . ٢٩٢ ، ٢٣٣ ، ٢٣٢
 . ٢٩٦ ، ٢٩٥ ، ٢٩٣
 ٢٩٧
 ٩٠ ، ٣٤ ، ٢٤
 ٢٢٦
 ٧٢
 ١٩٤ ، ١٩٢ ، ١٩١
 ١٩٧ ، ١٩٦ ، ١٩٥
 ٢٨٠ ، ٢٤٥
 ٣٩
 ٢٢٦ ، ٢٢٥ ، ١٣٢
 ٢٣٠ ، ٢٢٩ ، ٢٢٨
 ٢٦١ ، ٢٣٢ ، ٢٣١
 ٢٦٤ ، ٢٦٣ ، ٢٦٢
 ٣٠١ ، ٣٠٠ ، ٢٦٦
 ٣٠٤ ، ٣٠٣ ، ٣٠٢
 ١٩٥
 ٢٨٩
 ٢٤
 ٢٩٦
 ٢٩٨ ، ٢١٢
 ٢٩٦
 ٢٨٨ ، ٢٠٥ ، ١٧٥
 ٢٩٤ ، ٢٩٣ ، ٢٨٩
 ٢٩٦

مطادة

مكناسة

مكة

منركة

منكب

المهدية

الموصل

ميورة

نقطة

نقاوس

نيسابور

وانسيفن

ولدة

ورغة

وهران

. ١١١ ، ١١٠ ، ١٣

١١٩ ، ١١٦ ، ١١٢

١٨٠ ، ١٧٩ ، ١٢٠

٢٣٢ ، ٢١٢ ، ٢١١

٢٣٦ ، ٢٣٥ ، ٢٣٣

٣٠١ ، ٣٠٠ ، ٢٤٣

٣٠٣ ، ٣٠٢

٢٩٨

. ٢٢٤ ، ٢٤ ، ٦

٢٤١ ، ٢٤٠ ، ٢٣٧

٢٧٠ ، ٢٦٩ ، ٢٤٥

٢٧٨ ، ٢٧٧ ، ٢٧١

٢٨٨ ، ٢٨٧ ، ٢٨٣

٢٩٠ ، ٢٨٩

١٥٠

. ١٧ ، ٧ ، ٦ ، ٥

٣١ ، ٢٧ ، ٢٤ ، ٢٣

. ١٥٨ ، ٨٧ ، ٥٤

١٦١ ، ١٦٠ ، ١٥٩

١٦٤ ، ١٦٣ ، ١٦٢

١٧٧ ، ١٧٦ ، ١٦٥

١٩٤ ، ١٩١ ، ١٧٨

٢٠٣ ، ٢٠٢ ، ١٩٥

٢١٥ ، ٢١٤ ، ٢١٣

٢٣٣ ، ٢٣٢ ، ٢٣١

٢٤٠ ، ٢٣٩ ، ٢٣٤

٢٤٧ ، ٢٤٦ ، ٢٤٥

٢٥٥ ، ٢٥٤ ، ٢٥٣

٢٧٧ ، ٢٦٠ ، ٢٥٩

٢٨٠ ، ٢٧٩ ، ٢٧٨

مرسية

مشريط

مصر

معرة النعمان

المغرب

٩١ ، ٧٧	بنويزال	٣٠٢ ، ٣٠١ ، ٧٨	يابرة
٢٠٧	تسول (قبيلة)	٢٢٦	يابسة
٢٩٠ ، ٢٨٩ ، ٤٥	تميم		٣- الطوائف والبطون
٢٩١			
٢٧٩	جزولة	١٦٤ ، ١٦٢ ، ١٦١	الأشعرية
١٩٤	جشم	٢٨٩	الأغلبة
٢٧٩	جنفيسة	١٢ ، ٤٧ ، ٧٦ ،	الإفرنج
٩٧	بنو جهور	٢٦٧ ، ١٩٦ ، ١٩٥	
٢٧٩	حاحة	٢٦٨	
١٧٧ ، ١٧٦	بنو حماد	٢٦٣ ، ٢٦٢	الأكراد
٤٨	بنو حمود	١٤ ، ٢٠ ، ٢٤ ، ٦٠	بنو أمية
٢٨٦ ، ٢٨٥	حمير	٦١ ، ٦٢ ، ٨٦ ، ٨٩	
٢٧٩	دكالة	١٧٩ ، ١٨٠ ، ١٩٦	
٢٧٩	رجراجة	١٩٧ ، ٢٨٩ ، ٢٩٠	
٩٣ ، ٤٤ ، ٣٥ ، ١٧	الروم	٢٩١ ، ٢٩٢ ، ٢٩٧	
١١٩ ، ١١٨ ، ١١٧		٢٩٨ ، ٣٠٠	
١٥١ ، ١٤٦ ، ١٤٥		١٥٧	إيسر غنين
١٩٥ ، ١٩٤ ، ١٥٢		٧١ ، ٧٠	براغواطين
٢٠٦ ، ٢٠٠ ، ١٩٩		٤٦ ، ٤٧ ، ٤٨ ، ٤٩	البربر
٢١٢ ، ٢١١ ، ٢٠٧		٥٤ ، ٥٥ ، ٥٦ ، ٥٧	
٢١٦ ، ٢١٥ ، ٢١٣		٦٦ ، ٦٨ ، ٧٠ ، ٧١	
٢٢٧ ، ٢١٨ ، ٢١٧		٧٢ ، ٧٧ ، ٨٨ ، ٨٩	
٢٣٨ ، ٢٣٧ ، ٢٢٨		٩٠ ، ٩١ ، ٩٢ ،	
٢٦٤ ، ٢٤٣ ، ٢٤٢		١٠٧ ، ١١٨ ، ١١٩	
٢٦٧ ، ٢٦٦ ، ٢٦٥		١٢٠ ، ١٢٤ ، ١٢٥	
٢٨٤ ، ٢٦٩ ، ٢٦٨		١٢٦ ، ١٢٧ ، ٢٠٧	
٢٩٩ ، ٢٨٦ ، ٢٨٥		٢٠٨ ، ٢٥٤ ، ٢٥٥	
٣٠٣ ، ٣٠١ ، ٣٠٠		٢٧١ ، ٢٧٢ ، ٢٧٣	
١٩٢	رياح (قلعة)	٢٧٩ ، ٢٨٠ ، ٢٨١	
٢٠٧	زنانة	٢٨٣ ، ٢٨٥	

٢٣٣ ، ٢٣٢ ، ٢٣١		٢٨٥	زويلة
٢٩٠ ، ٢٨٦ ، ٢٨٥		٢٨٦ ، ١٩١	بنو زيرى بن مناد
٢٨٠ ، ٢٤٠ ، ٢١٦	الغز	٢٥٥	بنو سجات
٢٨٧ ، ٢٨٢ ، ٢٨١		٢٧٩	سرطة
٢٩٢ ، ٢٩٠ ، ٢٨٧		٦٨ ، ٥٤	صقالبة
٢٧٨ ، ٢٧٦ ، ٨٧	الفاطميون	٨٨ ، ٧٧ ، ٦٩ ، ٦٦	صنهاجة
٨٧	الفرس	، ١٧٧ ، ١٧١ ، ٩١	
٢٤	قريش	٢٨٩ ، ٢٧٣ ، ٢٧٢	
٢٩٧ ، ١٢	القوط	٢٩٢ ، ٢٩١ ، ٢٩٠	
٧١	قيس بن عيلان	٨٧ ، ٨٦ ، ٧٥	الطوائف
٢٧٩ ، ٢٧٨	كومية	٢٥٨	الظاهرية
٨٨	لخم	١٢٤ ، ١٢٣ ، ١١٦	بنو عباد
٢٧٩	لمطة	١٢٧ ، ١٢٦ ، ١٢٥	
، ٢١٧ ، ٩٣ ، ٩٢	متونة	١٣١ ، ١٣٠ ، ١٢٩	
٢٨٠ ، ٢٧٩ ، ٢١٨		١٣٨ ، ١٣٧	
٢٨١		٩٣ ، ٩٠ ، ٨٧ ، ٢٧	بنو العباس
٢٧١	بنو مجبر	٢٢٦ ، ١٥٩ ، ١٥٨	
٩٢ ، ٨٧ ، ٧٨ ، ٧٧	المرايطون	٢٢٩ ، ٢٢٨ ، ٢٢٧	
، ١٢٥ ، ١٢٤ ، ٩٣		٢٩١ ، ٢٩٠ ، ٢٨٩	
١٤٥ ، ١٤٤ ، ١٢٦		٢٩٢	
١٥٨ ، ١٥٧ ، ١٤٦		، ٢٣٣ ، ٢٣٢ ، ٧	بنو عبد المؤمن
١٧٥ ، ١٦٩ ، ١٦٨		٢٨٦ ، ٢٨٠ ، ٢٣٤	
، ١٧٩ ، ١٧٧ ، ١٧٦		١٩٦ ، ١٧٧ ، ١٧٦	بنو عبيد
١٨٤ ، ١٨٣ ، ١٨٠		٢٧١ ، ٢٧٠ ، ١٩٨	
٢٨١ ، ٢٨٠ ، ٢٧٩		٢٨٤	عدنان
٢٨٣ ، ٢٨٢		، ١٩٠ ، ٤٢ ، ٤١	العرب
١٦٩	مسكالة	٢٧٠ ، ٢٠٣ ، ١٩٧	
، ٢٧٩ ، ٩٣ ، ٩٢	مسوفة	٤٠	عفراء
٢٨٠		٢٢٧ ، ٢٢٦ ، ٢٢٥	بنو غانية
		٢٣٠ ، ٢٢٩ ، ٢٢٨	

٢٩٢ ، ٢٩١ ، ٨٦	هاشم	١٥٧ ، ٨٧ ، ١٠ ، ٧	المصامدة
١٩٩ ، ١٩٨ ، ١٥٧	هرغة	١٦٢ ، ١٦٠ ، ١٥٩	
٢٨٠ ، ٢٧٩ ، ٢٧٨		١٦٨ ، ١٦٧ ، ١٦٣	
٢٧٩	هزرجة	١٩٤ ، ١٧٠ ، ١٦٩	
٢٧٩	هزمير	١٩٧ ، ١٩٦ ، ١٩٥	
٢٧٩	هسكورة	٢٢٥ ، ٢٠٠ ، ١٩٩	
٢٩١	الهلالية	٢٧٧ ، ٢٢٧ ، ٢٢٦	
٢٧٩	هنتانة	٢٨٠ ، ٢٧٩ ، ٢٧٨	
١١٢ ، ١١١ ، ٧٦	بنو هود	٢٩٣ ، ٢٩١ ، ٢٩٠	
٢٧٩	هيلانة	٢٩٨ ، ٢٩٧ ، ٢٩٤	
٧٢ ، ٧١ ، ٦٩	بنو يفرن	٤٥	معاقر
١٧٩ ، ٣٢ ، ٣١	اليهود	١٦٤	المعتزلة
٢٥٤ ، ٢٥٣		١٦٤ ، ١٦٣ ، ٥	الموحدون
٤ - الآيات الواردة في النص		١٩٠ ، ١٦٧ ، ١٦٦	
٢٦٣	سورة ص	١٩٥ ، ١٩٤ ، ١٩١	
٢٦٣	سورة محمد	٢١٣ ، ٢١٢ ، ٢١١	
٥ - الأحاديث		٢٢٦ ، ٢١٥ ، ٢١٤	
		٢٢٩ ، ٢٢٨ ، ٢٢٧	
١٦٤	وأنتم الذين يفتح الله	٢٣٣ ، ٢٣١ ، ٢٣٠	
١٦٤	لاتزال طائفة	٢٤٠ ، ٢٣٥ ، ٢٣٤	
٢٤	لاتزال أهل المغرب	٢٦٣ ، ٢٦١ ، ٢٤١	
٦ - الكتب الواردة		٢٦٦ ، ٢٦٥ ، ٢٦٤	
		٢٦٩ ، ٢٦٨ ، ٢٦٧	
		٢٨١ ، ٢٨٠ ، ٢٧٠	
٢٠٦	الآثار العلوية	٢٨٤ ، ٢٨٣ ، ٢٨٢	
٣٠	أخبار الأندلس	٢٩٠	
١٦٣	أعز ما يطلب	١١١ ، ١١٠ ، ٧٦	النصارى
٨٤	الأغاني	١٧٩ ، ١٢١ ، ١٢٠	
٥١	تاريخ الطبري	١٩٦ ، ١٩٥ ، ١٨٠	
٢٣٣	التهذيب	٢٩٨ ، ٢١٢ ، ٢١١	
		٣٠١ ، ٣٠٠ ، ٢٩٩	

٥١	المقصد في أصول الفقه	٢٠٦	الجوامع
٥١	الملل والنحل	٤٠	الحواس
٢٥٤	المنطق	٢٥٤	الحيوان
٢٣٣ ، ٣٩	النوادر	٢٥١	ديوان المتنبي
٤٠	الهجفجف	١٥٤	الذخيرة
٢٣٣	الواضحة	٢٠٣	رسالة حي بن يقظان
٤٥	اليتيمة	٢٠٦	السماء والعالم
٧ - الأشعار		٢٣٣	سنن البزار
٤٥	أجد الكلام	٢٣٣	سنن البيهقي
٢٤٥	أجزيرة الأندلس	٢٣٣	سنن الترمذي
١٠١	أخذت ثلث	٢٣٣ ، ٢٣٤	سنن أبي داود
١٥٢	أدجال	٢٣٣	سنن النسائي
١٠٦	أدر الزجاجية	٢٠١	صحيح البخاري
٢٤٩	أدرهما	٢٠١	صحيح مسلم
١٠٣	إذا ركبوا	٥١	الصلة
١٤١	إذا صال	٣٤	طبقات الشعراء
١١٨	إذا كان	١٦٣ ، ١٦٤	عقائد أصول الدين
١٤٣ ، ١٤٢	أذكي القلوب	٢٤٧	العقد الفريد
١٤٦	أرض يطير	٣٨	العين
١٥٠	أرى العنقاء	٧٨	عيون الأخبار
١١٢	أصبحت في السوق	٣٩	الفصوص
٣٣	أضاعوني وأى	٤١	القوالب والزوايل
١٠٠ ، ٩٩ ، ٩٨	أضحى التنائي	٢٠٦	الكون والفساد
٢٤١	أعيدوا صباحي	٢٠٦	الكيان
١٩٢	أقيموا إلى العلياء	٤٤	المآثر العامرية
٢٠٤ ، ٢٠٣	أملت وقد	٢٣١	المدونة
٤٠	إلى الله	١٦٦	المسالك والممالك
٤٠	إليك حدوث	٢٣٣	مسند أبي شعبة
١٣٩ ، ١٣٨	إليك النزر	٢١٤	المصحف العثماني

٨١ ، ٨٠ ، ٧٩	الدهر يفجع	١٠٢	إن كان عاد كم
١٣٦	راق الربيع	٥٢	أنا الشمس
١٣٧	رب ركب	٥٣	أنم من المرأة
١٤١ ، ١٤٠	رد برى	٨٦	إنى نظرت
٩٦	ريعت من	١٥٢	أهل الرياء
٢٣١	سائل تفصصه	٢٨	أيها الراكب
٢٥٢	سبى فى	١٤١	أيها الماجد
١١٤	سباياك	٢٤٧	بأدى الكرامة
١٤٠ ، ١٣٩	سقطت	١٣٧ ، ١٣٦	بدا على
١٦٦ ، ١٦٥ ، ١٦٤	سلام على قبر	١٣٥	بشرى بيوم
٩٥	بسموه سيفا	١٨٢	بلغ الزمان
١٠٧	السيف أفصح	١٠١	بم التعلل
٨٤	الشعر خطه	٩٧	ببنى جهور
١٢٨	شعراء طنجة	١١٣	بؤسى شقورة
١٠٧	شقيت بسيفك	٢٤٨	بين الرياض
٢٢٠	طوى الجديدان	٩٧	بينى وبينك
٤٠	عاد إلى	٢٤٦	تأملت فى
١٠٧	عباد المحضر	١٣١ ، ١٣٠	تبكى السماء
٥٠	عجبا يهاب	٢٩٠	ترى سيئات
١٩٠	عذيرى من	١٧١	تكاملت فيك
٩٥	علل فؤادك	٤٥	تلاقت عليه
١٠٣	على ولا	٩٦	تم له
١٨٤	غمض عن	١٠٤ ، ١٠٣	جاء الهوى
٣٣	فقال وقد	٢٤٨	حالت يمين
٢٥٧	فكانما حمص	٤٠	حسبت المتعمين
١٣٦ ، ١٣٥	فؤادى معى	٥٨	حمامة بيت
٢٤١	فيما لم	٢٤٣ ، ٢٤٤ ، ٢٤٥	حيثك معطرة
٩٦	قامت لتعجب	٢٥٣	ابن خروف
١٢٨	قبح الدهر	٤٣	دار الفتاة
١٤٢ ، ١٤١	قبر الغريب	١٣٨	دعالى

٨٢ ، ٨١	بنى المظفر	٣٩	قد عاجس
٥٠	ملك الثلاث	٢٤٧	قف بالقباب
٧٤	مما يزهدنى	١٢٧	قل لمن
٣٤	من حاكم	٩٤	قل الوفاء
١٣٢	من كان	٤٢	كأن دماء
١٣١	نسيت إلا	٤٢	كميت يزل
١٠١	هل تذكرن	٥٣	لئن أصبحت
٥٢	هل للدهر	٨٦	لاح المشيب
١٣٥ ، ١٣٤	هلا ثناك	٥٣	لا يشمتن حاسدى
٢٥١	والله لو	٨٤	للشيخ عية
٢٥٠	والله لو لافتيه	١٢٩ ، ١٣٠	لكل شيء
١١٥	وإذا المنية	٨٤	لكل طالب
٢٥٥	وأترلنى طول	٢٥٧	لكموا على
١٩٣	وحكم السيف	٥٣	لكن لى
١٨٩	وذى حنين	١٢٦	لما تماسكت
١٣٤ ، ١٣٣	وضحت وقد	٢٥٠	لما رآه
٢٤٩	ولكن قوما	٢٣٠	لما رنت
١٢٣	وما النفس	١٨٥ ، ١٨٦ ، ١٨٧	لوجئت
١٨٨	ومهدل الشطين	١٨٨	
١٩٠	ومهفهب	٢٩٣	ليس فيها
٢٠٤	يا باكيا	٢٤٩	ماضرت
٤٣	يا حرز كل	١٨٣	ما للعدا
٢٥٣	يامن له	١٨٩	ما مثل
٢٥٧	يدر الصليب	١٨٩	محل ابن رزق



فهرس الكتاب

الموضوعات	الصفحة
المقدمة	٥
فصل - فى ذكر جزيرة الأندلس	٩
فتح الأندلس وذكر لمحة عنها قبل الفتح	١٥
ذكر من دخل الأندلس من التابعين	٢١
فضل بلاد المغرب	٢١
ذكر خبر دخول عبد الرحمن بن معاوية الأندلس	٢٥
ولاية الأمير هشام بن عبد الرحمن	٢٩
ولاية الحكم بن هشام الملقب بالروض	٣٠
ولاية هشام المؤيد بن الحكم المستنصر	٣٦
تقلد المظفر بن أبى عامر الوزارة	٤٦
تقلد الناصر بن أبى عامر الوزارة	٤٦
ولاية محمد بن هشام بن عبد الجبار المهدي	٤٦
ظهور الفتنة	٤٧
ولاية سليمان بن الحكم	٤٨
أولية بنى حمود	٤٨
ولاية ابن حمود الناصر	٥٤
ولاية القاسم بن حمود المأمون	٥٤
ولاية يحيى بن على المعتلى	٥٦
رد الأمر إلى بنى أمية	٥٧
ولاية محمد بن عبد الرحمن المستكفى بالله	٥٨
ولاية هشام المعتد بالله	٥٩
ذكر أخبار الأندلس بعد انتقال الدعوة الأموية عنها	٦٣
فصل - عن بنى حمود وطمع بنى عباد فى قرطبة	٦٦

٧٤	فصل - يتضمن ذكر أحوال الأندلس بعد انقطاع الدولة الأموية
٧٥	ملوك الطوائف
٨٧	رجع القول إلى ملوك الطوائف
٨٧	ملوك بني عباد بإشبيلية
٨٩	ولاية المعتضد بالله العبادي
٩٣	أولية المرابطين في مراكش
٩٣	ولاية أبي القاسم بن عباد المعتمد على الله
٩٤	عبد الجليل بن وهبون الشاعر
٩٧	أبو الوليد بن زيدون
١٠٢	أبو بكر بن عمار
١١٥	رجع الحديث عن بني عباد
١١٨	وقعة الزلاقة
١٢٠	بين المعتصم ابن صمادح والمعتمد ابن عباد
١٢٢	نكبة بني عباد
١٣١	أبو بكر الداني
١٣٦	رجع الحديث إلى أخبار المعتمد
١٤٣	فصل - رجع الحديث عن دولة المرابطين بالأندلس
١٤٤	أعيان الكتاب في دولة المرابطين
١٤٥	وزارة ابن عبدون
١٤٩	ولاية أبي الحسن علي بن يوسف بن تاشفين
١٥١	أعيان الكتاب في عهد أبي الحسن
١٥٤	اختلال أحوال المرابطين
	ذكر قيام محمد بن تومرت المتسمى بالمهدي ،
١٥٥	وبدء أمر الموحدين بالمغرب والأندلس
١٦٠	ابن تومرت في حضرة ابن تاشفين

الصفحة	الموضوعات
١٦١	بدء دعوة الموحدين
١٦٢	طبقات الموحدين
١٦٥	الحرب بين المرابطين والموحدين
١٦٦	ذكر ولاية عبد المؤمن
١٦٧	وصية ابن تومرت
١٦٩	فصل - حياة عبد المؤمن وأعماله وعمله
١٧٢	رجع الحديث إلي أخبار عبد المؤمن
١٧٣	نهاية المرابطين وآخر من ولي الأمر منهم
١٧٤	انتصار عبد المؤمن علي منطقتي بجاية وقلعة بنى حماد
١٧٧	فصل - أحوال الأندلس بعد سقوط دولة المرابطين
١٧٩	عبور الموحدين إلي الأندلس
١٨٠	محمد بن حبوس الفاسي الشاعر
١٨١	الأصم المرواني الشاعر ابن الطليق
١٨٣	الرصافي الرفاء الشاعر
١٨٨	وصل الحديث عن عبد المؤمن بن علي
١٨٩	منازل العرب الهلالية في المغرب والأندلس
١٩٢	غزو الموحدين لإفريقية
١٩٢	فتح المهدي واسترجاعها من يد الصقليين
١٩٣	امتداد مملكة الموحدين إلي الشرق
١٩٤	ألوان من شكر النعمة
١٩٧	وفاة عبد المؤمن وعهده لولده
١٩٨	ذكر ولاية أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن وما يتعلق بها
١٩٩	صفة أبي يعقوب
٢٠١	أبو بكر ابن طفيل
٢٠٣	أبو الوليد ابن رشد

الصفحة

الموضوعات

٢٠٤	رجع الحديث عن الأمير أبي يعقوب
٢٠٩	فصل - دخول بني مردنيش في طاعة الموحدين
٢١١	الخارجون علي طاعة الموحدين بالمغرب
٢١٢	صلح ملك صقلية
٢١٢	المصحف العثماني في المغرب
٢١٢	حسن معاملة الموحدين لمن يغلبونهم من الملوك
٢١٣	اتساع الدولة وزيادة الخراج
٢١٥	محاولة أبي يعقوب فتح شنترين ووفاته
٢١٧	عاقبة أبي الحسن الملقى الخطيب
٢١٨	وفاة الأمير أبي يعقوب
٢١٨	ذكر ولاية أبي يوسف يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن
٢٢١	تلخيص التعريف بخبر بيعته
٢٢٢	بنيان مدينة الرباط
٢٢٣	طمع بني غانية في التغلب على إفريقية
٢٢٣	التعريف ببني غانية ودار ملكهم
٢٢٤	محمد بن غانية
٢٢٤	إسحاق بن محمد
٢٢٥	علي بن إسحاق
٢٢٦	استطرد عن انتفاض العرب بإفريقية على الموحدين
٢٢٦	رجع الحديث عن بني غانية في بجاية
٢٢٧	استرجاع بجاية من يد الميورقين
٢٢٨	استرجاع قفصة
٢٢٨	إبراهيم الزويلي الكاتب
٢٢٩	رجع الحديث عن بني غانية
٢٣٠	اختلاف بني عبد المؤمن

الصفحة

الموضوعات

٢٣١	دعوة أبي يوسف إلى الأخذ بالكتاب والسنة
٢٣٢	استرجاع مدينة شلب
٢٣٣	طامع آخر من بنى عبد المؤمن !
٢٣٤	وقعة الأرك
٢٣٥	عزم أبي يوسف على قصد مصر ، ووفاته
٢٣٥	شئ من سيرته
٢٣٨	ممالك الغزّ المصريون في المغرب
٢٣٩	أبو يوسف وعقيدة العامة في ابن تومرت
٢٤٠	اهتمامه بالتشييد والبناء
٢٤١	على بن حزمون الشاعر
٢٤٥	محمد بن عبد ربه الكاتب حفيد صاحب العقد
٢٤٨	أبو جعفر الحميري المؤدب
٢٥١	اليهود في عهد أبي يوسف
٢٥٢	محنة أبي الوليد ابن رشد
٢٥٤	ذكر ولاية أبي عبد الله محمد ابن أبي يوسف أمير المؤمنين
٢٥٥	صلة المؤلف بإبراهيم ابن أبي يوسف
٢٥٦	أولية الوزير أبي سعيد ابن جامع
٢٥٩	أعمال عبد الله ابن أبي يوسف
٢٥٩	دخول الموحدين جزيرة ميورقة
٢٦٠	عبد الرحمن الجزولي الثائر
٢٦٢	فتح جزيرة منرقة
٢٦٣	انتفاض الهدنة بين الموحدين والفرنجية
٢٦٤	أشهر الإمارات الإسبانية في ذلك العهد
٢٦٥	وقعة العقاب وهزيمة المسلمين
٢٦٦	وفاة الناصر محمد

٢٦٩	فاطمي من سلالة ملوك القاهرة ، يثور بمراكش
٢٧٠	ثأثران آخران على أبي يعقوب الثاني
٢٧٥	جامع سيرة المصامدة وأخبارهم وقبائلهم وأحوالهم في ظعنهم وإقامتهم
٢٧٦	ذكر قبائل الموحدين
٢٧٩	صفة أحوالهم في إقامة الجمعة
٢٨١	ذكر أقاليم المغرب والأندلس
٢٨٢	أولاً : المدن العامرة على الساحل
٢٨٣	بلاد إفريقية الساحلية
٢٨٤	شأن مدينة قرطاجة في القديم
٢٨٥	بلاد المغرب الساحلية
٢٨٦	ضيق البحر بين المغرب والأندلس
٢٨٧	ثانياً : البلاد التي ليست على الساحل
٢٨٧	بلاد إفريقية
٢٨٩	طريق السفار من بجاية إلى مراكش
٢٨٩	التعريف بمدينة فاس
٢٩١	ترجمة المؤلف بقلمه
٢٩٢	بلاد السوس الأقصى
٢٩٣	المعادن بجزيرة الأندلس
٢٩٤	ذكر أسماء الأنهار العظام التي بالمغرب
٢٩٥	ذكر جزيرة الأندلس وأسماء مدنها وأنهارها
٢٩٦	البلاد التي تغلب عليها النصارى
٢٩٧	المدن التي بقيت بأيدي المسلمين
٢٩٩	ذكر قرطبة
٣٠١	ذكر إشبيلية
٣٠٣	فصل - أنهار الأندلس الكبار المشهورة

الصفحة

الموضوعات

٣٠٥

الخرائط

٣٣١

المصادر والمراجع العربية والأجنبية

٣٥١

الكشاف العام

٣٧٥

الفهرس

رقم الإيداع ٢٦٠٩ لسنة ١٩٩٤
الترقيم الدولي

I.S.B.N

977 — 5496 — 05 — 5



کتابخانه ملی و اسناد ملی ایران

هذا الكتاب

إن الدراسات التاريخية المغربية من الدراسات الإسلامية الهامة في حياة أمتنا العربية ، وهي صفحة هامة للباحثين والدارسين ، فلهذا أسرعت في تقديم كتاب من كتب الدراسات المغربية هو « المعجب في تلخيص أخبار المغرب » حيث يعتبر هذا الكتاب موسوعة أدبية من الطراز الأول وفي نفس الوقت طرازاً تاريخياً أو موسوعة تاريخية أيضاً . فهذا الكتاب ألقى الضوء على ما يدور في منطقة الشرق والغرب الإسلامي حتى القرن السابع الهجري بشئ من الدقة والتفصيل .

فلهذا يعتبر هذا الكتاب لاغنى عنه لكل دارس وباحث ومحقق مهتم بعلم التاريخ ، حيث برز لنا عبد الواحد المراكشي المؤرخ لعصرى المرابطين والموحدين من شتى النواحي الفكرية والاقتصادية والاجتماعية والسياسية مع براعة الحس في النقد العلمي والأدبي حيث يملك هذا المؤلف قوة العبارات ورصانة الأحداث والأخبار ومدى تعلقه بالدولة الموحدية .

والله ولي التوفيق

الناشر

دار الفرجاني

القاهرة : ٩ ميدان الذهب - منشية البكره - مصر الجديدة
ص.ب. ٢٣٨٢ الحirie تليفون : ٢٩٠٥٨٩٥

